العتبة العباسية المقدسة
المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

سلسلة دراسات استشراقية
8

النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله في مؤلفات مونتجمري وات عن السيرة النبوية دراسة تحليلية مقارنة



تأليف: ماهر جواد كاظم الشمري

سلسلة دراسات استشراقية

النبي محمد ﷺ

في مؤلفات مونتجمري وات

عن السيرة النبوية دراسة تحليلية مقارنة

الشمري، ماهر جواد كاظم، مؤلف
النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : في مؤلفات مونتجمري وات عن السيرة النبوية : دراسة تحليلية مقارنة / تأليف ماهر جواد كاظم الشمري.- الطبعة الاولى.
العتبة العباسية المقدسة-المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ١٤٤٠ هـ. = ٢٠١٩.
٤٣٨ صفحة ؛ ٢٤ سم.-(سلسلة دراسات استشراقيه)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية : صفحة ٣٨٨-٤٣٨
ردمك : 9789922604237
١. محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، نبي الاسلام، 53 قبل الهجرة-١١ هجري. ٢. Watt, W. Montgomery (William Montgomery)--مؤلفات. ٣. السيرة النبوية. أ. العنوان.

LCC : **BP75.2 .S53 2019**
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ

ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ

وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

صدق الله العلي العظيم

سورة الأعراف : آية 158

فهرس المحتويات

المقدمة

نطاق البحث واستعراض المصادر والمراجع

أولاً: نطاق البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الأنام السيد الأمين أبي القاسم محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد:

الروعة والجمال أن نخوض الخوض في معترك الدراسات الاستشراقية، لا سيما تلك التي تناولت سيرة الرسول محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) بالدراسة والنقد والتحليل، لما فيها من فوائد جمّة، فهي توقف القارئ اللبيب على أساليب المستشرقين في تناول القضايا الإسلامية الحساسة وبالذات سيرة الرسول محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) في كل محطاتها، وترسم لنا كيفيّة اعتمادهم على مناهجَ علميّةٍ منقوصةٍ، وهي بذلك تكشف عن أساليب ووسائل علميّةٍ مقصودةٍ كان الغرضُ منها تزييف مسار الحقيقة العلمية التاريخية وتزويرها وحجبها عن شعوب المنطقة وشعوبهم. ذلك المنهج الذي انبنى بشكلٍ أساسيٍّ على دراسة الشرق في طريقة ونمط تفكيره ومعيشته ودياناته المختلفة خاصة الديانة الإسلاميّة. وجسدت الدراسة تطرف كثيرٍ من الغربيين في اعتماد المنهج المادي والبيئي في تفسير حوادث التاريخ بعيداً عن تأثير السماء، والذي يكون ربما ردّة فعلٍ لهيمنة وسطوة الكنيسة على المجتمع الأوروبي واحتكارها تفسير النص الديني والتاريخي.

لقد تضمنت دراسات المستشرقين اعتمادهم على رواياتٍ إسلاميّةٍ متهافتةٍ لا يعَوّل عليها عند جمهور المسلمين، لما فيها من إساءةٍ واضحةٍ للرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) وأهل بيته. ولقد اختلفت دوافع المستشرقين في ذلك

فتراوحت بحسب المدارس الاستشراقية بين الدوافع العلميّة والدينيّة والدوافع السياسية والاستعمارية، حيث ساهمت بمجموعها في تشكيل صورةٍ غير حقيقيّةٍ وغير منصفةٍ للرسول ﷺ، وبشكلٍ أو بآخر في التوجيهات الدينية والسياسية في إطارٍ يطمح إليه الغرب في صراعه الأيديولوجي مع الإسلام، وتجلى ذلك واضحاً بعد نجاح الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في تأسيس دولته، وتحويل العرب من مجرّد قومٍ يسكنون الصحراء إلى قوّةٍ عربيّةٍ إسلاميّةٍ فاعلةٍ على مستوى التأريخ ظهر ذلك على سبيل المثال لا الحصر من خلال تغلبهم على أقوى دولتين؛ هما الدولة البيزنطية والساسانية، وإيصال الإسلام إلى المشرق والمغرب وتأسيس دولةٍ عربيّةٍ إسلاميّةٍ في الأندلس، ووصول الدولة العثمانية أيام سليمان القانوني[1] إلى أسوار فيينا[2]؛ ما أشعر الغرب بالخطر السياسي والفكري، فتسارعوا إلى تأسيس مدارس أخذت على عاتقها دراسة الفكر والتراث والتاريخ العربي والإسلامي، تمهيداً لإيجاد نقاط ضعف وثغرات (حسب تفسيرهم) للرد على العرب والمسلمين، ومجابهة قوتهم المتنامية فكريًّا وثقافيًّا، ومحاولة إيقاف عجلة التقدم والتوسع والانتشار الذي شمل العالم أجمع.

اختلفت كتابات المستشرقين بين الإنصاف والتجنّي وهو نتيجة التفسير والفهم المختلف للحدث التاريخي وانعكاساته، فبعضهم أنصف وبعضهم حاول ليّ ذراع الحقيقة معتمداً في ذلك على إيمانه المتطرف ومتكئاً على الروايات الإسلامية الضعيفة التي تُحقّق مراده رغم أنّ الأسس التوحيديّة لكلّ الديانات السماويّة واحدة لكونها تعود إلى مصدرٍ واحدٍ وتدعو لإلهٍ واحدٍ، وقد ورد دليل ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3].

1- سليمان القانوني: هو سليمان بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، (1494م – 1566م)، أشهر سلاطين الدولة العثمانية (1520م – 1566م) بلغت الدولة في زمانه أقصى اتساع في أوروبا حاصر فيينا، ولقب بالقانوني لجلوسه مع أبرز علماء المسلمين ووضع معهم قانون الدولة العثمانية مستمدا من الشريعة الإسلامية وطبقها بكل صرامة. ينظر: الترباني، جهاد، مائة من عظماء الإسلام غيروا مجرى التاريخ، 60 – 63.

2- فيينا: عاصمة النمسا تقع في قارة أوروبا، اسمها يعني الهواء الجميل أو النسيم. ينظر: جاد الرب، حسام، جغرافية أوروبا الجديدة دراسة إقليمية، 26.

3- سورة النساء: الآيات 163 - 165.

إنّ سيرة العظماء وأعظمها سيرة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) تُعتبر حافزاً كبيراً ومنهجاً قوياً يسير عليه طلاب العلم وينهجون به الصراط المستقيم، حيث تعدّ دراسة سيرة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) جزءًا من العبادة التي يتقرب بها العبد إلى ربّه، لأنّ حياة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بذلٌ وعطاءٌ وصبرٌ وجدٌّ واجتهادٌ ودأبٌ في تحقيق العبودية إلى الله. ولهذا احتلت السيرة النبويّة مركز الصدارة في الدراسات التاريخيّة والإسلاميّة كونها مرحلة انبعاث النور والسلام والإنسانيّة والتشريع من أشرف بقاع الأرض وهو بيت الله الحرام إلى العالم كافة.

ولمكانة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ودوره البارز في أصقاع المعمورة، اهتم المسلمون الأوائل بتدوين سيرته العطرة منذ الولادة مروراً بكلّ مراحل حياته، وتركيزاً على مرحلة البعثة النبوية بدوريها المكي والمدني، وبعد ذلك تزايد اهتمام الباحثين في إشباع السيرة النبوية بالدراسة والبحث بعناوين شتّى، وشاركهم بهذا الاهتمام عددٌ كبيرٌ من المستشرقين المنتمين إلى مدارس كثيرة ومختلفة بالبحث والتدقيق؛ رغبة منهم لمعرفة سرّ عظمة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وسموّ خلقه وسرعة انتشار دينة القويم.

نظراً لأهمية الدراسات الاستشراقية وأبعادها الدينية والسياسية والفكرية، كان لا بد لنا من إعادة النظر في دراسة المستشرقين للتاريخ الإسلامي، ولا سيما التي تبلورت واهتمت بدراسة شخصية النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وسيرته الغراء؛ لكشف الملابسات وإماطة اللثام عن الكثير من الطروحات الخطيرة والمكذوبة على النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم). ولعلّ في مقدمتها مؤلفات مونتجمري وات.

اقتصر الباحث في دراسته هذه على ثلاثة مؤلفات لمونتجمري وات اختصت بالنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وهي: (محمد في مكة، ومحمد في المدينة، ومحمد النبي ورجل الدولة)، وهي أول مؤلفات وات، ولكونها ضخمةً وجامعةً وشاملةً نوعاً ما لسيرة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فقد احتوت بين أوراقها معلومات شتّى وآراء متعدّدة تستحق الدراسة والردّ عليها، ولم نقف على باقي مؤلفاته لكونها أعطت عنه صورةً مختصرةً واحتوت على آراءٍ مشتّتةٍ ومكرّرةٍ، وتناولت الأفكار عن السيرة النبوية والقرآن بشكلٍ جزئيٍّ، جاء بعضها في العقيدة الإسلامية وانتشار الإسلام وأخرى في التاريخ. لذا وجدنا من المناسب الاعتماد على الكتب المذكورة أنفاً كمادةٍ لدراستنا، والتي امتازت بكونها أكثر

شموليّةً من أغلب المؤلفات الاستشراقية التي تناولت سيرة الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالدراسة والتحليل، ولاحتوائها على آراءٍ فيها كثيرٌ من التجنّي على أفضل البشريّة الرسول الكريم (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، ولأننا لم نقف على دراسةٍ أكاديميّةٍ مستقلّةٍ تناولت الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في ضوء مؤلفات وات، سوى تلك التي قامت بمقارنة آرائه مع مستشرقين آخرين، ونذكر منها: "الاستشراق في السيرة النبوية (دراسة تحليلية لآراء وات وبروكلمان وفلهاوزن)" رسالة ماجستير محمد عبد الله النعيم جامعة الخرطوم المعهد العالي للفكر الإسلامي 1994م، و "السيرة النبوية في فكر مونتجمري وات وكارين آرمسترونج دراسة تحليلية تقويمية" رسالة ماجستير رائد محمد عبد الوهاب أبو ريه جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بطنطا. لذا تم اختيار هذا الموضوع، والموسوم ب: (صورة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في مؤلفات المستشرق مونتجمري وات دراسة تحليلية مقارنة) بعد التشاور مع الأستاذ المشرف أ.د عادل إسماعيل خليل.

والجدير بالذكر أنّ السيرة النبوية تعني مجموعة الأفكار التي طرحها وات في مؤلفاته عن الرسول الكريم محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) سواءً أكانت إيجابيّةً أم سلبية، وهي شاملةٌ لحقبةٍ زمنيّةٍ امتدّت بين (570 – 632م) أي مدّة حياة الرسول ﷺ من ولادته إلى وفاته.

اقتضت منهجيّة الأطروحة أن توزع إلى مقدمةٍ وخمسة فصول فضلاً عن خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وجاءت الدراسة متفاوتةً في عدد صفحات الفصول حسب ما اقتضته متطلبات كلّ فصلٍ أو مبحثٍ. فتناولنا في الفصل الأول والذي وسمناه ب: (الاستشراق في لمحةٍ تاريخيّةٍ) وتم التعرف فيه على الاستشراق في اللغة والاصطلاح، ومراحل نشأة الاستشراق والدوافع التي تقف وراءه، وقدّمنا فيه نبذةً مختصرةً عن أبرز أعلام مدرسة الاستشراق البريطاني ودورهم، ثم بيّنا سيرة حياة المستشرق البريطاني مونتجمري وات ونشأته من الولادة حتى الوفاة مروراً بمراحل تعليمه الأكاديمي والعقائدي في الكنيسة، والمناصب الإدارية التي شغلها، مع دوره الأكاديمي ومؤلفاته، ثم أوضحنا موارده ومنهجه في كتابة السيرة النبوية.

أما الفصل الثاني فكان تحت عنوان: (حياة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قبل البعثة في مؤلفات وات) فقد كُرس لدراسة سيرة الرسول محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) حسب التاريخ الزمني لحياته وما قدمه المستشرق وات من آراءٍ نوافقه الرأي في بعضها

ونخالفه في البعض الآخر. وبدأنا باسم النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ونسبه الشريف، ثم ذكرنا أسرته وموقف وات من بني هاشم، وكان لمرحلة الطفولة نصيبٌ في البحث من الولادة ومروراً بالرضاعة وما حدث له من شق الصدر، وبيّنا عمله في التجارة، وتناولنا حياة النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) واقترانه بالسيدة خديجةعليها السلام برابطة الزواج ومواقفها معه قبل البعثة وبعدها، مبينين دور النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في الحياة العامة على الرغم من صغر سنّه، واشتراكه بحرب الفجّار مع أعمامه، وحضوره حلف الفضول، وتقديم الحل في فض النزاع بين القريشيين برفع الحجر الأسود، ومشاركته في بناء الكعبة المشرفة (بيت الله الحرام).

أما الفصل الثالث فقد وسمناه ب: (دعوة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في مكة)؛ إذ سلط الأضواء على دور النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في أهم المراحل التي مرّت بها الدعوة الإسلاميّة بشقيها السري والعلني فشهدت بزوغ نور الإسلام ودحر الشرك والوثنية، ابتداءً من مرحلة إعداد النبي محمدصلى الله عليه وآله لتحمل عبء النبوة في العزلة والتحنث بغار حراء وما قيل من آراءٍ في تلك العزلة. ومن المسائل البارزة التي سلطنا عليها الضوء في هذا الفصل وكان لها نصيبٌ في التحليل والاستنتاج، هي مسألة أميّة النبي محمدصلى الله عليه وآله، أم أنه كان يقرأ ويكتب أسوة بأقرانه من الأنبياء الذين سبقوه، وتناولنا أهم مواضيع إثبات النبوة المتمثل بنزول الوحي على النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وتبليغه بشريعة السماء التي حاول وات إنكارها، كذلك شبهة الآيات المعترض عليها والتي تعرف بالآيات الشيطانية التي يؤيدها وات، كما أضاء هذا الفصل على حزمةٍ من الحوادث التي رافقت الدعوة في العهد المكي ابتداءً من المعارضة التي تزعمها عددٌ كبيرٌ من أسياد قريش وموقف وات منها، أيضاً تم التطرق إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة وكيف اعتبر أنّها بدافعٍ ماديٍّ، وحصار قريش للمسلمين في شعب أبي طالب الذي انتهى بمعجزةٍ أخبر بها الله النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كعلامةٍ لمشركي قريش حتى يؤمنوا بنبوته لكنّ وات تجاهلها، وكذلك تمت الإشارة إلى خروج النبي إلى الطائف لتصدير الدعوة الإسلامية خارج مكة على الرغم من عدم تقبل زعماء الطائف لها فقد سعى إلى عقد بيعة العقبة مع الأوس والخزرج لنشر الدين الإسلامي في يثرب التي صارت في ما بعد مدينة رسول اللهصلى الله عليه وآله ومقراً لحكومته.

وبينّا في الفصل الرابع والذي عنوناه بـ: (دعوة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)

في المدينة: الجوانب السياسيّة والعسكريّة) المرحلة الانتقالية بين العهد المكيّ والمدني، لكونها أهمّ المراحل في تاريخ الدعوة الإسلامية، إذ إنّها نقلت الدعوة من طابع الضيق والمواجهة المباشرة مع أنصار الدين الجديد في مكة، إلى طابع الدولة المدنية، وتبلور مؤسساتها الإدارية، وابتدأ الفصل بالهجرة إلى يثرب التي أصبحت المدينة المنورة بعد أن وطأتها أقدام الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وقام ببناء المسجد النبوي الشريف الذي أصبح علامةً مميّزةً لنشأة المدينة الإسلاميّة، ثم تبعه وثيقة المدينة وهي الدستور الذي كتبه النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وبيّن فيه علاقة المسلمين مع سكان المدينة وما لهم من واجباتٍ وما عليهم من حقوق وحدد العلاقة بين المسلمين مع بعضهم البعض، وكذلك علاقة النبي محمد (صلى اللهُ عليه وآلهِ وسلّم) مع اليهود من بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، وإبرام الموادعة معهم إلاَّ أنهم أنكروا ذلك وأنزل بهم العقاب، ولتوسيع دائرة الإسلام اتصل النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالقبائل العربية التي حجّمها وات بالجهة الشمالية والتي كانت في الواقع تشمل الجهات جميعها في شبه الجزيرة العربية، وتوسيع الدور الذي اضطلع به النبيﷺ إلى أوسع من ذلك فبعث الرسل إلى ملوك الدول لإعلامهم بدين الإسلام ونشره، وبعد أن أصبح الإسلام قوّةً سياسيّةً ودينيّةً في شبه الجزيرة العربية جاءت الوفود معلنةً إسلامها طواعيةً. هذا ما دفع وات إلى التشكيك به وتحجيم دوره، ثم أخذ وات يرسم صورةً مسيئةً للنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم إذ صوره بصورة الغازي المعتدي على الآخرين، وخلط بين فكرة الغزو عند العرب قبل الإسلام، وفكرة الجهاد في سبيل الله التي دعا إليها الإسلام، وبالتأكيد فإنّ هناك فرقاً كبيراً بين الفكرتين، التي يمكن لأيّ منّصفٍ الفرز والتفريق بينهما، فكيف بك مع مفكّرٍ ومؤرّخ ينتهج هذا النهج، إلاَّ إذا كان بعيداً عن الانصاف قاصداً الإساءة لشخص الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، بعيداً عن الصفات التي ينبغي على المؤرخ أن يتصف بها، نافثاً سمومه بلسان قلمه التي اِستخدمها انتصاراً منه لعقيدته وتوجهه.

أما الفصل الخامس والذي ثبتناه بعنوان: (دعوة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في المدينة الجوانب الاجتماعية والتشريعية) فقد اختص بالأعمال التي قام بها النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بعد وصوله المدينة، وفي مقدمتها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ليتكفل بمعيشة ومؤانسة المهاجرين، ويخفّف عنهم هموم الفقر والغربة، إذ جعل بموجبها أخوّة الدين بدل أخوّة الدم. أمّا زيجات النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) المتعددة

فقد وقف منها وات بحياديّةٍ وفسرها بدافعٍ واحدٍ سياسيٍّ لكي يصور النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بصورة رجل السياسة الذي لا يهمه سوى تحقيق طموحاته السياسية متجاهلاً الدوافع الأخرى سواءً الإنسانية منها أو الدينيّة أو الاجتماعية أو غيرها. ثم تطرق وات إلى الفترة الأخيرة من حياة النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وإنتهاء مهام النبوة وهي مرحلةٌ ليست بالبسيطة ولا تغيب عن حسابات النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) إلا أن وات تجاهل جوانب عدّةً منها. وهنالك الكثير من الصفات الخلقية والأخلاقية للنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) تناول وات قسماً منها بحياديّةٍ وأخرى بالطعن وغضّ الطرف عن الكثير منها. وفي إطار المكانة السامية للقرآن الكريم عند المسلمين حيث يمثّل مصدر التشريع الأول الذي لا يتخلّله النقص، شكك وات فيه وعدّه من صنع النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وشكك في جمعه لكي يبيّن الزيف في بعض سورهِ وآياته.

اعترضت طريق الباحث بعض المتاعب، تمثلت في صعوبة تقصّي المعلومات التي أوردها وات في مؤلفاته والتي اتّصف أغلبها بالغرابة والتجني، ومقارنتها مع المصادر الإسلامية التي وجدنا أن كثيراً منها كانت مساعدةً لأفكار وات، ويعزى سبب ذلك إلى تسرّب الاسرائيليات والخرافات إلى التراث الإسلامي، ناهيك عن الوضع والكذب والزيف والإساءة لسيرة الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ، لذلك فإنّ من الصعوبة بمكانٍ أن نصل إلى الاستنتاج الذي نريده ونتوخاه، وصعوبة تقصي النصوص والحقائق التاريخية من بين السطور ومحاولة الوصول إليها، والأصعب من ذلك التحرّي عن موارد وات في الرواية التاريخية كونه لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في نقل الخبر وكأنّه يرجع إلى عصر الأخباريين والمؤرخين الأوائل، أيضاً وقع الباحث أحياناً في الحَيْرَة من الأمر من بعض أحداث السيرة التي يصعب الجزم بها لوجود خلافٍ كبيرٍ بين الآراء عند الباحثين حيث إنّهم يستندون على المصادر المعتمدة، وأحياناً المصدر نفسه يعطي عدّة روايات للحادثة بنصوص مختلفة، كذلك الوصول للمفيد من المعلومات والجهود المبذولة لتذليل الصعوبات كانت من عوامل وصول البحث إلى المستوى الموجود بين أيدي القارئ الكريم.

ثانياً: استعراض لأهم المصادر والمراجع:

اعتمدت الدراسة على عدد كبيرٍ من المصادر والتي وضعت بالتسلسل حسب تصنيف العلوم وأهميتها على النحو الآتي:

أولاً - الكتب السماوية: اعتمدت الدراسة على الكتب السماويّة المقدّسة في كثير من صفحاتها وحسب الآتي:

1- القرآن الكريم:

كتاب الله الخالد الذي يُعد المصدر الأول للتشريع وقد أشار إلى حياة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من الولادة مروراً بالطفولة وبداية نزول الوحي وتلاوة آياته ليبيّن تعاليم الإسلام وما للمسلمين من حقوق وما عليهم من واجبات، أضف إلى ذلك أنّ القرآن الكريم يبيّن العلاقة بين المسلمين مع بعضهم البعض ومع الموحدين والمشركين، إذ تم اعتماد القرآن الكريم ميزاناً للفصل بين المختلف من الروايات، وأيضاً لبيان مدى التطابق والاختلاف بين ما جاء به القرآن وما ذكره وات خاصة وأنه قد أشار إلى اعتماده القرآن الكريم كمصدرٍ من مصادر دراسته، وتم الاعتماد على عددٍ كبيرٍ من الآيات القرآنيّة في جميع فصول الأطروحةٍ والمباحث، إذ عولنا على ختم الفقرة بنصٍ من القرآن وبما يتلاءم مع طبيعة الحدث التاريخي في سيرة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم).

2 - الكتاب المقدس (التوراة):

وهو من الكتب السماوية لليهود، ذو طابع سردي يتناول القصص، وهو محرّفٌ من قبل أحبار اليهود عندما قاموا بتدوينه بأيديهم، إلاّ أنّ الفائدة منه في هذا البحث تكمن في بيان تعاليم ديانة اليهود بالصوم ومقارنته بالصوم عند المسلمين لبيان أوجه الاختلاف بينهما فضلاً عن أن مصدر الوحي واحدٌ، وكذلك لتوضيح الحكم على اليهود في حالة الخيانة والخروج على السلطة وما يحلّ بهم في حالة وقوعهم بالغلبة وهذا ما يشار به إلى بني النضير في سفر التثنية.

ثانياً - كتب الحديث:

أمّا كتب الحديث التي لا غنى للباحث عنها فقد أفادت الدراسة كثيراً في جميع فصول الأطروحة لما قدمته من معلومات وافيةٍ بما قاله الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عن سيرته بما فيها الرضاعة ببني سعد، والرد على ادعاء المشركين بأنّ مصير جدّه عبد المطلب وأبيه عبدالله وأمه آمنة إلى النار، حيث بيّنت لنا دورهم بالتوحيد والإيمان بالله، وكذلك بيّنت لنا حكم نشر الدعوة سلمياً وإبطال الزعم بنشرها بحدّ السيف، وبيّنت لنا أحكام وتفاصيل شريعة الإسلام، فهي المصدر الثاني للتشريع فضلاً عمّا احتوته من مادة تاريخيّةٍ مهمّةٍ، وعلاقة النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالصحابة وأهله الطاهرين وكذلك مع أعداء المسلمين، ومن هذه الكتب: مسند أبي داود الطيالسي لمؤلفه أبو داود سليمان بن داود الطيالسي (ت 204هـ/ 819م)، ومسند أحمد للإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ/ 855 م)، وكتاب سنن ابن ماجة لمؤلفه محمد بن يزيد القزويني (ت 273هـ/ 886م)، وصحيح ابن خزيمة لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت 311هـ/ 923م)، وكتاب المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله الملقب بالحاكم النيسابوري (ت 405هـ/ 1014م). كما تجدر الإشارة إلى أنّ بعض الأحاديث يوجد فيها اتّفاقٌ واختلافٌ مع كتب السيرة والتاريخ عن حياة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ويرجع ذلك إلى سند الرواية والنص.

ثالثاً – كتب السيرة النبوية:

تعد كتب السيرة من أهم المصادر التي اعتمد عليها الباحث في استقاء معلوماته ومقارنتها مع ما قالهُ وات، وتكاد تكون متوافقةً في ما بينها وبين المعلومات التاريخية التي وردت عن الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، كون أكثر المؤلفين قد اعتمد على كتابات أسلافه من أهل العلم كما فعل ذلك ابن هشام (ت 218هـ/ 833م) في كتابه السيرة النبوية الذي هذبه عن كتاب السيرة النبوية لابن إسحاق (ت 151هـ/ 678م)، وكذلك كتاب السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لمؤلفه محمد بن حبان البستي (ت 354هـ/ 965م)، وكتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لمحمد بن محمد بن سيد الناس (ت 734هـ/ 1333م)، علماً أنّها أهملت حقبةً زمنيّةً مهمّةً من حياة الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وهي مرحلة الطفولة ومرحلة الشباب، كذلك لم تعالج مسألة الوحي بحيثيّة. ومن مساوئها تناولها بعض الروايات الموضوعة بحق سيرة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) متمثلةً بكثرة

الغزوات والسرايا التي تعترض طريق قوافل قريش، علماً أن النبي لم يكن قاطع طرق[1]، بل كانت اجراءات عسكريّةً لنشر الإسلام والقضاء على قوة المشركين، وكذلك وضعها محاولات اغتيال قام بها النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) أو حرّض عليها مثل قتل سلام بن مشكم وعصماء، فلم يكن النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) يوماً مغتالاً قط بل مشروعه لإنقاذ الناس من الضلالة والكفر لا لأجل الاغتيال والسلب.

رابعاً - كتب التفسير:

سلطت كتب التفسير الأضواء على جوانب كثيرةٍ ومهمّةٍ على ما جاء به القرآن الكريم من معلوماتٍ عن حياة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) وزوجاته والجوانب الدينيّة والفقهيّة، ودور الصحابة في سيرة الرسول وفي المغازي والسرايا، فضلاً عن ذلك فقد اطلعنا فيها على تفسير جميع الآيات التي وظفت في الأطروحة، ومن تلك التفاسير: تفسير القرآن الكريم للحسين بن مسعود البغوي (ت 510هـ/ 1116م)، وكذلك الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت 538هـ/ 1143م) وكتاب مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر الرازي (ت 606هـ/ 1209م)، وكتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل لعبد الله بن عمر البيضاوي (ت 685هـ/ 1276م).

خامساً - كتب التاريخ العام:

ضمت كُتُبُ التاريخ بين طيّاتها معلومات وفيرةً عن النبي محمد في جوانب مهمّةٍ من حياته، وقد تم الاستناد عليها بشكلٍ كبيرٍ في متون الدراسة لا سيما في استخراج المعلومات من الأخبار والأقوال والنصوص المهمّة عن بدء الدعوة ومعارضة المشركين، وما جرى لبعض الصحابة من حوادث، ومنها كتاب المحبر والمنمق في أخبار قريش، لمحمد بن حبيب البغدادي (ت 245هـ/ 859م)، وكتاب تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري (ت 310هـ/ 925م) وقد امتاز بإيراد أكثر من روايةٍ للحادثة التاريخية من دون ترجيح إحداها؛ لأنه قال في مقدمة كتابه بأنه يترك الحكم للقارئ، وكتاب البداية والنهاية في التاريخ لإسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774هـ/ 1372م).

1- مقابلة شخصيّة مع أ.د جواد كاظم منشد النصر الله، أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة البصرة، كلية الآداب، في 1/ 2/ 2018م.

سادساً - كتب التراجم والطبقات:

شكلت كتب التراجم والطبقات بأجمعها مصادرَ مهمّةً لمعرفة بعض الحوادث عن السيرة النبوية، وترجمةً لكثيرٍ من الشخصيّات التي تم تناولها في الأطروحة ومن بينها كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (ت 230هـ/ 844م)، وكتاب الطبقات لخليفة بن خياط (ت 240هـ/ 854م)، كما جرت الاستعانة بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ليوسف بن عبد البر القرطبي (ت 463هـ/ 1070م)، وكتاب الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ/ 1448م). التي أوضحت دور أولئك الصحابة في اعتناق الدعوة والتضحية في سبيلها.

سابعاً - كتب اللغة والمعاجم اللغوية:

كان للمعاجم وكتب اللغة إسهاماتٌ كبيرةٌ في إثراء الأطروحة، فقد أفادتنا في بيان اشتقاق ومعاني الاصطلاحات للصُورَة والجهاد والغزو والوحي والقرآن وبيان معاني بعض المصطلحات اللغوية في الأطروحة، ومن أبرز هذه الكتب كتاب العين للخليل بن أحمد لفراهيدي (170هـ/ 786م)، وكتاب لسان العرب المحيط لعمر بن مكرم بن منظور (711هـ/ 1414م)، وكتاب تاج العروس في جواهر القاموس لمحمد بن محمد الزبيدي (1205هـ/ 1790م).

ثامناً - كتب البلدان:

أفادت كتب البلدان الجغرافية الدراسة إفادةً عظيمةً في معرفة مكان المدن أو القرى التي ورد ذكرها في الأطروحة، منها كتاب صفة جزيرة العرب لأبو محمد الحسن بن الحائك (334هـ/ 945م)، ومعجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي (626هـ/ 1228م).

تاسعاً - المراجع الحديثة:

كان للمراجع الحديثة دورها المتميز في تقديم معلومات وافيَة لهذه الدراسة خصوصاً في الفصل الأول وذلك بتحديد تعاريف الاستشراق وسماته والدوافع التي تقف وراء المستشرقين في دراسة تاريخ وعقائد الإسلام وحضارته وسيرة نبيه الكريم محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، وأخرى لترجيح بعض الروايات عن غيرها، وأحياناً في تحليل

النصوص، ومن أهمّ هذه المراجع كتاب افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها، ليحيى مراد، وكتاب المستشرقون لنجيب العقيقي، وموسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، وكتاب الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، لمصطفى السباعي، وكتاب الشخصيّة المحمّديّة لمعروف غني الرصافي (1365هـ/ 1945م)، والرحيق المختوم تأليف صفي الرحمن المباركفوري (ت 1427هـ/ 2006م) وكتاب فقه السيرة النبوية لمحمد سعيد رمضان البوطي (1433هـ/ ت 2012م)، والسيرة النبوية برواية أهل البيت لعلي الكوراني.

وأخيراً، إنّ هذه الدراسة ماهي إلا محاولة بسيطة للدفاع عن النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من خلال الرد على مزاعم المستشرقين وكتاباتهم في رسم صورة النبي محمد بأبهى معالمها كما أرادها الله، فإن أحسنت فمن الله التوفيق وإنْ أخطأت فمن نفسي وأسأل الله المغفرة والرضوان إنّه على ما يشاء قدير.

ومن الله التوفيق

الباحث

الفصل الأول

الاستشراق في لمحة تاريخيّة

الفصل الأول: الاستشراق في لمحة تاريخيّة

المبحث الأول: الاستشراق لغة واصطلاحاً

المبحث الثاني: نشأة الاستشراق

المبحث الثالث: دوافع الاستشراق (الدينيّة، النفسيّة، التاريخيّة، الاستعماريّة، الاقتصاديّة، العلميّة).

المبحث الرابع: مدرسة الاستشراق البريطاني

سمات الاستشراق البريطاني

المستشرقون البريطانيون الذين كتبوا في السيرة

المبحث الخامس: مونتجمري وات وحياته وإسهاماته

أولاً - أعمال وات

ثانياً - مؤلفات وات

منهج وات في دراسة السيرة

موارده في كتابة السيرة

1 المبحث الأول

الاستشراق لغة:

الاستشراق كلمةٌ مشتقّةٌ من شرق، وهي الجهة التي تشرق منها الشمس، ويقال شرقت الشمس شرقاً وشروقاً أي طلعت الشمس، وشرق بمعنى طولع[1].

وكلمة شرق أضيفت لها ثلاث حروفٍ وهي الألف والسين والتاء وأصبحت استشراق ومعناها طلب علوم الشرق وآدابه ولغاته وأديانه[2]، ومصطلح الاستشراق والمستشرقين مصطلح ابتكرته أو ابتدعته العقلية العربية في أواخر القرن التاسع عشر أو خلال أوائل القرن العشرين، وقد يبدو متضارباً ومتناقضاً للحقيقة التي عبرت عنها المعاجم اللغوية البريطانية القديمة[3]. والمقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي، وإنما مقترن بمعنى الشروق الضياء والنور والهداية، بعكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء، ومن خلال المعاجم اللغوية الأوروبية تعني كلمة الشرق (orientalism) واسم الفاعل (orienlalist) وهما مصطلحان يشير مدلولهما إلى منطقة الشرق، فضلاً عن أنّه يعني المعرفة باللغات الشرقية والأدب الشرقي[4]، وفي اللغة الألمانية، إذ يبتعد عن الدلالة الجغرافية والفلكية، بل يتميز بطابعٍ معنويٍّ وهو (morgenland) وتعني بلاد الصباح، والمعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، في مقابل ذلك في اللغة نفسها كلمة (abendland) وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة[5].

أما في اللغة اللاتينية تعني كلمة (orient) يستمر أو يوجه في طلب العلم والمعرفة والإرشاد والتوجيه، أو يبحث عن شيءٍ ما، وبالفرنسية (orinter) وجه أو هدى أو أرشد،

1-ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 3/ 173؛ ابراهيم، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، 470.

2-عبد الحميد، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، 2/ 1192، زقزوق، محمود، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 18.

3-اكسفورد، قاموس اكسفورد الحديث، 525.

4-ناجي، عبد الجبار، الاستشراق في التاريخ، 64.

5-الشاهد، محمد، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، مجلة الاجتهاد، 196 – 197.

وبالإنجليزية تعني كلمة (oriental) أسلوب في المتابعة أو صفة شرقية مميزة أو خاصة، وكذلك يُعنى بها مجموعة خصائص أو صيغ أو أساليب في التفكير أو أنماط وبصيغة الجمع (orientalisms) فيكون معناها سمة مميزة أو ميزة خاصة، أو هو الشخص الذي يمتلك حذاقة أو براعة، ولمحاولة الموازنة بين الفهم الإنجليزي لهذه المصطلحات وبين الفهم الفرنسي تمّت مراجعة القاموس الفرنسي؛ فاتضح أن مصطلح (orientalist) يشير إلى الجغرافية أي إلى (orient) الشرق[1] بمعنى (aufgehend) أراضي الشرق[2]، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم المشرق الذي اهتم بالعالم الشرقي بشكل خاص.

أما اصطلاحاً:

فإن الاستشراق: يعني دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وعلومه وعاداته ومعتقداته، وأساطيره[3]، وعُرف كذلك بأنّه: مجموعة الدراسات المنهجيّة والعلميّة التي اهتمت بالتراث الشرقي قاطبة، وكان بعض هذه الدراسات محايداً حيث اتّخذ جانب الإنصاف والعدل في إبراز مزايا ذلك التراث من دون طعنٍ أو تعصبٍ منهجيٍّ أو عرقيٍّ، والآخر كان مجانباً للحقيقة إذ حاول أن يبرز جميع المظاهر السلبية والمثالب لأغراضٍ سياسيّةٍ أو دينيّةٍ أو اجتماعيّةٍ أو ثقافيّةٍ[4].

ومن الغربيين الذين تناولوا ظهور الاستشراق وتعريفه المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون[5] الذي أشار إلى أنّ ظهور مصطلح (oriental) مستشرق كان في إنجلترا عام 1779م، وكلمة (orientaliste) في فرنسا عام 1799م، وأدرجت كلمة (orientalisme) الاستشراق في قاموس الفرنسية عام 1838م، وأخذت فكرة إيجاد فرعٍ متخصّصٍ من فروع المعرفة لدراسة الشرق تلقى المزيد من التأييد ولم يكن هنالك في ذلك الوقت أخصائيون بأعدادٍ تكفي لتأسيس مجلات أو جمعيات تهتم حصراً ببلدٍ واحدٍ وبشعبٍ واحدٍ أو منطقةٍ واحدةٍ

1- (le dictinnaire d Antoine fureliere 0 paris 1978 tome 2، article (ori نقلاً عن عبد الجبار ناجي، الاستشراق في التاريخ، 66.

2-ناجي، الاستشراق في التاريخ، 65 - 66.

3-الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، 512.

4- فؤاد، عبد المنعم، من افتراءات المستشرقين على أصول العقيدة في الإسلام، 16.

5-مكسيم رودنسون: (1915 – 2004م) مستشرقٌ فرنسيٌّ، ومؤرخٌ وعالمُ اجتماعٍ، اهتم بالدراسات الشرقية، عمل مدير مدرسة الدراسات العليا بباريس، ركز في أبحاثه على الجانب الاقتصادي في الإسلام وله كتاب (جاذبية الإسلام)؛ العقيقي، المستشرقون، 1/ 359.

في الشرق، ويضيف أنّ الحاجة كانت ماسةً لوجود متخصّصٍ للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلميّة[1].

ولقد عرّف الدكتور عبد الجبار ناجي[2] المستشرقين بأنّهم:))جماعةٌ من المؤرخين والكُتّاب الأجانب الذين خصّصوا جزءًا كبيراً من حياتهم في دراسة وتتبع المواضيع التراثيّة والتاريخيّة والدينيّة والاجتماعيّة للشرق الإسلامي، فصار من الضروري عليهم أن يتعلّموا اللغات الأصليّة لهذا الجزء من العالم، فانكبّوا على تعلم اللغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة، ولغات أخرى)).

والمستشرقون اسمٌ واسعٌ يشمل طوائف متعدّدة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بكلٍّ من دول الهند وإيران وتركيا والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق[3].

ويعتمد المستشرق الإنجليزي آربري[4] تعريف قاموس أكسفورد الذي يعرف المستشرق (Orientalist) ((من تبحر في لغات الشرق وآدابه))[5].

على ضوء ما تقدم، يتّضح لنا مفهوم الاستشراق والمستشرقين بشكلٍ ميسّر، وهذا ما ينصرف إليه ذهن الإنسان العربي، وهو الشائع أيضاً عند المهتمين بدراسة الاستشراق.

1-رودنسون، العالم الإسلامي في أوروبا، 37 – 38.

2- تطور الاستشراق، 23.

3-سيد قطب، المستشرقون والإسلام، 13.

4- آربري: آرثر جون آربري (1905 – 1969) هو مستشرقٌ بريطانيٌّ اهتم بالتصوف الإسلامي والأدب الفارسي واللغة العربية، ألف كتاب مزامير فارسية وزنبقة سيناء، وترجم عدداً من الكتب، درس في كلية الآداب جامعة القاهرة. ينظر : بدوي، موسوعة المستشرقين، 5 – 7.

5-أ.ج، آربري، المستشرقون البريطانيون، 8.

المبحث الثاني

نشأة الاستشراق

منذ أن التقى الغرب بالشرق بدأ يتساءل عن شعوب الشرق وينظر إليه بعين الحسد عما وصل إليه من تقدّمٍ وما يمتلكه من إرثٍ حضاريٍّ ثمين، ويتساءل أيضاً عن أسباب هذا التقدم والتفوق على الشعوب الغربية؟ وغيرها الكثير من الأسئلة التي أدّت الإجابة عليها إلى نشأة الاستشراق[1].

وهذا في الحقيقة هو الاستشراق غير الرسمي، ولكن ليس هناك اتفاقٌ بين الباحثين على تحديد فترةٍ معيّنةٍ لبدايته، فهناك مَنْ أرجعه إلى القرن الأول الميلادي[2]. واعتمد الباحث في رأيه على تأثر المستشرقين بكتابات هيرودوت[3] ـ مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد عن جزيرة العرب- والجغرافي سترابون[4] في مستهل القرن الأول الميلادي، والمؤرخ الروماني بليني[5] في القرن الثاني الميلادي[6]. هذه البذرة الأولى للاستشراق كانت بحاجةٍ إلى قوّةٍ تنميها وتدفعها إلى الأمام بخطواتٍ حثيثةٍ، وقد تهيّأت هذه القوّة بظهور الإسلام وانتشاره في الغرب، الذي اضطر إلى دراسته والبحث في كلّ ما يتعلق به[7].

1-مراد، يحيى، افتراءات المستشرقين على الإسلام، 35.

2-الساموك، سعدون، مناهج المستشرقين، 10.

3- هيرودوت: هو مؤرخٌ إغريقيٌّ عاش ومات في القرن الخامس قبل الميلادي، تجول في البلاد وكتب تصوراته عنها، وصف مصر هبة نهر النيل، ووصف الجنائن المعلقة في بابل، لقب شيخ التاريخ، ترجم تاريخ هيرودوت إلى العربية حبيب سيترس سنة 1886م. ينظر: الترباني، جهاد، مائة من عظماء الأمة، 216؛ الزركلي، الأعلام، 8/ 293.

4- سترابون: هو رحالةٌ وجغرافيٌّ رومانيٌّ عاش ومات في القرن الأول الميلادي، ذكر الطواف حول الكرة الأرضيّة، ألف كتاب سماه الجغرافية تناول فيه جزيرة العرب باللغة الرومانية. ينظر: ديورانت، قصة الحضارة، 23/ 116؛ علي، المفصل في تاريخ العرب، 1/ 58.

5- بليني: هو كايوس بلينيوس سكوندوس، اشتهر بليني الأكبر، أشهر مؤرخ روماني، وجغرافي ألّف كتاب «التاريخ الطبيعي» في سبعة وثلاثين جزء، نقل ممن سبقه وأضاف عليها توفي سنة (79م). ينظر: علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1/ 59.

6-مراد، افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها، 49 – 50.

7-مراد، افتراءات المستشرقين على الإسلام، 50.

وهنـاك آراءٌ أخر حول نشـأة الاسـتشراق مـن قبل باحثين وكتاب سـواءً أكانـوا غربيّين أم عـرب وهـي كالآتي: رأيٌ يـرى بـأنّ الاسـتشراق ظهر مـع بدايـة البعثة النبويـة الشريفة بـأول لقـاء بـين الرسـول محمـد ﷺ ونصـارى نجـران[1]، أو قبـل ذلـك عندمـا بعـث الرسـول ﷺ رسـله إلى الملوك والأمراء خـارج شـبه الجزيرة العربية أو حتـى في اللقاء الـذي تـم بـين المسـلمين والنجاشي في الحبشـة[2]، والـرأي الثـاني يرى بأن غـزوة مؤتة سـنة (8هــ/ 629م) التـي كانـت أول احتـكاكٍ عسـكريٍّ بـين الإسـلام والنصرانيّـة، وبعد ذلـك لمـا كانـت الغلبـة للإسـلام، كانـت النتيجـة الحتميّـة زيـادة حقدهم على الإسـلام وأهلـه، حيـث رأى الغـرب في هـذه الفـترة الجديـدة تهديـداً للشـعوب التـي لا تديـن بالإسـلام؛ لـذا تعـد مـن البدايات للاسـتشراق[3].

ويرى الدكتور عبد الجبار ناجي أنّ بديات الاستشراق ترجع إلى زمن الخلافة الراشدة فعندما بعث الخليفة أبو بكر جيوش المسلمين لتحرير بلاد الشام من سيطرة الروم البيزنطيين، فهي تُعد بداية انحسار مدّ نفوذهم في بلاد الشام، ومن ثم تبعتها حروب الفتح والتحرير لاستكمال تحرير الأجناد كلّ من حمص وقنسرين ودمشق وفلسطين بأكملها[4].

ما لا شك فيه أنّ انتشار الإسلام في الشرق والغرب قد لفت وبقوّةٍ أنظار رجال اللاهوت المسيحي إلى هذا الدين، ومن هنا بدأ الاهتمام بالإسلام ودراسته ومن بين العلماء المسيحيين الذين أظهروا في وقتٍ مبكرٍ اهتماماً بدراسة الإسلام لا من أجل اعتناقه وإنما من أجل حماية

1- نصارى نجران: هم من أهل اليمن جاءوا بوفد من أربعين رجلاً ومعهم رهبان للنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) واستقبلهم في المسجد فسألوا عن أبي عيسى عليه السلام؟ فأجابهم (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) بقوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (سورة آل عمران: آية 59)، قالوا أنصفتنا يا أبا القاسم فلم يؤمنوا وطلبوا المباهلة وأجابهم النبي على طلبهم، فقال أحدهم إن خرج إليكم بأهله فهو صادق وإن خرج بأصحابه فهو كاذب، وفي اليوم الثاني خرج النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) للمباهلة ومعه الإمام علي عليه السلام والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام كما في قوله تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أبناءَنَا وَأبناءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (سورة آل عمران: آية 61)، ولما رؤوهم طلبوا من النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) أن يعفو عنهم ويصالحهم على مبلغ معلوم فوافق النبي ﷺ على طلبهم، وفي اليوم الثاني جاء بعض رهبانهم معلنين إسلامهم أمام النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم)، ينظر: الفراء، معاني القرآن، 1/ 219؛ البغوي، معالم التنزيل، 2/ 48؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، 3/ 144؛ الحلي، الرسائل السعدية، 21.

2-مطبقاني، الاستشراق، 12.

3-عميرة، عبد الرحمن، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، 92.

4- ينظر: كبريلي، محمد والفتوحات الإسلامية، 6.

إخوانهم في الدين، ومن أبرزهم العالم المسيحي يوحنا الدمشقي[1] (57ه – 132ه/ 676م - 749م)، ومن مصنفاته في هذا الصدد لإخوانه في الدين كتاب (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدل المسلمين)[2].

غير أن تلك المحاولات لا تعد انطلاقةً للاستشراق فيوحنا الدمشقي كان رجلاً شرقياً عاش في ظلّ الخلافة الأمويّة وخدم الأمويين وليس هناك اتفاقٌ على حقبةٍ زمنيّةٍ معينةٍ لبدء الاستشراق.

ويذهب البعض في القول بأن المحاولات الأولى للاستشراق ترجع إلى مطلع القرن العاشر الميلادي، حينما أدرك الغرب تلك المعجزة الحضارية التي شادها العرب فاندفعوا يتعلمونها ليستفيدوا منها، فأخذوا يدرسون لغتها وآدابها ويترجمون كتبها، وكان ذلك العمل تطوعاً من قبل رجال الدين وأبناء جلدتهم، ومن أوائل المترجمين أو الناقلين هو البابا سلفستر الثاني الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، وتلاه هرمان المتوفي سنة (1054م/ 446هـ)، وجاء بعده قسطنطين الإفريقي وغيرهم[3].

وآخر يرى أن البدايات الأولى للاستشراق ترجع إلى الحروب الدموية التي نشبت بين المسلمين والنصارى في بلاد الأندلس بعد استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتاله على طليطلة عام (478هـ/ 1085م)، فنشأت في دير كلوني[4] حركةً قادها الرهبان مع السلطة لتغيير النصرانية الإسبانية وجعلها كاثوليكية روحية بعد أن اعتقدوا أن النصرانية في إسبانيا أصابها الفساد بسبب اكتسابها كثير من الإسلام[5]. ولذا بدؤوا حرباً صليبيّةً ضدّ نصرانية إسبانيا، وبالتالي ضدّ إسلامها فكسبوا عدداً كبيراً باعتناق النصرانية باستخدام المودة واللين فاستمالت قلوب الكثيرين وأقبل بعض العامة على اعتناق النصرانية[6].

1- يوحنا الدمشقي: هو يوحنا بن سرجون بن منصور الرومي نصراني الديانة، كان والده كاتب معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان، ولد يوحنا سنة (57هـ/ 676م) ونشأ في البلاط الأموي ودرس في دير القديس سابا في فلسطين، وعمل في خدمة هشام بن عبد الملك، تميز بالثقافة اليونانية واللاهوتية، توفي سنة (132هـ/ = = 749م)، ينظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 20/ 161؛ حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، 116.

2-زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية، 19.

3-الاسكندري، أحمد، وآخرون، المفصل في الأدب العربي، 2/ 408؛ مراد، افتراءات المستشرقين، 36.

4- ديركلوني: هو أكبر أديرة الديانة المسيحية في إسبانيا بني بطراز معماري متميز، ينظر: السامرائي، خليل وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، 480.

5-عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 114؛ العقيقي، نجيب، المستشرقون، 1/ 122 - 123.

6-عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 116؛ السامرائي، قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، 21.

في حين يرى آخرون أن بداية الاستشراق في القرن الثاني عشر الميلادي وقد اهتم بالدراسات الإسلامية والعربية، إذ ظهرت فيه أول ترجمةٍ للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينيّة عام (1143م)، في دير كلوني بتوجيه الأب فيزابيل، وفي القرن نفسة ظهر أول قاموس لاتيني عربي[1]. ولعلَّ هذا الرأي أكثر قبولاً لبداية نشأة الاستشراق لأنه يمثل الطور الجدي وتثبيت الأقدام بترجمة القرآن الكريم الذي يمثل ركيزة الدراسات الاستشراقية.

وآخر يرجح أن الاستشراق بدأ تقريباً في القرن الثالث عشر الميلادي حيث انبثق من الحروب الصليبيّة التي تعدّ إحدى نقاط التحول في تاريخ الشرق[2]، ولما كان المحركون للحروب الصليبية من رجال الكهنوت الأوروبيين والعلوم العليا تكاد تكون منحصرةً في الكنيسة لديهم يومئذٍ، لذا كان أوائل المتوجهين للدراسات الشرقية من هؤلاء الرجال، ولا ريب أن أغراضهم في ذلك تواكب أغراض الحروب الصليبية التي أخذت أسلوباً جديداً في الغزو غير أسلوب الغزو المادي المسلح بالأدوات الحديديّة وتتفق مع أهداف التبشير بالمسيحية[3]. إذ إن العداء المحتدم بين النصارى والمسلمين أيام نور الدين زنكي[4] وصلاح الدين الأيوبي[5]، على أثر الهزائم التي ألحقها المسلمون بالصليبيين، والنتائج التي ترتبت على هذه الخسائر، يعد السبب الذي دفعهم إلى الاستشراق، حيث فكّر الصليبيون بوسائل أخرى تمكنهم النيل من الإسلام، ومن هنا بدأ الاهتمام بالشرق والبحث في جميع جوانبه من قبل الغرب[6].

1-البنداق، محمد صالح، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، 55 - 57.

2-مراد، افتراءات المستشرقين على الإسلام، 36.

3-ينظر: الميداني، عبد الرحمن حسن، أجنحة المكر الثلاثة، 123 - 124؛ عريبي، محمد ياسين، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، 130.

4- نور الدين زنكي: هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، ولد سنة (511هـ/ 1117م) لقب بالملك العادل أسس دولة في الموصل والشام وارسل جيش إلى مصر حكمة بأسمه، جاهد الأفرنج بالحروب الصليبية، توفي سنة (569هـ/ 1173م)، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/ 184 – 189؛ فريد بك، محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، 74.

5- صلاح الدين الأيوبي: هو يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان التكريتي، ولد سنة (532هـ/ 1137م) قائد عسكري تدرج فوصل إلى قيادة الجيش لنور الدين محمود الزنكي ووريث دولته ومؤسس الدولة الايوبية، قائد معركة حطين سنة (583هـ/ 1187م) ضد الصليبيين وحرر القدس، توفي سنة (589هـ/ 1193م)، ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 11/ 139؛ فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، 76.

6-السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، 20.

ويقرّر نجيب العقيقي[1] أن الذين يظنون أن أوروبا لم تعرف استشراقاً حقيقياً قبل الحملات الصليبية مخطئون؛ لأن الاستشراق عرف في القرن العاشر الميلادي ((وما كانت الصليبية إلاَّ نتيجةً واحدةً لمقدمةٍ واحدةٍ هي الاستشراق، وما الحملات الصليبية إلاَّ نتيجة وقوف الغرب على ثقافة الشرق وفلسفته التي تناهض المسيحية)). ولربما العقيقي تأثر في رأي المستشرق برنارد لويس ومفاده أن العلماء أخطؤوا حينما ظلوا يعتقدون حقبةً طويلةً من الزمن أن أول اتصالٍ جديٍّ بين الثقافة الإسلامية وثقافة أوروبا قد حدث نتيجةً للحروب الصليبيّة، إذ يؤكد حركةَ الفكر والعلوم العربية وصلت إلى الغرب عامة، وبريطانيا خاصة، عن طريق الأندلس حيث أسس العرب في إسبانيا وصقلية مدينةً ازدهرت فيها العلوم أكثر من أيِّ مدينةٍ معاصرةٍ لها في ذلك الوقت في البلاد المسيحية، وبدورها تركت أثراً واضحاً في مدنيات المسيحية المعاصرة[2].

ويبدو أنّ انتقال الفكر العربي إلى الغرب كان بطريقةٍ سلميّةٍ حسب نظرية التأثير والتأثر والاقتباس أو ما يعرف بالامتزاج الثقافي، لا بطريقة الحرب والصدام المسلح الذي يخلّف الخراب والدمار، لأنّ نتائج الحرب خسارةٌ لكلا الطرفين، فضلاً عن ظهور حركة الترجمة في العصر العباسي التي ترجمت الكثير من المصادر والكتب من اللغة الأجنبية إلى العربية وبالعكس ما ساعد في انتقال المؤثرات العربيّة والإسلاميّة إلى التراث الغربي.

وهناك نوعٌ من الإجماع بين بعض الباحثين والدارسين في سلك الاستشراق بأن الاستشراق اللاهوتي الرسمي بدأ وجوده حين صدر قرار مجمع فينا الكنسي، سنة (1312م) بإنشاء عددٍ من الكراسي للغات العربية والعبرية والكلدانية في جامعات (باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وأفنيوس، وسلامنكا) أي إن الاستشراق أصبح له مكانةً رسميّةً بقرارٍ كنسيٍّ ومن أعلى سلطة دينيّةٍ مسيحيّةٍ في الغرب وقد كان ذلك بعد الحروب الصليبية[3]. فضلاً عن سياسة التسامح الديني التي مكنت المسلمين والمسيحيين من دراسة تراث الحضارتين والاجتهاد فيها.

كما عدَّه أدوارد سعيد[4] حاجة الغرب للرد على الإسلام ولمعرفة أسباب القوة الدافعة

1- المستشرقون، 1/ 137.

2-لويس، برنارد، تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية، 3 - 4.

3-العقيقي، المستشرقون، 1/ 130؛ عريبي، الاستشراق وتغريب العقل، 131؛ السايح، أحمد عبد الرحيم، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، 24؛ عبد الفتاح، فاطمة، إضاءات على الاستشراق الروسي؛ النعيم، عبد الله محمد، الاستشراق في السيرة النبوية، 17.

4- تعقيبات على الاستشراق، 124.

لأبنائه ولا سيما بعد سقوط القسطنطينية (857هــ/ 1453م) إذ وقف الإسلام سدّاً منيعاً من انتشار المسيحيّة، فكان سبباً رئيسيّاً لظهور الاستشراق. أعتقد هو أحد الأسباب الرئيسيّة.

وفي القرن السادس عشر وما بعده أدت النزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية إلى دراسات أكثر موضوعيّة من ذي قبل، ومن ناحيةٍ أخرى ساندت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل مصلحة التبشير، ثم تطور الاستشراق فأصبح يهتم بالعلوم الاقتصادية والسياسية إلى جانب غرضه الأول وهو التمهيد للمبشرين وخدمة أهدافهم[1].

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1873م وتتالى عقد المؤتمرات عن الشرق وأديانه وحضاراته وما تزال تعقد المؤتمرات باستمرار[2]، ومن أواخر انعقاد المؤتمرات الاستشراقية في باريس عام 1973م وفي هذا المؤتمر تم التصويت على ألغاء اسم الاستشراق وأطلق عليه ((المؤتمر العالي للعلوم الإنسانية حول أسيا وشمال أفريقيا)) وبعد مؤتمرين تم تعديل الاسم مرة أخرى ليصبح ((المؤتمر العالمي للدراسات الأسيوية وشمال أفريقيا)) ومن بعده عقد مؤتمر في بودابست عاصمة المجر عام 1997م، ومن ثم في كندا.

وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية تخصّصاً قائماً بذاته داخل الدراسات الاستشراقيه العامة، وكان الكثير من علماء الإسلاميات واللغة العربية قبل نولدكه[3] وجولدزهير[4] يعدون علماء في الساميات على وجه العموم أو في دراسة الكتاب المقدس على وجه الخصوص[5].

1-السايح، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، 25.

2-الديب، عبدالعظيم، المنهج عند المستشرقين، 339.

3- نولدكة: ثيودور نولدكه 1930 – 1836) – Theodor Noldeke): يعد شيخ المستشرقين الألمان. أتقن العربية والعبرية والسريانية، حصل على الدكتوراه عام 1856م عن تاريخ القرآن. عين مدرساً للتاريخ الإسلامي في جامعة جوتنجن عام 1861، وأستاذ التوراة واللغات السامية في كييل عام 1864م، مؤلفاته (تاريخ القرآن) في ثلاثة أجزاء، وقد ساهم في كتابات دائرة المعارف الإسلامية، كذلك عاون شبرنجر في كتابه (سيرة محمد)، تلامذته: كارل بروكلمان، وشفالي. ينظر: المنجد، صلاح الدين، المستشرقون الألمان، 115 – 124.

4- جولدزهير 1921-1850) Gold ziherم): مستشرق مجريٌّ، عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته، ومن محرّري «دائرة المعارف الإسلامية». كتب عن القرآن والحديث ومن كتبه (تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي). درّس اللغات السامية، وحصل على الدكتوراه على يد فيشر، وعين أستاذاً محاضراً في بودابست، وقد درس اللغة العربية على يد مشايخ الأزهر سيما الشيخ محمد عبده، وتضلع فيها عام (1874)، وحصل على أستاذ كرسي عام (1906) ومن أشهر كتبه أيضاً (العقيدة والشريعة في الإسلام). ينظر، بدوي، موسوعة المستشرقين، 119 – 123.

5-الديب، المنهج عند المستشرقين، 340.

والباحث يرجح رأي الدكتور عبد الجبار ناجي بأنّ بديات الاستشراق ترجع إلى زمن معارك تحرير بلاد الشام؛ لأنه بداية اصطدامٍ جادٍّ مع الروم وفيها بداية انحسار نفوذهم، فاستيقظ شعورهم لمعرفة مصدر الخطر القادم الذي يهدّد إمبراطوريّتهم، فلذا اهتموا بدراسة الإسلام ونبيهﷺ وعقيدتهم ليتسنّى لهم محاربته من الداخل.

الجدير بالذكر أن الاستشراق ليس وليداً لعهد أو لمرحلة معيّنة فقط بل هو نتاجٌ فكريٌّ عبر زمنٍ طويلٍ وتظافرت عليه جهودٌ مكثفة، إلى أن وصل ذروته في القرن التاسع عشر والقرن العشرين إذ يعد هذان القرنان عصر الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية [1]، وذلك بعد اكتساح العالم الإسلامي من الاستعمار الغربي.

لذلك تبلور من خلال ظهور حركة الاستشراق ثلاثة أصناف من الدراسات وهي كما يلي:

1 - صنفٌ كتب في علوم العرب والمسلمين بحقدٍ وكراهيةٍ مبتعدةٍ بذلك عن المنهج العلمي، ومتأثر في ما كتب بروح العداء التي زرعتها فيه الكنيسة النصرانية، ومنهم المستشرقون هنري لامنس[2] وجوزيف شاخت[3] وجولدزهير[4].

2 - صنفٌ كتب بروحٍ علميّةٍ محاولاً إفادة قومه بما يكتب عن هذه الحضارة، ونتيجة لسيطرة الروح العلمية عليه وابتعاده عن تأثير الكنيسة فأظهروا الحب والإعجاب للإسلام كشريعةٍ ودين، ولكنهم لم يعتنقوا الإسلام، أو اعتنقوا سراً لخوفهم من الكنيسة أو لأمورٍ سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ أو ماديّةٍ خاف هؤلاء أن يعلنوا اعتناقهم الإسلام، وقد سجل على هذا الصنف وقوعه في بعض الأخطاء غير المقصودة، نتيجة عدم اتقان اللغة العربية وفهم

1-زقزوق، الاستشراق، 40.

2- هنري لامنس 1862 (henri lammens – 1937 م): من أبرز المستشرقين وهو راهبٌ فرنسيٌّ يسوعيّ، خريج جامعة القديس يوسف، تنقل شرقاً وغرباً لدراسة علم الاهوت اهتم بدراسة تاريخ الإسلامي والعرب وعمل في تدريسه، له مؤلفات منها موجز تاريخ سوريا ولبنان ومهد الإسلام ومكة قبيل الهجرة، كاثوليكي عرف بتعصبة: ينظر، بدوي، موسوعة المستشرقين، 503 – 504؛ العقيقي، المستشرقون، 2/ 293.

3- جوزيف شاخت 1969 - 1902) J. Schacht م) مستشرق ألماني متخصص في الدراسات العربية والإسلامية، له مؤلفات عدة أبرزها «أصول الفقه المحمدي» الذي يتناول فيه نشوء الحديث والسنة. أثار شاخت حفيظة العلماء المسلمين لأنه يشكك في صحة الأحاديث النبوية، ويرى أنها وضعت أو لفقت خلال الفترة الممتدة بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث هجري. عمل في جامعة فرايبورغ تمت ترقيته إلى منصب أستاذ كرسي، تبوأ منصب رئيس دائرة الدراسات الشرقية في جامعة كونينسبورغ. غادر إلى مصر حيث عمل في جامعة القاهرة كأستاذ زائر في عام 1939م، ثم عاد واستقر في بريطانيا. ينظر: بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، 366.

4-الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، 105.

أسرارها، ومنهم هنري دي كاستري[1] الذي درس الإسلام بعمق وألّف كتاب (الإسلام خواطر وسوانح)، والأديب الروسي تولوستوي[2] الذي أعجب بالإسلام وكتب مقالاً بعنوان الحرب والسلم مما حرمه البابا من رحمة الله ﷻ[3].

3- صنف كتب بروح علميّةٍ صادقة، ودرس الإسلام دراسةً حتى اهتدى إلى اعتناق الإسلام، وأصبح سيفاً بارزاً من سيوف الإسلام، يدافع عنه بكلّ ما أوتي من إمكانيات، ويردّ الشبهات والمكائد التي يثيرها أعداء الإسلام، ومنهم اللورد هيدلي[4] الذي يعتقد أن كثيراً من الرجال والنساء مسلمون قلباً، لكنّ الخوفَ من التآمر يمنعهم من إعلان إسلامهم. وتأثر اللورد هيدلي بزيارته للشرق فتلمس سلاسة الدين الإسلامي وتسامحه ما منحه عبادة الله ﷻ باستمرار لا في أيامٍ فقط، ومنهم الفونس اتيين دينيه[5] الذي زار الجزائر وأعلن إسلامه 1927م وبدل اسمه إلى ناصر الدين دينيه، وكذلك رينيه جينو[6] الذي أسلم وأطلق على نفسه الشيخ عبد الواحد يحيى[7].

1- هنري دي كاستري (1850 – 1927) مستشرقٌ فرنسيٌّ كان يعمل ضابطاً بالجيش الفرنسي بالجزائر ومن هنا جاء تأثره بالإسلام وطبائعهم ويعد من المنصفين للإسلام، ينظر: كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، 8-4.

2- تولوستوي هو الكونت ليف بافيتش تولستوي (1828 – 1910) مستشرقٌ روسيٌّ ومفكّرٌ وأديبٌ ومصلحٌ اجتماعيٌّ، وكاتبُ رواية مسيحي الديانة، اعتنق أفكار المقاومة السلمية النابذة للعنف، ألف كتاب مملكة الرب، ينظر: تولوستوي، الحرب والسلم، 6.

3-الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، 107.

4- اللورد هيدلي: رونلاد جورج الانسون (1855م – 1935م) ينحدر من أسرةٍ ملكيّةٍ سياسيّة، تخرج من كلية الهندسة وعمل في بناء الطرق، وهو مؤلف كتاب استيقاض غربي للإسلام، ورجل غربي يصحو فيعتنق الإسلام، أعلن اعتناقه الإسلام سنة 1913م وسمي (الشيخ رحمة الله الفاروق)، ينظر: هيدلي، رجل غربي يصحو فيعتنق الإسلام، 6 – 10.

5- الفونس أتيين داينيه: مستشرقٌ فرنسيٌّ (1861 – 1929م) اشتهر برسم اللوحات الفنيّة والتأليف في السيرة النبوية مع صديقه سليمان بن إبراهيم من الجزائر. ينظر: داينية، اتيين، محمد رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، 7 – 10.

6- رينيه جينو: رينيه جان ماري جوزيف، مستشرقٌ فرنسيٌّ كاثوليكيٌّ اعتنق الإسلام سنة 1951م باسم الشيخ عبد الواحد يحيى، ينظر: العقيقي، موسوعة المستشرقين، 175.

7-الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، 108.

3 المبحث الثالث

دوافع الاستشراق

للاستشراق عموماً دوافعٌ مختلفةٌ ومتفاوتةٌ حسب متبنيات المدارس الاستشراقية، وتكمن أهمية الدوافع كونها الوسيلة التي اتخذها الاستشراق لتحقيق أهدافِه وهي الوقوف على معارف وعلوم الشرق والاستفادة من ثرواتِه وسنوضحها على النحو الأتي:

1 - الدوافع الدينية:

الدينُ هو فطرةُ النفس البشريّة التي فطر الله ﷻ بها عباده، لذا يعد من أول الدوافع التي نشأ منها الاستشراق الذي ولد من رحم الكنيسة وبرعاية الرهبان والقساوسة النصارى، فكان هؤلاء تدفعهم الرغبة في انتصار النصرانية والوقوف بوجه الإسلام الذي بدأ ينتشر بسرعة[1].

فظهور الإسلام وانتشاره وتفوقه بسرعةٍ كبيرةٍ وتحول أعدادٌ كبيرةٌ من المسيحيين إليه، والانبهار الشديد بهذا الدين لمن بقي على نصرانيته في تلك البلاد الأوروبية التي عاشت تحت حكم المسلمين، هو ما حمل الرهبان على قيادة حركةٍ مضادّةٍ تجسدت في شكلها الأول بدراسة اللغة العربية، حيث أمر الفاتيكان في القرن السادس عشر الميلادي بإدخال اللغة العربية واللغات الشرقية في مدارس الأديرة والكاتدرائيات[2]. أما المسيحيون الذين أرادوا التنقيب عن أصول المسيحية في العهد القديم (التوراة) اتخذوا من العربية جسراً إلى العبريّة، إلّا أنّ سرعة انتشار الإسلام وبروزه كقوةٍ فكريّةٍ وسياسيّةٍ دفع الغرب إلى مواجهةٍ عسكريّةٍ مع الإسلام، تلك الحروب التي مثلت حلقةً من سلسلة الصراع بين الغرب والإسلام[3].

إنّ الهمّ الوحيد لهؤلاء كان الطعن في الإسلام والمسلمين، لذلك درسوا تاريخ الإسلام وحضارته لكي يجدوا أماكن وحالات الضعف ليُضخّموها وأماكن القوة والرفعة ليقلّلوا من شأنها لا لتسجيلها لهم والإشادة بها، ومن آثار ذلك ظهرت جماعةٌ من المستشرقين الحاقدين

1-السايح، أحمد، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، 16.

2-ناجي، عبد الجبار، الاستشراق في التاريخ، 34.

3-الجليند، محمد السيد، الاستشراق والتبشير، 27.

على الإسلام مهمتهم إدخال الريبة والشكوك في قلوب القراء، وتصوير الإسلام بأنه عدوٌّ لدودٌ للغرب وللإنسانية جمعاء، وبهذا أصبحوا آلةً بيد الكنيسة وأغلقوا سمعهم وأبصارهم تجاه كل الإيجابيات وأصبح شغلهم الشاغل إصدار أحكام سطحيّةٍ من دون الالتفات للأدلة والبراهين في محاولةٍ واضحةٍ لتشويه صورة الإسلام بكل ما لديهم من مكرٍ وخديعة، وذلك من خلال إدخال الوهن إلى العقيدة والحضارة الإسلاميّة وكل ما يتصل بالإسلام من علمٍ وأدب وتراث[1]. وغاية الهدف الديني هي معرفة الإسلام لمحاربته وتشويهه وإبعاد النصارى عنه.

2 - الدوافع النفسيّة:

الإنسان بطبيعته كائنٌ حيٌّ يمتلك من الإحساس والشعور ما يدفعه إلى الرغبة والفضول للاطلاع والمعرفة على كل ما يجهله من خفايا وأسرار، سواءً ما يخفيه الكون أو الموجودات، وغاية الإنسان الفرار من الجهل والوقوف على الحق، ويتطلع الإنسان بإشباع هذه الرغبة بالسفر والرحلات لكي يتلذذ بمواجهة الصعاب والأخطار ويعود ثم يقص ويحكي إلى أبناء بلدهِ فيثير فضولهم واهتمامهم بما رآه، ولهذه القصص أثرٌ بالغٌ في تاريخ الاستشراق[2]. وظهر في الغرب باحثون في التراث الإسلامي لمعرفة أسباب تلك القوة الخارقة، ومقومات هذه الحضارة العتيدة، ومن هنا نشأت حركة عرفت في ما بعد بحركة الاستشراق، وقد ولدت أصلا بسبب حيرة الرجل الغربي تجاه العالم العربي[3]، وإحساسه الداخلي بالرغبة في مقاومة التوسع الإسلامي الذي عبر إلى أوروبا يوماً ما وسيطر على جزءٍ كبيرٍ منها[4].

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّ الشرق بكلّ ما فيه مجهولاً عند العقل الأوروبي فترةً طويلةً لأسباب عدّة. ولكن الغرب لم يسكت على ذلك طويلاً، وإنما أخذ يسعى إلى كشف ومعرفة علومها وآدابها، وبدأت تنتشر في الأوساط الغربية معلوماتٌ صادقةٌ وخاطئةٌ إشباعاً للظمأ الفكري لدى الرجل الأوروبي، وقد سدَّ هذا الفراغ الأدب الترفيهي الذي لعب دوراً عظيماً في بعث همم الاستشراق وحماس أصحابه[5].

1-ينظر: السباعي، مصطفى، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، 21.

2-أ.س. رابورت، مبادئ الفلسفة، 6-5.

3-جاك س. رسلر، الحضارة العربية، المقدمة، 5.

4-مراد، افتراءات المستشرقين، 26.

5-مراد، افتراءات المستشرقين، 26.

3 - الدوافع التاريخية:

إنّ رسالةَ الإسلام كانت موجّهةً إلى جميع أنحاء العالم لتحريرهم من نير الظلم والجهل والشرك والإلحاد، وقد كرست جهود الرسول محمدﷺ والخلفاء من بعده لتوسيع رقعة البلاد الإسلامية ونشر مبادئه وتعاليمه في الدول والممالك التي كانت خاضعةً تحت السيطرة البيزنطية، ولذلك استمر الصراع بين الشرق والغرب. فمن المعروف أن العلاقات كانت عبر تاريخٍ طويلٍ تأخذ اتجاهات مختلفة، من حبٍّ ولقاءٍ، وهجومٍ وجفاءٍ، وهدمٍ وبناءٍ، حيث حاول الشرق والغرب أن يسيطر كلّ منهما على الآخر، ومن الجلي أن الغرب كان عبر التاريخ أكثر هجوماً وعداءً وأشدّ بطشاً وقوّةً وطمعاً، ويرجع ذلك إلى تركيبته النفسيّة ونظرته إلى الحياة وفلسفته فيها[1].

ويُعدّ انطلاق الإسلام وارتقاء المسلمين إلى السلّم الحضاري والتقدم الثقافي ذلك الوقت نقطة تحول الصراع الفكري إلى صِدامٍ مسلّحٍ، بعد أن احتل الإسلام مكانةً في التاريخ وأحدث ما أحدث فيه[2]، وقد أجبرت هذه الظروف التاريخية أولئك العلماء للبحث فيها حتى أخذوا يتساءلون: من هذا الطارق الجديد على أبواب التاريخ؟ ومن أين جاء ولماذا؟ وماذا أراد وماذا حقّق؟ فحقاً يكون الاستشراق قد ولد في أحضان الواقع التاريخي واتجاهه، ولعلّ بعض النفوس في الغرب قد أحست بالمرارة من خضوع بلادها المطلق لذلك الطارق الجديد[3].

كما أنّ أمجاد الإسلام المتمثلة في فتح الأندلس (92هـ/ 710م)، ووقائع الحروب الصليبية منها معركة ملاذ كرد (463هـ/ 1071م) ومعركة حطين (583ه/ 1187م)، وصدّ العدوان المغولي في معركة عين جالوت (658هـ/ 1260م)، واستيلاء الأتراك على القسطنطينية (857هـ/ 1453م)، ودخولهم إلى أوروبا المسيحيّة، وإغلاق الطريق البري أمام تجارة أوروبا نحو الشرق الأقصى، وغيرها من أحداث ولّدت إحساساً عند الغرب بالبغض للعالم الإسلامي ورغبتهم بالقضاء عليه[4]. هذه الأحداث كلّها تؤكد الدور الذي لعبته الدوافع التاريخيّة في ميلاد حركة الاستشراق.

1-مراد، افتراءات المستشرقين، 26.

2-الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، 88.

3-مراد، افتراءات المستشرقين، 27.

4-مراد، افتراءات المستشرقين، 29.

4 – الدوافع الاستعمارية:

عمد المستشرقون إلى دراسة الإسلام وعلومه وآدابه خدمةً للمخطط الاستعماري الذي يهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامي، فكانت الدراسات الاستشراقية تروم اكتشاف مواطن القوة في الشعوب المسلمة أي عناصر المقاومة الإسلامية الروحيّة والمعنويّة التي تقف حائلاً أمام السيطرة الاستعمارية، ثم بث عوامل الوهن والارتباك في تفكير المسلمين، لإفقادهم الثقة بأنفسهم وتراثهم، وتنمية مواطن الضعف التي تجعل في المسلمين قابليّةً للاستعمار بأشكاله وأساليبه الحديثة والمعاصرة [1].

ما لا شك فيه أنّ العمل على ارتماء الشعوب المسلمة في أحضان الغرب الاستعماري، والإقبال على الأفكار والثقافات الغربية المادية اللاتينية، وإحياء الدعوات والنعرات الجاهلية، وإحلال المفاهيم القوميّة والوطنيّة الضيقة، ومن ثم تشتيت شمل الأمة المسلمة الواحدة التي تجمعها رابط: وحدة العقيدة وأخوّة الإيمان[2]. ودليل ذلك ما قاله القس سيمون: ((إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية))[3]. ويقول لورانس براون: ((الخطر الحقيقي كامنٌ في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، وفي حيويّته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي))[4]، وكذلك يقول غاردنز: ((إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا))[5].

ويعترف الاستعمار بنفسه أنّ أشدّ ما يخشاه هو الإسلام وانتشاره؛ لأن له قوته وجلاله وأنه الوحيد بين الأديان والمذاهب والأيدولوجيات الذي يستطيع أن يقف في طريق أطماع الغرب ومشاريعه في السيطرة على العالم سياسياً وحضارياً ودينياً وفكرياً، وسرعان ما اتحدت أهداف المبشرين مع أغراض المستعمرين، واقتنعوا أن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار في الشرق ولذلك سهّل الاستعمار للمبشرين مهمتهم ووفّر لهم الحماية[6].

1-السباعي، الاستشراق والمستشرقون، 23.

2-مراد، افتراءات المستشرقين، 32.

3-قميحة، محمد، آثار التبشير والاستعمار على الشباب المسلم، 30.

4-قميحة، آثار التبشير والاستعمار على الشباب المسلم، 184.

5-قميحة، آثار التبشير والاستعمار على الشباب المسلم، 36.

6-مراد، افتراءات المستشرقين، 33.

5- الدوافع الاقتصادية:

يعدّ الاقتصاد من الدوافع البارزة في العلاقات بين الشرق والغرب إذ كان الشرق ذا أهميّةٍ كبيرةٍ بالنسبة لعددٍ كبيرٍ من التجار الأوروبيّين، والحياة بطبيعتها تدفع الإنسان لالتماس سبل العيش عبر الأراضي والبحار في جميع بقاع العالم، وبسبب هذه الأطماع الجشعة تتابعت الهجمات المسعورة من قبل الغرب للسيطرة على جميع مرافق الحياة في العالم العربي[1].

وقد تمتع العالم الإسلامي منذ زمنٍ بعيدٍ بمجالٍ اقتصاديٍّ ذي أهميّةٍ قصوى بالنسبة للتجار الأوروبيّين، ما دفع الغرب إلى العناية بدراسة علومه وثقافته وفلسفته؛ ومن نتائج هذه الدراسات أدرك الغرب أنه إذا أراد أن يسامي الشرق ويتفوق عليه فلابد له أن ينتزع زمام الأمور من يد العرب والمسلمين، ويتعلم لغتهم لكي يصل إلى مصادر القوة في الشرق[2].

وعندما بدأت أوروبا نهضتها العلميّة والصناعيّة والحضاريّة وكانت في حاجة إلى المواد الأوليّة الخام لتغذية مصانعها، وإلى الأسواق التجاريّة لتصريف بضائعهم، كان لا بدّ لهم أن يتعرفوا على البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعيّة ويمكن أن تكون سوقاً مفتوحاً لمنتجاتهم، فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقيّة والآسيويّة هي البلاد التي تحقق نشاطهم الاقتصادي، فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافيّة ودراساتهم الاجتماعيّة واللغويّة والثقافيّة وغيرها في تلك البلدان تحت مظلّة الاستشراق[3].

6- الدوافع العلميّة:

على الرغم من أن الباعث إلى دراسة اللغات الشرقية في أول الأمر كان دينيّاً، وحربيّاً في القرون الوسطى، إلاَّ أنه تحول بعد ذلك في وجهٍ من وجوهه إلى أغراضٍ علميّةٍ هدفها كشف ما تكنه العلوم والفنون الإسلامية. وكان الهدف من ذلك يسير بمسارين: أحدهما عامٌّ نبع من إحساس أوروبا أنّها إذا أرادت النهوض فلا بدّ لها من دراسة لغات الشرق وآدابها وحضارتها خصوصاً حضارة الإسلام وما حققه هذا الدين ورجاله من

1-مراد، افتراءات المستشرقين، 38.

2-الندوي، الصراع بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، 195.

3-فروخ، عمر ومصطفى خالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، 69-68.

أهـداف سياسـيّةٍ واجتماعيّـةٍ وأخلاقيّةٍ وثقافيّة، فأقبل المسـتشرقون على هذه الدراسـات[1].

أمّا المسار الثاني فهو خاص مثّله فئةٌ من المستشرقين اندفعت برغبةٍ علميّةٍ وبدافعٍ ذاتيٍّ وهوايةٍ شخصيّةٍ تطوّرت إلى احتراف دراسة التاريخ الإسلامي، وقد ظهرت من خلالها العديد من الدراسات القيّمة بعد أن قضوا سنوات طوال في البحث والتنقيب في مخطوطات كان يمكن أن تبقى مهملةً لو لم يتطوع هؤلاء بإخراجها إلى العلن[2].

وعلى الرغم من أن المسار الثاني (الخاص) استطاع أن ينأى بنفسه عن السياسة الاستعماريّة، إلا أنّ المسار الأول (العام) المتمثل بالمؤسسات الأكاديميّة التي تأسّست في الجامعات الغربيّة وقع في براثن تلك السياسة بل أصبح مصدراً للدراسات عن الإسلام وتقديم التدريب اللازم للمبشرين والسياسيّين والإداريّين الذاهبين إلى الشرق[3].

وبذلك يتّضح لنا بأن جميع هذه الدوافع تتداخل في ما بينها وتشترك في هدفها الرئيسي الذي يصب في خدمة المصالح الاستعمارية تحت مسمى براّق هو الاستشراق، رغم ما حققهُ من فائدةٍ علميّةٍ وحفظٍ للتراث العربي والإسلامي.

1-ينظر: مراد، افتراءات المستشرقين، 34.

2-ينظر، المنجد، صلاح الدين، أثر الاستشراق الألماني، 76؛ مراد، افتراءات المستشرقين،34.

3-ينظر سعيد، أدورد، الاستشراق، 105-104.

4

المبحث الرابع

مدرسة الاستشراق البريطاني

اهتمت الدراسات الاستشراقيّة بجميعِ الجوانب الحضاريّة، والسياسيّة، والفلسفيّة، والدينيّة، والاقتصاديّة... إلخ، وكانت هناك توجُّهاتٌ خاصَّةٌ لكلِّ مدرسةٍ من مدارس الاستشراق، فالاستشراقُ الفَرنسي والهولندي مثلاً اهتمَّ بالجوانب اللغوية والأًدبية والتحقيق ودراسة الموضوعات العلمية في الحضارة العربية، وذلك لتأسيس كرسيٍّ للغة العربية في جامعتي باريس والسوربون، وفتح معهد الدراسات الإسلامية، وقيام الثورة الفرنسية واحتلالهم لمصر 1798م وللجزائر سنة 1830م ومن ثم تونس والمغرب. واهتمَّت المدرسة الألمانية بجمع ونشر وفهرست المخطوطات العربية ووضع المعاجم، وامتازت هذه المدرسة بالموضوعية والعمق؛ وذلك لإنشاء كراسي عديدة للغة العربية، وزيادة عدد المكتبات الشرقية التي اكتظت بالمؤلفات العربية والشرقية والمخطوطات، وإنشاء المجلات المتخصصة بالشأن الإسلامي، واهتمَّ الاستشراق البريطاني بدراسةِ العقائد الإسلامية والدين الإسلامي. أما المدرسة الروسية فقد اهتمَّت بدراسة التراث الإسلامي[1].

أمّا بخصوص المدرسة البريطانية وهي موضوع دراستنا سنسلط الضوء على نشأتها وخصائصها ودوافعها، والتي تعد من أوثق ما عرفه الغرب الأوروبي من استشراق. لقد ظهرت أول دراسةٍ بريطانيّةٍ عن الشرق في حوالي نهاية القرن الأول الهجري علي يد (ويلبلاد wilibold) الذي دوّن رحلته إلى البلاد العربية في كتابٍ مطلع القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي[2].

وتعدّ المدرسة البريطانية من أقدم المدارس الاستشراقية إذ انطلقت من دوافع ذاتيّةٍ لدى بعض المستشرقين، وجمعت بين هدفين هما التنصير والاستعمار بشكل كبير[3] ثم أخذت تلك الصلة في ازديادٍ لأهدافٍ ثقافيّةٍ وعسكريّةٍ واقتصاديّةٍ، في الأندلس والقدس والهند والصين والعراق ومصر وفلسطين[4].

1- زناتي، أنور محمود، زيارة جديدة للأستشراق، 76 – 103.

2-الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، 27.

3- الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، 72.

4-العقيقي، المستشرقون، 2/ 429.

كانـت الأندلـس وصقليـة مراكز إشـعاعٍ للعلـوم العربيّـة والإسـلاميّة، لذا تهافـت عليها طلبـة العلـم لينتهلـوا مختلف العلوم حتـى يتمكنوا من فهم الإسـلام ثم يقومـوا بالرد عليه، لـذا كان مـن بـين هـؤلاء الرهبـان والقساوسـة أدلارد أوف بـاث (adelard of bath) عـاش بـين سـنة (463 - 530هــ/ 1070 - 1135م)، وهـو عـالمُ فيزيـاء ورياضيـات[1]، وتعلم اللغة العربيـة عـلى يـد علمائهـا، وتضلـع في الثقافـة العربيّـة[2]. ثم تتابـع من بعده المسـتشرقون البريطانيـون ومنهـم دانييـل أوف مـورلي (Daniel of morley)(ت 586هــ/ 1190م)، وميخائيـل سـكوت (ت 634هــ/ 1236م)، الـذي أتقن اللغـة العربيـة والعبرية[3].

وبعد عودة هؤلاء المستشرقون إلى بريطانيا أخذوا على عاتقهم تدريس اللغة العربية إلى مواطنيهم، ما يسّر عليهم التعليم وانتشار اللغة العربية في بلادهم دون الحاجة إلى أساتذة العرب المسلمين وبدون إنفاق، ما زاد عدد المستشرقين البريطانيين في القرن الحادي عشر الميلادي[4].

وبعد أن كسر المسلمون صليب الغرب في حروبٍ عديدةٍ، دعا المستشرق البريطاني روجر بيكون أتباعه عام (690هـ/ 1219م) إلى تعلم اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي، واتخاذها وسيلةً لنشر المسيحية لأنّه لا جدوى في محاربة المسلمين، لكي يتمكنوا في الحدّ من انتشار الإسلام وتوسيع رقعة العالم النصراني[5]، ولقي مقترح روجر الترحيب في مجمع فيينا الكنسي وأصدر قراره بتعليم اللغة العربية في خمس جامعات أوروبيّة وهي باريس في فرنسا، وأكسفورد في إنجلترا، وبولونيا في إيطاليا، وسلامانكا في أسبانيا، وجامعة المدينة البابوية في روما (kurie) بهدف تنصير المسلمين[6].

لذا يتضح لنا أنّ الاستشراق البريطاني في تلك الفترة كانت تقوده الكنيسة بدافعٍ دينيٍّ، بهدف التعرف على الإسلام وحضارتهِ ومكمن قوتهِ وسرِّ نجاحهِ، كي يتسنى لهم محاربته

1-الحاج، ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي، 1/ 43.

2-الطناحي، محمد محمود، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، 207؛ العقيقي، المستشرقون، 1/ 112.

3-العقيقي، المستشرقون، 1/ 114 - 116.

4-لويس، برناد، تاريخ اهتمام الانجليز بالعلوم العربية، 7 - 9.

5-سذرن، نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى، 49.

6- سعيد، الاستشراق، 80.

من الداخل وتشكيك المسلم بعقيدتهِ وتنصيرهم بحملاتٍ تبشيريّةٍ، وكذلك يرومون من وراء ترجمتهم علوم وحضارة الشرق الإسلامي للقضاء على جهل القرون الوسطى وتمكنوا من تحقيق هدفهم بإحراز التقدم الثقافي وقيام النهضة الأوروبية.

تطورت الدراسات الشرقيّة في ظلّ مدرسة الاستشراق البريطاني على أثر مجيء المستشرق السير (توماس آدمز Thomas adams) عندما أسّس كراسي لتدريس اللغة العربية في جامعة كامبردج عام (1632م) وفي جامعة أكسفورد عام (1636م) من قبل كبير الأساقفة لود (loud)[1].

وقد بدأ الاهتمام بالدراسات الشرقيّة الأكاديميّة وبالتحديد الدراسات العربية في بريطانيا باكراً، وذلك عندما أصبحت الهند تاجاً للمستعمرات البريطانيّة، وأصبح هدف لندن الاستراتيجي هو الحفاظ على خطوط الاتصالات مع ذلك التاج وأمان الطرق المؤدية إليه، وتحديداً طرق البحر الأحمر والخليج العربي، ومن هنا انخرطت بريطانيا بشكلٍ أكبر في المناطق العربية لأن هذه المناطق هي المعبر الطبيعي للهند فسارعت بالسيطرة على مصر والعراق[2].

ويبدو أن المحرك الأهم في دفع عجلة الاستشراق البريطاني إلى الأمام، هو الشغف الأدبي، وحب الاطلاع، ومحاولة التعرف على الحضارات الأخرى. فالكتّاب والأدباء لم يتركوا مجالاً من مجالات الأدب أو التاريخ إلاّ حاولوا الكتابة فيه، ويمكن تشخيص بداية هذا الاهتمام عن طريق ما عبرّ عنه الكتّاب الخياليون والمفكرون والشعراء في بداية المطاف والذين كانوا يتبنون أفكار ومفاهيم المدرسة الرومانتيكية التي زاد شيوعها في نهاية القرن السابع عشر الميلادي[3].

واستمر الاهتمام بالدراسات الشرقية في بريطانيا أكثر في مطلع القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ثم ازدهرت أكثر بعد حملة نابليون على مصر، حيث تلا ذلك اهتمام الإنجليز بميدان الاستشراق نتيجة طابع المنافسة التي اتّسم بها العصر بين الدولتين[4]

1-بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، 357.

2- زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، 97.

3-ب.م هولت، مجلة الاستشراق، الدراسات العربية في انكلترا، 25.

4- جحا، ميشيل، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، 33.

إذ تخرج عددٌ كبيرٌ من المستشرقين الإنجليز على يد المستشرق الفرنسي دي ساسي[1].

وهنا نلاحظ أن الدراسات الاستشراقية لم تكن هوايةً شخصيةً أو حبَّ استطلاعٍ أو تحقيق رغبةٍ بل هي وسيلةٌ مُمنهجةٌ من الحكومة البريطانية، وهذا واضحٌ من استحداث كراسي للدراسات العربية في الجامعات البريطانية، وتكليف الحكومة لأشخاصٍ مدنيين وأساتذة أكاديميين، أو عسكريين في الجيش البريطاني بإعداد دراسات استشراقيّةٍ عن منطقةٍ معيّنةٍ من الشرق لدعم سياستها الاستعمارية في تلك المنطقة، بل أجبرت سياسيها العاملين في الشرق الأوسط على إتقان اللغة العربية، وكان هذا من شروط القبول في السلك الدبلوماسي[2].

وما زاد من حماس المستشرقين البريطانيين في الاندفاع لأهمية اللغة العربية والتي شكلت في ذلك الوقت مصدر العلم والحضارة، وحلقة الوصل التي يمكن عن طريقها التعرف على الحضارات السابقة، فنادَ بأهمية دراستها كلٌّ من جورج سال (1697 – 1736) الذي ترجم القرآن الكريم[3] وإدورد وليم لين (1802 – 1876) مُترجم كتاب ألف ليلة وليلة[4]، ادورد هنري بالمر (1840 – 1882) ووليم رايت (1830 – 1889) وروبرتسون سمث (1846 – 1894) وريتشارد بيرتون (1821 -1890) في مقالاتهم التي تحث على دراسة اللغة العربية بعمق[5]، كما أن إنشاء منصب جديد للأستاذية باللغة العربية عام (1828م) في جامعة لندن[6]، قد ساعد في التأكيد على دراستها.

ويعد هذا الاهتمام المبكر من قبل الجامعات البريطانية بإنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية للوقوف على معرفة علوم الشرق وأسباب قوتهِ رافداً مهمّاً لتطوير حركة الاستشراق بشكلٍ منظمٍ وبإشراف الحكومة.

هناك قائمةٌ طويلةٌ بأسماء المستشرقين البريطانيين وإسهاماتهم في خدمة الاستشراق

1-السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية، 34.

2-البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، 15.

3- زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، 98.

4- قاشا، سهل، الاستشراق الانكليز، 20.

5-زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، 98 - 99؛ العقيقي، المستشرقون، 2/ 464 467- 468؛ قاشا، سهيل، المستشرقون الانكليز، 17.

6-العقيقي، المستشرقون، 2/ 469.

بأهداف عامة لخدمة العلم وحفظ التراث العربي الإسلامي، أو أهداف استعمارية وتبشيرية و... إلخ، أو لأهداف خاصة للحصول على الشهرة أو المال أو للوصول إلى مناصب وظيفيّة وأحياناً للمتعة وإطلاق الخيال. وفي القرون الأخيرة انصبّ اهتمامهم بالدراسات الإسلامية في جميع مجالاتها بخلاف بداياتها فإن؛ دراساتها تركزت على اللغة العربية وما يتصل بها من أدبٍ وبلاغةٍ ونقدٍ وغيرها[1]، وهذا ما جسّده وات في دراساته الإسلاميّة الكثيرة.

سمات الاستشراق البريطاني:

كان الدافع الديني في البداية هو الذي حثّ الانكليز على البدء والتوغل في مجال الدراسات الاستشراقية، إذ كان همهم التعرف على الإسلام وحضارتهِ، وكشف أسرارهِ والتعرف على سر عظمتهِ، وتلمس مواقع القوة والضعف فيهِ، توطئةً للقضاء عليهِ إما بتغييره أو بالاستيلاء على أراضيهِ[2]، وكان هذا الأمر منذ بداية الحروب الصليبيّة ثم واصل الانكليز هذه الدراسات بغية تحقيق أهدافٍ تجاريّةٍ واقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ باعتبارها الأساس الثقافي والفكري لتمهيد الأرضية المناسبة للسيطرة المباشرة والهيمنة على معتقدات الشعوب الشرقية والإسلامية[3]، ثم أخذت هذه الدراسات تصتبغ بالصيغة العلمية وإنْ كانت لا تخلو دوماً من تحقيق أهدافٍ أخرى لا علاقة لها بالعلم والمعرفة المجردة، إلاَّ أن المجهود العلمي الذي بُذل كان واضحاً بعد زوال تلك الأفكار المشوشة والجانحة عن الحقيقة والمشبعة بالخيال والتجني وعدم الموضوعية[4].

وصار للدراسات الاستشراقية خصائصٌ منها التعدّد والشمولية، حيث تناولت سائر الدراسات الشرقية من علمٍ وفنٍّ وأدبٍ وتاريخٍ وفلسفةٍ وعمارةٍ وآثارٍ، كما أنها لم تقتصر على زمانٍ معينٍّ أو فترةٍ تاريخيّةٍ محدّدةٍ بل تناولت الشرق القديم والحديث، أمّا مكانياً فقد تناولت الشرق بكامله ولم تقتصر على الشرق الأوسط فقط، بل شملت مصر وشمال أفريقيا الواقعة تحت قبضة الاستعمار الفرنسي[5].

1- الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، 72 – 74.

2-عصفور، محمد، صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر، 142.

3-العقيقي، المستشرقون، 461.

4-جحا، ميشال، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، 33.

5- زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، 102.

كما امتازت بالتخصص الدقيق، فنجد أنّ لكلّ مستشرقٍ تخصّصاً دقيقاً بنوعٍ معيّنٍ من مجالات المعرفة الشرقية، فأحدهم في اللغة وآخر في الحضارة العربية الإسلاميّة وثالثهم في الأدب ورابعهم في الفن والآثار وهكذا[1]، وزاد اهتمامهم باللغة العربية نظراً لمصالح بريطانيا الاقتصادية والسياسية التي تربطها بالعالم العربي[2].

ولعلّ أهم سمة يمكن أن توصف بها الدراسات الاستشراقية الإنجليزية هي ارتباطها بالحركة الاستعمارية ومحاولة ترسيخ السياسة الاستعمارية الإنجليزية في الأوقات المتأخرة خاصة بعد سيطرة بريطانيا على الهند والشرق الأوسط، ونرى هذا واضحاً في ترسيخ السياسة الاستعمارية في الشرق[3].

ويذكر السباعي[4] في زيارتهِ للدول المهتمة بالاستشراق ومنها بريطانيا أنّه رأى الاستشراق لهُ مكانةً محترمةً ومميزةً في جامعات لندن وأكسفورد وكمبردج وأدنبرة وجلاكسو وغيرها، ويشرف عليهِ يهود وإنجليز استعماريون ومبشرون وهم درسوا على يد جولد زيهر ومرجيلوث[5] ثم شاخت من بعدهم، وهم المراجع الأصلية لطلبة الاستشراق من الغرب، وللراغبين في حمل شهادة الدكتوراه عندهم من العرب فلا يوافقون لهم على كتابة رسائلَ يكون موضوعها إنصاف الإسلام وكشف دسائس أولئك المستشرقين. ولدى زيارته إلى جامعة أدنبرة في أسكتلندا، فكان رئيس الدراسات الإسلامية فيها قسيساً بلباسٍ مدني، وقد وضع لقبهُ الديني مع اسمه على باب بيتهِ، وفي جامعة كلاكسو رئيس الدراسات العربية قسيساً عاش رئيساً للارسالية التبشيرية في القدس قرابة عشرين سنة[6].

1-العقيقي، المستشرقون، 2/ 451.

2- زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، 102.

3-جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، 58.

4- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، 75-74.

5- مرجوليوث: مرجوليوث دافيد صومائل (1858 – 1940م) مستشرقٌ بريطانيٌّ درس الأدب اليوناني والسامي، عمل أستاذاً في جامعة أكسفورد، اهتم بالدراسات الإسلامية، ألف كتاب محمد ونشأة الإسلام والعلاقات بين العرب واليهود، له الفضل في نشر كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي ورسائل أبي العلاء المعري. ينظر، بدوي، موسوعة المستشرقين، 546.

6-السباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، 67.

- المستشرقون البريطانيون الذين كتبوا في السيرة:

اشتهر عددٌ من المستشرقين البريطانيين الذين اهتموا بالكتابات في السيرة النبوية الشريفة كما أن قسماً منهم عمل في تدريسها، ونذكر أشهرهم:

وليم بدويل (William bedwell) ألف كتاباً عن حياة النبي محمدﷺ تحت عنوان (حياة محمدlife of Mohamed) الذي طبع سنة 1697م[1].

ولا تفوت الإشارة إلى مجهودات المستشرق الأسكتلندي توماس كارليل Thomas 1795(Carlyle-1881م) صاحب المقالات الشهيرة الموسومة (الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخOn Heroes and Hero Worship and the Heroic in History) وأصلها ست مقالات ألقاها في لندن عام 1840م، وأفرد المقالة الثانية منها للحديث عن الرسولﷺ تحت عنوان (النبي البطل مثل محمد الإسلام The Hero as Prophet Muhammad: Islam) للدفاع عن سيرة الرسولﷺ بأسلوب موضوعيٍّ رفيع يعد من أروع ما كُتب عن الرسولﷺ في الأدب البريطاني والعالمي[2]. إذ عدّ النبي محمدﷺ مثلاً أعلى للإنسانيّة جمعاء.

وليم موير[3] (William muir) شهدت المدة من (1858-1861م) صدور المصنف الأوسع شهرةً عن السيرة النبوية في القرن التاسع عشر كتاب (حياة محمد Life of Mahomet)، الذي صدر المجلدان الأول والثاني منه في لندن سنة 1858م بعنوان (حياة محمد وتاريخ الإسلام حتى فترة الهجرة،The life of Mahomet and history of Islam to the era of the hegira) من ثم ظهرت المجموعة الكاملة لكتاب حياة محمد في سنة 1861م في أربعة مجلدات، ثم صدرت الطبعة الثانية في سنة 1878م وحملت عنوان (حياة محمد من المصادر الأصليّة The life of Mahomet from original sources)، ونظراً لما حصده الكتاب من شهرةٍ واسعةٍ أعيدت طباعته في سنة 1894م، وبعد وفاة

1-العقيقي، المستشرقون، 2/ 39.

2- العقيقي، المستشرقون، 2/ 53.

3- وليم موير: مستشرقٌ اسكتلنديٌّ (1819م – 1905م)، درس الحقوق في جلاسجو وأدنبرا، أرسل إلى البنغال ثم عُيّن أميناً لحكومة الهند (1868-1865م) ثم رئيساً لجامعة أدنبرا. ومن أثاره «سيرة النبيﷺ»، و«التاريخ الإسلامي» في أربعة أجزاء، و «حوليات الخلافة». البدوي، موسوعة المستشرقين، 587.

وليم موير صدرت الطبعة المنقحة لهذا الكتاب في سنة 1923م برعاية (ت. هـ وير (T. H. Weir أستاذ اللغة العربية في جامعة كلاسكو في اسكتلندا، الذي حمل غلافه تسمية للرسول ﷺ تتسق مع اللفظ باللغة العربية ((the life of Mohammed from original sources)) خلافاً للصيغة القروسطية المحرفة السابقة ((Mahomet))[1].

ومن بين هؤلاء الكُتّاب يرد اسم عالم الآثار والكاتب البريطاني (گودفراي هگنز (Godfrey Higgins) (1772-1833م) الذي صدر له في لندن كتاب (الاعتذار من حياة ومزايا نبي العربية المحتفى به محمد An apology for the life and character of the celebrated prophet of Arabia، called Mohamed) في سنة 1829م الذي أشار في صدر كتابه: ((إنّ الغاية من هذا الكتاب إشاعة روح التسامح بين اتباع المسيح وأتباع محمد، من خلال بيان الجذور المشتركة لكلا الديانتين من القيم والمبادئ، ونحن نسعى من وراء ذلك إلى تعميق الروابط الأخوية تجاه العلماء المسلمين))[2].

كما صنف الكاتب البريطاني جون ديفن بورت John Daven Port)) (1789-1877م) الموسوم ((الاعتذار لمحمد والقرآنAn Apology For Mohammed And The Koran)) الذي صدر في لندن سنة 1869م، والذي يعد من بين أبرز الدراسات المنصفة للسيرة النبوية في هذه المرحلة، جاء في مقدمته) :(إن الغاية من عملنا الحالي، أن نسعى بكلّ تواضعٍ لأن نحرّر تاريخ محمد من الاتهامات الزائفة والافتراضات الضيقة الأفق وتبرئة ساحته مما نسب إليه لكونه أحد أعظم المحسنين إلى البشرية))[3].

1-إن استخدام هذا التعبير لاسم الرسول (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) بصيغة (Mahomet) لم تأت اعتباطاً بل إنّه يحمل معنى يوافق الخط الذي سار عليه الكتّاب اللاهوتيين وكذلك تعبير (Mahound، Mamutius، Maomatto، Mahound) وتعني في اللغة اللاتينية، إله الظلام أو الشيطان. ويعد دانكونا (D'Ancone) من أوائل المنادين بهذه الآراء المتطرفة المعادية في كتابته القديمة باللغة الإيطالية الموسومة (La Leggenda di Maomatto im occiden-ta) (أسطورة محمد في الشرق)، وتركزت في كتابات جيوبرت (Guibert) وهيلدبرت (Hildebert) وهما من رجال الدين في القرن الحادي عشر، وظهرت هذه التعبيرات في كتابات بطرس الناسك في القرن الثاني عشر للميلاد؛ ينظر: ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، 78.

2-Godfrey، Higgins. An apology for the life and character of the celebrated prophet of Arabia، called Mohamed، London، 1829. p. vii.

3-Davenport، John، An Apology For Mohammed And The Koran، London، 1869، p. iii.

5 المبحث الخامس

مونتجمري وات حياته وإسهاماته

بعد أن عرجنا في المباحث السابقة على الاستشراق لغة واصطلاحاً، وعلى دوافع الاستشراق المختلفة، وكذلك مدرسة الاستشراق البريطاني، وكيف نشأ، وأهم ميزاته، بقي لنا أن ندرج هذا المبحث المهم عن حياة المستشرق وات الذي يعدّ الركيزة الأساسيّة في موضوعنا فهو: وليام مونتجمري وات (Montgomery watt) مستشرقٌ بريطانيٌّ اسكتلنديٌّ، ولد في مدينة كريس فايف في 14 مارس 1909م والده القسيس أندرو وات[1].

أكمل دراسته في أكاديمية لارخ بين عامي (1914 -1919م) وفي كلية جورج واتسون في جامعة أدنبرة (1927 – 1930م) وكلية باليول بأكسفورد (1930 – 1933م) وجامعة جينا بألمانيا 1933، وبجامعة أكسفورد (1938 – 1939م)، وبجامعة أدنبرة (1940 - 1943م)[2]. نال درجة الأستاذيّة سنة 1964م.

احتل وات مكانةً مميّزةً في المجتمع الانكليزي بوصفه قسيساً يجمع بين الالتزام بالمسيحية وصلته الوثيقة بالمسلمين، والاتصاف بالموضوعيّة في دراستهِ للإسلام، إذ نشر ماليز روثفن مقالاً في مجلةٍ إسلاميّةٍ باللغة الإنجليزية بعنوان (المسيحي ذو التعاطف غير العادي مع الإسلام)، وهي تدور حول لقاءٍ أجراه الكاتب مع وات، محاولاً فيهِ التمجيد بالمستشرق وإسهامهِ في دراسة مناطق مجهولةٍ من تاريخ الإسلام والسيرة النبويّة[3].

أعمـــال وات:

عمل وات أستاذاً ورئيساً لقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أدنبرة من عام 1947م، حتى تقاعد عام 1979، ومن (1940 – 1943) على التوالي عمل راعياً لعدة كنائس في لندن وأدنبرة[4]، وقام خلالها بتدريس الإسلام: عقيدة وتاريخاً وحضارة لعدة أجيال من الطلبة كثير منهم مسلمون عرب وباكستانيين، ويدعي المقال المذكور أعلاه أن من بين طلابه

1-العقيقي، المستشرقون، 2/ 554.

2-مطبقاني، الاستشراق، 34.

3-غريب، أحمد، رؤية إسلامية للاستشراق، 126-115.

4- زناتي، زيارة جديدة للاستشراق، 101.

(شيخ أزهري) ولكن لا يذكر اسمه؛ وربما كان ذلك بهدف التهويل من شأن المستشرق[1]. ومن بين طلابه العراقيين الدكتور ناجي حسن، والدكتور بهجت التكريتي، والدكتور مفيد محمد نوري، والدكتور فاروق عبد الله، والدكتور عبد الجبار ناجي الذي اصطحبه بزيارة إلى جامعة البصرة والعاصمة بغداد في زيارتين متفرقتين للعراق حسب ما أورده بالدكتور عبد الجبار ناجي من خلال اللقاء معه[2].

وقد اهتم بدراسة سيرة النبي محمدﷺ، وهو معروفٌ لدى طلابه بتعصبه ونزعاته التنصيرية، ويعد من أبرز أعلام المستشرقين المعاصرين في بريطانيا وأكثرهم تنوعاً في مجال دراسته الإسلامية، وتحظى أعماله بشهرةٍ واسعةٍ بين المشتغلين بالدراسات الإسلامية والعربية[3].

كانت مقالاته في دائرة المعارف الإسلامية تدور حول دلائل النبوة والتشكيك بالقرآن الكريم والانتقاص من النبي محمدﷺ من خلال أحوال زواجه بعد زيادة سلطانه[4].

وعمل وات في الموسوعة البريطانية التي أُسست عام 1768م في أسكتلندا بمنصب المحرر المشرف على الدراسات الإسلامية (Islamic surveys)[5].

وكتب وات مقالةً طويلةً عن (حياة محمد وتركته) ساهم فيها عددٌ من العلماء منهم فضل الرحمن[6] أستاذ الفلسفة الإسلاميّة في جامعة شيكاغو، ومحسن مهدي[7]

1- غريب، رؤية إسلامية للاستشراق، 126.

2- لقاء مع الدكتور بتاريخ 20/ 11/ 2017.

3-العقيقي، المستشرقون، 2/ 554.

4- دائرة المعارف الإسلامية الأولى (عائشة) 15/ 434 – 435.

5-بليهش، وليد، السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، 10.

6- فضل الرحمن: فضل الرحمن بن مولانا شهاب الدين (1919 – 1988) مفكرٌ إسلاميٌّ باكستانيٌّ الموطن ومسلم الديانة، درس بكلوريوس اللغة العربية في جامعة البنجاب بالهند، وأكمل الماجستير في جامعة أكسفورد عن فلسفة ابن سينا، اهتماماته بالتاريخ وعلوم القرآن من مؤلفاته الإسلام وآخرون، والإسلام والحداثة، المنهاج الإسلامية في التاريخ، الأحياء والتجديد في الإسلام، أكبر مواضيع القرآن، عمل مدرس للفلسفة في جامعة درهام بإنجلترا (1950 – 1958)، عمل أستاذ جامعي في شيكاغو (1969 – 1988)، www. com.

7- محسن مهدي: محسن مهدي سعد مهدي (1924 – 2007) عراقي الجنسية ولد في كربلاء قضاء عين التمر، مسلم الديانة، درس الإدارة والفلسفة في الجامعة الأمريكية بيروت، ودرس ماجستير علم الاقتصاد في جامعة شيكاغو عام 1984، وأكمل الدكتوراه في فلسفة ابن خلدون التاريخية، مؤلفاته الفارابي وفلسفة أرسطو، الفلسفة السياسية الوسطى، الاتجاه السياسي للفلسفة الإسلامية، عمل تدريسي في جامعة بغداد، ثم عمل أستاذ جامعي في جامعة شيكاغو (1957 – 1996)،www com..

أستاذ اللغة العربية في جامعة هارفارد مؤلف كتاب (فلسفة التاريخ عند ابن خلدون). وآن ماري شيميل (1922م – 2003م) أستاذة الثقافة الاسلامية - الهندية في جامعة هارفارد مؤلفة كتاب (الخط الإسلامي) و (محمد رسول الله) وترجمة كتاب (جناح جبريل) وهو ديوان الشاعر الباكستاني محمد أقبال[1].

وعمل شماس في الكنيسة الأسقفية الاسكتلندية في عام 1939، وكاهن في عام 1940، ثم انتقل إلى القديس بولس القديم في أدنبره لمواصلة تدريبه 1943، وكان راعياً لعدة كنائس في لندن وفي أدنبرة، وعمل في مطرانية القدس من 1944 إلى 1946 بصفة متخصص في الإسلام واللغة العربية لدى أسقف القدس الأنجليكانية أي الكنيسة الأنجلو- كاثوليكية في فلسطين[2].

دعي للعمل أستاذاً زائراً في كل من الجامعات الآتية: جامعة تورنتو عامي 1963 و 1978م وكلية فرنسا في باريس عام 1970م وجامعة جورج تاون بواشنطن عام 1978-1979م[3].

وبعد إحالته على التقاعد سنة 1979م عمل راعياً لأحد الكنائس في منطقة أدنبرة[4]، إلى تاريخ وفاته في 24 أكتوبر 2006م، بعد أنْ قضى من عمرهِ 97 سنة وكان شغله الرئيسي مؤرخ وأستاذ جامعي[5].

مؤلفات مونتجمري وات:

يعتبر التأليف والكتابة عن السيرة النبوية وعقائد الإسلام هو الشغل الشاغل لوات، وهو من صميم عملهِ كمؤرخ وأكاديمي وهو مستشرق معاصر إضافةً إلى ذلك لديهِ اهتمامات أُخر ومن أبرز مؤلفاته هي:

1- محمد في مكة، ترجمة عبدالرحمن الشيخ حسين عيسى 1953م.

1-بليهش، السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، 11.

2-بليهش، السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، 12؛ William Montgomry Watt obituary.

3- زياتي، زيارة جديدة للاستشراق، 101.

4-زياتي، زيارة جديدة للاستشراق، 102؛ معلومات من وات نفسة نسخة من سيرة موجزة تنشر في دليل الباحثين البريطانية مقابلة من قبل مطبقاني، الاستشراق، 58 - 60.

5- The timez 27 october 2006 the heriald the scotmeny.

2- محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات سنة 1956م وأعيد طبعه 1977م.

3- محمد نبي ورجل دولة (محمد النبي والسياسي)، ترجمة حمود حمود 2014م. هو ملخص إلى محمد في مكة والمدينة 1961م وأعيد إصداره 1974م.

4- مفكر مسلم: دراسة للغزالي.

5- تأثير الإسلام على أوروبا خلال العصور الوسطى (the influence of islam on medieval Europe) 1972م ترجمة حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، 1983م، الذي يعرف بعنوان (فضل الإسلام على الحضارة الغربية).

6- القضاء والقدر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. أطروحة دكتوراه مطبوعة في كتاب.

7- الفلسفة الإسلامية والعقدية.

8- الفكر السياسي الإسلامي.

9- الأصولية الإسلامية والتحديث.

10- العلاقات الإسلامية النصرانية.

11- موجز تاريخ الإسلام 1995م.

12- الجبر والاختيار في الإسلام.

13- عوامل انتشار الإسلام.

14- الوحي الإسلامي في العالم الحديث.

15- العظمة التي كان اسمها الإسلام.

16- في تاريخ اسبانيا الإسلامية، ترجمة د. محمد رضا المصري 1998م.

17- الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبد الرحمن عبدالله الشيخ 1998م.

18- الإسلام واندماج المجتمع، ترجمة علي عباس مراد، مراجعة ستار جبار علاوي، الناشر مجد المؤسسة الجامعية بيروت، 2009م.

19- الفترة التكوينية للفكر الإسلامي 1998م.

20- آخر كتبه حقيقة الدين في عصرنا 1996م.

من مقالاته: الإسلام والجماعة الموحدة، والجدل الديني، وتاريخ الجزيرة العربية، وله العديد من الدراسات والبحوث في الدوريات الإسلامية والاستشراقية[1].

منهج وات في دراسة السيرة:

كان لوات منهجٌ خاصٌ في الكتابة عن السيرة النبوية، فقد تميز بالجرأة والموضوعية وعدم الحيادية في أكثر الأحيان، بل حاول أن يطعن على الإسلام وعلى رسولهﷺ. فكتب في بداية كتابه ((محمد في مكة)) سطوراً يصف فيها منهجهُ في كتابة السيرة النبوية فيقول: ((هذا الكتاب يهم ثلاث طوائف من القراء على الأقل: الذين يهمهم الموضوع كدارسين للتاريخ، والذين يتناولونه لأنهم مسلمون أو مسيحيون، وعلى أيّ حال فهذا الكتاب موجه أولاً وبصفةٍ رئيسيّةٍ للمهتمين بالتاريخ))[2]. ولقد حاولت المحافظة على الحياد في المسائل اللاهوتية (الدينية) التي يدور حولها النقاش بين المسيحيّة والإسلام، فمثلاً، لتجنب الجزم بما إذا كان القرآن كلام الله ﷻ أم لا، فقد تحاشيت استخدام التعبير((يقول الله ﷻ)) أو ((يقول محمد)) واستخدمت التعبير ((يقول القرآن))، ومع ذلك فإنّه يقول: فإنني لا أتبنى المنظور المادي بحجة التزامي بالنزاهة التاريخية، فأنا أكتب كمؤمن بالتوحيد... فقد حاولت - مع الالتزام بالمقاييس العلمية التاريخية الغربية - ألا أقول شيئاً يفهم منه رفض أي مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية، إذ لا يجوز أن تكون هناك هوةٌ لا يمكن عبورها بين الثقافة الغربية والإسلام، فإذا كانت بعض النتائج التي توصل إليها علماء الغرب لا يتقبلها المسلمون، فربما كان السبب في ذلك أنّ علماء الغرب لم يكونوا دائماً مخلصين لمبادئهم العلمية وأن استنتاجاتهم تحتاج إلى مراجعة، حتى من وجهة النظر التاريخية البحتة[3].

حاول وات الادعاء في أكثر كتاباته بأنه حياديٌّ وبعيدٌ عن الأساليب التي اتبعها معاصروه

1- العقيقي، المستشرقون، 2/ 132؛ النعيم، عبدالله، الاستشراق في السيرة النبوية، 9؛ القاسم، خالد، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية، 1/ 159.

2- وات، محمد في مكة، 40.

3-وات، محمد في مكة، 41-40.

من رجال الفكر والعلم الأوروبيّين، لكن سرعان ما يقع في الخطأ ويتجنى على الإسلام والمسلمين ويبدو ذلك جلياً في مؤلفاته التي اعتمدناها في الدراسة ((محمد في مكة، ومحمد في المدينة، ومحمد النبي ورجل الدولة))، وربما كان هذا الأمر طبيعياً بالنسبة لهُ كونه تربى على يد الكثير من العلماء والمؤرخين المتأثرين بالأفكار السلبية عن الشرق والإسلام.

قال إبراهيم اللبان[1] نقلاً عن أحد المقالات لوات التي يوضح فيها منهجه فقال: ((جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام، وعلى الرغم من الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوروبا لاتزال قائمة، فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابه)). وقريب من هذا ما صرح به المستشرق نفسه في محاضرةٍ أخرى إذ يذكر: ((إن الأوروبيّين في عصور النهضة كان لا يزال لديهم إحساسٌ بالنقص بالنسبة للمسلمين، ولذلك عمد مفكروهم إلى تشويه حقائق الإسلام، فعرضوا الإسلام وتاريخ المسلمين في صورةٍ منفرةٍ، ولكّننا معشر الغربيين في القرن العشرين لم تعد تسيطر علينا عقدة النقص كما كان الحال في عصر النهضة، وذلك بعد أن انتقل زمام السيادة إلى أوروبا وأصبحت لها السيطرة والغلبة، ولذا أصبحنا الآن لا نجد حرجاً في ذكر الحقائق دون تحريف، وبالتالي ظهر الإنصاف والموضوعية في ما نكتب عن الإسلام والمسلمين))[2].

وهذه الأقوال من مستشرقٍ معاصرٍ ومؤرخٍ وأكاديميٍّ تنم عن حقيقةٍ مفادها أنّ أوروبا تُشبع فكر أبنائها بمعلوماتٍ غيرِ صحيحةٍ عن الإسلام والمسلمين لذا نتج عنه الإساءة إلى رمز الإسلام وقدوتنا النبي محمدصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ وجاءت نتيجة للجهل المطبق في العصور الوسطى.

وعلى الرغم مما يدّعيه وات لا نجد الإنصاف الذي يذكرهُ، فقد اتكأ على معلومات سابقة، وفسر بعض الأحاديث التي مرت بحياة الرسولصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ تفسيراً مادياً، واعتمد على الإسقاطات.

ولربما الأحداث المؤلمة في العالم الإسلامي والعربي ماهي إلّا نتيجة لكتابات المستشرقين وتحاملهم على الإسلام.

1- المستشرقون والإسلام، 37-36.

2-عليان، محمد عبد الفتاح، أضواء على الاستشراق، 21.

ويمكن تلخيص منهجه باختصار إلى:

1 - القفز إلى نتيجةٍ مفادها أن النبي محمدﷺ تأثر بالبيئة من حوله وبأفكار ورقة بن نوفل[1] والمسيحية واليهودية، وحاول وات جهده إظهار مواطن يزعم أنّه انعكس فيها تأثر الرسولﷺ بما حوله على الإسلام؛ ليثبت أنه جاء به من تلقاء نفسه.

2 - يلقي وات بظلال المنهج العلماني التشكيك الذي لا يؤمن بالغيب ولا بالمعجزات على السيرة النبوية، فهو ينكر حدوث أيّ شيءٍ خارق للعادة مثل حادثة الإسراء والمعراج وحدوث الوحي وغيرها من الآثار الثابتة عن النبيﷺ، إذ يقول بشأنها: ((إنّ هناك العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقَّن أنها ليست حقيقةً من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية))[2]. وهذه ردة فعل الأفكار الكنيسية.

3 - يعتمد وات على المنهج المادي، ويذكر أنّ المؤرخ أكثر إدراكاً للعوامل المادية الكامنة وراء التاريخ، وبأنّهُ مؤرخ منتصف القرن العشرين سيثير أسئلةً كثيرةً عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسة للحركة التي بدأها محمد ﷺ، من غير أن يهمل أو يقلل من شأن الجوانب العقدية[3]، ولذا نراه يعزو ظهور الدعوة إلى الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي سادت في مجتمعهﷺ، ويفسر وات الغزوات الإسلامية من هذا المنطلق.

4 - تسقيط وات الرؤية الغربية المعاصرة على أحداث السيرة، فنراه يطبق نظرية تدرج تطور الأديان على الدين الإسلامي حيث يتحدث عن توحيدٍ غامضٍ في بداية الدين الإسلامي ويتدرج ليصل إلى ما نعرفه اليوم بالتشدّد في اتباع منهج الإقصاء واعتماد الضعيف والشاذ، حيث يسرف وات في نفي الروايات الإسلامية إذ لا تكاد رواية إسلامية تنجو من تضعيفه لها دون إعطاء مسوّغٍ واضحٍ لإقصاء هذه الرواية أو تلك، ونراه في المقابل يعتمد رواياتٍ ضعيفةً وشاذةً تحمل في طياتها التشكيك في دوافع وقائع السيرة وأهدافها؛ ليبيّن أنه موضوعيٌّ يعمد إلى المنطق دون الإيمان[4].

1- ورقة بن نوفل: هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي، عم السيدة خديجة عليها السلام اعتنق النصرانية في الجاهلية وعاش بداية الدعوة الإسلامية وتوفي شيخ كبير في بداية الدعوة الإسلامية، ينظر: ابن حبان، الثقات، 1/ 50؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 3/ 423.

2-وات، محمد في مكة، 94.

3-وات، محمد في مكة، 94.

4- النعيم، عبد الله محمد، الاستشراق في السيرة النبوية، 40.

5 - الإكثار من منهج البناء والهدم، حيث لا تخلو بعض جوانب السيرة من الثناء في كتابات وات الذي سرعان ما يتبعه نقداً، فمثلاً نراه يسهب في الحديث عن حكمة النبي محمدﷺ ليقول أنّ من له مثل هذه الحكمة لم يكن ليدعو قيصر الروم وكسرى فارس للدخول في الإسلام ليلفت انتباههم بذلك إلى الخطر الذي يشكله على ملكهم[1].

6 – إسقاط روايات السيرة النبوية على المتبنيات الفكرية والدينية النصرانية واليهودية التي يؤمن بها وات دون الاعتراف بواقعية الديانة الإسلامية وأنها خاتم الديانات وأن الرسول محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء.

7- اتبع منهج الانتقائية في اختيار بعض الأحداث التي تنسجم مع رغباته وميوله لكي يصور الحقائق على وفق آراءه، وإهماله أحداث مهمّة في سيرة الرسول ﷺ منها ذكر حادثة حرب الفجار[2] وحلف الفضول[3] ويصرح بدور النبيﷺ غير الفاعل فيها، وأهمل حادثة بناء الكعبة والدور المهم للنبي محمد ﷺ فيها؛ لكي يغيب الأدوار المهمة.

8- إنّه ذو نزعةٍ متحيّزةٍ بالاعتماد على مصادر التاريخ السني الذي صرح بالاعتماد عليه في دراسته، وإهماله المصادر الشيعيّة المعتمدة[4]؛ ولعلّ ذلك لعدم اطلاعه عليها نتيجة عدم توفرها ولم تطبع في تلك الحقبة الزمنية التي بدأ بها وات القراءة المتأنية والتأليف، واتباعه منهج انتقاء الأحداث وفقاً لنزعته العدائية

1-وات، محمد في مكة، 61.

2- حرب الفجار: هي الحرب التي وقعت في الجاهلية بين كنانة ومعها حليفتها قريش وهوازن ومعها حليفتها قيس، وسبب الحرب لغدر البراض بن قيس الكناني بالرحال عروة بن عتبة بن جعفر، واستمرت أربع سنوات، وسيمت بالفجار لما استحلت كنانة وقيس عجلان في الحرب من محارم، وكان للنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) دور مع أعمامه، ينظر: الفاكهي، أخبار مكة، 5/ 166؛ ابن الجوزي، المنتظم، 2/ 297 - 298؛ الذهبي تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 1/ 51؛ ابن سعيد، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، 381.

3- حلف الفضول: وهو الحلف الذي عقد في الجاهلية بدار عبد الله بن جدعان باجتماع بني هاشم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تيم، وتحالفوا على نصرة كل مظلوم في مكة ويردون عنه ظلامته، على أثر امتناع العاص بن وائل السمي من دفع ثمن تجارة لرجل من اليمن، وسمي بذلك لأنه حلف خرج من حلف المطيبين والأحلاف، وقيل لأن الزبير بن عبد المطلب وعبد الله بن جدعان أحتلفوا على نصرة المظلوم، ينظر: ابن حبيب، المحبر، 167 والمنمق في أخبار قريش، 45؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، 1/ 197 – 180.

4- منها «الكافي في الأصول والفروع» لمحمد يعقوب الكليني (ت 329ه/ 940م)، «من لا يحضره الفقيه» لمحمد بن بابوية القمي (ت 381ه/ 991م)، «تهذيب الأحكام» و «الاستبصار في ما اختلف من الأحبار» لمحمد بن الحسن الطوسي (ت 460ه/ 1067م)، وغيرها.

لسيرة أهل بيت الرسالة الأطهار، وإسدال الستار الأسود على صفحاتهم المشرقة، باختياره رواية عطف الرسول على بنت زينب بنت محمد ﷺ وحملها عند إقامة الصلاة، ويهمل حب الرسول ﷺ إلى أولاده من بنته فاطمة الزهراء الإمامين الحسن والحسين وحمله اياهم وقت الصلاة وصعوده المنبر.

9 – إسقاط الرؤية والموضوعات المعاصرة على الوقائع التاريخية، ومنها عدم التصديق بموضوعية القرآن والشك في كثير من نتائجه فقال: ((جرت العادة بعض الوقت بأن القرآن هو المصدر الرئيسي لفهم الفترة المكية، ولا شك أنّ القرآن معاصرٌ لتلك الفترة ولكنّه متحيّزٌ، ناهيك بصعوبة تحديد التسلسل الزمني لمختلف أجزائه وما يحوم حول كثير من النتائج من شك))[1].

ثم يتصور أن الرسول محمد ﷺ لم يكن يعرف حتى أواخر العصر المكي الأبعاد الحقيقية لدعوته وأنها ليست لقريش وحدها، أو للعرب وحدهم فقال: ((عد محمد نفسه في البدء مرسلاً لقريش خاصة، وليس لدينا أيّ وسيلةٍ لمعرفة ما إذا كان قد فكر بتوسيع أفق رسالته لتشمل العرب جميعاً قبل وفاة أبي طالب، أو بعدها، وقد اضطره تدهور وضعه مع ذلك أن ينظر إلى أبعد من ذلك فلا نسمع من ثم خلال سنواته الثلاث الأخيرة في مكة إلا عن علاقته بالقبائل البدوية وسكن الطائف، ويثرب))[2].

موارده في كتابة السيرة:

من أجل أن تتضح لنا منهجية وات في كتابة السيرة النبوية نرى لزاماً علينا أن نستعرض أهم الموارد التي اعتمد عليها لإيضاح صورة النبي محمد ﷺ، ولعل في مقدمتها القرآن الكريم إذ استشهد بعددٍ كبيرٍ من الآيات القرآنية التي يرتبط معناها بحادثةٍ تاريخيّةٍ بحياة الرسول ﷺ وأصحابه أو عن حكمٍ تشريعيٍّ ما، ومن الملاحظ أن وات لم يكن أميناً في استخدام القرآن الكريم والأخذ منهُ، فلقد كان استشهاده بآيات القرآن الكريم انتقائياً، فإذا لم تصادم الآية القرآنية فكرة عنده قبلها واستشهد بها، وإذا صادمت فكرة لديه أو شبهة يروج لها استبعدها ولم يشر إليها كما فعل عند حديثه عن عالمية الإسلام.

1- محمد في مكة، 12 – 13.

2- محمد في مكة، 79.

كذلك استخدم كتب أهل السنة والصحاح في تخريج الأحاديث المرتبطة بالوقائع التاريخية وهو يبين ما قالهُ الرسولﷺ في أحداثٍ واقعةٍ في حياته ومن أهمها صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل، واعتمد أيضاً على مصادر تاريخيّةٍ مهمّةٍ من القرن الثاني الهجري حتى الرابع الهجري مثل سيرة ابن إسحاق وابن هشام والمغازي للواقدي وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ العام الحولية منها تاريخ الطبري، فأخذ منها ما أخذ، وردّ منها ما رد، وشكك في كثير من الروايات الواردة فيها.

أما المراجع الحديثة فلم يكن لمؤلفات المسلمين لديهِ نصيبٌ وهو لم ينظر إليها وإنْ أخذ فلم يذكر اسمها، بل رجع إلى دراسات غلاة المستشرقين من أمثال لامنس وجوزيف شاخت وليون كاتياني[1]، وريتشارد[2] وثيودور نودلكة وبروكلمان[3]، ويصل به التأثير ببعضهم إلى القول: ((أن مخالفة قول جولدزهير ليست بالأمر السهل))[4].

وهكذا تتضح لنا سموم الاستشراق التي بثها المستشرقون في كلّ جزئيّةٍ من جزئيات التراث العربي الإسلامي والتي لعبت دوراً كبيراً في تضليل حياة المسلمين ودينهم وثقافتهم.

وإنّ خطر كتاباتهم ـ كما يقول الدكتور محسن عبد الحميد[5] ((لا يدركها إلاّ العالم الخبير الموازن بين حقائق الإسلام وأوضاعه الحضارية وبين مزاعم المستشرقين ودراساتهم))،

1- ليون كايتاني 1926 - 1869) Leone Caetaniم) مستشرقٌ من أهل روما، مولداً ووفاةً، تعلم في جامعتها، وقام برحلات إلى الشرق، ولا سيما الهند وإيران ومصر والشام. وجمع مكتبة عربية عظيمة، جعلها بعد وفاته للمكتبة الإيطالية، وكان يحسن سبع لغات، منها العربية والفارسية. ألف بالإيطالية كتاب «تاريخ الإسلام» في ثمانية مجلدات و«سيرة الرسول» و«انتشار الإسلام»، وكتب «جذاذات» لتراجم عدد كبير من علماء المسلمين وأدبائهم في الأندلس، جمعها المستشرق الأسباني «ربيرا» ونشر بالعربية «تجارب الأمم» لمسكويه، اشتهرت مؤلفاته بالسعة والعمق والدقة. ينظر: الزركلي، الأعلام، 5/ 250؛ بدوي، موسوعة المستشرقين، 493؛ العقيقي، المستشرقين، 429.

2- ريتشارد فرانسيس برتون 1890 -1821) Richard Francis Burtonم) مستشرقٌ انجليزيٌّ وجغرافيٌّ ودبوماسيٌّ وأديب، عمل ضابطاً في الجيش البريطاني، سافر إلى مصر والهند ومكة، ترجم قصة ألف ليلة وليلة، اعتنق الإسلام وحج مكة والتقى مع محمد عبد الوهاب سنة 1850م. ينظر: محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، 5/ 39؛ الندوي، مسعود، محمد بن عبد الوهاب، 198.

3- كارل بروكلمان 1956 – 1868) C.Brokemann:م) مستشرقٌ ألمانيٌّ وهو من أكثر المستشرقين كتابة في الدائرة، درس اللغة العربية والسريانية والآرامية وأتقن العبرية. درس في الجامعة اللغات الشرقية واللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية)، ودرس على يدي المستشرق نولدكه شهادة الدكتوراه عام 1890 بالعلاقة بين كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري. ألف كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية» و «تاريخ الأدب الغربي». ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين، 66.

4-وات، محمد في مكة، 44 – 45.

5- أزمة المثقفين اتجاه الإسلام، 131.

ومهما كانت نوايا المستشرقين غير صافيةٍ فإن أسلوبهم في البحث والنقد يظل الأسلوب الذي يحتذى بهِ في دراساتنا التاريخية[1].

وفي ضوء ما تقدم، فإنّ من الإنصاف والحق أن لا ننكر ما قدمه بعض من المستشرقين بما أسهموا به في نشر العلوم الإنسانية، إذ قدموا أشياءً نافعةً في مجال إحياء التراث الإسلامي بالكشف عنه وجمعه ونشرهِ وتحقيقه وترجمته والتأليف فيه[2].

وهذا ما ساعد على صيانة التراث وحفظه من الضياع ونشره بين الناس للاطلاع عليهِ والانتفاع بهِ، ويمكن القول أنّ الاستشراق في طوريهِ السلبي والإيجابي احتوى على صفحات مشرقةٍ ومظلمةٍ، ولزاماً علينا دراسته من كلّ الجوانب وتنقيته من العجيب والغريب والغث والسمين لكي يكون مقبولاً ومعقولاً.

1-ناجي، تطور الاستشراق، 22.

2- سعيد، الاستشراق، 216.

الفصل الثاني

حياة النبي محمّد ﷺ

قبل البعثة

الفصل الثاني: حياة النبي محمّدﷺ قبل البعثة

المبحث الأول: الاسم والنسب

بنو هاشم

الانتقاص من أسرة النبي محمّدﷺ

المبحث الثاني: طفولة النبي محمّدﷺ

1 - الولادة

2 - الرضاعة

3 - شق الصدر

المبحث الثالث: عمل النبي محمّدﷺ

المبحث الرابع: زواج النبي محمّدﷺ من خديجةعليها السلام

المبحث الخامس: دور النبي محمّدﷺ في الحياة العامة

1 – حرب الفجار

2 – حلف الفضول

3 – حادثة بناء الكعبة

تمثل السيرة النبويّة الشريفة نقطة الانطلاق في الكتابة التاريخية لما تحتله من مكانةٍ كبيرةٍ في قلوب المسلمين، وللدور البارز الذي أداه الرسول الكريم محمّد ﷺ، فبدأت من مولده الميمون ونشأتهِ بمراحل الطفولة والشباب ومروراً بعمله ثم زواجهِ.

تُعد البعثة النبوية الحافز الكبير للاهتمام بسيرة النبي محمّدﷺ، وكذلك المغازي والسرايا، و قد تمّ اتخاذ أحاديث الرسولﷺ كعلامةٍ مميّزةٍ لكتابة السيرة. ولذا اهتم بها المسلمون بوصفها جزءاً مهمّاً من الدين الإسلامي، فأوّل من صنفها ابن إسحاق واختصرها ابن هشام ومن ثم تهافت عليها المسلمون بالكتابة والشرح.

ولمكانة النبي محمّدﷺ ودوره في البعثة النبوية، وجّه الغرب أنظاره نحو الإسلام ونبيّه، وسخّر الاستشراق علماءه لدراسة الشرق عموماً والإسلام خصوصاً ولا سيما النبي محمّدﷺ، ومن بين هؤلاء المتخصّصين المستشرق البريطاني مونتجمري وات الذي يمثّل موضوع دراستنا، ولمعرفة كيف وضح صورة النبي محمّدﷺ في مؤلفاته سنستعرض آراءه كالآتي:

1

المبحث الأول

الاســـم والنسب

ذكر وات اسم ونسب النبي محمّدﷺ كما ورد في المصادر الإسلامية ولكن بشكلٍ مختصرٍ إذ قال أن اسم النبيﷺ هو ((محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منافٍ ابن قصي بن كلاب...))[1]. ولم يخرج عن الإطار الذي رسمته المصادر الإسلامية القديمة إذ هو ((محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة الحمد) بن هاشم (عمرو) بن عبد مناف (المغيرة) بن قصي (زيد) بن كلاب[2] بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر(قريش) بن مالك بن النضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة (عامر) بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن الهميسه بن عبر بن صلح بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم))[3]، وهذا النسب يوافقه مصعب الزبيري[4]، وابن حزم الأندلسي[5]. أما خليفة بن خياط العصفري يذكر نفس النسب ويحذف منه (النضر بن كنانه) و (نزار بن معد)[6]، وعلى الرغم من ثقة وقدم ابن خياط المتوفى سنة (240هـ/ 854 م) ومعاصره مصعب الزبيري المتوفى سنة (236هـ/ 876م)، إلاّ أنّنا منهجياً نأخذ برواية علماء الأنساب، رغم تأخرهم عنه كابن حزم الأندلسي (45هـ/ 1063م)، والسمعاني المتوفى (562هـ/ 1166م)، والقلقشندي المتوفى (821هـ/ 1418م) وهي روايةٌ متّفقٌ عليها لدى جميع المصادر. ولربما وقع ابن خياط بالخطأ في النسب لأنّ الرواية مشافهة. علماً أن من شكّك في نسب النبي محمّدﷺ هو

1- محمّد في مكة، 89.

2-قصي بن كلاب: أخو زهرة بن كلاب، أولاده عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبداً، نسبه القرسي أخرج بني خزاعة من مكة وأسكنها قريش التي قسمها الظواهر خارج مكة والبطاح داخل مكة، اشتهر بالعلم والفصاحة، أعماله: بنى داره وعرفت بدار الندوة، يتحدثون فيها أمورهم العامة وحروبهم، وحفر بئراً أسماه العجول، كان سيداً مطاعاً في مكة وهو جد الرسول محمّدﷺ، الزبيري، نسب قريش، 14؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 50 – 52.

3- ابن إسحاق، السير والمغازي، 1/ 45؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 83؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 46؛ السمعاني، الأنساب، 1/ 13؛ القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، 25 ونهاية الآرب في معرفة أنساب العرب، 1/ 23.

4-نسب قريش، 5 و 10.

5-جمهرة أنساب العرب، 1/ 9 و 11.

6- ينظر: الطبقات الكبرى، 1/ 62.

قرشي أو يمني أو تميمي أو أعجمي فهو كافر وغير عارف بدينه[1]. ولعلّ ابن حزم كفّر من يشكك بنسب النبي ﷺ لوثوقه بنسب النبي الشريف لكي لا يسمح لأحد الخوض بمثل هذه الأمور كون النبي محمّد ﷺ ليس لقبيلته بل لكل المخلوقات، وهو أبٌ روحيٌّ لجميع المؤمنين.

وعن اسمه الشريف قال ﷺ: ((أنا محمّد وأحمد والحاشر والماحي والخاتم والعاقب)) [2]. فقد عرف النبي باسم محمّد وأحياناً أحمد أما باقي الأسماء فهي ألقاب.

ولقد تغنى أبو طالب بأبيات من الشعر بين لنا اسم النبي محمّد ﷺ ومصدر اشتقاقه فقال[3]:

لَقَد أكرمَ اللهُ النَّبيَّ مُحمَّداً فأَكرمُ خلقِ الله في الناس أَحْمدُ

وشَقَّ له منْ اسْمِهِ ليُجِلَّهُ فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمَّدُ

وللشاعر حسان بن ثابت نصيب في بعض الأبيات فقال:

أغرُ عليه للنبوة خاتم من اللهِ مشهودٌ يلوحُ ويشهدُ

وضم الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمهِ إذا قال في الخَمسِ المؤذنُ أشهدُ

وشق له منِ اسمهِ ليجلهُ فذم العرشِ محمودٌ وهذا محمّد[1]

هذه الأبيات توضح لنا اشتقاق اسم النبي محمّد ﷺ من اسم الله ﷻ المحمود، وكذلك تبين إيمان أبي طالب بالله وبرسالة الإسلام ونبوة محمّد ﷺ.

لم يستطع وات أن يشكّك في اسم النبي محمّد ﷺ ونسبه لوروده بأوثق المصادر وهو القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿**وَمَا محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[4]،

1-ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 1/ 2.

2- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 104.

3-أبو طالب، ديوان أبي طالب، 24.

4- سورة آل عمران: آية 144.

وثانية بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَد مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1]، وكما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى محمّد وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[2]، وأخرى قال تعالى: (محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾[3]، جميع هذه السور مدنيّة، وذكر مرة واحدة باسم أحمد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[4]، وهي الأخرى مدنية.

لقد حرص عبد المطلب على تسمية حفيده بـ (محمّد) وأجاد وأحسن اختياره لأنّه اسمٌ يدل على الحمد والثناء، فلم يتبع عادة بعض العرب بتسمية أبنائهم بأسماءٍ معيبةٍ مثل زبالة ونحوه، ولا بأسماء الحيوانات مثل أسد وثور وكلب ونحوه، ولا باسم تصغير مثل عبيد وسُليم وغيره، ولا أسماء معيبة مثل حنظل وصخر وغيره؛ لأن فيها تصغيراً لمنزلة الشخص[5]. إنّ الاسم الطيب إذا ارتبط بالإنسان طابت حياته به، وهو جزءٌ من شخصيّة الإنسان، ويصبح أكثر قبولاً ويستحسن سماعه وترديده مثل اسم نبينا محمّد ﷺ الذي بذكره تنشرح القلوب وتطمئنّ النفوس فما أعظمها من رحمة مهدات.

ويكتفي وات بذكر اسم أم النبي ﷺ وما حقق له من ارتباط بأسر رئيسيّة في مكة دون ذكر مكانة آمنة. فيقول أمه آمنة بنت وهب من عشيرة زهرة من قبيلة قريش، أمها من عشيرة عبد الدار، وجدها لأمّها من عشيرة أسد، ولهذا كان محمّد ﷺ مرتبطاً برباط القرابة بعددٍ من الأسر الرئيسة في مكة[6].

هذا النسب من أمهِ آمنة أفضل امرأة في قريش نسباً وشرفاً وموضعاً، قد اتفقت عليهِ جميع

1- سورة الاحزاب: آية 40.

2- سورة محمّد: آية 2.

3- سورة الفتح: آية 29.

4- سورة الصف: آية 6.

5-ابن النفيس، الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، 189.

6- محمّد في مكة، 92.

المصادر الإسلامية، فكان أبوها وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً[1].

بنو هاشم:

يمثل الفقر حالة الازدراء للرجل العربي، كونه يعيش حالةً من التعفف والرفعة. لذا حاول مونتجمري وات أن يرسم ملامح صورة بني هاشم بالفقر والعوز المادي، والضعف الاجتماعي في مواطن كثيرةٍ من كتاباته عن حياة محمّدﷺ ومنها ((لقاء عبد المطلب بأبرهة عام الفيل ربما تكون مقبولةً بشكلها العام، لكن اعتباره أن عبد المطلب كان في مفاوضاته تلك ممثلاً لمجموعةٍ صغيرةٍ لا متحدثاً باسم مكة كلها))[2].

وفي الواقع أن الحملة بلغت ذروتها لأن جيش أبرهة ضم بالإضافة إلى جندهِ الأصليين، عناصر من قبائل عربيةٍ انتصر عليها أبرهة في طريقه إلى مكة، فأخضعها وضم هذه العناصر إلى جيشهِ، ومن ذلك ما وقع مع قبيلة خثعم[3] وغيرها[4]، ما أثار الرعب والخوف في قلوب أهل مكة، فاضطروا إلى ترك مكة والخروج إلى الجبال، فانخلعت القلوب إلاّ قلب عبد المطلب كبير قريش، سيد البطحاء، فكان يحسن القول ويهابهُ من يلقاه، ولما جاء إلى مقابلة أبرهة وقع في قلبة هيبتهُ، فسألهُ عما جاء إليهِ، فأجابه أن يرد الإبل التي ساقها جيش الغزاة، فاندهش أبرهة منه وظنه جاء يسأله عن الكعبة، فأجابهُ وأوقع الرعب في قلبهِ ((أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فله رب يحميهِ))[5].

هذا اللقاء نستنتج منهُ مصاديق أهمها:

1 - إن عبد المطلب برباطة جأشه وقوة شخصيتهِ لم يخشَ جيش الغزاة، فقد قابل ملك الحبشة وقائد الجيش ولم يخرج مذعوراً مع عامة الناس.

2 - إن عبد المطلب مؤمنٌ بالله لأنه كان من الأحناف الموحدين يعلم أن الله مقدر

1- ابن إسحاق، السير والمغازي، 1/ 42؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 110 - 156؛ ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، 1/ 44، الخركوشي، شرف المصطفى، 1/ 191.

2- وات، محمّد في مكة، 91.

3- قبيلة خثعم: من قبائل اليمن القحطانية، ويرجع تسميتها إلى أقبل بن أنمار بن نزار الذي تحالف مع أخوته الأزد نحر بعير ثم تخثعموا بدمه بلغتهم أي تلطخوا بدمه، فسموا خثعم تسكن قسم منها على أطراف الطائف، ينظر، الكلبي، هشام بن محمد، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 343؛ الزبيري، نسب قريش، 7.

4-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/47 - 48.

5- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 91، أبو زهرة، محمّد، خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، 1/ 87.

الأمور وهو العليم الحكيم ينصر عبدهُ ويحمي بيتهُ الذي سينطلق منه النبي محمّدﷺ برسالة الإسلام إلى العالم أجمع.

3 - كان جواب عبد المطلب فيه تحذير وتخويف إلى أبرهة بأن حملتهُ خاسرةٌ، ولن ينال مبتغاه الذي جاء من أجله وهو قلع البيت وهدمه، لأن قدرة الله فوق قدرته.

4 – كانت حملة أبرهة حادثةً تأريخيّةً صورها لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾[1]، وتحققت فيها معجزةٌ ربانيّةٌ تناولتها كتب التفسير.

وعن ثراء عبدالمطلب نستشهد بحادثة الفداء التي قدمها لابنه عبد الله بذبح مائة من الإبل[2]. وهذا دليلٌ على وفائه بنذره، وحبّه لابنِه، ويسر حالتِه المعاشية ولم يكن فقيراً كما تصوره وات.

واستطرد وات بالحديث عن بنات عبد المطلب وهن صفية وعاتكة وأميمة وأروى وأم حكيم، وزواجهن من سادات القوم فقال: ((كان قادراً على تزويج بناته من بعض أفاضل أسر مكة وأكثرها قوّةً ونفوذاً))[3].

يبدو أن وات لم يدرك طبيعة طقوس مراسيم الزواج عند العرب، فهي لا تعني قدرة الأب على زواج بناتهِ بقدر ما تمثل مكانة الأب في المجتمع وشرف الأسرة، هذا ما دفع أشراف القوم يقترنون بالزواج من بنات عبد المطلب لكفئه لهم من جهة، ومكانة بني هاشم بين القبائل العربية من جهة ثانية، وهذا خير دليل يشهد بمكانة آل هاشم بعكس ما يذهب إليه وات.

يشكك وات بالمنافرة التي جرت بالشام بين عبد المطلب بن عبد مناف مع حرب بن أمية التي كانت مألوفةً بين العرب في الجاهلية فقال: ((وبصدد العلاقة بين عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف مع حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كانت في حالة تنافس بينهم على زعامة مكة قول مشكوك فيهِ ما دمنا لا نجد تفاصيل عن ذلك في المراجع، وأن

1-سورة الفيل: الآيات 1 – 5.

2- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 82.

3-محمّد في مكة، 91.

هذا انعكاس لمنافسات حدثت بعد ذلك، لأنّ علاقة الزواج بينهم تظهر أنّها كانت علاقةً طيبة))[1].

يحاول وات من هذا النص تقليل دور عبد المطلب في الحياة العامّة، وألا يجعله كفءً إلى حرب بن أمية، ولعل هذا يعود إلى ميوله للطرف الأخير محاولاً أن يجد شخصاً من غير بني هاشم أعمام النبي محمّد ﷺ وجعله نموذجاً يشار له بالبنان.

لقد تصور بعض الباحثين كأن الصراع بين الطرفين ينضوي تحت عنوان الزعامة والسلطة! بل هو في حقيقة الأمر صراعٌ عقائديٌّ بين الخير كلّه والشر كلّه، وهي حرب الأخلاق ضد التسلط وحرب الأحرار ضد العبودية بل هي حرب الملك ضد النبوة.

وعلى العكس مما ذهب إليه وات فقد تصورها انعكاساً ((انعكاس لمنافسات حدثت بعد ذلك))[2]، بل هي نتيجة تجدّدت لصراع سابق اندلع بعد اصطفاء محمّد ﷺ للنبوة وقد جدّده أبو سفيان[3] قائد المشركين فقال: ((لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك عظيماً))[4]، هذا يمثل صراع الملك ضد النبوة. وقد تجدد الصراع مرّةً ثانيةً في خلافة الإمام علي عليه السلام من قبل معاوية بن أبي سفيان وكان يمثّل صراع الإمامة ضد الخلافة، والذي حسم بإراقة دماء الإمام الحسين عليه السلام من قبل يزيد بن معاوية.

ترجع جذور المنافسة على الزعامة والشرف بين بني هاشم وبني أمية إلى سنين عجاف أصابت أهل مكة، فانبرأ هاشم بن عبد مناف بن قصي إلى كبح المجاعة بإشباع أهل مكة والحجيج من ماله الخاص وقيل حتى كفأ القدور على الجفان، فشاع صيتة في الجزيرة العربية، وبذلك سمي هاشماً لهشمه الثريد لأهل مكة وزوارها[5].

وفي العصر نفسه كان مع هاشم ابن أخ له هو أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، كان

1- المصدر نفسه، 91.

2-المصدر نفسه، 91.

3-أبو سفيان: هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي اشتهر بكنيته أبا سفيان أو بابنه الكبير حنظله، قائد حروب المشركين ضد الإسلام، اعتنق الإسلام بعد فتح مكة (8هـ/ 629م) فقئت عينه في الطائف مع الرسول (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) وفقئت الأخرى في اليرموك، توفي في خلافة عثمان، ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 37؛ الزبيري، نسب قريش، 122، البلاذري، انساب الأشراف، 5/ 5.

4-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3 / 54 ؛ ابن الجوزي، المنتظم، 3/ 326.

5- ابن سعد، الطبقات، 1/ 34 ؛ ابن حبيب، المحبر، 60؛ اليعقوبي، التاريخ، 1/ 207.

ذا مال وقد اغتاض من عمه ومن صنعه الذي جعله ينال وسام الشرف[1]، فتكلف أن يصنع ما صنع هاشم فعجز عنه وقصر، فشمتت به ناس من قريش وسخروا منه وعابوه بما صنع فهاج ذلك بينه وبين هاشم شراً[2]، فاهتزت شخصية أمية ونال من هاشم سيد مكة وأراد أن ينتقص من شخصيّته، حتى دعاه إلى المنافرة[3]، فكره هاشم ذلك لكبر سنه وعلو قدره بين الناس[4]. فكانت المنافرة على شروطٍ صعبةٍ مجحفةٍ أراد من خلالها هاشم ثني إرادة ابن عمه أمية وإذلاله، فقال له هاشم: فإني أنفركَ على خمسين ناقة سوداء الحدق تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين فرضي أمية بذلك[5]، ويظهر أن الشرط الثاني أشد إجحافاً وتصغيراً لأمية وهو النفي عن دياره وأرضه ومقامه بين أهله فهذا يدل على أن هاشم بن عبد مناف كان على علم بأنّ النتيجة لصالحه، فجعلا بينهما الكاهن الخزاعي[6]، وكان منزله بعسفان[7]، وقيل له احكم بين هاشم وأمية أيهما أشرف، وكان هذا معمول به في الجاهلية. فقال: ((والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، ما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر منحدر أو غائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر، أول منها وآخر))[8]، فقضى لهاشم بالغلبة وأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم من حضر وخرج أميّة إلى الشام فقام عشر سنين[9]، واستقر في بلاد الشام حتى بعد موت هاشم بن عبد مناف إذ بقي منفياً عن موطنه مكة إذ تم إخراجه منها قسراً رغم إرادته.

1- ابن سعد، الطبقات، 1/ 34.

2- ابن حبيب، المنمق، 98 - 99؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 68؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 427.

3- المنافرة : نافرت الرجل منافرة إذا قاضيته والمفاخرة والمحاكمة والمناظرة بالحسب أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يحكمّا بينهما رجل. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 6/ 449.

4- ابن سعد، الطبقات، 1/ 34؛ ابن حبيب، المنمق، 97؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 427.

5- أبن سعد، الطبقات، 1/ 34؛ ابن حبيب، المنمق، 99؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 68؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 427.

6-الكاهن الخزاعي: هو عمرو بن حنة من قبيلة خزاعة، تميز بامتلاكه مواهب خاصة كالفراسة والحكمة والقدرة على صياغة الأقوال في سجع أنيق، كان يسكن عسفان، ومن أحفاده الصحابي عمرو بن الحمق الخزاعي. ينظر: ابن الجوزي، تلقيح فهوم أهل الأثر، 168؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 554؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 12/ 343.

7- عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين جحفة مكة، وهي من مكة على مرحلتين وهي قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلاً من مكة وهي حد تهامة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، 6/ 327.

8- ابن حبيب، المنمق، 99 – 100؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 68؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 427.

9- ابن حبيب، المنمق، 100؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 68؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 554.

وتجدد الموقف نفسه عندما كان عبد المطلب[1] بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب من حلماء مكة وحكامها[2]، ولما قام حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بالاعتداء على تاجرٍ بمكة من يهود أهل نجران، يقال له أذينة في جوار عبد المطلب، وحرّض عليه فتياناً من قريشٍ فقتلوا التاجر[3]. ولنبل عبد المطلب وشعورهِ بالمسؤولية بدأ يفتش عن القاتل حتى علم أن حرب بن أمية كان يحث على قتل التاجر اليهودي، فأنّبه على صنيعتهِ وطلب بدم جارهِ[4]، فأبى حرب ذلك عليهِ فأجار القتلة ولم يسلمهم، وتغالظا القول ودعاهم الأمر للمنافرة عند نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عدي[5]، فأتياه فقال لحرب بن أمية: ((يا أبا عمرو! أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأوسم منك وسامة، وأعظم منك هامة[6]، وأقل منك لامة[7]، وأكثر منك ولداً وأجزل منك صفدا[8] وأطول مذودا[9]))[10]. فنفر عبد المطلب على حرب، فغضب حرب من ذلك وأغلظ لنفيل وقال: ((من انتكاس الدهر أن جعلناك حاكماً))[11]، متذمراً من هذا الحكم الذي صدر من قبل نُفيل بن عبد العزى الذي يعد حكمه نافذاً لكلا الطرفين.

هذه المنافرة كان لابد أن تحدث بينهما لما تراكم من احتكاكٍ وتصادمٍ سابقاً بين أبويهما

1-عبد المطلب: اسمه شيبة الحمد واشتقاق شيبة من الشيب من قوله شاب شيبة حسنة، والشيب اختلاط البياض بالسواد أسمته أمه شيبة بشعرة بيضاء كانت في ذوائبه حين ولد. ابن دريد، الاشتقاق، 1/12؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/423؛ ابن منظور، لسان العرب، 4/ 2371.

2- ابن حبيب، المحبر، 132؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 31.

3- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 553.

4- ابن حبيب، المنمق، 90 - 91؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 81.

5- ابن حبيب، المنمق، 91؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 81.

6- هامة: الهامة الدابة والنعم وهذا يعني الفرس والبعير، والهمام من أسماء الملك العظيم همته. ابن منظور، لسان العرب، 6/ 4703.

7- لام: اللئم، لامه على فعاله فهو لئيم من قوم لئام وأظهر خصال اللئم. ابن منظور، لسان العرب، 5/ 3976.

8- الصفد: العطاء. ابن منظور، لسان العرب، 4/ 2457.

9- مذود: ذود، السوق، الطرد والدفع ورجل ذائد حامي الحقيقة دفّاع. والمذود اللسان لأنه يذاد به عن العرض. ابن منظور، لسان العرب، 3/ 1524.

10- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 253، العاملي، يوسف بن حاتم، الدر النظيم، 43؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 7/ 253.

11- ابن حبيب، المنمق،91 - 92؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 82 - 83؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 427؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 553.

في الزعامة والد عبد المطلب هاشم وأمية بن عبد شمس والد حرب بن أمية، وكانت النتيجة أن انتصر وفاز بالغلبة على حرب بن أمية بعدة جوانب[1].

أما أبو طالب فقد قدح به وات فقال: ((شخصية أبي طالب أقل غموضاً من شخصية الزبير بن عبد المطلب، فقد أصبح أبو طالب زعيماً للعشيرتين هاشم والمطلب لفترةٍ بعد حلف الفضول حتى موته قبل الهجرة بثلاث سنوات. ومع أن أبا طالب كان رجلاً محترماً كزعيم للعشيرة إلا أن أمور عشيرته كانت ـ بشكل واضح ـ غير مزدهرة، وكان يشار إليه كراعٍ للإبل في الصحراء، وكانت هذه الإشارة عامرةً بالازدراء))[2].

يذكر وات هذا النص ويشير إلى مصدر أخبار مكة تأليف للأزرقي تحقيق فستنلد ج4 ص: 71. لم نعثر على هذه الطبعة، بل في طبعةٍ ثانيةٍ لم نجد أي إشارة لمثل هذا النص. لعلها إضافة المحقق في هامش الكتاب. فيستبعد أن يكون مؤرخ مثل وات قد أضاف هذه المعلومة بدون الرجوع إلى مصدر. ولعلّ وات استدل من رواية ابن سعد حيث كان أبو طالب يمتلك قطيعاً من الإبل[3].

لقد عاش العرب في الصحراء بحل وترحال حياة البداوة فلم يكن لهم غير الإبل يُتغذى من لبنها ويصنع بيوتاً من وبرها ويُؤكل لحمها ويُتنقل في أرجاء الصحراء على ظهرها، وهي أهم وسائل النقل التجاري لديهم، وتمثل مصدر رزقهم، فلا جدوى للعيش بدونها، لذا ليس من المعيب رعيها وتربيتها أو البيع والشراء فيها. وأكثر من ذلك ورد ذكرها في القرآن الكريم فضرب الله بها مثلاً في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[4]، وذكر الجمل مرة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾[5]، وبعير مرتين في قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿**قَالُوا**

1- ابن حبيب، المحبر، 91 - 92؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 427.

2- محمّد في مكة، 92.

3-الطبقات الكبرى، 1/ 133.

4- سورة الغاشية: آية 17.

5- سورة العراف: آية 40.

6- سورة يوسف: آية 65.

نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[1]، والإبل مرتين في قوله تعالى: **﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ...﴾**[2]، **﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾**[3].

ولعلو مكانة أبي طالب في الرئاسة والشرف نستدل عليها من نظمه أبيات الشعر فقال:

ومن يكُ فيها له عزّةٌ حديثاً فعزّتُنا الأقدَمُ
ونحنُ ببطحائها الراسبو نَ والقائدون ومَن يحكمُ
نشأنا وكنّا قليلاً بها نُجيرُ وكنّا بها نُطعمُ[2]

وكذلك قوله :

إذا الوحي فيهم لم يعترضه فأنني زعيم لهم أن لا يضيرهم الشعر[3]

وقوله:

واني لقرم وابن قرم لهاشم الآباء صدق مجد[4]

كيف لا يكون أبو طالب صاحب الشرف والرئاسة والقيادة وهو الذي ورثها عن أبيهِ عبد المطلب[4]، وتسنمها في أصعب الظروف بداية الدعوة الإسلامية. وقد أشار إلى ذلك ابن أبي الحديد في معرض حديثه عن الإمام علي عليه السلام بقوله: ((انحدر من أكرم المناسب وانتمى إلى أطيب الأعراق فأبوه أبو طالب عظيم المشيخة وجدهُ عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء))[5]، وكذلك قوله: ((ما أقول في رجل أبوه أبو طالب سيد البطحاء وشيخ قريش ورئيس مكة قالوا أن يسود فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له وكانت قريش تسميه الشيخ))[6].

1- سورة يوسف: آية 72.

2- سورة الأنعام: آية 144.

3- سورة الغاشية: آية 17.

4-ابن إسحاق، السير والمغازي، 69؛ أبن حبيب، المحبر، 165.

5-شرح نهج البلاغة، 1/ 4.

6-ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 1/ 29؛ ابن طاووس، بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية، 109؛ المجلسي، بحار الأنوار، 41/ 151 ؛ ابن جبر، نهج الإيمان، 167؛ الشيرازي، كتاب الأربعين، 424.

الـذي كان يقـوم مقـام القاطـع بالأمـور والمحكـم لها حتـى قيـل أن أكثم بـن صيفي [1] هـو أحـد حـكام العـرب لما سُـئِلَ عـن منبـع حكمته قـال: ((قيـل لأكثـم بن صيفـي وكان حكيـم العـرب إنك لأعلـم أهل زمانك وأحكمهـم وأعقلهم وأحلمهم فقـال وكيف لا أكون كذلـك وقـد جالسـت أبـا طالـب بن عبـد المطلب دهـره وهاشـماً دهـره وعبد منـاف دهره وقصيـا دهـره وكلّ هؤلاء سـادات أبنـاء سـادات فتخلقتُ بأخلاقهـم وتعلمتُ مـن حلمهم واقتفيـتُ سـؤددهم واتبعـتُ آثارهـم))[2]، يدل عـلى تـوارث الحكمة والعلم في نسـب بني هاشـم. وروايـة أخـرى خـص بها أبا طالـب فقـال: ((قيل لأكثم بـن صيفي حكيـم العرب، ممـن تعلمـت الحكمـة والرياسـة والحلم والسـيادة؟ قال: مـن حليف الحلم والأدب سـيد العجـم والعـرب أبى طالـب بن عبد المطلـب))[3].

ويضيف إلى ذلك فيقول: ((ونظراً لظروف الفقر المحيطة بأبي طالب أخذ محمّدﷺ علياً ليعيش معهم))[4].

هذه الرواية فيها مبالغة كبيرة صوّرت أبا طالب يعيش دون خط الفقر ومتعفف، وكأنه غير قادرٍ على توفير لقمة العيش لأبنائه، ما جعله يضطر إلى توزيع أولاده بين أقربائه كي يرفعوا عنه عبأ شظف العيش وعسر المعيشة.

أخذ وات هذه الصورة من إشارة ابن سعد عندما قال: ((وكان أبو طالب لا مال له))[5] والتناقض يكمن في أخرى لابن سعد لما أراد أن ينعت أبا طالب بالفقر قال: ((وكان أبو طالب قليل المال وكانت له قطعة[6] من الإبل...))[7].

1-أكثم بن صيفي: هو من بني أسد بن عمرو بن تميم، عاش ثلثمائة وستين سنة وقيل مائة وتسعين، أدرك الإسلام واختلف في إسلامه قيل أن ابنه قتله وكان حكيماً مقدما، ينظر: الصدوق، كمال الدين ودوام النعمة، 570؛ المفيد، الفصول العشرة، 97؛ الطوسي، الغيبة، 115.

2-الكراجي، كنز الفوائد، 58، المجلسي، بحار الأنوار، 15/ 157.

3-الطوسي، الاحتجاج، 1/ 341 ؛ القمي، عباس، الكنى والألقاب، 1/ 108.

4- وات، محمّد في مكة، 92.

5-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 96.

6-قطعة من الإبل: هي الصِّرْمةُ من الإبلِ: أي قِطعةٌ خفيفةٌ قليلةٌ، ما بينَ العشرِ إلى بضعَ عَشْرةَ، ينظر: ابن السكيت، كتاب الألفاظ، 43.

7-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 133.

هذا التناقض عند ابن سعد بين الرواية الأولى والرواية الثانية وكذلك في الرواية الثانية نفسها يقول أن أبا طالب فقيرٌ وقليل المال ثم يضيف أنه يمتلك قطيعاً من الإبل، فالذي يملك قطيعاً من الإبل كيف يحسب مع طبقة الفقراء.

لم يكن أبو طالب فقيراً كما افترى عليهِ بعض المؤرخين، فقد ورث عن أبيهِ عبد المطلب مطعم الطير والوحوش على رؤوس الجبال وهذه معروفة في حادثة خصام عبد المطلب مع قريش حول ماء زمزم فأخذ أبو طالب جزوراً ونحرها على جبل أبي قبيس حتى أكل منها الطير والسباع وأنشد أبو طالب بذلك قائلاً:

ونطعم حتى يأكل الطير فضلنا إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد[5]

وأشار البلاذري إلى كرمه بقوله: ((كانت قريش تطعم فإذا أطعم أبو طالب لم يطعم يومئذ أحد غيره))[1].

لقد كان أبو طالب يعمل بالتجارة مع سائر أبناء قومهِ[2]، ويروي ابن هشام أنه أخذ ابن أخيه محمّدﷺ معه إلى الشام في مجموعةٍ من التجار ومرّوا ببحيرا الراهب[3] في صومعته[4]. هذه المعطيات وغيرها الكثير مؤشرٌ ينفي الفقر المدقع الذي أُلصق بأبي طالب والذي تناقلته المصادر الإسلامية بإسهاب، لعلهم لم يجدوا مثلبةً في سيرة أبي طالب وابنهِ الإمام عليعليه السلام، وكذلك نقلها المستشرق وات بدون تمحيص ونقد. وعلى فرض صحة مسألة الفقر عند أبي طالب أو النبي محمّدﷺ فهي ليست مشكلةً ولا عيباً في الإنسان بل هي جانب صحي وإلهي أراده الله للإنسان فهو الغني ونحن الفقراء.

وإذا قبلنا هذه الرواية التي مفادها عام القحط الذي أصاب مكة، فأخذ محمّدﷺ علياً،

1- أنساب الأشراف، 5/ 225.

2- ابن إسحاق، السير والمغازي، 73؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 3/ 240.

3-بحيرا الراهب: نصراني من بني عبد القيس عاش في بصرى التابعة إلى حران الواقعة في سوريا، اشتهر ببحيرا الراهب ولم يعرف اسمه ونسبه وقيل اسمه سرجيس، لديه صومعة للعبادة، ولد ق 6م وتوفي ق 7م، لم نجد له ترجمه وافية في المصادر الإسلامية ولا في الكتب التي عنيت بذكر أساقفة الشام أو بصرى، ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 97؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، 1/ 475؛ الحضرمي، أبو محمّد الطيب بن عبد الله، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، 1/ 116.

4- الذهبي، تاريخ الإسلام، 1/ 58 ؛ سير أعلام النبلاء، 1/ 169.

والعباس أخذ جعفر، وأبقى أبو طالب عقيل عنده[1]. فليس فيها حرج لأن العرب عرفوا التكافل الاجتماعي قبل ذلك العام، وكيف وهم أبناء عمومة، ولا استبعد أن المشيئة الإلهية أرادت أن يحضى الإمام علي عليه السلام برعاية وكفالة نبي مرسل استعداداً للمرحلة القادمة وليكون أول المسلمين إيماناً.

لقد صحّت الرواية بشأن نشأة الإمام علي عليه السلام في كنف النبي محمّد صلى الله عليه وآله لقوله عن نفسه: ((وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرقه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل))[2].

فهذه التربية لم تكن بسبب الفقر أو الأزمة الاقتصادية وإنما جاءت وفق الإرادة الإلهية وبطلبٍ من محمّد صلى الله عليه وآله حيث روي أنه حينما تزوج خديجة عليها السلام طلب من أبي طالب أن يدفع إليه أحد بنيه للعيش على إمرته، فأجاب أبو طالب طلبه، فاختار محمّد صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام من دون غيرهِ [3] فقال الإمام علي عليه السلام: ((لم يجمع بيت في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم روح النبوة))[4]. فكان السبب وراء هذا التربية يتعلق بجانب النبوة والعقيدة الإسلامية وهي مرحلة إعداد الإمام علي عليه السلام للإمامة كي يحمل رسالة الإسلام بعد النبوة بوفاة النبي محمّد صلى الله عليه وآله.

وفي حب إنفاق المال قال أحد أجواد العرب وهو حاتم الطائي[5] حيث كان يحث الناس على نبذ حب المال:

فــلا الجود يفنــي المال قبــل فنائه ولا البخــل في مــال الشــحيح يزيــد

1- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 313.

2-ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 13/ 197.

3-ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، 2/ 28.

4-ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، 2/ 180.

5-حاتم الطائي: هو حاتم بن عبد الله بن سعيد بن الحشرج الطائي القحطاني، زعيم قبيلة وشاعر بل اشتهر بجوده وكرمه، له ديوان شعر، يكنى أبا عدي أو أبا سفانة، توفي عام (46 ق.هـ)، ينظر: الشجيري، آمالي ابن الشجيري، 1/ 206؛ ابن الجوزي، المنتظم، 2/ 285 – 289.

فـــلا تلتمـــس مـــالاً بعيـــش مقتر ... لـــكل غـــد رزق يعـــود جديـــد

ألم تـــر أن المـــال غـــاد ورائـــح ... وأن الـــذي يعطيـــك غـــير بعيـــد[6]

فكان أبو طالب من بذله للمال لم يكتنز كثيره ليقين إيمانه بالله خير رازق وأكرم معطي.

الانتقاص من أسرة النبي محمّد ﷺ:

لم يشكك المستشرق مونتجمري وات باسم أو نسب النبي محمّد ﷺ، بل أخذ يشكك بما ذكرته المصادر من علوّ مكانة هاشم وبنيهِ في مكة، ويعدها مبالغةً من قبل المؤرخين الذين كتبوا السيرة والتاريخ وعاشوا في العصر العباسي وميولهم لبني العباس الذي يلتقي نسبهم مع بني هاشم، بالضد من بني أمية الذين ينتسبون إلى عبد شمس أخو هاشم إذ قال: ((فأسبغوا على هاشم وأبنائه وأحَفاده أهميّةً كبيرةً ووضعوهم موقع الصدارة قد لا تمثل حقيقةً مالهم من أهميّةٍ وصدارة))[1].

لعلّ وات قفز فوق حقائق كثيرة وتجاهلها بمدح هاشم وآبائهِ وأحفاده، محاولةً منه التقليل والانتقاص من هيبة النبي محمّد ﷺ وأعمامه. فلم يكن في العرب كأولاد عبد المطلب أشرف منهم، ولا أجسم شم العرانين تشرب أنوفهم قبل شفاههم[2]، ولهذا أورد قرة بن حجل بن عبد المطلب[3] أبياتاً افتخر بها بعمومتهِ ناسباً لهم الشجاعة والشرف والكرم وختم ذلك قائلاً:

ما في الأنام عمومة كعمومتي ... خيراً ولا كـأناسنا أناسـاً[4]

ولأبناء عبد مناف الأربعة هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب دورٌ كبيرٌ في تنشيط عمل التجارة في مكة من عقد العهود والاتفاقيات مع دول الجوار الكبرى مرتّبةً حسب أسمائهم

1- محمّد في مكة، 89.

2-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 90.

3-قرة بن حجل بن عبد المطلب: أبوه أسمه المغيرة ولقب بحجل هو اليعسوب، أخو حمزة بن عبد المطلب من أمه، وكان يكنى بأبي قرة الذي لم يعقب، ولم نجد له ترجمة سوى أنه كان في خلافة أبو بكر مدح المسلمين في أجنادين سنة (13هـ/ 634م)، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 94؛ ابن حبيب، المنمق، 35؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 4/ 294.

4- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 74؛ السيوطي، المحاضرات والمحاورات، 56.

الشام واليمن بلاد فارس والحبشة والتي عرفت باسم الايلاف[1]، والايلاف وردت في القرآن الكريم في سورة قريش، معناها اللغوي من معاجم اللغة أنها الجمع بعد تفرق، وصل الشيء، الأنس[2]، وتفسير الآية يدل على ممارسة التجارة من قبل قبيلة قريش وبمعنى الجمع على المودة[3].

وهنا وات يذكر دور أولاد عبد مناف الأربعة بالتجارة دون الاستشهاد بسورة قريش التي تمثّل النص القرآني الذي يبينّ نشاطهم التجاري، ويحاول وات أن يصوّر لنا أن هاشم رجلٌ فقيرٌ لا تجارة له بينما عبد شمس هو رجلٌ غنيّ له ثروة طائلة ما جعله يترك عمل تقديم الطعام والماء للحجاج إلى أخيه هاشم.

وهذا الخبر لا يعيب ولا يقدح في بني هاشم، بل الحقيقة على العكس من ذلك، لقد كان هاشم بن عبد مناف القيّم على سقاية وإطعام الحجيج ومساعدة المنقطع منهم ومعونته على بلاغ منزله، فكانت قريش تجمع إليه الفضول من أموالها أيام الحج، وهاشم يساهم بربع ماله في ذلك[4]:

وله يقول مطرود بن كعب الخزاعي:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

كانت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف[7]

وهذا يؤكد خلاف ما ذهب إليه وات من تصوير هاشم بأنه رجلٌ فقير، بل كان ميسور الحال؛ لأن إنفاق المال دلالةٌ على الثراء. ومن الواضح أن وات سيطر عليه الفكر المادي لأنه أشار إلى أن تحقيق الأرباح منحصراً بالتجارة الخارجيّة التي زاولها عبد شمس، وأمّا تجارة هاشم الداخليّة واهتمامه بإطعام الحجاج وسقيهم الماء فلا ربح فيها متجاهلاً أنها من أشرف المهن وأكثرها نفعاً كونها تجارة مع الله، والكرم سجية الإنسان العربي وهي أسمى مراتب

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 268؛ ابن سعد، الطبقات، 1/ 75.

2- ابن منظور، لسان العرب، 9/ 10.

3- سورة آل عمران: آية 103؛ ينظر البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 1/ 480؛ سورة قريش: آيات 4-1؛ ينظر البيضاوي، أنوار التنزيل في أسرار التأويل، 5/ 340.

4-ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، 27.

الشجاعة، وليومنا هذا يذُكر هاشم بالسقاية والرفادة، ولم يذكر من جمع المال. علماً أنّ الله يحذر من جمع المال في قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾[1]. فالخلود لا يتحقق بادخار المال بل في العمل الصالح والسخاء.

أمّا اسم هاشم فهو عمرو بن عبد مناف وسمي هاشماً لأنه هشم الثريد لقومهِ وللحجيج في سنين عجاف وقحط[2]. وهذا الفعل يدل على تأصل الكرم في هاشم من أجداده بل هو إيثار، وشاع لقب هاشم لكرمهِ بدلاً من اسمه عمرو، هذه المناقب لم يستعرضها وات ليس سهواً وإنما لكونها تتصل بأجداد النبي الكريمﷺ.

1-سورة الهمزة: الآيات 1 – 3؛ ينظر: الزمخشري، الكشاف، 4/ 794 – 795.

2- ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، 1/ 45؛ أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، 1 /151.

المبحث الثاني

طفولة النبي محمّدﷺ

1- الولادة:

يحدّد وات ولادة النبي محمّدﷺ في عام الفيل المتمثّل في حملة أبرهة غير الناجحة على مكة أي في حوالي سنة 570م[1].

هذه الولادة تكاد تُجمع عليها المصادر الإسلاميّة، إذ إن ولادة النبي محمّدﷺ ومسقط رأسه ومهد طفولته كانت مكّة المكرمة، ففيها بيت الله الحرام الكعبة المشرفة، التي بناها جدّه النبي إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام، في يوم الإثنين عام الفيل سنة 570م لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، في اليوم الذي بعث الله فيهِ طيراً أبابيل على أصحاب الفيل[2]. وعن أبي قتادة عن عمر بن الخطاب أنه قال للنبيﷺ: ((يا نبي اللهﷺ أأصوم يوم الإثنين؟ قال: ذاك يومٌ ولدت فيه، ويوم أنزلت عليَّ فيه النبوة))[3]. ومنهم يُرجّح ولادته عام 571م[4]، وهذا ليس محل خلاف. هذه الولادة يوافقها وات لاعتماده على مصادر السيرة المختلفة.

2 - الرضاعة:

يتفق وات مع الرواية التاريخية الشائعة عن رضاعة النبي محمّدﷺ من قبل حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد ويعتمد رواية ابن إسحاق فيقول: ((كان من عادة الطبقات العليا في مكة أن تدفع بأبنائها إلى حاضنات من القبائل البدوية حتى ينمو الطفل في جو الصحراء النقي فيغدو قوي البنية. وهذا ما حدث مع محمّد طوال عامين أو أكثر، فقد رعته حليمة السعدية، وهي امرأة من بني سعد بن بكر من قبيلة هوازن))[5].

شاءت الحكمة الإلهيّة أن يولد النبي محمّدﷺ يتيم الأب الذي توفي قبل ولادتهِ،

1-محمّد في مكة، 93.

2- ابن إسحاق، السير والمغازي، 1/ 45؛ ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 33؛ البيهقي، دلائل النبوة، 1/ 76.

3- أبو داود، مسند أبي داود، 1/ 515؛ ابن خزيمة، صحيح أبن خزيمة، 2/ 1015.

4-السهيلي، الروض الانف في شرح السيرة النبوية، 1/ 155؛ معدى، حسين، الرسول في عيون غربية منصفة، 1/ 209.

5-محمّد في مكة، 93.

وتكفلهُ جدّه عبدالمطلب ومن ثم عمهُ أبو طالب. وبتصريح من وات أن محمّداً ﷺ كان من الطبقات العليا في مجتمع مكة وكان اهتمامهم بتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفكرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف[1]. فضلاً عن تربيته على خلق الشجاعة وركوب الخيل، لأنّ ابن البادية يختلف عن ابن المدينة في كثيرٍ من السجايا والأخلاق، كما أنه ينشأ صحيح اللسان بعيداً عن اللحن في الكلام الأمر الذي يتواجد في مكّة حيث إنّها مدينةٌ يقطنها ويزورها الكثير من الأجناس، ناهيك عن المزايا والسمات التي يتربى عليها ابن البادية كالكرم والنخوة وسلامة الفطرة[2]. ولم تكن قريش أفصح العرب؛ فهي مجتمع حضري، وفيها أجناس من الناس تختلف لغاتهم، فكانت قريش ملتقى حضارات خاصة العاملة في الفلاحة والتجارة كما في قوله تعالى: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**﴾[3] فيحصل هنا التأثير على لهجة قريش من خلال الاتصال بالشام، التي تعتبر لهجتها سريانية وهي إحدى اللهجات الآرامية[4]، أما اليمن ولهجتها العربية الجنوبيّة آرامية إيرانيّة ويهوديّة[5]، وفيها الصنائع لم يكونوا عرباً واشتقوا اسمهم أصحاب مهنة من مهانه[6]. فلو كانت قريش أفصح العرب لنبغ منهم شعراء، ولعقدت في مكة أسواق الأدب. لذلك لم ينزل القرآن بلهجة قريش.

فقد قال النبي محمّد ﷺ متفاخراً في نشأتة في البادية: ((أنا أعربكم: أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر))[7]، وفي حديث أخر قال: ((أنا سيد ولد آدم بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد واسترضعت في بني زهرة))[8].

1- البوطي، فقه السيرة، 61-60.

2- للمزيد ينظر خليل، عادل أسماعيل، التنشئة الاجتماعية في الإسلام، 111.

3-سورة قريش: آيتان 1 – 2.

4-حجازي، محمود فهمي، علم اللغة، 173 و 176.

5-حجازي، علم اللغة العربية، 222.

6-ابن السكيت، الألفاظ، 346.

7- المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، 1/ 376 وفيض القدير، 3/ 57؛ الكحلاني، التنوير شرح الجامع الصغير، 4/ 260.

8-ابن الملقن، البدر المنير، 8/ 281؛ ابن حجر العسقلاني، التلخيص الحبير، 4/ 14.

وهذا إنْ دلّ على شيءٍ فأنه يدل على أنّ محمداًﷺ ولد ورضع في بني زهرة ونشأ في بادية بني سعد.

ولكن وات أغفل سبباً آخر وراء إرسال النبي محمّدﷺ مع حليمة بديار بني سعد، وهو الوباء الذي أصاب مكة لأول مرة وللآخر مرة المتمثل بالجدري سنة 571 م[1]، وعن هذا الوباء تتحدث كتب السيرة بتفصيل أنه أول مرةٍ تُلاحظ الحصبة والجدري بأرض العرب لذا قالت حليمة لآمنة بنت وهب:)) دعينا نرجع ببنينا هذه السنة الأخرى، فإنّا نخشى عليهِ أوباء مكة))[2].

وات يذكر النص ولم يعرج على الوباء لكونهِ يمثل المعجزة التي تتصف بالتفرد وعدم التكرار بما أصاب جيش أبرهة من طيور أبابيل، لأن ذكرها يرفع من شأن العرب وقداسة بيت الله الحرام.

من المستشرقين الذين أنكروا حادثة إرضاع النبي محمّدﷺ من قبل حليمة في ديار بني سعد: وليم موير (1819-1905) حيث يقول أن رواية إسترضاع الرسول محمّدﷺ لدى بني سعد من قبل حليمة السعدية هي محض أساطير[3]. أما مكسيم رودنسون يقول أن هذه الرواية غير صحيحة[4].

ومن المستشرقين من يثبت هذه الواقعة، فقد تحدث آتيين دينيه[5] عن واقعة حليمة السعدية ورضاعتها للنبي محمّدﷺ وإقامته في بني سعد بصورة مطولة في جميع تفاصيلها منذ أن أخذته حليمة وإقامته في بني سعد إلى أن انتقل إلى أمه، فقال: ((كان محمّدٌ يحب إعادة ذكريات تلك الفترة وكثيراً ما كان يقول: إن من نعم الله عليّ التي لا تقدر، أني ولدت من قريش أشرف القبائل وأني نشأت في بادية بني سعد أصح المواطن بالحجاز)).

وبعد زواج النبيﷺ من السيدة خديجةعليها السلام جاءت حليمة السعدية (ت 8ه/ 629م)[6] زائرةً إلى مكة وتشكو فاقة الفقر التي تمر بها من هلاك أغنامها ومن وفاء النبيﷺ

1- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 12/ 699.

2- البيهقي، دلائل النبوة، 1/ 135؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 1/ 227.

3- نقلاً عن، الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، 1/ 78؛ ميور، وليم، حياة محمد، 48.

4- نقلاً عن الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي 1/ 63؛ مكسيم، رودنسون، صورة الغرب والدراسات الغربية، 30.

5-محمّد رسول الله، 109-108.

6-ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 4/ 274.

لمرضعته، وكرم السيدة خديجة فأعطوها أربعين شاة وبعيراً هادئاً لتركب عليه، ثم عادت إلى بيتها مسرورة[1]. ثم وفدت على النبي محمّد ﷺ بعد إعلانه النبوة فأسلمت وبايعت وأسلم زوجها، وفرح الرسول ﷺ بدخولهما الإسلام ودعا لهما بالخير[2]. أما إكرام المرضعة من قبل النبي ﷺ فهي من سجايا بني هاشم عامة ومحمد ﷺ خاصة، في عدم رد السائل لأنه كان ﷺ جواداً وسخياً في بذل ما عنده لسعادة الفقراء والمحتاجين بمعنى التكافل الاجتماعي.

كان المصدر الذي اعتمد عليه وات في حادثة رضاعة النبي ﷺ من قبل حليمة السعدية رواية ابن إسحاق[3] عن جهم بن أبي جهم عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال: ((قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر، نلتمس بها الرضعاء، وفي سنة شهباء[4]، فقدمت على أتان[5] لي قمراء[6]، كانت أذمت بالركب، ومعي صبي لنا، وشارف[7] لنا، والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمت مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فإذا قيل إنه يتيم تركناه، وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه، إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأما أمه ما عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعا غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك، فذهبت، فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره. فما هو إلا أن أخذته، فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من اللبن فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[8]، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نسمةً مباركة، ألم تري إلى ما بتنا به الليلة من الخير حتى أخذناه؟! فلم يزل الله

1- البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 95؛ ابن الجوزي، المنتظم، 2/ 264؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 96.

2- ابن الجوزي، المنتظم، 2/ 264؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 96.

3-السير والمغازي، 48 – 50.

4-شهباء: الأرض البيضاء التي لا خضرة لها لقلة المطر، فيراد بها ذات قحط وجذب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 1/ 508.

5-أتان: أنثى الحمار، ينظر: الزبيدي، تاج العروس، 3/ 258.

6-لي قمراء: ليلة بيضاء، ينظر: الزبيدي، تاج العروس، 3/ 504.

7-شارف: الناقة المسنة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 9/ 173.

8-لحافل: الضرع الممتلئ، تجمع اللبن في الضرع، ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/ 11.

يزيدنا خيراً، حتى خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحبي ليقلن: ويلك، يا بنت أبي ذؤيب، أهذه أتانك التي خرجت علينا معنا؟ فأقول: نعم، والله إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأناً، حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله عز وجل أجدب منها، فإن كانت غنمي تسرح ثم تروح شباعاً، لبناً، فنحلب ما شئنا، وما حولنا أحد تبض[1] له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً، حتى أنهم ليقولون لرعيانهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب، فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فيريحون أغنامهم جياعا، وما فيها قطرة لبن، وتروح غنمي شباعا، لبنا، نحلب ما شئنا فلن يزل الله ﷻ يرينا البركة، ونتعرفها حتى بلغ سنتيه، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا[2]، فقدمنا به على أمه، ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة فلما رأته أمه، قلنا لها: يا ظئر دعينا نرجع ببنينا هذه السنة، فإنا نخشى عليه أوباء مكة، فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم فسرحته معنا)).

بعد التمحيص في الرواية أعلاه نجد فيها الدس متمثل في بقاء محمّد ﷺ بدون مرضعة، بعد عرضه على عشرة نسوة مرضعات[3]، وسبب رفض المرضعات له كونه يتيماً منبوذاً، مرفوضاً، وذلك بتأكيد حليمة أنها ما أخذته لأنها لم تجد غيره! روايات ظاهرها المدح وباطنها الذم[4]؟

لكن الراوي أغفل مكانة جده عبد المطلب إذ كان ذو جاه وشهرة أكثر من ابنه عبد الله والد النبي محمّد ﷺ، فلم يكن مغموراً فهو سيد البطحاء وشخصية مرموقة. واشتهر بحادثة فداء ابنه عبد الله بمائة من الإبل قبل تزويجهِ إياه بسنة[5]، فكيف يُصور من يمتلك مائة من الإبل فقيراً. لذا يُستبعد أن المرضعات يجهلن سيد البطحاء عبد المطلب، وأشير له بالبنان على حادثة أبرهة الفاشل على الكعبة حتى سمي إبراهيم الثاني، وهو الذي أعاد حفر بئر زمزم[6].

1-تبظ: تقطر لبناً، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 7/ 118.

2-جفرا: إذ قوي على الأكل، ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، 1/ 392.

3-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 110.

4-النصر الله، جواد كاظم منشد، نشأة النبي في ديار بني سعد.

5-اليعقوبي، التاريخ، 2/ 6.

6-اليعقوبي، التاريخ، 2/ 11؛ القاضي النعمان، شرح الأخبار، 3/ 219.

لم يكن للمرضعة حليمة السعدية فضل بإرضاع النبي ﷺ فهي أخذته من باب المكابرة مع صاحباتها المراضع لأنها لم تجد من ترضعه فقبلت به مكرهة؟

كيف تتجرأ حليمة بالقدوم إلى مكة للرضاعة وهي قد جف ثدياها من اللبن؟ وابنها يبكي من الجوع؟ فكيف بوسعها إرضاع طفل ثانٍ مع ابنها؟ وهذا تناقض واضح لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

أما عن أحوال حليمة السعدية المعاشية فهي كانت تعيش الفقر المدقع فحمارها ضعيف وناقتها هزيلة ليس فيها لبن؟ فكيف يطمئن عبد المطلب على عيش حفيدهِ في عائلة ضاوية من الجوع؟ إضافة إلى ذلك الفقر المعاشي ينسحب سلبياً على الوضع الاجتماعي فتكون عائلة حليمة مغمورةً فماذ يا ترى سيعلمون النبي الكريم محمّد ﷺ؟

لم نجد لهذه العادة مصداقاً مع غير النبي ﷺ فلم نعثر على رواية تشير إلى إرسال أبي بكر، وعمر بن الخطاب، والإمام علي عليه السلام ابن عم النبي وأخيه بالمؤاخاة، ولا عمه شهيد الإسلام حمزة بن عبد المطلب عليه السلام يكبره بأربع سنين، ولا عمه العباس يكبره بثلاث سنين وغيرهم إلى الرضاعة في البادية.

ولعلّ هذه الرواية ذات طابع إسرائيلي فهي متشابهة إلى حدٍ ما مع قصة النبي موسى عليه السلام عندما أخذه البحر إلى قصر فرعون وأعيد للرضاعة من لبن أمه وقرة عينها به. أما نبينا محمّد ﷺ أخذ براً لعدم وجود بحر في شبه الجزيرة العربية، وبعد عن أمه الطاهرة آمنة بنت وهب. فلماذا آمنة لم ترضع ولدها وهي التي شاهدت الكرامات في حمله والمعجزات بعد ولادته ! فهل كانت آمنة مصابة بمرض ما؟ وإذا كانت كذلك لماذا لم تشر المصادر إلى ذلك؟، أما الدراسات الطبية الحديثة تؤكد بفضل الرضاعة من لبن الأم؛ كونه أكثر فائدة، وهو مرحلي يختلف من فترة إلى أخرى ويكون أنفع. وما ورد في الرواية قول الحارث إلى زوجته حليمة: ((... عسى اللَّهُ أن يجعل لنا فيه بركة...)) إشارةً واضحةً إلى إيمانهم بالله. يراد بها ذم آمنة بنت وهب على أنها كافرة ولا يجوز لها رضاعة النبي محمّد ﷺ وذلك بناءً على حديث موضوع عن النبي محمّد ﷺ مضمونه لما سأله رجل عن مصير أمه أجابه قائلاً: ((أمي مع أمكما في النار))[1]. وفي رواية أخرى جاء ابنا مليكة إلى النبي ﷺ فقالا: ((يا رسول اللهِ، إن أمنا كانت تكرم الزوج، وتعطف على الولد، وتكرم الضيف، غير أنها كانت وأدت في الجاهلية. فقال ﷺ:

1-ابن بطه العكبري، الإبانه الكبرى، 4/ 80.

أمكما في النار))[1]. فرجعا وهما غاضبان لما سمعا عن رسول اللهﷺ بمصير أمهما، وبعد برهة من الزمن أمر رسول اللهﷺ بإحضارهم! فرجعا وهما مسروران عسى أن يكون حدث شيء يفرحهم فقال لهم رسول اللهﷺ: ((أمي مع أمكما))[2].

مثل هذه الأحاديث الموضوعة عن الرسولﷺ ويراد بها تشويه صورة الرسولﷺ أن أمه وأباه في النار وهما ماتا قبل بزوغ نور الإسلام، فلذا عمد كتاب السيرة لرفع الحرج عن سيرة النبيﷺ من أنّ أمه كانت كافرة وأرضعته من لبن الكفر، فلذا نسجوا قصة الرضاعة من قبل حليمة. إلاَّ أن هناك حديثاً قدسيّاً نزل به جبرائيل عليه السلام على النبي محمّدﷺ يخبره بمكانة والده قائلاً:))إن الله يقرئك السلام، ويقول: إني حرمت النار على صلْب أنزلك، وبطْنٍ حملك، وحجرٍ كفلك))[3]. يبين الحديث القدسي براءة والدي النبيﷺ وكفيله عبد المطلب وعمّه أبو طالب من تهمة الشرك وعدم اعتناق الإسلام وهما على ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وعصمتهم من دخول النار.

وفي حديث للنبي محمّدﷺ قال: ((إذا كان يوم الْقيامة شفعت لأَبي وأُمي وعمي أَبو طالب وأَخٍ لي كان في الجاهلية))[4]، والشفاعة لا تتحقق إلا للمؤمنين حتى لو في قلبه حبة خردلٍ من الإيمان أن الله إكراماً لنبيه وحبيبه وهو سيد البشر ألا يعذب بالنار والديه من جهة، فضلاً عن أنهما توفيا قبل البعثة وبذلك فإنهما غير مأزورين من جهة ثانية، إذ قال تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[5]، ورسول اللهﷺ نهى عن ذكر مصير من انتقل إلى جوار ربه فقال: ((عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم واسمعوا لهم وأَطيعوا))[6].

وإنّ خروج النبي محمّدﷺ إلى بادية بني سعد ليس بهذه الطريقة التي أخذ بها حيث إنّه بقي بدون مرضع! وأخذته حليمة بعد أن يئِست من الحصول على رضيع تنتفع منه! فهو

1-الطبراني، المعجم الكبير، 10/ 80؛ أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4/ 238.

2-البزار، البحر الزخار، 4/ 339؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 2/ 396.

3-الكليني، الكافي، 1/ 446؛ الصدوق، الأمالي، 703.

4-ابن عساكر، تاريخ دمشق، 66/ 340؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 7/ 203؛ المناوي، فيض القدير، 3/ 89.

5-سورة البقرة: آية 134؛ ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 96.

6-الطيالسي، مسند أبي داود، 2/ 357.

الذي تتشرف العرب والعجم بالنظر إليه وذكر اسمه، وبعض المعجزات تحققت بعد وفاته. وأرجح أنّ خروج النبيﷺ إلى بادية بني سعد كان بعد أن أكمل من العمر سنتين، فخروجه إذناً لم يكن للرضاعة كما شاع في المصادر الإسلامية[1]، فلذا تمت رضاعته من قبل أمه آمنة بنت وهب، فخرج بسنة من عمره إلى بادية بني سعد لأمر التنشئة البدنية السليمة[2].

وهنالك حكمة من إرساله للبادية وهي تربيته بالاعتماد على النفس من الصغر بعيداً عن تدليل الأمهات والجدات وبقية الأقارب، وتقويماً لألسنتهم من اللحن وغيره من مفسدات اللغة[3]، وكذلك المرح في الطفولة والاتصال بمحيطه الخارجي، وعدم إحاطته بصيانةٍ أو رقابةٍ شديدةٍ من قبل ذويه يساعد على نمو شخصية الطفل ويبعده عن الخوف والانزواء[4]، فضلاً عن ذلك أن لا يكون لبني عبد المطلب سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب والإيهام لعامة الناس بأن محمداًﷺإنما رضع لبان دعوته ورسالته من صباه بإرشادٍ وتوجيه من أبيه وجده ليصل إلى جاه الدنيا باصطناع النبوة، فقد كانت لجده ومن ثم لعمومته مكانةً مرموقةً في خدمة بيت الله الحرام ويمتلكون الوظائف الدينية المهمة في مكة[5]. هذه الأسباب تدعونا لترجيح أن نشأة النبي محمّدﷺ حصلت في بادية بني سعد عندما كان عمره سنتين ليكتمل النمو العقلي والوجداني واللغوي والنفسي، وليس لرضاعة اللبن من حليمة السعدية لأنها لا تمتلكه.

3 - شق الصدر:

يذكر وات حادثةً مهمّةً في حياة النبي محمّدﷺ، وهي لا يكاد أي مصدر في التاريخ الإسلامي يخلو من ذكرها، متمثلةً بشق الصدر للنبي محمّدﷺ. يعتبرها واحدةً من الحكايات الكثيرة التي تصوره على أنه كان شخصاً ذا أبعادٍ غيبيّةٍ في هذه المرحلة المبكرة من عمره[6]. ومن ثم ينظمّ برأيه إلى طائفةٍ من المؤرخين الذين لا يؤمنون بالغيبيات ويكاد

1-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 161 – 164؛ ابو يعلى، المسند، 13/ 93؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 572؛ ابو نعيم الأصفهاني، دلائل النبوة، 111؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 96، ابن الأثير، أسد الغابة، 5/ 427.

2-الكوراني، السيرة النبوية، 1/ 104 – 105.

3-أحمد، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، 116.

4-الرحيم، أحمد حسن، محاضرات في علم النفس، 291.

5-البوطي، فقه السيرة، 50 – 51.

6-محمّد في مكة، 94.

يجزمون بعدم صحتها؛ ويعلل ذلك لأنّها تشير إلى أمور من المنطق أن نتوقع الإشارة إليها بعد أن أصبح نبياً، وهو ما لا نجد إشارةً إليه. لكن المؤكد أن هذه الروايات تعبر عن شيء بالنسبة للمسلمين المؤمنين. وبالتالي هي حقيقة بالنسبة لهم ومناسبة لإطالة حياة نبيهم[1].

لذا نستشف حقيقة أن وات ينكر حادثة شق الصدر، ويعتبرها وضعت لاحقاً بعد أن أصبح محمّدﷺ نبياً؛ كي يطيل بها المسلمون حياة النبي محمّدﷺ، وهي من الأمور الغيبيات التي لا يؤمن بها، بل ينكرها. وكان وات دقيقاً إلى حدٍّ ما في فهم الروايات الموضوعة التي يفتري بها على شخص النبي محمّدﷺ وهو منزهٌ عن ذلك.

ويكتفي وات بذكر رواية ابن إسحاق كما يلي: والرواية الأولى ((... فبينما نحن خلف بيوتنا وهو مع أخ له من الرضاعة في بُهم لنا جاءنا أخوه يشتد فقال ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه وهم يبحثون عن شيء بداخله، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال أي بني ما شأنك قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب انطلقي بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما يتخوف قالت: فاحتملناه فلم ترع أمه إلّا به قد قدمنا به عليها فقالت ما ردكما به قد كنتما عليه حريصين فقلنا لا والله يا ظئر إلا أنّ الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا الذي علينا وقلنا نخشى الإتلاف والإحداث نرده إلى أهله فقالت ما ذلك بكما فأصدقاني شأنكما فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره فقالت أخشيتما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وأنّه لكائن لابني هذا شأن...)[2].

الرواية أعلاه ذكرها ابن إسحاق[3]، والنقد الظاهري للرواية أنّها خاليةٌ من سلسلة السند في مصدرها، ثم إن وات لم يشِرْ إلى المصدر الذي أخذ منه الرواية.

الرواية الثانية لابن إسحاق: عن ثور بن يزيد[4] عن خالد بن معدان أن بعض أصحاب

1-محمّد في مكة، 94.

2- محمّد في مكة، 95 96-.

3- السيرة والمغازي، 27؛ ينظر ابن هشام، السير النبوية، 1/ 164 – 165.

4-ثور بن يزيد: وهو ثور بن يزيد الكلاعي من أهل حمص، قدري، جده شهد صفين مع معاوية وقتل يومئذ، فكان ثور إذ ذكر الإمام علي عليه السلام قال لا أحب رجلاً قتل جدي، توفي سنة (253 هـ/ 770م) وعمره بضع وستين سنة، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 7/ 324.

رسول الله ﷺ قالوا له: أخبرنا عن نفسك قال: ((... فبينما أنا في بهم لنا خلف خيامنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقّا بطني ثم استخرجا قلبي فأخرجا منه علقةً سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهم لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بعشرة فوزنتهم [وزني أثقل منهم]، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم))[1].

الروايه أعلاه ذكرها ابن إسحاق[2]، والنقد الظاهري للرواية أن الراوي ثور مطعون فيه وغير ثقة كان يدلس ويرسل[3].

ولو أجرينا مقارنةً بين الروايتين وهما من مصدر واحد نجد أن:

الرواية الأولى المتحدث فيها هو أخو محمّد ﷺ في الرضاعة، بينما في الرواية الثانية فالمتحدّث هو النبي محمّد ﷺ، وهما في عمر سنتين أو ثلاث سنين، والسؤال هنا يطرح نفسه كيف لطفلين أن يختلقا روايةً كشق الصدر!؟ علماً أن الحلبي وضع لها حلاً وهو أنّ محمّداً ﷺ كان عمره الشريف عشرة أشهر ويتكلم بفصاحة[4]، ولعله بهذا الحلّ أراد أن يزيل الحرج، لذلك لم يحدّد في الروايتين من هما الرجلان؟

في الرواية الأولى الرجلان أضجعا محمّداً ﷺ، وفي الرواية الثانية لم يحدث الإضجاع، وأن وات حذفها من النص الأصلي.

كما أنّ وات لم يحدّد هويّة الرجلين من هما؟ على الرغم من أن المصادر الإسلاميّة قالت عنهما الكثير من قبيل أنهما من الملائكة أو أنّهما طائران،...[5].

الرواية الأولى استخرج منه شيء لم يعرفه [6]، والرواية الثانية استخرج علقة سوداء[7].

1- وات، محمّد في مكة، 96 97-.

2- السيرة النبوية، 28؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 166 – 167.

3-المقدمي، التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم، 50؛ وهو الذي روي حديث عن رسول الله: ((الأمناء عند الله: جبريل وأنا ومعاوية)) ينظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 4/ 169.

4- السيرة الحلبية، 1/ 136.

5-مسلم، صحيح مسلم، 1/ 92؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 1/ 231.

6-وات، محمّد في مكة، 95 – 96.

7-وات، محمّد في مكة، 96 – 97.

أضيف إلى الرواية الثانية أن الرجلين كان معهما طست ذهب مملوء بالثلج، ولم يذكر في الأولى.

والرواية الثانية تم غسل قلب محمّدﷺ وأنقياه ولم يغسل في المرة الأولى.

أضيف إلى الرواية الثانية عملية وزن محمّدﷺ، ولم يخبرنا الراوي كيف تم الوزن هل بالميزان العادي أم روزة[1]؟.

وفي الرواية الثانية نلاحظ انقطاع سندها فلا نعرف من هم أصحاب النبيﷺ الذين سألوا حتى نتحرى عنهم.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ تعدّد ألفاظ الرواية والزيادة التي وردت فيها تشعرنا أن الرواة قد تصرفوا بها زيادةً ونقصاناً؛ وذلك كلُّه يقلل من مصداقية الحدث.

هذا التناقض حصل في روايتين من مصدر واحد أما إذا قورنت مع بقية المصادر فيكون الاختلاف كثيراً، ما يجعلنا نشك بصحتها.

نقارن رواية ابن إسحاق مع بعض المصادر نجد أن العملية الجراحية التي أجريت للنبي(صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ومع الملائكة طست الذهب والثلج وغسل القلب جرت في ظرف شق الصدر للمرة الثانية عند الإسراء والمعراج[2]، أما ابن إسحاق يذكر روايتين في حادثة واحدة، ويكتفي اليعقوبي بحادثةٍ واحدةٍ ومختصرةٍ وهي شق البطن وغسل جوفه[3].

وأخيراً لماذا الله وضع فيهِ هذا هل هي حكمة أم بلاء واختبار؟ هذه التساؤلات تقودنا إلى الشك في صحة الحادثة.

وهذه الحادثة جاءت وفقاً لرواية أنس بن مالك. حينما كان يقول: ((وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدرهِ صلى الله عليه وسلم[4]، أي أنه تعرض لعمليّةٍ جراحيّةٍ كبرى لإخراج العلقة منه. ويعتمد من يعتقد بهذه الحادثة على حديثٍ رواه عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللّهِﷺ: ((ما مِنْ مولودٍ إلا يطعن الشيطان في نغضِ كتفه، إلا عيسى وأُمه، فإن الملائكة

1- الرصافي، الشخصية المحمدية، 112.

2-البخاري، صحيح البخاري، 1/ 78؛ النسائي، السنن الكبرى، 1/ 197؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، 14/ 243.

3-تاريخ، 2/ 7.

4-مسلم، صحيح مسلم، 1/ 147؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، 14/ 250.

حفت بِهما))[1]، وفي الحديث نفسه باختلافٍ بسيط عَنْ أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ((كل بني آدم يطعن الشيطان بإصبعه في جنبه حين يولد إلا عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب))[2]. واستند على قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[3]. هذه الأحاديث يراد بها أن النبي محمّد ﷺ غير معصوم وعيسى عليه السلام معصوم.

وأبو هريرة معروف عند جمهور المسلمين بالوضع لكثرة ما رواه من أحاديث في زمن قصير جداً فهو اعتنق الإسلام سنة (7هـ/ 628م)، أضف إلى ذلك أنه روى بعض الأحاديث يتهم بها جل الصحابة ومنهم الإمام علي عليه السلام وعمر وعائشة، فهو من مناكير الأخبار، ولعدم الثقة برواياته، ومعظم أحاديثِه مضطربة[4]، فلم يوثقه الإمام علي عليه السلام في الرواية عن رسول الله ﷺ بل يتهمه ويقدح به[5]. حتى إن الخليفة عمر بن الخطاب تنبه إلى خطر أبي هريرة في ما ينسبه إلى النبي محمّد ﷺ، فدعاه وزجره ونهاه عن الحديث وهدّده بالنفي إلى أرض دوس[6].

وإن كانت هذه الحكمة التي يطرحها كتاب السيرة! فلماذا لم يشق صدر الإمام علي عليه السلام وهو ولد قبل البعثة النبوية الشريفة بتسع سنين، ولم يسجد إلى صنم وكرم وجهه، وعصم من الزلل بشرف الإمامة! والنبي محمّد ﷺ تشرف بالنبوة وهي أرفع.

وما يدعونا للشك في صحة الرواية، أنّ تعرض النبي محمّد ﷺ لهكذا عملية كبرى ولعدة مرات ماهو إلا نكاية بشخص النبي ﷺ الأعظم. لذا وات صوب الحقيقة بدحضه لحادثة شق الصدر. ولأنّ الله ﷻ خلق الانسان بأحسن تقويم فكيف بالنبي محمّد ﷺ وهو خاتم الأنبياء، فحاشى الله من السهو، لأن الله ﷻ هو الذي خلق محمّد ﷺ وبعثه نبياً، ولعل هذه الرواية يراد منها الوضع بأن الله اختار محمداً ﷺ نبياً بعد ولادته بسنتين أو أكثر.

1-الحميدي، مسند الحميدي، 2/ 232.

2-ابن حنبل، المسند، 16/ 451؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، 14/ 128.

3-سورة آل عمران: آية 36.

4-الشيخ المفيد، الإعلام، 24؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة،1/ 41.

5-ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 20/ 31.

6-ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 106؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2/ 433؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، 1/ 41. أرض دوس: منطقة تقع في السروات المطلة على تهامة، سكنت فيها قبيلة دوس بن عدنان بن زهران بن كعب بن الحارث بن النضر الأزد، وامتدت دولتهم إلى أطراف العراق وأول من حكم فيها مالك بن فهم بن غنيم بن دوس، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2/ 77 و 88 و 276؛ شهاب الدين، أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 4/ 257.

وهنا السؤال يطرح نفسه هل في قلب رسول الله ﷺ حظ للشيطان؟

نعم إن قلب رسول الله مملوءٌ بالرحمة التي مصدرها الله بل هومنبعها وأصلها كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[1]، فإن هذه الرحمة شاملةً كاملةً مهداة من رب العالمين لكل خلقه، فيستبعد أن يكون فيها حظ للشيطان، ولعل هذه الشبهه جاء بها كتاب السيرة عندما أرادوا كتابة سيرة النبي محمّد ﷺ لم يجدوا عندهم مادة فأخذوا يفسرون القرآن لكتابة السيرة ولما وصلوا إلى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾[2] تصوّروا أن الانشراح ماديٌّ يتجسد بشق الصدر للنبي ﷺ واستخراج منه علقة سوداء، وليس هو معنوي كما فسرها البغوي[3] بأنّه تليين قلب النبي محمّد ﷺ بالإيمان والنبوة والعلم والحكمة.

ويجب الرد على هكذا تخرصات بحق النبي محمّد ﷺ فهناك بعض الآراء المعاصرة التي تقر بتلك الرواية ومنها الباحثة بيداء العبودي برسالتها السيرة النبوية في الاستشراق الفرنسي في القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين، والباحثة بان الخرسان في أطروحتها السيرة النبوية في كتاب محمّد مؤسس الدين الإسلامي، وأرى أنّ لا ضرورة لذكرها لأنه رأيٌ لا يُعتد به أصلاً. بل اعتمدته المصادر الإسلامية المؤيدة للحادثة والرد عليها بالرفض القاطع.

وهناك من يرى أن الحكمة من شق الصدر ليس استخراج غدة الشر من صدره، إذ لو كان الشر عبارةً عن غدّةٍ توجد داخل صدر الإنسان لاستطاع أيّ إنسانٍ شريرٍ من إزالتها بعملية جراحية[4]. وقد يثار تساؤل لماذا لم يستخرج الله تعالى هذه الغدةً بدونٍ إجراء شق الصدر، وهو قادر على ذلك؟ يقول البوطي[5] ((هي إعلان أمر الرسول ﷺ وتهيؤ للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته، إنها إذاً، عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم)).

إذاً حادثة شق الصدر حدثت لمحمد ﷺ نفسه فتراءى له فيها ما تراءى من أمر العملية

1-سورة الأنبياء: آية 107.

2-سورة الشرح: آية 1.

3-معالم التنزيل، 8/ 463.

4- البوطي، فقه السيرة النبوية، 47.

5-فقه السيرة، 47.

المذكورة، هي رؤيا خاصة بمحمد ﷺ وهو غير غائب عن الحس الخارجي غيبوبة تامة[1] وعبر عنها في قوله: ((تنام عيني ولا ينام قلبي))[2]، وأن هذه الرؤيا لمحمد ﷺ يراها هو وحده ولا يراها أحد من الناس الذين هم حاضرون معه، فكيف يصح لابن حليمة قوله لأمه وأبيه أنه رأى رجلين عليهم ثياب بيض فأخذاه وأضجعاه[3].

وكان البخاري[4] له نصيب في حادثة شق الصدر باختلاف الأماكن التي شق فيها صدر النبي؟ تارة عندما كان يلعب مع أترابه من الصبيان، ومرة جالس في بيته بمكة ورفع سقف البيت، ومرة في المسجد الحرام، وبعدها عرج به إلى السماء مباشرة، وكذلك عند بئر زمزم. إذاً، هناك الاختلاف في الزمان والمكان. هو مؤشر بالوضع على النبي محمّد ﷺ.

لا شك أن حادثة شق الصدر تكرر وقوعها لمحمد ﷺ وهو في مراحل عمريّةٍ مختلفة فالحادثة الأولى بعمر ثلاث سنين[5]، والحادثة الثانية بعمر عشر سنين[6]، والثالثة كان ابن عشرين سنة وأشهر[7]، أما الرابعة عند مجيء الوحي أي في الأربعين من عمره[8]، والأخيرة عند المعراج[9].

ورب سائل يسأل ما الحكمة من تكرار هذه الحادثة؟ إذا كان استخراج حظ الشيطان لا بدّ منه فمرة واحدة تكفي لذلك[10].

لذا نرجح أن حادثة شقّ الصدر لم تحدث كعمليّةٍ واقعيّةٍ وذلك لعدم ثبوت صحتها للتناقض في خبرها الذي يجعلنا نشك بصحتها، وأنّها واحدة من نسيج الخيال الذي تميز به العقل العربي.

1- الرصافي، الشخصية المحمدية، 112 - 117.

2- ابن حنبل، مسند أحمد، 7/ 221 ؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، 14/ 290.

3- الرصافي، الشخصية المحمدية، 111.

4-ينظر: صحيح البخاري، 1/ 460، 1/ 363، 1/ 217.

5- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 164 – 165.

6- الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 101.

7- الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 102.

8- الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 102.

9- الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 376.

10- الرصافي، الشخصية المحمدية، 106.

3

المبحث الثالث

عمـــل النبي محمّد صلى الله عليه وآله

حظي العمل الصالح بمكانة سامية في الأديان السماوية، وجعلته الشرائع من تمام الإيمان، وبالأخص الدين الإسلامي، إذ يحث النبي محمّد صلى الله عليه وآله على العمل الصالح وجعله توفيقاً من الله إلى عبده إذا رضي عنه فقال: ((إذا أراد الله بعبدٍ خيراً يفتح له عملاً صالحاً بين يديه قبل موته حتى يرضى عنه))[1]، وفي يوم القيامة لا يملك الإنسان ديناراً ولا درهماً يفصل به عن ذنوبه، بل يقتص منه بعمله الصالح، فمن لم يكن عنده العمل الصالح يتحمل ذنوب من ظلمه[2]. وعن قطف ثمار العمل والعيش عليها قال صلى الله عليه وآله: ((ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي اللهِ داوُد عليه السلام كان يأكل من عمل يده))[3] وفي حديث أخر قال: ((ما كسب الرجل كسباً أطيب مِنْ عمل يده))[4]. أما عن جودة العمل يجب أن يكون صالحاً ومتقناً قال صلى الله عليه وآله: ((... ولكن اللَّهَ سبحانه وتعالى يحب إذا عمل عبده عملا أَن يتقنه))[5]. وقد قرن العمل الصالح مع الأيمان في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً**﴾[6].

وتؤكد تعاليم الإسلام على العمل ويرتقي إلى درجة العبادة وتعرض أعمال الخلائق على الله ورسوله صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[7]، يأمر الله صلى الله عليه وآله عبادهُ في

1-الهيثمي، موارد الظمآن، 6/ 62.

2-ابن الجعد، مسند الجعد، 406؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 16/337.

3-البخاري، صحيح البخاري، 3/ 57 ؛ ابن المقرئ، معجم ابن المقرئ، 37.

4-ابن ماجة، سنن ابن ماجة، 3/ 271.

5-أبو إسحاق المدني، أحاديث إسماعيل بن جعفر، 508؛ الطبراني، المعجم الأوسط، 1/ 275؛ ابن شبه، تاريخ المدينة، 1/ 98.

6-سورة الكهف: آية 107.

7-سورة التوبة: آية 105.

السعي في الأرض بطلب الرزق والعمل الجاد في قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾**[1].

أكتفى وات بذكر عمل النبي ﷺ بالتجارة في مراحل شبابه فيقول: ((نشأ النبي محمّد في أسرتهِ بني هاشم والتي حصل منها على الرعاية الكافية رغم وضعها المتدهور آنذاك، وأكتسب بعض الخبرات من السفر مع عمه إلى سوريا يعمل بالتجارة، لكن بدون رأس مال كانت فرصة ضعيفة للاستفادة من هذهِ الخبرة))[2].

لقد اكتفى بالإشارة إلى أن النبي محمّد ﷺ عمل بالتجارة، مع عمهِ أبي طالب بدون رأس مال، واعتبرها فرصةً ضعيفةً للاستفادة بخبرة العمل التجاري. لعلّه يريد القول بأنّهما ليسا تاجرين وإنّما مجرّد عاملين في القافلة، لتصغير مكانتهما بأنهم خرجا صدفة برفقة القافلة كأدلاء أو حراس، يريد من خلالها الإشارة إلى فقر أسرة بني هاشم في عهد أبي طالب وأن تلك الأسرة لم يكن لها أية خبرة في التجارة والكسب.

لكن ابن قتيبة[3] يذكر أن أبا طالب كان يعمل تاجراً وبائعاً للعطور والبرّ. وهذهِ إشارة توضح لنا الحياة المعاشية إلى أبي طالب ومحمد ﷺ الذي نشأ في كنف عمه.

أما عن الرحلة التجارية التي خرج فيها أبو طالب إلى الشام واصطحب معهُ أبن أخيه محمّد ﷺ، والتي تكاد تُجمع أغلب مصادر السيرة والتاريخ عليها، وتضمنت لقاء محمّد ﷺ مع بحيرا، اعتمدها وات برواية ابن إسحاق، وحدّدها في عام 600م[4]، ولكنه شكك في حدوثها مع عدم اعتراف المسلمين بها، ولا يعتبرونها من الحقائق فيقول: ((ومع ذلك فثمة جدل حول بعض هذه النقاط... وبالتالي فهي حقيقة بالنسبة لهم))[5]. ((ويمكن أن نلخص الرحلة والحوار مع بحيرا الراهب في صومعتهِ الذي شاهد محمداً ﷺ حينما أقبل وغمامة تضللهُ من بين القوم، ولما جلس تحت شجرة انفتحت أغصانها وأضلتهُ، وعندما جاء محمّد ﷺ أخذ بحيرا ينظر إلى أشياءٍ من جسد الرسول ﷺ؟ ويسألهُ عن أمور في حياتهِ؟، ثم

1-سورة الملك: آية 15.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 15- 21.

3-المعارف، 575.

4- وات، محمّد النبي ورجل الدولة، 14.

5- وات، محمّد في مكة، 94.

عمل لهم مأدبة طعام وهي ليس من صفاتهِ السابقة كونهُ لم يولِ أي اهتمام بالتجار، وسأل أبا طالب عن هذا الغلام ما يكون منه؟ وأَجابهُ ابنه. فأنكر بحيرا الاجابة ليس ابنك؟ وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أباه حياً؟ ثم حذره من غدر اليهود ومكائدهم إلى محمّدﷺ لأنه سيكون له شأن عظيم))[1].

وهذه الرواية ذكرها ابن إسحاق[2]، لم يحدد فيها عمر النبي محمّدﷺ في تلك الرحلة، وحددها المسعودي باثنتي عشرة سنة[3]. أما المستشرق توماس كارليل[4] فقد حدّد عمره في سن الرابعة عشرة، ويؤكد لقاءه بالراهب سرجياس (بحيرا) ودهشة محمّدﷺ من العلم الجديد يراد به المسيحية ولم يتعلم من أي راهب لصغر سنهِ، ولم يعرف إلا لغته، بل انطبع في لوح فؤاده أمور عن هذا العالم كونه غلام له عينان ثاقبتان.

وعلل أحد الباحثين بالقول أن السبب ربما ليس لغرض كفالة أبو طالب لمحمد، وإنما لحب الاستطلاع ومعرفة طرق التجارة، والتبادل السلعي وعمليات البيع والشراء، فأراد أن يتدرب على ذلك برفقة عمه، ويؤيد هذا خروجه في المرة الثانية في تجارة خديجة عليها السلام دون مرافقة عمه[5].

أما عن تحذير بحيرا لأبي طالب أن يرجع بمحمدﷺ إلى مكة خشية من اليهود، توجس أبو طالب خوفاً على ابن أخيه محمّدﷺ وعاد به إلى مكة، وتكفل بحراسته حتى انقضى حصار شعب أبي طالب ووفاته. ولما بلغ محمّدﷺ سن الخامسة والعشرين من عمره الشريف، لم يتخوف مما قاله بحيرا فخرج إلى الشام في تجارة السيدة خديجة عليها السلام[6]. وبهذا يتبادر إلى الذهن شيء وهو أنّ الرواية مفتعلة ولا صحة لأقوال بحيرا، ويؤيد هذا كونه رجلاً غير معروف الأصل وقد جاء في كتاب سيرة الزهري ان بحيرا كان حبراً من يهود تيماء[7]، وعند

1- وات، محمّد في مكة، 97 99-؛ محمّد النبي ورجل الدولة، -13 14.

2- السير والمغازي، 74.

3-مروج الذهب ومعادن الجواهر، 1/ 89؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 1/ 248.

4-الأبطال، 66.

5- المحمداوي، علي صالح رسن، أبو طالب بن عبد المطلب، 41.

6- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 129.

7-الصالحي، سبل الهدى والرشاد، 2، 145؛ الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 1/ 362.

المسعودي[1] أنه كان من عبد القيس واسمه سرجس أو جرجيس. والأكثر من هذا أن بعض الروايات صيرته نظير الرسول ﷺ وهذا ما رواه ابن هشام[2] بقوله: ((سمع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف ويقول ألا أن خير أهل الأرض ثلاثة بحيرا، ورئاب بن البراء الشني، والثالث المنتظر)) فكان الثالث الرسول ﷺ[3]، فكم هي المبالغة في بحيرا؟، وخير من رد على أكاذيب بحيرا السيد محمّد باقر الحكيم بقوله ((... إكمال الصورة الكاذبة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر، ومن الامثله على ذلك ما يذكرونه من تفاصيل ليس لها مصدر تاريخي في مسألة لقاء بحيرا مع محمّد ﷺ... الأمر الذي يدعوهم إلى الاستنتاج وافتراض محادثات دينيّةٍ وفلسفيّةٍ معقدة جرت بينهما...))[4].

وكتب بعض المستشرقين عن لقاء بحيرا الراهب بمحمد ﷺ، ومنهم المستشرق سيديو[5] زعم أن النبي ﷺ قد نال من هذا اللقاء حظوة من عند هذا الراهب بحيرا فقال: ((فبلغ بصرى فاجتمع فيها ببحيرا الذي كان اسمه، لدى النصارى جرجيس أو سرجيس، فنال حُظوةً عنده))[6].

وكذلك المستشرق إيرفنج واشنطن[7] الذي حاول أن يصور سيدنا محمّد ﷺ قد تأثر بالمبادئ النصرانية، فيذكر: ((يبدو أن الراهب الحريص على التبشير بدينه قد توسم الخير في هذا الشاب الذكي، ابن أخ سادن الكعبة، ورأى أنه خير من يحمل بذور المسيحية إلى مكة ومن الطبيعي أن يحرص هذا الراهب على أن يمنع ذلك الشاب، والذي قد ينجح في تحويله إلى المسيحية من اعتناق اليهودية)).

وهذا الكلام من اللغو الذي لا يستند إلى البحث العلمي الدقيق وإنما هو مجرد وهم

1-مروج الذهب ومعادن الجواهر، 1/ 89.

2-السيرة النبوية، 1/ 180.

3- السهيلي، الروض الأنف، 2/ 140.

4- للمزيد ينظر: علوم القرآن، 155.

5- سيديو جان جاك أمارنويل (1808 – 1875): مستشرق فرنسي ولد في باريس، تعلم على يد والده المستشرق اللغات الشرقية وعلم الفلك، حصل على شهادة الليسانس في الحقوق، عمل مدرس تاريخ، له = = أبحاث كثيرة في الفلك والرياضيات وأشاد بدور العرب بإنشاء المراصد والاكتشافات الفلكية التي قدمت العلوم في العالم، ألف كتاب سماه «تاريخ العرب» يشمل تاريخ العرب من البدايه حتى الأمير عبد القادر الجزائري، ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين، 345 – 347. تاريخ العرب العام، 58.

6-سيديو، تاريخ العرب العام، 58.

7- ايرفنج واشنطن: (1859-1783م) ولد في مدينة نيويورك وفي سن المبكر اهتم بقراءة القصص الخيالية وقد جعل أعماله الخيالية القصيرة قالباً أدبياً واعياً فقد عرف في الغالب «رجل الرسائل الأمريكي الأول» وقد تجاوزت مؤلفاته التسعة عشر مؤلفاً ومن مؤلفاته ((حياة محمّد))، الزهو، سامي أحمد، الاستشراق الأمريكي والسيرة النبوية، ارفنج، 100-68.

وخيال، ولأننا باحثون علينا أن نتقصى الحقائق التاريخية كلها وفق المنطق والعقل، إذ إن النبي محمّدﷺ هو خاتم النبيين وهو من بشر به عيسىعليه السلام إذ قال تعالى: (**... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...**)[1].

أما المستشرق بودلي فقد ذكر أن الرسولﷺ كان يجالس بحيرا أو يتعلم منه طويلاً يقول: ((فراح الراهب يحادث العربي الصغير وكأنما يحادث رفيقاً من رفقائه فأخبره بعقيدة عيسى، وسفه عبادة الأصنام وأرهف محمّد السمع إلى ما ينطق الرجل به))[2]. وكلام بدلي هو الآخر من نسيج الخيال والابتعاد عن الحقيقة.

ولعلّ أقوالهم يريدون منها بيان فضل النصارى في المحافظة على حياة النبيﷺ، وتعليمه كان على يد رهبان النصارى.

أما المستشرق رودنسون[3] فقد أنكر هذا اللقاء مع بحيرا فيقول: ((أنها وضعت وضعاً حتى يعترف بنبوة الرسول من قبل إحدى الديانات التوحيديّة اليهوديّة أو المسيحيّة باعتبار الإسلام وارثاً لهما))[4].

والحقيقة أن أمر عمل النبيﷺ بالتجارة أو بغيرها لم يكن يعنيهم لذاته بل أستخدم من أجل تحقيق غرضٍ آخر وهو الزعم بكثرة تنقلاته إلى الشام واليمن لكي يكشف عن مواطن انتشار المسيحيّة، ومن ثم الزعم بأنه كان يبحث عن تحصيل علم الأديان ولا سيما المسيحية، ولذلك اتصل بأحبار اليهود ورهبان النصارى[5]، وكانت أدلتهم على هذا الاتصال جملة الروايات التي احتوتها السير عن رحلتيه إلى الشام وقصة لقائه بالراهب بحيرا أو سرجيوس عند النصارى[6]. وكذلك توضح صورة حالة الفقر والحاجة التي كان عليها ما دفعه إلى الزواج من سيدةٍ ثريّةٍ وغنية وهي السيدة خديجةعليها السلام.

ويوافق وات المصادر الإسلامية عن الرحلة التجارية التي خرج بها النبي محمّدﷺ إلى الشام برأس مال خديجةعليها السلام ويعتبرها الرحلة الأولى والأخيرة بالعمل التجاري فيقول: ((ولا

1-سورة الصف: آية 6.

2-الرسول حياة محمد، 39.

3-نقلاً عن الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، 2/ 64.

4-نقلاً عن الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، 2/ 64؛ Rodinson، Mahomet، op. cit، p. 71.

5- شايب، خضر، نبوة محمّد في الفكر الاستشراقي المعاصر، 386.

6- سديو، تاريخ العرب العام، 66.

يعني عدم وجود أخبار عن سفره إلى الشام مرةً ثانيةً أنهُ لم يذهب، مع الوضع في الاعتبار أنهُ من الممكن دائماً أن يكلف آخرين بالإشراف على تجارته، كذلك يجب أن نتذكر دائماً احتمال أن يكون التجار قد استبعدوه من مجالسهم، ومن معظم العمليات المربحة))[1].

يقدم وات ثلاث احتمالات دون أن يرجح واحدةً منها:

الأول: عدم وجود أخبار تثبت سفره ثانية لمحمدﷺ إلى الشام ومحتمل أنهُ ذهب سِرّاً.

والثاني: ممكن أنهُ كلف آخرين بالإشراف على تجارته.

والثالث: محتمل تم استبعاد محمّدﷺ من مجالس التجار وحتى من معظم العمليات التجارية المربحة.

ورد في المصادر الإسلامية أن النبي محمّدﷺ خرج للشام وهو طفل برفقة عمه، وكان خروجه الثاني للتجارة بأموال خديجة مع غلامها ميسرة[2]، وكان النبي يرتاد الأسواق التجارية القريبة من مكة مثل سوق عكاظ وسوق حباشة وسوق جرش لعدة مرات والشواهد على ذلك لقائه بالأيادي وشراء حكيم بن حزام منه بزاً[3].

وللباحث رأي عن سفر النبيﷺ مع عمه إلى الشام إن قبلنا صحة الرواية! فلا صحة للقاء مع بحيرا؟ كونه شخصيّةً مغمورةً في كتب التراجم والرجال، ولعلّه شخصيّةٌ وهميّةٌ افتعلها رواة الإسرائيليات.

وما دعانا للشك ببحيرا أنه كان له نصيب مع أبي بكر عن الرؤية التي قصها عليه أثناء سفره بالتجارة للشام، فأخبره بحيرا أنه سيُبعث نبي من قريش، وسوف تكون وزيره في حياته، وخليفته بعد وفاته[4]. وهذا ما دفعنا للشك بصحة خبر بحيرا، فإن صدقناه ببشارة النبي محمّد ﷺ بالنبوة لورود خبره عندهم في التوراة والإنجيل، فكيف علم بخبر أبو بكر أنّه سيعتنق الإسلام؟ ويكون وزيراً للنبيﷺ في حياته؟ وثم يصبح خليفة للمسلمين بعد وفاته؟ فمن أين جاء بحيرا بهذا التسلسل التاريخي؟ هل ورد عنده في الإنجيل؟ أم هي نبوءة من بحيرا.

1-محمّد في مكة، 100.

2-ميسرة: اشتهر بغلام السيدة خديجة عليها السلام قبل زواجها من النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) وخرج معه بالتجارة للشام ورأى بعض معجزاة النبوة، ولم يدرك البعثة النبوية بل توفي قبلها، ولم نجد له ترجمة في كتب السيرة والرجال والطبقات سوى أنّه غلام وخرج للشام، ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 6/ 189.

3-ينظر: الشرهاني، حسين، السيدة خديجة، 128.

4-الأصبهاني، سير السلف الصالحين، 50؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، 30/ 3.

4

المبحث الرابع

زواج النبي محمّد ﷺ من خديجة عليها السلام

عمل النبي محمّد ﷺ في التجارة بأموال السيدة خديجة عليها السلام وسمعت بأمانته ﷺ وصدق حديثه وكرم أخلاقه وأرادت الزواج به. وتناول وات هذا الموضوع بالقول: ((ولقد سُرّت خديجة عليها السلام بما فعله محمّد ﷺ وبلغ إعجابها بشخصيّته أن عرضت عليهِ الزواج منها فوافق))[1].

وعلل المستشرق وات زواج النبي محمّد ﷺ من السيدة خديجة تعليلاً مادياً بحتاً فقال: ((لأنهُ يعني له ﷺ صفقةً كبيرةً لسبب واحد أنهُ أعطاهُ فرصة ممارسة مواهبه بنشاط بشكل رئيسي في التجارة المكية، مما مكنهُ الانخراط في مشاريع مربحة))[2].

لكي تتضح لنا صورة زواج النبي محمّد ﷺ يلزمنا معرفة عن السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصي، وكانت امرأةً حازمةً جلدة شريفة، ولأراد الله لها الخير والكرامة بزواجها من الرسول ﷺ، وهي أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً[3]. أمها فاطمة بنت زائد بن الأصم بن هرم بن رواحه بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر[4]. فهي تلتقي بالنبي ﷺ بالجد الرابع لها وهو قصي بن كلاب، وهو الجد الخامس للنبي ﷺ، وتلتقي معه بالجد الثامن لها لؤي بن غالب من ناحية أمه[5]، وتلتقي مع أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بالجد الرابع لها وهو كلاب بن مرة، وابنهُ وهب لِدَة[6] لأم هند[7] وكلاهما من قريش، بنو زهرة وبنو أسد من

1-محمّد في مكة، 99؛ محمّد النبي ورجل الدولة، 24.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 24.

3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 11 – 12؛ أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، 5/ 2417.

4- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 389.

5- أبن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 11.

6- لِدَة: هو الذي ولد معه في وقت واحد، أوقريب من ميلاده، والاثنان لدتان والجمع لدات، ويقال اللدَة: وقت الولَادة، ولِدَةُ الرجلِ مثلة في الولادة، الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكَلوم، 11/ 7279؛ الزبيدي، تاجَ العروس، 9/ 327 و 35/ 529.

7- أم هند: هي السيدة خديجة تزوجت أبي هالة وأنجبت له رجلاً يقال له هند، وهالة رجلاً أيضاً، ثم تزوجت عتيق بن عابد المخزومي فولدت له جارية يقال لها هند، فكانت خديجة تدعى أم هِنْد وتلقب الطاهرة، توفيت سنة عشرة للبعثة، بعد الخروج من الشعب، قبل الهجرة للمدينة بثلاث سنين، وهي بنت خمسٍ وستين سنة، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 15.

البطون السامقة[1] ولا بد أن الود بينهما موصولٌ وأنّ الطاهرة خديجةعليها السلام هنأت السيدة آمنة بنت وهب بوليدها النبي محمّدصلى الله عليه وآله، وأن الأخيرة قصّت عليها الأعاجيب التي ألمت بها في الحمل والولادة[2].

ربطت سيدة قريش خديجةعليها السلام بما سمعته من آمنة بنت وهب من أعاجيب أثناء حملها بسيد الخلق وعند وضعها إياه، وبين ما حدث منذ عهد قريب من فداء عبد الله بن عبد المطلب بمائة من كرائم الإبل، وربطت ما سعت إليه ابنة عمها (قتيلة أو أم قتال) بنت نوفل عندما عرضت على عبد الله الزواج منها، فهي قالت مع القائلين وعلى رأسهم الجد عبد المطلب والأم آمنة بنت وهب إن لهذا المولود لشأن عظيم، وظلت خديجة عاماً بعد عام تتلقى أخبار وأعاجيب محمّدصلى الله عليه وآله ومعجزاتة البواهر، حتى أيقنت هو النبي الموعود من ولد إسماعيل عليه السلام[3].

ومما زاد من مكانة النبي محمّدصلى الله عليه وآله في نفس خديجة هو صدقه وأمانته وهذا ما شاع في عموم مكة فضلاً عن عفته واستقامته ما أثار إعجابها به رغم أنّها لم تَرَهُ، كما أن ما سمعته من ثناءٍ وتكريمٍ من قبل ميسرة الذي يتحدث لها عن رحلته معه إلى الشام وما لاحظ وسمع من إشارات وعبارات وكرامات لمحمدصلى الله عليه وآله دون سواه من رجالات مكة، وجدت ضالتها المنشودة في محمّدصلى الله عليه وآله[4].

إن هذا وغيرهُ يعد السبب المباشر والرئيس الذي حث السيدة خديجةعليها السلام إلى التقرب من النبي محمّدصلى الله عليه وآله وعرضت عليه الزواج، فأرسلت إليه نفيسة بنت منية[5] وعرضت عليه الزواج، رغم مكانتها السامقة وحسبها الشريف وغناها الواسع وحزمها ورجاحة عقلها فقد ضربت تقاليد القبيلة الراسخة وتقدمت إلى سيد المخلوقات محمّدصلى الله عليه وآله[6].

1- السامقة، يراد بها نخلةً طويلةً جداً، فيقول سمق سميقاً سموقاً، والجمع الأسمقة، يراد بها عودان قد لوقي بين طرفيهما، الفراهيدي، العين، 1/ 88؛ الأزهري، تهذيب اللغة، 8/323؛ ابن منظور، لسان العرب، 10/ 163.

2- عبدالكريم، خليل، فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، 33.

3- عبد الكريم، فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، 34.

4- المباركفوري، الرحيق المختوم، 55.

5- نفيسة بنت منية: سميت بامها منية بنت جابر بن وهب، وقيل أسم أبوها أمية بن أبي عبيد، من حلفاء الحارث بن نوفل بن عبد مناف، أسلمت عام الفتح، ولم نتعرف على وفاتها، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 244؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 98.

6- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 15.

وعندما يصل وات إلى مسألة إنجاب السيدة خديجة عليها السلام نراه يوافق المصادر الإسلامية[1] حول إنجابها من النبي محمّد صلى الله عليه وآله أربعة فتيات وصبيين[2]. بينما نراه يقع في الخطأ في كتابه (محمّد في مكة) حيث يقول: ((سبعة ولدتهم لمحمد صلى الله عليه وآله هم القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله هو (الطيب) والطاهر وقد مات الصبية جميعاً))[3].

والخطأ في كتابه (محمّد في مكة) أنّه أضاف الطاهر كابنٍ سابعٍ أنجبته السيدة خديجة عليها السلام من النبي محمّد صلى الله عليه وآله، بينما في كتابه (محمّد النبي ورجلُ الدولةِ) عددهم ستة دون ذكر أسمائهم[4].

ورد في المصادر أن السيدة خديجة عليها السلام أنجبت من النبي محمّد صلى الله عليه وآله زينب (2ق هـ – 607م/ 8هـ – 641م) والقاسم (25 ق هـ - 609م/ توفي عمره سنتان 611م) ورقية (22 ق هـ – 612م/ 3هـ - 635 م) وأم كلثوم (19 ق هـ - 615م/ 9هـ – 640م) وفاطمة 16ق هـ – 618م/ 11هـ - 643م) وعبد الله الذي يلقب بالطيب والطاهر (13ق هـ 621م/ توفي طفلاً)[5]. إن الله حفظ في رحم السيدة الطاهرة نسل النبوة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[6]. فأشارت الآية القرآنية إلى سنّة الاصطفاء الإلهية وحصرها في ذرية الأنبياء لما ورد في قوله تعالى: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[7]. ومن بين أولاده السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وأشار النبي صلى الله عليه وآله إلى أنَّ ذرية الأنبياء تكون من صلبهِ، (الا) أو في بعض الروايات (خلا) ولد فاطمة الزهراء عليها السلام فورد قول النبي صلى الله عليه وآله: ((كل بني أم ينتمون إلى عصبة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم))[8].

لم يدرك وات الجانب الغيبي في سيرة النبي محمّد صلى الله عليه وآله، قبل ولادته الشريفة سمعت

1-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 190 – 191؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 1/ 263 – 264؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، 7/ 507.

2-محمّد النبي ورجل الدولة، 24.

3- وات، محمّد في مكة، 99.

4-وات، محمّد في مكة، 99 و محمّد النبي ورجل الدولة، 24.

5- الخركوشي، شرف المصطفى، 2/ 52؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 2/ 357؛ السهيلي، الروض الأنف، 1/ 248؛ الفالوذه، الموسوعة في صحيح السيرة النبوية، 139.

6- سورة آل عمران: آية 33.

7- سورة آل عمران: آية 34.

8- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 36/ 313؛ المتقي الهندي، كنز العمال، 12/ 98.

خديجة بولادة النبي الجديد عندما كانت بالقرب من بعض النسوة وهن عاكفات إلى صنم تشبه لها بصورة رجل ونادى بصوت سمعته جميع النسوة سيولد نبي مرسل من قبل الله يسمى أحمد من استطاعت الزواج منه فلتفعل! جميع النسوة حصبنه ولعنهُ، إلا السيدة خديجة عليها السلام أخذت تترقب وتحسب لولادته، ولما ولد وكبر أخذت تحث الخطى بالتقرب له والزواج منه[1]. إذاً الزواج ليس هدفاً ماديّاً محض كما يتصوره وات بل هو اختيار رباني وإعداد للسيدة خديجة عليها السلام كي تساند النبي في تحمل عبء النبوة وتنصر الإسلام. وليس قضية ربح ومتاجرة.

أما عن عمرها السيدة خديجة عليها السلام وقت زواجها بالرسول صلى الله عليه وآله قال وات: ((ويقال أنها كانت في الأربعين من عمرها في ذلك الوقت، بينما كان النبي محمّد صلى الله عليه وآله في الخامسة والعشرين، ربما كان عمر خديجة مبالغ فيه))[2]. وأضاف قائلاً: ((فإن هذا الزواج يجب أن يكون نحو عام 595م ويقال أن خديجة كانت على مشارف الأربعين، لكن ربما يكون هذا مجرد افتراض وربما كان أصغر من ذلك كونها أنجبت لمحمد صلى الله عليه وآله عدداً من الأطفال))[3].

وقد أثار وات شكوكاً حول عمر السيدة خديجة عند زواجها فإنه عدّ عمر الأربعين مبالغاً فيه، ويجعل من أمر عمرها المتقدم هذا فرضاً لا أكثر، ويرجح أنها كانت أصغر من العمر المذكور، معللاً ذلك بولادتها لسبع. لو فرضنا أنهم ولدوا في سنوات متلاحقه، يكون عمرها قد بلغ الثامنة والأربعين وهو أمر مستبعد، ويعد معجزة[4].

لكن المستشرق كارليل[5] يؤكد زواج النبي محمّد صلى الله عليه وآله في السنة الخامسة والعشرين من عمره عندما كانت خديجة على مشارف الأربعين. ولم يضع الشك في العمر ولا عدد الأولاد.

ورد في المصادر عن زواج النبي محمّد صلى الله عليه وآله في الخامس والعشرين من عمره الشريف من السيدة خديجة عليها السلام وهي بعمر الأربعين عاماً على رواية محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي والتي جزم بها ابن سعد دون أن يعطي رأي آخر[6]، علماً أنّ هناك روايةً تقول أن عمرها خمسة

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 12.

2- محمّد في مكة، 99؛ محمّد النبي ورجل الدولة، 24.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 24.

4- وات، محمّد في مكة، 99.

5-ينظر: الأبطال، 69.

6- الطبقات الكبرى، 1/ 109؛ ابن حبيب، الحبر، 79؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/98؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 132؛ الأصفهاني، البستان الجامع، 86.

وثلاثين عاماً أو ثلاثين عاماً وأخرى ثمانية وعشرين عاماً عند زواجها[1]. ولم تجزم بتحديد العمر بسنة محددة.

ويرجع هذا الخلاف بتحديد عمر السيدة خديجة عليها السلام وقت زواجها من النبي محمّد صلى الله عليه وآله إلى عدم ذكره من قبل كتاب السيرة المبكرين ومنهم ابن إسحاق وابن هشام، بل اقتصر على ذكر الزواج ولم يحدد العمر.

نعم هذه الرواية عن الزواج بسن الأربعين تناولتها المصادر الإسلامية[2]، وأنّها بلغت من العمر ستين سنة عند ولادتها السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام التي ولدت في السنة الخامسة من البعثة النبوية الشريفة[3]، ومن المعروف أن المرأة تفقد قدرتها على الإنجاب في الخمسين من عمرها[4]، كما أن النضج في المناطق الحارة يكون سريعاً لذلك يكون عمر الأربعين أقرب إلى الشيخوخة وعليه فإنّ زواجها من النبي صلى الله عليه وآله قد لا يكون معقولاً في مثل هذا العمر[5]، وعند حساب عمرها الأربعين قبل الزواج مع زواجها قبل البعثة في خمسة عشر عام وبقائها عشر سنوات بعد البعثة توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين[6]، يكون وفاتها بسن الخامسة والستين من عمرها[7].

وهذا ما شك به الحاكم النيسابوري[8] حيث عدّهُ قولاً شاذاً وقال: ((فإنّ الذي عندي أنّها لم تبلغ ستين سنة)).

وهناك رأي آخر أن عمرها عند الزواج كان ثمانية وعشرين سنة[9]، هذا يعني أنها توفيت بعمر الثلاث والخمسين، وربما هو ما ذهب إليه الحاكم النيسابوري إلا أن هذا القول

1- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 275 الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 140؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 2/ 360.

2- ابن سعد، الطبقات، 1/ 132، ابن حبيب، المحبر، 79، البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 98.

3- الكليني، الكافي، 1/ 458؛ الخصيبي، الهداية الكبرى، 175؛ الطبري الشيعي، دلائل الامامة، 79، العواد، انتصار، السيدة فاطمة الزهراء، 21.

4- الشرهان، أضواء على السيرة النبوية، 56.

5- الحصين، لماذا الهجوم على تعدد الزوجات، 26.

6- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 18؛ اليعقوبي، تاريخ، 2/ 35.

7- ابن سعد، الطبقات، 1/ 125، ابن عبد البر، الاستيعاب، 1/ 38.

8-المستدرك على الصحيحين، 3/ 182.

9- ابن سعد، الطبقات، 8/ 17؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 98؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 2/ 275.

يتعارض مع قول البيهقي ((بلغت خديجة خمساً وستين سنة ويقال خمسين وهو أصح))[1]، ومن هذا يتبين عمرها في الحياة الزوجية خمسة وعشرين سنة، ووفاتها خمسين سنة على رأي البيهقي يكون عمرها عند الزواج خمسة وعشرين سنة، وهو الأصح على قول البيهقي.

والباحث يوافق الرأي الأول، أن عمر السيدة خديجة أربعين سنة عند الزواج، وخمسة وستين سنة عند التحاقها بالرفيق الأعلى، لكي تتحقق المعجزة الخارقة لقوانين الطبيعة، أسوة بالسيدة سارة زوجة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام التي صورها القرآن الكريم عجوزاً وبشرها بإسحاق في قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾[2]، وكذلك قال تعالى: ﴿**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ**﴾[3]. فلا يستبعد ذلك على الله ولا سيما أن محمّد ﷺ من ذرية إسماعيل عليه السلام نبي العرب.

أما عن ثمرة زواجهما الميمون فالرأي الأول: يقول أن الأولاد الستة وأكبرهم القاسم الذي كُني به فقد مات مع عبد الله بعد البعثة في مكة، فقال العاص بن وائل السهمي[4]: ((قد انقطع ولده فهو أبتر))[5]، ومن أدب النبي ﷺ لم يجادل الجهال بالقول والرد عليهم، ونزل في هذة الحادثة قوله تعالى: (**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**)[6]، أما عن البنات كلهن أدركن الإسلام وتوفين قبل وفاة النبي ﷺ، عدا السيدة فاطمة عليها السلام التي ماتت بعده بستة أشهر[7]. وقيل سبعين يوماً[8].

أما الرأي الثاني: يقول أن السيدة خديجة عليها السلام ولدت للنبي ﷺ السيدة فاطمة والقاسم فقط، أما باقي البنات فهن ربائب له ﷺ إذ كن بنات أختها هالة[9].

1- دلائل النبوة، 2/ 71؛ ينظر كذلك: ابن كثير، البداية والنهاية، 2/ 359.

2- سورة هود: آية 72، ابن عطية، المحرر الوجيز، 3/ 190.

3- سورة الذاريات: آية 29، البيضاوي، أنوار التنزيل، 5/ 149.

4-العاص بن وائل السهمي: العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد القرشي السهمي، تزوج سليمة بنت حرمله لقبة بالنابغة وأنجب منها ابنه عمرو بن العاص صاحب معاوية بالتحكيم في معركة صفين (37هـ/ 657م) من المشركين الذين بالغوا في أيذاء النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) توفي عن عمر خمسة وثمانين سنة، ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 139؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 3/ 1184 – 1188.

5- ابن سعد، الطبقات، 1/ 133.

6- سورة الكوثر: آية 3.

7- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 122؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 133 و 8/ 19.

8-ابن عبد البر، الاستيعاب، 4/ 1894.

9- العاملي، جعفر مرتضى، بنات النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أم ربائبه، 13 وما بعدها؛ الطائي، نجاح، أزواج النبي وبناته، 65 - 70 و 121 - 122.

وهذا الرأي لم يرد خبره في المصادر الإسلامية بل جاء به باحثون بمراجع حديثة. فخديجة عليها السلام هي أم أولاده جميعاً عدا إبراهيم أمه ماريه القبطية[1].

وعن السيدة خديجة عليها السلام هنالك جدل هل هي باكر أم ثيب؟ ويرجح وات أنها قد تزوجت مرتين وكان آخر زوجيها من بني مخزوم[2].

لقد ورد في بعض المصادر الإسلامية إنها قد تزوجت قبل سيدنا محمّد برجلين، كان الأول هو عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي[3]، فولدت منه بنت أسمها ((هند))[4] هي أم محمّد بن صيفي المخزومي[5]، اما زوجها الثاني فكان أبا هالة وأسمه هند بن زراره بن النباش التميمي[6]، وولدت له ولد اسمه ((هالة)) وآخر اسمه ((هند)) بن هند[7]، وروى عنه انه كان فصيحاً بليغاً وكان يقول:))أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً، أبي رسول الله وأمي خديجة وأخي القاسم، وأختي فاطمة))[8]، وقيل أنّه قاتل مع الإمام علي يوم الجمل[9]. ولما دنت ساعة الموت من السيدة الطاهره فاطمة الزهراء عليها السلام أوصت بعلها الإمام علي عليه السلام أن يتزوج من ابنة أختها أمامة بنت أبي العاص بن الربيع القرشي وأمها زينب بنت النبي محمّد صلى الله عليه وآله، كي تكون مثلها لأولادها عليها السلام[10].

1-ماريا القبطية: هي أم المؤمنين زوجة النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) أم ابنه إبراهيم عليه السلام، جاءت إلى المدينة المنورة سنة (8هـ/ 629 م) هدية المقوقس القبطي ملك الأسكندريَة تكَريماً لكتاب النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) الذي بعثه إليه بأعلام الإسلام، اعتنقت الإسلام، اتصفت بالبشرة البيضاء وحسن المنظر، توفيت سنة (15هـ/ 636م)، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 107؛ ابن يونس، تاريخ ابن يونس، 1/ 83؛ ابن منده، معرفة الصحابة، 971.

2- محمّد في مكة، 99.

3-عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر المخزومي: لم نجد لهُ ترجمة سوى زواجه من السيدة خديجة عليها السلام، الزبيري، نسب قريش، 22؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 8/ 99.

4-الزبيري، نسب قريش، 22؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 406؛ البري، محمّد بن أبي بكر، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، 2/ 59.

5- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 187؛ البيهقي، دلائل النبوة، 7/ 283؛ الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 140.

6-هند بن زرارة بن النباش التميمي: لم نجد له ترجمة سوى زواجه من السيدة خديجة عليها السلام، الزبيري، نسب قريش، 22؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1/ 194.

7-الزبيري، نسب قريش، 22 ؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 406؛ البري، الجوهرة، 2/ 59.

8-ابن قتيبة، المعارف، 133؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 13/ 66؛ القاضي النعمان، شرح الأخبار، 1/ 183.

9- ابن هشام، السيرة، 1/ 187 - 190؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، 210؛ اليعقوبي، تاريخ، 2/ 20؛ الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 140.

10-المجلسي، بحار الأنوار، 43/ 192؛ النقدي، الأنوار العلوية، 303.

وهاتان الزيجتان لم تكونا متعاقبتين بل تخلّلتهما فترةٌ زمنيّةٌ من العدة، ومراسيم الخطوبة والزواج الثاني. أنجبت السيدة خديجة من الزيجتينعليها السلام ثلاثة أولاد، يؤكد أن عمرها كان في الأربعين حيث بلغت النضج الكامل من رجاحة العقل وسمو النفس لذلك نراها كانت ترفض كل من يتقدم لخطبتها، حتى سمعت بمحمّدصلى الله عليه وآله فعرضت عليه الزواج، وكذلك الحمل الطبيعي مدة تسعة أشهر وهم ثلاثة أطفال يكون حملها سبعة وعشرين شهراً، فيبقى لها خزين من البيوض مما يساعدها على الإنجاب لمدة أطول.

وهناك رأي ثانٍ أن السيدة خديجةعليها السلام كانت عذراء وقت زواجها من النبي محمّدصلى الله عليه وآله، وأن رقية وزينب كانتا بنتي هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجةعليها السلام[1] ولما ماتت هالة بقيت الطفلتان في كفالة السيدة خديجةعليها السلام، وعندما تزوجت الأخيرة من النبي محمّدصلى الله عليه وآله بقيت الطفلتان زينب ورقية في حجر السيدة خديجةعليها السلام والنبي محمّدصلى الله عليه وآله، فهن ربائب النبيصلى الله عليه وآله لا بناته، لأن العرب يزعمون أن الربيبة بنتٌ ولأجل ذلك نسبتا إلى النبي محمّدصلى الله عليه وآله مع أنهن ابنتا أبي هند التميمي زوج هالة بنت خويلد[2]. ويذهب العاملي[3] لإثبات أنّ السيدة خديجةعليها السلام عذراء باجماع الخاص والعام أنه لم يبقَ من أشراف قريش ومن ساداتها ذوي النجدة منهم إلا وخطب السيدة خديجة ورام تزويجها فامتنعت على جميعهم من ذلك، فكيف يجوز في أهل النظر والفهم والعقل أن تتزوج السيدة خديجة عليها السلام أعرابيّا من تميم وترفض سادات قريش وأشرافها؟ فهذا محال.

وإن كانت زينب ورقية بنتا النبي محمّدصلى الله عليه وآله سواءً من صلبه الشريف أم عن طريق التبني الصالح فهن عاشتا في حجره الطاهر، وللنبيصلى الله عليه وآله مقام الأبوة لجميع المسلمين والمسلمات في قوله: ((أنا وعلي أبوا هذه الأمة))[4]. فهو الأب الروحي لنا حالياً فما بالك بمن عاش معه أو صاحبه يكون له أباً حقيقيّاً ومربيّاً ناجحاً.

وتوصف العلاقة الزوجية للنبي محمّدصلى الله عليه وآله والسيدة خديجةعليها السلام بأنها كانت على أتم وفاق وألفة وصفاء وكان يخلص لها الحب، وأنهصلى الله عليه وآله قضى عنفوان شبابِه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة، مع خديجةعليها السلام التي كانت عليها مسحة ملاحة[5].

1-ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، 1/ 153.

2-العاملي، الصحيح في سيرة النبي الأعظم، 2/ 125؛ الخزاعي، ماجد حيال، خديجة أم المؤمنين، 38 – 42.

3-الصحيح، 2/ 123.

4-البروجردي، جامع أحاديث الشيعة، 18/ 311.

5- كارليل، الأبطال 69.

وحظيت السيدة خديجة عليها السلام بحب وإعجاب النبي محمّد صلى الله عليه وآله وقضت وطراً من حياتها الزوجية في وئام، ونتلمس هذا الأمر من أحاديثه صلى الله عليه وآله بعد وفاة الطاهرة والتحاقها بالرفيق الأعلى حيث بقي يذكر مآثرها أمام زوجاته حتى قالت عائشة: ((ماغرت على نساء النبي صلى الله عليه وآله الا على خديجة وأني لم أدركها))[1]، ولكثرة ذكره صلى الله عليه وآله لخديجة عليها السلام أثار غيرة عائشة فحاولت أن تلفت نظره لها بأن الله استبدلهُ بخير منها فقالت: ((...تذكر عجوزاً من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها))[2] ثم قال: ((ما أبدلني الله خيراً منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني اللَّهُ ولدها إذ حرمني أولاد النساء))[3].

نستنتج مما سبق أن السيدة خديجة عليها السلام كانت نعم الزوجة لزوجها، ولها مكانةٌ مميزةٌ في ذاكرة النبي صلى الله عليه وآله لم ينساها وفاءً منه.

كذلك نالت السيدة خديجة عليها السلام التكريم الإلهي والبشري في مكانتها بالجنة في الحديث عن أبي هريرة قال: ((أتى جبريل النبي صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله هذه خديجة أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب))[4].

أما في ما يتعلق بوالد السيدة خديجة عليها السلام (خويلد بن أسد) فإنه اشتهر بمعرفته بالعلوم الدينية فقد قال عبد المطلب: ((ما ورث العلم الأول غير خويلد بن أسد))[5]، وقد اختلفت الروايات في تحديد وقت وفاتِه فقيل: مات قبل حرب الفجار[6]، وقيل مات فيها[7]، وقيل بعدها بخمس سنوات[8].

ومن نسلها الطاهر السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، التي كرمها الله بأمتداد نسل النبي محمّد صلى الله عليه وآله منها الإمامين الحسن المجتبى عليه السلام والحسين الشهيد عليه السلام.

1- مسلم، صحيح مسلم، 4/ 1888؛ ابن عوانه، مسند ابن عوانه، 2/ 147.

2- البخاري، صحيح البخاري، 5/ 39.

3- البيهقي، السنن الكبرى، 7/ 307؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 2/135.

4- البخاري، صحيح البخاري، 5/ 39.

5- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 15/ 217.

6- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 106.

7- ابن سعد، الطبقات الكبري، 1/ 133.

8- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 16.

5 المبحث الخامس

دور النبي محمّد صلى الله عليه وآله في الحياة العامّة

كان الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه وآله مثالاً للإنسان الكامل الذي جمع صفات الخير والعمل الصالح، فأصبح أنموذجاً يُحتذى به، ونبراساً للسالكين في طريق الحق، لما عليه من الفكر الصائب والرأي السديد والنفس النقية المطمئنة التي لم تتلوث بشرائن الشرك والظلم. ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفك، وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل، وإدمان الفكر واستكانة الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشؤون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة ونأى عنها، ثم عايش الناس على بصيرةٍ من أمرهم، فما وجد حزناً شارك فيه، وإلاَّ عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لايشرب الخمر، ولا يأكل ما يذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، حتى إنّه لم يكن له شيء أبغض منها، كما أنّه لم يكن يحلف باللات والعزى[1].

وابتدأ وات كلامهُ عن دور النبي صلى الله عليه وآله في الحياة العامة قائلاً: ((عاش محمّد صلى الله عليه وآله حياته في مكة قبل البعثة النبوية وبالتحديد قبل سنة 590م، في كنف أعمامه وشهد أحداث عصره منها حرب الفجار، وحلف الفضول، بدور غير فاعل))[2].

وبذلك يوافق وات مع المصادر الإسلامية في ما يتعلق بحياتهِ صلى الله عليه وآله مع أعمامه، لكنه دس بدوره غير الفاعل في مجتمعه. ولزوماً علينا الرد على مثل هكذا قول لنبين دور محمّد صلى الله عليه وآله الفاعل مقارنة مع أقرانه لصغر عمره، وغير الفاعل إذ قورن مع أعمامه وسادة قريش، حسب ما أوردته المصادر الإسلاميّة المعتمدة. فهو خارج هذه الحسابات لأن دوره لم يحن ولم يكلف بالأمر ولم يحن وقته بعد.

وهذا الرأي غير صحيح فمحمد صلى الله عليه وآله كان دوره فاعلاً في مكة ومؤثراً في أحداثها إذ لم يكن في عزلةٍ عما يشهده مجتمعه من أحداث، حتى أنهُ كان يهم بسوء الأوضاع التي عليها أبناء

1- المباركفوري، الرحيق المختوم، 57.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 21 - 22.

جلدته من أنتشار الشرك وعبادة الأوثان، وانتشار الأمور اللاأخلاقية الفاسدة لذلك نراه كان يعاني بمرارة من تلك الأحوال والأوضاع ويتمنى أن يكون له قدرة على تغييرها، وتطهير بيت الله من دنس الأوثان والجاهلية العمياء. ولزوماً علينا الرد على مثل هكذا قول لنبين دور محمّد ﷺ الفاعل حسب ما أوردته المصادر الاسلامية المعتمدة. ولتسهيل دوره في هذا الجانب سيكون الكلام حسب الأتي:

1 - حرب الفجار:

كانت العرب تقضي عامها كله بالقتال والإغارة، وقد تسبب هذا الوضع في اختلال موازين حياتهم، واضطراب أمورهم، ولأجل هذا كانوا يحرّمون القتال ويتوقفون عنه أربعة أشهر من كل عام وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ليقيموا أسواقهم ويستغلوها في البيع والشراء والكسب[1]، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2].

لكن هذه الحرمة هُتكت أربع مرات في تاريخ العرب، وتقاتلت القبائل في ما بينها في هذه الأشهر الحرم، ولهذا سميت تلك الحروب بحروب الفجار[3]، والذي يهمنا في المقام حرب الفجار الرابعة.

وهي الحرب التي شارك فيها النبي محمّدﷺ، كان يومذاك في الخامسة عشر، أو الرابعة عشر من عمره[4]. وقال البعض أنه كان في العشرين من عمره، وحيث إن هذه الحرب قد استمرت أربع سنوات[5] لهذا يمكن أن تكون جميع الأقوال صحيحة.

فيمكن أن يكون سبب مشاركة النبي محمّدﷺ فيها من وجهة حق الدفاع عن قومه، وتحمله مسؤولية مجابهة الخطر الذي يحيط بأبناء جلدته دليل انسجامه ووده لهم، فلما

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 185؛ السهيلي، الرض الانف، 2/ 149.

2- سورة التوبة: آية 36؛ ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 3/ 29.

3- شلبي، مقارنة الأديان، 3/ 50.

4- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 186، ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 59.

5- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني 22/ 57، البيهقي، دلائل النبوة، 2/ 204.

سئل عن مشهده يومئذ قال: ((ما سرني أني أشهده، إنهم تعدّوا على قومي قريش عرضت هوازن عليهم أن يدفعوا إليهم البراض صاحبهم الذي قتل عروة فأبوا))[1].

ويحتمل أن تكون مشاركته ﷺ في غير الأشهر الحرم بناءً على استمرار هذه الحرب مدة أربعة أعوام[2]. أما دوره في الحرب كان مع أعمامه يناولهم النبل، ويرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، وكذلك يحفظ متاعهم[3]. وينفرد اليعقوبي برأي ينفي به مشاركة النبي محمّد ﷺ في حرب الفجار التي وقعت في أحد الأشهر الحرم رجب فقال: ((إن أبا طالب منع أن يكون فيها أحدٌ من بني هاشم وقال: هذا ظلم وعدوان وقطيعة واستحلال للشهر الحرام، ولا أحضرُه ولا أحد من أهلي، فأخرج الزبير بن عبد المطلب مستكرهاً. وقال عبد الله بن جدعان التيمي وحرب بن أمية: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم))[4]. وهذا النص يبيّن عدم اشتراك النبي ﷺ في حرب الفجار لأنه من أفراد بني هاشم، فهل يسمح أبو طالب للنبي ﷺ بالمشاركة في هذه الحرب! بل وهل يرضى النبي ﷺ أن يشارك في هكذا حرب وسمها عمه بالظلم والعدوان وقطع الرحم؟!

وما يدعونا بالشك بصحة المشاركة هو التناقض في دور النبي ﷺ حيث قيل أنه كان يناول النبال ويحفظ المتاع، وقيل أنه رمى فيها رميات ما كان يحب أنه رماها[5]، وقيل أنه طعن أبا براء ملاعب الأسنة فصرعه[6]، وكذلك يوجد تناقضٌ في تحديد عمر النبي ﷺ فقولٌ بأنّ عمره كان أربع عشرة سنة فهل تسمح العرب لغلام بهذا العمر بالمشاركة، وقول آخر بأنّ عمره خمس عشرة سنة، وقولٌ آخر عشرون سنة.

ويعود سبب الحرب أنّ رجلاً من كنانة قتل حليفاً لقبيلة هوازن في سوق عكاظ، وكانت قريش حليفة كنانة، تقاتل الطرفان وقد شارك ﷺ في بعض تلك الأيام مع أعمامه ولعلها لم تكن أيام الأشهر الحرم، وقد استمر القتال على هذا الحال مدة أربع سنوات، حتى وضعت

1- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 22/ 73.

2- الزبيدي، ماجد ناصر، 500 سؤال حول النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، 120.

3- الدمشقي، ابن ناصر الدين، جامع الآثار في السير، 3/ 414؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، 1/ 259.

4-التاريخ، 2/ 11.

5-الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 186.

6-اليعقوبي، التاريخ، 2/ 12.

نهاية لهذه الحرب الطويلة بدفع قريش لهوازن دية القتلى الذين كانوا يزيدون على قتلى قريش[1].

2 - حلف الفضول:

تشكل الأحلاف جزءاً مهمّاً من حياة العرب السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشوها في الجزيرة العربية، وأهمها حلف الفضول الذي شهده الرسولﷺ في دار عبد الله بن جدعان[2]. ويعود سبب انعقاد حلف الفضول إلى حادثة قدوم تاجر من اليمن إلى مكة، ابتاع بضاعتهُ إلى العاص بن وائل السهمي الثاني وامتنع من إعطائه ثمن البضاعة، وحضر التاجر إلى أندية قريش واشتكى ظلامته، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تيم في دار ابن جدعان، فتحالفوا على نُصرة كلّ مظلومٍ بمكة ويردوا ظلامته، ويأخذون على يد الظالم، فسمي حلف الفضول لفضله[3].

ويضيف وات إلى السبب الأول المتمثل في المحافظة على النزاهة التجارية سبب آخر أبعد منه، إذ من المحتمل أنه كان يرغب في منع استبعاد التجار اليمنيين من الأسواق المكية، ومن جهة أخرى، كانت العشائر التي شكلت هذا التحالف غير قادرةٍ على إرسال القوافل إلى اليمن، أو كانت متخصصةً في التجارة بين مكة وسوريا[4].

لقد كان وات منصفاً في طرحه المنطقي في عقد الحلف الذي يهدف إلى نصرة المظلوم، وإنصافه من الظالم، والمحافظة على النزاهة التجارية، بل الحادثة هي التي أيقظت ضمير القبائل، لأن مكة مركز جذبٍ للجميع ولعدم فقدان المتاجرة مع اليمن وسوريا.

ويرى وات حلف الفضول بأنه تجمع للقبائل الضعيفة، وأنّ زعيم بني هاشم والمطلب هو الزبير بن عبد المطلب كان ضعيفاً، والشخصية الأبرز في الأحداث هو عبد الله بن

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 187؛ الفاكهي، أخبار مكة، 5/ 166؛ الأندلسي، ابن سعيد، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، 381.

2- عبد الله بن جدعان: هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن التميمي، يكنى أبو زهير الذي يعرف بأبي مليكة، كان سيد قريش في الجاهلية، توفي قبل البعثة النبوية، ينظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 5/ 381؛ ابن خياط، الطبقات، 492؛ ابن عبد البر، الأستيعاب، 2/ 727.

3- ابن حبيب، المحبر، 167 و المنمق، 45، المسعودي، التنبيه والأشراف، 1/ 179 - 180.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 22.

جدعان الذي عقد الحلف في داره. ويذكر عشيرة النبي محمّد ﷺ قبل البعثة لا تعدو أن تكون عضواً بارزاً في تجمع القبائل الضعيفة والفقيرة[1].

هذا ديدن المستشرقين الذين يتظاهرون بالإنصاف، ويبثون سموم الحقد والتشكيك في تراث المسلمين، لذا نراه يقلل من دور بني هاشم ويصف زعيمهم بالضعف، كي لا يجير لهم هذا المشروع. لعلّه يريد أن يصور لنا مدى إمكانية العشيرة الفقيرة إنجاب نبي آخر الزمان، ويبدو أن هذا يتقاطع مع فكر وات المادي، بل يجب أن يكون من العوائل الرأسمالية أو الإقطاعية. ويتّضح أن وات من الذين يعرفون بالتفسير المادي للتاريخ.

أمّا عن الدور الذي شارك فيه النبي ﷺ بحلف الفضول، فهناك أقوالٌ كثيرةٌ يذكر فيها بأهمية الحلف قال ﷺ: ((لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دُعيتُ به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وألاّ يغزو ظالمٌ مظلوماً))[2]، وذكره البيهقي[3] باختلاف بسيط قال ﷺ: ((لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت)).

كان وقت عقد حلف الفضول قبل البعثة النبوية الشريفة بعشرين سنة، في شهر ذي القعدة، وبعد أربعة أشهر من حرب الفجار[4].

ومن هذه الأقوال عن النبي ﷺ نستشف حقيقة أن حلف الفضول له أثرٌ إيجابيٌّ في حياة النبي، كونهُ يتلائم مع روح الإسلام وأهدافه.

يكتفي وات بذكر حادثتين قبل سنة (590م) ونحن قد ذكرناهما أعلاه وهما حرب الفجار، وحلف الفضول[5]، ويهمل الحدث الثالث الذي يعتبر غايةً في الأهمية بالنسبة لحياة النبي محمّد ﷺ ألا وهو حادثة بناء الكعبة المشرفة حيث كان لهُ دورٌ مشرفٌ في حسم وقوع نزاعٍ مرتقب بين القبائل لولا حكمة النبي محمّد ﷺ في حسم الموقف. لذا لزاماً علينا ذكره وهكذا يكون في منهجه يعتمد على انتقاء الأحداث.

1-وات، محمّد في مكة، 91 - 92.

2-ابن حبان، صحيح أبن حبان، 10/ 218.

3-معرفة السنن والآثار، 9/ 304.

4-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 134؛ الخركوشي، شرف المصطفى، 1/ 393.

5-محمّد النبي ورجل الدولة، 21.

3 - حادثة بناء الكعبة:

أثّرت السيول التي كانت تجتاح مكة بين الحين والآخر على متانة جدران الكعبة المشرفة، فأوهت بناءها، وصدعت جدرانها، حتى كادت أن تنهار، فقررت قريش إعادة بناءالكعبة بناءً متيناً ليصمد أمام هذه السيول، وكان ذلك في عام الخامس قبل بعثة النبي محمّدﷺ [1].

وتعد أبرز الأحداث التي وقعت في مكة وأوشكت أن توقع الصدام والتنازع بين قبائل قريش عندما تظافرت جهودهم لإعادة بناء الكعبة ولما وصلوا إلى من يتشرف برفع الحجر الأسود وتباحثوا في أمرهم أن يحكّموا أول رجلٍ يدخل عليهم باب شيبة، فطلع عليهم النبي محمّدﷺ الذي يعرف بالصادق الأمين[2]، فقال الجميع: ((هذا الأمين ابن عبد المطلب رضينا به حكماً))[3]، فأخذ رسول اللهﷺثوباً فبسطه ثم أخذ الحجر فوضعه فيه ثم أمر تلك القبائل أن تأخذ كلٌّ منها طرف الثوب فكانوا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، والأسود بن عبد المطلب من بني أسد بن عبد العزى وأبو حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم وقيس بن عدي من بني سهم، ولما وصلوا به موقع الحجر رَفَعَ رسول اللهﷺ الحجر الأسود بيده الكريمة ووضعه مكانه وذلك قبل البعثة النبوية بخمس سنين[4]. لولا تدخل محمّدﷺ في طرح حلٍّ مرضيٍّ لجميع الأطراف برفع الحجر الأسود، لأوشكت أرباع القبائل للاحتكام إلى السيف؛ لأن وضع الحجر الأسود يعدّ من أعلى مراتب الرفعة والشرف، وتكرم بها النبي محمّدﷺ قبل البعثة النبوية بسبع سنين، مما يدل على سمو مكانته وتسديد الله لخطاه، وقدرته على احتواء الأزمات بحنكة وخبرة فائقة النظير. وهذه الحادثة المهمة في حياة النبي محمدﷺ يغضّ وات النظر عنها لما فيها من دورٍ مميّز.

1-الأزرقي، أخبار مكة، 1/ 38؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 2/ 367؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 4/ 5.

2- ابو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 114؛ الماوردي، أعلام النبوة، 213.

3-ابن بحرق، حدائق الأنوار، 119؛ أبو زهرة، خاتم النبيين، 1/ 155.

4- الكليني، الكافي، 4/ 217؛ أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 114.

(Footnotes)

1 -ابن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، 42.

2 -ديون أبي طالب، 75.

3 -ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 14/ 58.

4 -السيوطي، الدر المنثور، 2/ 45.

5 - اليعقوبي، التاريخ، 1/ 251.

6 -الجاحظ، المحاسن والأضداد، 89؛ السيوطي، شرح شواهد المغني، 1/ 209.

7 -ابن حبيب، المنمق، 27؛ اليعقوبي، تاريخ، 1/ 244؛ مجهول، نهاية الآرب، 1/ 307.

الفصل الثالث

دعوة

النبي محمّد ﷺ

في مكة

الفصل الثالث

دعوة النبي محمّدﷺ في مكة

المبحث الأول: المقدمات التي سبقت نزول الوحي

1 – العزلة في غار حراء

2 – الآراء في سبب هذه العزلة

المبحث الثاني: أمية النبي محمّدﷺ

المبحث الثالث: موقف وات من ظاهرة الوحي

المبحث الرابع: موقف وات من بعض الآيات المعترض عليها

المبحث الخامس: أبرز أحداث العهد المكي

1- المعارضة

2 - الهجرة إلى الحبشة

3 - المقاطعة

4- الخروج إلى الطائف

5- بيعة العقبة

تعد مكة أهم المدن التي عرفتها الجزيرة العربية، فمنذ أن أصبح فيها بيت الله الحرام ونزل فيها النبي إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر، أصبحت مركزاً دينيّاً تحجّ إليه الناس من كل فجٍّ عميق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[1]، وخاصةً أنّ الكعبة كانت تتميز عن غيرها بأنّها أول بيت بُني لعبادة الله كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِّلْعَلَمِينَ**﴾[2].

ثم تزايدت أهمية مكة على إثر الصراع بين الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، إذ أخذت الطرق التجارية تتحول شيئاً فشيئاً إلى الحجاز، وبعد أن أصبحت مكة مدينةً عامرةً كان لا بد للقوافل التجارية أن تمرّ بها، لوقوعها في منتصف الطريق الذي يربط بين اليمن والشام. فضلاً عن ذلك، الأهمية الدينية التي تمتعت بها هذه المدينة جعلت التجار العرب يأتون إليها في مواسم الحج حاملين تجارتهم، فانعقدت تبعاً لذلك الأسواق التجارية على الطرق المؤدية إلى مكة، وفي المناطق القريبة منها، فهذه الأمور مجتمعة كانت سبباً رئيساً في انتعاش هذه المدينة وتعاظم شأنها، وكأنّ الله أراد لها أن تكون أعظم مدينة في الجزيرة العربية، فهيأ لها كلّ هذه الأسباب، لكن هذه الأهمية لم تكتمل إلا بعد أن تسلمها قصي بن كلاب جدّ الرسولﷺ، بعد أن كانت بيد قبيلة خزاعة قبل ذلك[3].

تعدّ البعثة النبويّة حدثاً مهماً في تاريخ الإنسانية جمعاء والعرب و المسلمين خاصة، إذ اصطفى الله جلّ جلاله نبيّه محمّدﷺمن بين سائر البشر، ليكون من أمّة العرب نبي آخر الزمان الذي بشرت به الأديان السماويّة السابقة منها اليهوديّة والنصرانيّة الذين حرصوا أشد الحرص على أن يكون منهم.

انبثق نور الإسلام من أشرف بقاع العالم مكّة المكرمة، وعلى يد خاتم الأنبياء وأشرف خلق الله نسباً وحسباً، فأخذ النبي محمّدﷺعلى عاتقه تحمل هذه الرسالة، ورفع راية الإسلام خفاقةً إلى الناس بأجمعهم. وخاطب الله المسلمين بأمة محمّدﷺ وفضلهم على باقي الأمم في قوله تعالى:﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[4].

1-سورة الحج: آية 27؛ ينظر: مجاهد، تفسير مجاهد، 479.

2-سورة آل عمران: آية 96؛ ينظر: ابن المنذر، تفسير القرآن، 1/ 294.

3-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 115؛ الأزرقي، أخبار مكة، 1/ 110.

4-سورة آل عمران: آية 110؛ ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 1/ 491.

1 المبحث الأول

المقدّمات التي سبقت نزول الوحي

تمثّل مرحلة الإعداد الروحي والنفسي والجسدي للنبي محمّدﷺ قبل البعثة النبوية، مرحلةً غايةً في الأهميّة كي يصبح قادراً على تحمل ثقل النبوة وتشمل:

1 – العزلة في غار حراء

تمثل العزلة في غار حِرَاء[1] مرحلةً مهمّةً من حياة النبي محمّدﷺ قبل بعثه بالنبوّة وهي مرحلة تلاقحٍ فكريٍّ دينيٍّ، وعند البعثة نزل عليه الوحي بالقرآن الكريم وهو يتعبد في غار حراء، الواقع في جبل النور أو»جبل الإسلام» وقد سمي كذلك لبزوغ نور الدعوة الإسلاميّة فيه، وفيه نزلت أول سورة من الذكر الحكيم على نبينا محمّدﷺ وهو يتعبد في الغار، فعدّ القرآن نوراً فسمّي جبل النور[2]، وهو واحدٌ من أهم الأماكن في تاريخ الإسلام وسيرة نبيه، وشهد واحداً من أهم أحداث تاريخ البشرية والإسلام واللحظات الفاصلة في حياة النبي محمد(صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فغار حراء مكان مهم للنبي محمّدﷺ خاصة وللمسلمين عامة لما لهُ من قداسة.

ولهذه الأهمية أنصف المستشرق وات النبي محمّدﷺ بشرف العزلة في غار حراء فيقول: ((أدّى اهتمام محمّدﷺ بمشاكل مكة في هذه الفترة إلى التماسه العزلة، ففي واحدة من التلال الصخرية الجرداء في مكان قريب، كان ثمة كهف يذهب إليه أحياناً لعدة ليال كل مرة كي ينفرد بنفسه ويصلي ويتأمل، وخلال هذه الليالي حصلت له تجارب غريبة في بادئ الأمر كانت ثمة أحلام خصبة أو رؤى))[3].

1-غار حِرَاء: هو الغار الواقع في جبل حِرَاء الذي بأصل شعب آل الأخنس، بينه وبين مكة نحو ثلاثة اميال على يسار الذاهب من مكة إلى منى، والذي أخذ منه اسمه، ويرجع معنى اسم جبل حراء إلى تحري الصواب أي توخيه، والتحري قصد الأولى والأحق، مأخوذ من الحرى، وهو الخليق، والمتوخي مثله، ينظر: الأزرقي، أخبار مكة، 2/ 288؛ الأزهري، تهذيب اللغة، 5/ 138.

2-الحربي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبويّة، 95.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 29.

العزلة هي اسم الفعل الاعتزال، ويراد بها الانعزال عن الناس لعبادة الله ﷻ، وتتحقق برغبة الإنسان واختياره[1]. اصطلاحاً، العزلة هي اعتزال الدنيا وتركها والانصراف إلى العبادة، فهي رياضة النفوس لتتخلى عن الدنيا وجعل التقرب إلى الله ﷻ همه[2]. أما في نظر علم النفس العزلة أو الأنعزال يكون لفترةٍ محدّدةٍ من الزمن يسعى لتحقيق هدف انفعالي أو عقلي[3].

تميزت حياة النبي محمّد ﷺ قبل البعثة بحب الانعزال عن قومه؛ لما يراهم عليه من عبادة الأصنام، وقوي عنده حب الخلوة للتفكير في آلاء الله ﷻ، فكان يصعد إلى غار حراء يتعبد الليالي ذوات العدد تارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر من كل سنة يخلو فيه بنفسه ويعبد الله تعالى، وزاد عنده حب الخلوة لما قرب موعد البعثة[4].

وقد تم إعداد النبي محمّد ﷺ للنبوة منذ الطفولة ونلتمس ذلك من كلام الإمام علي حيث قال: ((ولقد قرن الله ﷻ به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طرق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه... ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري... أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة))[5].

لقد أحاط الله ﷻ النبي محمّد ﷺ منذ طفولته بالعناية الإلهية، فعندما كان غلاماً يافعاً في مكة مع غلمان قريش يلعبون بحمل الحجارة على أعناقهم، ولما وضع النبي محمّد ﷺ كيس الحجارة على رقبته، دفعه دافع لم يره وقال لهُ: ((اشدد عليك إزرك، فقال النبي محمّد ﷺ: فشددت إزاري))[6].

إنّ هذه الإشارة بخفاء هي أحد أنواع الوحي للنبي محمّد ﷺ منذ الطفولة. وتمكن النبي محمّد ﷺ من رفع الحجارة مع أقرانه الأطفال كي يكون أسوة بهم بالقوة بل يتفوق

1-القاضي عياض، مشارف الأنوار على صحاح الآثار، 2/ 151؛ ابن منظور، لسان العرب، 11/ 440.

2-دوزي، رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، 7/ 202.

3-إبراهيم، عبد الستار، الإنسان وعلم النفس، 192.

4-ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 64؛ أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة،213.

5-ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 13/ 197؛ البروجردي، جامع أحاديث الشيعة،1/ 68.

6-الماوردي، أعلام النبوة، 211.

عليهم، حتى لا يكون في موضع السخرية من قبل الأطفال على عدم قدرته، وتسديد خطواته حتى في اللعب ومنذ الطفولة. وهذا يدل دلالةً واضحةً على عصمته[1].

روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما هممت بشيءٍ مما كان في الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد فإني قلت ليلةً لغلامٍ من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت إلى غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها ما يسمر الشباب، فقال ادخل، فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان بن فلان تزوج فلانة ابنة فلان فجلست أنظر إليهم فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلّا مس الشمس، قال: فجئت صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما صنعت شيئا وأخبرته الخبر، قال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: افعل، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت ودخلت مكة تلك الليلة فجلست أنظر فضرب الله على أذنيّ فوالله ما أيقظني إلّا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته))[2].

وللباحث رأي يشكك بصحة متن الرواية؛ لأن النبي محمّد ﷺ لم يهم بفعل أيّ شيءٍ من أفعال الجاهلية منذ نعومة أظافره، فهو معصومٌ من الزلل وارتكاب المعاصي بإرادة الله ﷻ، ولو سلطنا النقد للرواية فمن المعروف أن رُعات الأغنام يذهبون إلى أهلهم عند الغروب ودخول المساء ليستريحوا من تعب النهار أولاً وليحموا أغنامهم من خطر الذئاب ثانياً، فيُستبعد أن يباتوا بأغنامهم في جبال مكة بالليل. فضلاً على ذلك، كيف يغمض جفن أبي طالب وينام ليلةً هادئةً وابن أخيه ساهراً طوال الليل بجبال مكة؟ كذلك لم يرد الخبر عند مجموعة كتاب السيرة والتاريخ فيبدو أنّ الطبري والماوردي نقلا الخبر عن الفاكهي من دون تمحيص ونظر. وإنْ قبلنا بالرواية فهكذا كان حال نبينا محمّد ﷺ قبل البعثة فقد حباه الله بالعصمة من الأدناس والزلل وعدم الوقوع بمعصية الله قبل بعثته بالنبوّة. فكان ﷺ من الأتقياء البررة والأصفياء الخيرة صاحب الفطرة السليمة، وقد استخلصه الله من بين الناس ليحمل رسالة السماء ويختم به الأنبياء.

1-العصمة: الإيمان بالله والابتعاد عن الكفر، والاجتناب عن المعاصي، وأضاف إليها الإماميّة أن لا يقع في السهو ولا في الخطأ وخصوها بالأنبياء والأئمة فقط (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)، سورة الأحزاب: آية 33؛ الحليمي، المنهاج في شعب الإيمان، 1/ 17؛ الآميدي، علي بن أبي علي، غاية المرام في علم الكلام، 368؛ المقدسي، يوسف بن يحيى، عقد = = الدرر في أخبار المنتظر، 1/ 317؛ شبر، عبد الله، حق اليقين في معرفة أصول الدين، 191 – 255.

2-الفاكهي، أخبار مكة، 2/ 384؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 520؛ الماوردي، أعلام النبوة، 111 – 112.

أمّا عن العبادة التي مارسها النبي محمّد ﷺ قبل البعثة مع بعض المكيّين فقال وات: ((كان يدين بالتوحيد المبهم الذي كان عليه أغلب المتنورين من أهل مكّة))[1]. ثم يعطي سبب هذا التنوير بالتوحيد فيقول: ((إن التوحيد الغامض الذي كان يؤمن به المكيّون المتنورون ـ أي الحنفاء [2]ـ في تلك الأيام، ومن المفترض أيضاً أن محمداً ﷺ آمن به منذُ بدايته... وكان المكيون يتجهون نحو التوحيد بفعل تأثير النفوذ اليهودي ـ المسيحي))[3].

لقد أجاد وات بذكر الموحدين الأحناف ويفترض أيضاً أنّ النبي محمّد ﷺ آمن به منذ البداية، إلا أنه يدس بشبهته التي طالما يسعى لتوظيفها بأن المكيّين الموحدين يرجع الفضل في توجههم إلى التوحيد لليهود والنصارى.

لو كان التوحيد عند المكيّين والنبي محمّد ﷺ قبل البعثة جاء بتأثير الديانة اليهودية والديانة النصرانية لأطلق عليهم يهود أو نصارى! إلاَّ أنّهم كانوا يسمّون أحناف، وهذه التسمية لا تتصل باليهود والنصارى على الرغم من كونهم موحدين، بل ترتبط بدين نبي الله إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[4]. وأكّد رسول الله ﷺ ذلك بقوله: ((إني لَمْ أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة))[5].

وقد اتّكأ وات في إلصاق هذا الرأي بالنبي محمّد ﷺ ودينه من خلال التلاعب بمعان الألفاظ، فقد فسّر كلمة «حنث» بمعنى الرجوع في القسم أو عدم القدرة على الوفاء به، ويعتبر بصفة عامة خطيئة، فضلاً عن ذلك بأنها تعني فعل ما يخرج به من الخطيئة أو الجريمة[6].

1-محمّد في مكة، 110.

2-الحنفاء: هم مجموعة من النساك نسكوا في الحياة وانصرفوا إلى التعبد بالله على ملّة إبراهيم عليه السلام وأغلبهم من العوائل الميسورة تمكنوا من شراء الكتب السماوية الغالية الثمن وساحوا في أطراف جزيرة العرب، ولم تعرف تعاليمهم وعقيدتهم وتفاصيل دينهم من مصادر قديمة إلا من المصادر الإسلاميّة وإشارات في القرآن، نادوا بنبذ عبادة الأوثان وحرّموا على أنفسهم الخمر وأكل ما ذبح للأصنام لأنه لغير الله وتجنبوا أقوال الفحشً، ونسبوا إليهم أراء شعائر الحج والتأمل في خلق الله، علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 12/ 26 – 34.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 41.

4-سورة آل عمران: آية 67.

5-ابن حنبل، مسند أحمد، 36/ 624؛ الطبراني، المعجم الكبير، 8/ 216؛ الروياني، مسند الروياني، 2/ 624.

6-محمّد في مكة، 109.

وهو بذلك ابتعد عن الحقيقة فأخذ كلمة حنث والتي تعني الذنب العظيم[1]، وفي القرآن تعني الإثم[2]، ووظفها بشكلٍ سلبي. ولم يؤخذ كلمة حنيف التي تعني: انقلاب القدم حتى يصير ظهرها بطنها، فهو العادل عن دين إلى دين عن اليهودية والنصرانية[3]. أو المائل إلى الدّين، والمستقيم عليه[4]. وقيل هو المائل عن العقائد الزائفة[5]. وبذلك سميت الحنيفية؛ لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية.

ولم يأخذ كلمة تحنث التي تعني التعبد، ومعناه إلقاء الحنث عن نفسه[6]، أي يفعل الإنسان به فلا يخرج منه الإثم والحرج[7]. ومن هنا يكون هناك فرقٌ بين ما تبناه وات من مفردة حنث التي تعني الذنب، وبين ما كان يمارسه النبي محمّدﷺ من تحنث الذي يعني العبادة الخالصة لله. وبذلك يحقق مبتغاه في ذم الرسولﷺ، ويخرج كثيراً في نسب التوحيد الإسلامي إلى أصولٍ يهوديّةٍ ونصرانيّة.

2- الآراء في سبب هذه العزلة

عدّ وات أنّ النبي محمّدﷺ كان مدركاً منذ شبابه لبعض المشاكل الاجتماعية والدينية في مكة، ولا شك أن وضعه يتيماً جعله أكثر إدراكاً للانحرافات التي سادت في المجتمع، وكان يتطلع إلى نوع من الإصلاح في مكة، وفي هذا الإطار الفكري كان من الواضح أن يتعمد محمّدﷺ السعي إلى الوحدة ليلجأ إلى الأمور الإلهية ويؤدي بعض العبادة، ربما طلباً للتكفير عن الخطايا[8].

لقد اجتنب النبي محمّدﷺ مشاركة قومه في ممارسة طقوسهم الدينيّة وأعيادهم التي

1-الفراهيدي، العين، 3/ 206.

2-ابن دريد، جمهرة اللغة، 1/ 417.

3-ابن دريد، جمهرة اللغة، 1/ 556.

4-السمعاني، تفسير القرآن، 1/ 330.

5-البيضاوي، أنوار التنزيل، 2/ 22.

6-الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، 1/ 272.

7-ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 1/ 449.

8-محمّد في مكّة، 110.

يتقربون بها للأصنام[1]، وتحقق ذلك برعاية الله لهُ وهدايته لطريق الحق بالابتعاد عن طريق الضلالة. هذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى* وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدى**﴾[2].

وقد ذكر أحد الباحثين: ((كان من الطبيعي أن يعمق هذا التوجه عند رسول اللهﷺ روح العزلة عن قومه، ويدفعه إلى عدم مخالطتهم وحضور مجالسهم إلا عند الضرورة التي تفرضها مقتضيات الحياة العملية))[3]، فكانت نفسه الطاهرةﷺ مطمئنّةً، لم تجد في العالم المحسوس ما تُعوّل عليه وتركن، فأخذت تتلمس في العزلة إلى غار حراء وهي محرومة من ملاذ المطاعم والمشارب ومجالس المزاح وبعيدة عن مآرب المكاسب وهذا لم يحقق مكاسب مادية واجتماعية، بل كان انقطاعاً للعبادة والتفرغ للتفكير طلباً للهداية إلى سواء السبيل، ونافراً لما كان عليه قومه من الضلال البعيد كارهاً أن يشاطرهم هذه الحياة الحيوانية[4].

لذا اتّخذ النبي محمّدﷺ التحنث من عبادة جدّه عبد المطلب[5]، فاعتكف في غار حراء قبل بعثته بثلاث سنين، في كل شهر رمضان من السنة، وإذا انصرف من نسكه لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة[6]. والعبادة التي كان يمارسها نوع من الصلاة، ليس بمفهوم التقرب إلى الله ﷻ ودعائه فقط، وإنما بأداء بعض الطقوس التي تصحب ذلك من قيام وركوع وسجود[7]، وقد نص القرآن الكريم على ذلك في الحديث مع النبي إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: (**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**)[8]. لم تزودنا المصادر الإسلاميّة عن الكيفية التي كان يتعبد بها النبي محمّدﷺ قبل الإسلام، سوى أنه من الأحناف وعلى ملة أبراهيم عليه السلام فلذا يكون الطواف والسجود والركوع طريقة عبادة النبي محمّدﷺ والتي نمارسها اليوم ضمن طقوسنا لعبادة الله ﷻ.

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 158.

2-سورة الضحى: الآيتان 6 - 7؛ ينظر التستري، تفسير التستري، 197.

3-الملاح، الوسيط في السيرة، 87.

4-وجدي، محمّد فريد، السيرة المحمدية، 87 – 89.

5-علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، 129.

6-ابن إسحاق، السير والمغازي، 101؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 235.

7-دروزة، عصر النبي، 797-792؛ الملاح، الوسيط في السيرة، 87.

8-سورة الحج: آية 26، ينظر: القرطبي، الهدايه إلى بلوغ النهاية، 7/ 4872؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/ 117.

أمّا عن الخلوة التي كان يمارسها النبي محمّدﷺ للعبادة في غار حراء فقال وات: ((ربما كان ذلك وسيلة للهرب من حرارة مكة في موسم متعب لمن كانوا لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف))[1].

يبدو لنا أن وات تأثر بواقع المناخ السائد في مكة، الذي يوصف بشدّة الحرارة في الصيف، وسحبها على الجانب العبادي، وفسر اعتكاف النبي محمّدﷺ في غار حراء هروباً من صيف مكة الحار. لعلّه يريد منها نفي مرحلة مهمة في حياة النبي ألا وهي العبادة الخالصة لله، فضلاً عن ذلك يحاول إعطاء صورة للنبيﷺ وعائلته أنّهم فقراء ولا يستطيعون الاصطياف بالطائف أسوةً بالعوائل المكية الميسورة التي كانت تتخذ من الطائف مصيفاً لها. إلاّ أن الحقيقةَ خلافُ ذلك، كون زوجته السيدة خديجةعليها السلام من أثرياء مكة، وبوسعها الذهاب مع زوجها إلى الطائف كي يستريحا من حرارة الصيف، ولم تفعل ذلك بل كانت تصعد بعناء جبل النور متّجهةً إلى غار حراء وهي تحمل معها الطعام والماء إلى رسول اللهﷺ. علماً أن غار حراء طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع[2]. بمعنى أنه ليس مصيفاً. وهذا المكان الصغير لا يسع إلاّ لشخص واحد! فكيف صور وات الذهاب إلى الغار بصيغة الجمع، ونعلم أن النبي محمّدﷺ كان يذهب لوحده ويحضر عنده السيدة خديجةعليها السلام أو زيد بن حارثة. وبذلك يتضح جلياً من الاعتكاف بأنه كان للعبادة والمناجاة وتصعيد وتقوية الإخلاص تمهيداً للواجب والتكليف القادم. فهو يدل على أن النبي محمّدﷺكان يتمتّع بصحةٍ جسديّة تامّة تمكنه من صعود جبل النور الذي يبعد 4كلم عن المسجد الحرام، ويرتفع حوالي 600م أو أكثر من ذلك ولقد أثبت بالتجربة أن صعود غار حراء يستغرق أكثر من ساعتين، من يقف على الغار يتمكن من مشاهدة الكعبة.

ولعلّ هذه الميزة الجغرافية لغار حراء جعلت النبي محمّدﷺ يقف فيه ويطيل النظر إلى مكة، والتأمل بتغيير واقعها الديني المهلهل والاجتماعي المنحرف، كونها تشرفت ببيت الله الحرام، ودُنِّس بشرك العرب بأصنام الجاهلية المنتشرة. وعن قداسة الكعبة قال رسول الله: ((ينزل اللَّهُ عز وجل على هذا البيت كلّ يومٍ وليلةٍ عشرين ومائة رحمة، ستون منها للطائفين

1-محمّد النبي ورجل الدولة، 109.

2-المنصورفوري، رحمة للعالمين، 41؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، 57.

وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين))[1]، وفي حديث آخر قالﷺ: ((النظر إلى الكعبة عبادة))[2]. من هذه الأحاديث التي قرن بها رسول اللهﷺ النظر إلى الكعبة بنزول رحمة الله ﷻ على عباده، بل قرنه بالعبادة حيث يقوم النبي محمّدﷺ بالخلوة في غار حراء والنظر إلى الكعبة يمارس عبادة الله وتوحيده.

من نافلة القول أنّ اهتمام النبي محمّدﷺ بمشاكل مكة دفعهُ لالتماس العزلة، إذ يذهب إلى غار حراء لعدة ليال يتفرد بنفسه ويصلي ويتأمل، وفي الأربعين من عمره كَلّف الله محمّداًﷺ بالنبوة وبدأ نزول الوحي عليهِ في صورٍ مختلفة، وبدأت آثار النبوة تلوح وتظهر عنده، وتلك الآثار هي الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر[3].

1-الفاكهي، أخبار مكة، 1/ 195؛ ابن الأعرابي، معجم ابن الأعرابي، 3/ 900؛ الطبراني، المعجم الأوسط، 6/ 248.

2-الكلاباذي، بحر الفوائد (المشهور بمعاني الأخبار) 107؛ البيهقي، شعب الإيمان، 6/ 187.

3-أبو داود، مسند أبي داود الطيالسي، 3/ 78؛ مسلم، صحيح مسلم، 1/ 139.

المبحث الثاني

أميّة النبي محمّدﷺ

لقد كثر النقاش في مسألة أمية النبي محمّدﷺ فانقسم الباحثون إلى فريقين منهم من يقرّ بأمية النبي محمّد ﷺ وآخر ينكرها، ووقع بينهما جدل كبير. وإنْ رُجّح الفريق الأول فلا ضير في ذلك فهو دلالة على تتحقق المعجزة الآلهية، وإن رُجّح الفريق الثاني فهو دليل على أنّ علم النبيﷺ علمٌ لدّني[1]. حيث إنّ العلم الذي يُعلّمه الله لعباده نوعان: علمٌ مكتسبٌ يدركه العبد بجهده واجتهاده، ونوع آخر هو علم لدني، يهبه الله لمن يمنّ عليه من عباده لقوله: (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**)[2] ولذلك لم يحصل الاتفاق التام والكامل بين علماء المسلمين على موقف واحد من أُمية النبيﷺ، وتعددت الآراء بين من يقول: إنّ النبي محمّدﷺ لم يكتب ولم يقرأ في كتاب قط، وبين من يقول إنهُﷺلم يتوفه الله تعالى حتى كتب وقرأ، وبين من يقول أنهُﷺ كتب مباشرةً وبيدهِ في أيام البعثة[3]. فأخذت مسألة الأمية اهتمام المستشرقين عامة ومنهم وات الذي استبعدها.

إنّ سورة العلق ابتدأت بـ «اقرأ» وعن حديث نزولها رواية الزهري (ت 240هـ) وهي أن النبيﷺ استغرب من كلمة أقرأ ؟ فقال: ((ما أقرأ))[4] بمعنى لا أستطيع القراءة، وابن هشام ميّزها ((ماذا أقرأ))[5] يعني ماذا سأقرأ، وفي رواية البخاري ((ما أنا بقارئ))[6] تعني لا أستطيع

1-علم لدّني: أو «العلم الإلهي» هو أحد انواع العلم التي يعلمها الله إلى الأنبياء والأئمة المعصومين، وانتقل هذا العلم من النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) إلى الإمام عليعليه السلام وتناقله منه الأئمةعليهم السلام بالتتابع، وقوله تعالى: (... وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) (سورة الكهف: آية 65) وقوله تعالى: (... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: آية 282)، وفي حديث للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قال: ((مَنْ زهد في الدنيا علّمهُ اللهُ تعالى بلا تعلم، وهداهُ بلا هداية، وجعله بصيراً، وكشف عنه العمى)) وهو من غير تدريس كما في العلم المكتسب، ينظر: أبو نعيمٍ الأصبهاني، حليةً الأولياء، 1/ 72؛ الرازي، مفاتيح الغيب، 2/ 183؛ ابن طلحة، محمّد، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، 82؛ البهائي، مفتاح الفلاح، 172.

2-سورة الكهف: آية 65، ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 5/ 189.

3-للمزيد من التفاصيل ينظر: شاهين، عبد الصبور، تأريخ القرآن، 47 ـ 48.

4-الطبري، جامع البيان، 24/ 528؛ الخفاجي، أحمد بن محمّد، عناية القاضي وكفاية الراضي، 8/ 378.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 236.

6-أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 213.

القراءة. وهنا يضع وات رأيه فهو يزعم أنّ أميته إدعاء: ((يكاد يكون من المؤكد أن أهل الحديث المتأخرين تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات ليعزوا الاعتقاد بأن محمّداًﷺ لم يستطع الكتابة، وهذا الاعتقاد جزءٌ من إثبات الطبيعة المعجزة للقرآن))[1]. ثم يطرح وات سؤالاً: لمن يتلو محمّدﷺ وفي أي مناسبة؟ وهو يجيب عن سائله أن يتلو محمّدﷺ ما أتاه كجزء من صلاته لله[2].

المشكلة تكمن في الرواية الإسلاميّة التي تبين الأمية من جواب النبي محمّدﷺ إلى جبرائيل عليه السلام ما أنا بقارئ. فهو إنكارٌ لعلم الله الواسع والدقيق بكلّ شيءٍ، وهو علام الغيوب؛ فإنّه مما لا يقبله عقلٌ أو منطقٌ أنْ يخاطب الله من لا يعرف القراءة والكتابة بأمر اقرأ.

وينقد وات رأي العقيدة الإسلاميّة أن محمداًﷺ لم يكن قادراً على القراءة أو الكتابة فيقول: ((ترى العقيدة الإسلاميّة بأن محمداً لم يكن قادراً على القراءة والكتابة، إلاّ أنّ هذا الرأي مشكوكٌ فيه لدى العلماء الغربيين المعاصرين، لأن هذا الرأي يَقْدِم من أجل دعم الاعتقاد بأنّ إنتاج محمّدﷺ للقرآن ما هو إلاّ معجزة مادية لا يمكن أبداً لأميٍّ أن يصنعها بنفسه. على العكس من ذلك فمن المعروف أن العديد من المكيين قادرون على القراءة والكتابة، ومن اليقين أن محمداًﷺ لم يقرأ أبداً الكتاب المقدس، كما أنه من غير المرجح أنه قد قرأ أيّ كتبٍ أخرى لذا يجب أن يكون محمداًﷺ قد اكتسب هذه المعرفة من مفاهيم اليهود ـ المسيحية بنحو شفاهي، ... حيث إنّه اجتمع معهم في سوريا واجتمع مع بعض القادمين من اليمن للتجارة، وكذلك مع ورقة ووجود بعض اليهود الذين تحدث معهم عن مسائل دينيّة))[3].

الفرق واضحٌ بين المستشرقين وعلماء المسلمين، فالمستشرق يحاول اثبات القراءة والكتابة للنبي محمّدﷺ؛ لأن قديم رأيهم الذي يرى بالجذور اليهوديّة والمسيحيّة للإسلام.

أمّا علماء المسلمين الذين أثبتوا أن الرسولﷺ يقرأ ويكتب؛ لأن الكتابة والقراءة من أبجديات أهل العلم، وهو أفضلهم بوصفه معصوماً. فضلاً عن ذلك التناقض الذي يحصل في ما لو سلمنا بعدم قراءة الرسولﷺ وكتابته فكيف يرسله الله جلّ جلاله نبيّاً للناس وقوله تعالى:

1-محمّد في مكة، 113.

2-محمّد في مكة ، 113.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 56 - 57.

﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[1] فكيف يبعث أميٌّ إلى أميين.

زيادة على ذلك ما ورد في القرآن بخصوص النبي الأمي فهذا كونه ينسب لأم القرى (مكة) ولأنّ أم القرى صيغة بلاغة كقولنا: (ذي قاري) لذا اقتصر على لفظ (أم) فقيل أمي.

وللرد على هذه المزاعم جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾[2]، نزلت بحق المشركين الذين يقولون جهلاً بأنه يُعلم محمّداً ﷺ رجلٌ أعجميٌّ وهو عبدٌ روميٌّ اسمه بلعام قين نصراني بمكة، وقالوا اسمه جبر غلام نصراني لبني بياضة الحضرمي، وقيل: اثنان هما: يسار وجبر يعرفان قراءة التوراة، وقيل: غلام لبني المغيرة يقال له يعيش[3].

وعلى العكس من ذلك يرى المستشرق توماس كارليل أنّ محمداً ﷺ لم يتلقَّ درساً على يد أستاذ أبداً[4]. وهذا هو الصحيح لا بد أن يكون الأستاذ أفضل من تلميذه. وهذا محال لأن محمّداً ﷺ كان أفضل من كلّ البشر.

لم يذكر في المصادر أنّ النبي محمّد ﷺ درس على يد أحد من البشر فلم يكن معلمه من البشر، ولم يجلس أمام أحد للتتلمذ، بل كان معلمه الواحد الأحد وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾[5].

وجاء في اللغة أنّ الأمي: المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه[6]، أي من بقي كما ولدته أمه لم يتعلم قراءة ولا كتابة[7].

1-سورة الجمعة: آية 2.

2-سورة النحل: آية 103.

3-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 17/ 298 – 300.

4-الأبطال، 67.

5-سورة النساء: آية 113؛ ينظر: النعماني، اللباب في علوم الكتاب، 7/ 14.

6-ابن منظور، لسان العرب، 12/ 34.

7-قلعجي، محمّد رواس، وحامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، 1/ 90.

ويقال نسبة الأمي إلى أمة العرب حين كانوا لا يحسنون الخط ويخط غيرهم من سائر الأمم[1].

أما اصطلاحاً: الأمي هو ذلك الإنسان الذي لا يجيد القراءة في كتاب ولا يحسن الكتابة في قرطاس؛ لأن الكتابة هي مكتسبة[2].

وردت لفظة الأمي في القرآن الكريم والحديث النبوي، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾[3]. نزلت في اليهود ومعنى«أميون» هم أهل الكتاب الذين لا يقرأون ولا يكتبون[4]. ﴿**وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا**﴾[5]. يُجمع معظم المفسرين أنّ معنى «الأميّين» هم الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب[6]، ويتفرد عبد الله بن عباس في تفسير المراد بالأميين هم العرب[7]. ولم يحدّد هل العرب المشركين أم العرب الذين لا يقرأون ولا يكتبون. وبعض المفسرين أضافوا إلى رواياتهم في تفسير الآية رواية ابن عباس ليحدّدوا العرب بالذين لا يقرأون ولا يكتبون[8].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿**... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾[9]. يفسرها بعضهم ومنهم العرب ليس من أهل الكتاب[10]. كما قال تعالى: (**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾[11]، ويجزم البيضاوي (ت 685هـ) بتفسير الأمي

1-الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، 1/ 56.

2-أبو حيان، البحر المحيط، 1/ 435؛ ابن منظور، لسان العرب، 12/ 34.

3-سورة البقرة: آية 78؛ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 2/ 257.

4-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 2/ 257؛ البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 1/ 114.

5-سورة آل عمران: آية 20؛ ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 6/ 281.

6-الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، 6/ 281؛ المنذري، كتاب تفسير القرآن، 1/ 151؛ البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 2/ 10؛ البقاعي، إبراهيم، نظم الدر في تناسب الآيات والسور، 4/ 297.

7-تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، 44.

8-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 6/ 282؛ المنذري، كتاب تفسير القرآن، 1/ 151؛ السيوطي، الدر المنثور، 2/ 168.

9-سورة آل عمران: آية 75؛ ينظر الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 218.

10-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 6/ 522؛ المنذري، كتاب تفسير القرآن، 1/ 261؛ البيضازي، أنوار التنزيل، 2/ 24؛ السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 224.

11-سورة الأعراف: آية 157؛ ينظر السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 555.

أن النبي محمّدﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب، وتحققت المعجزة جاء بالعلوم كلها وهو لا يقرأ ولا يكتب[1]، ويشاطره الرأي ابن الجزي (ت 741هـ) لكن يضيف رأياً ثان: الأمي نسبة إلى الأمَ وهو مصدر أَمّ يَؤُمُّ: أي قصد[2]، وتفسر الأمي: هو الذي لا يكتب ولا يقرأ، بل أضافوا إليها رأي «نسبةً إلى أم القرى»[3]، والآخر قيل النبي محمّدﷺ كان يقرأ ولا يكتب، أو نسبةً إلى أمة محمّد ليميّزونها عن الأمم الأخرى[4].

وفي قوله تعالى:﴿...**فَآمِنُوا بِاللَّه وَرَسُولِه النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّه وَكَلِمَاته وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[5] وقال تعالى: (**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[6]. وكذلك فسروا الأميين بانبعاث رجلٍ أميٍّ إلى أمّةٍ أميّة، أو يراد بها أمة العرب كانوا لا يقرأون ولا يكتبون[7].

وكذلك في الحديث قال: ((إنا أمّةٌ أميّةٌ لا نكتب ولا نحسب...))[8]. وفي حديث بين النبي محمّدﷺ وجبرئيل عليه السلام يؤكد شيوع الأميّة قالﷺ: ((يا جبريل إني بعثت إلى أُمّة أُميّةٍ فيهم العجوز والشيخ والغلام والجارِية والرجل القاسي الذي لم يقرأْ كتاباً قطّ))[9].

ومن هذا العرض يتّضح لنا أنّ الأميين هي كلمةٌ اصطلاحيّةٌ من القرآن الكريم يشار بها إلى العرب بأنهم ليسوا أصحاب كتاب مثل اليهود والنصارى، بل هم مشركون لا كتاب لهم يرجعون إليه وليس لديهم نبيٌّ مرسل، وأنّ محمداًﷺمن الأحناف أرسل إلى أمّة ليس لها كتاب، ولا يعني أنه لا يقرأ ولا يكتب، وقد تكون التسمية صحيحةً لأنّ الأكثريّة أميون لا يقرأون ولا يكتبون في الأمم جميعهم، والذين يقرأون ويكتبون هم فئةٌ قليلةٌ على عدد

1-أنوار التنزيل، 3/ 37.

2-التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 304.

3-السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 555 – 556.

4-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 13/ 161 163؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 5/ 1581 1582، السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 5/ 478.

5-سورة الأعراف: آية 158، ينظر ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 2/ 160.

6-سورة الجمعة: آية 2.

7-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 23/ 371؛ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 3/ 479؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 8/ 115.

8-البخاري، صحيح البخاري، 216؛ مسلم، صحيح مسلم، 485.

9-ابو داود، مسند ابي داود، 1/ 439؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 38/ 405.

الأصابع[1]. وقد أكد البلاذري[2] ذلك بقوله: ((دخل الإسلام مكة وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب...))[3].

وقد أُرسل النبي محمّدﷺ حجّةً للناس وذلك من قولهﷺ: ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهليّةً))[4]. وكيف يكون إمام الأمة وهو لا يعرف أبسط مقومات العلم وهي القراءة والكتابة؟

وفي ضوء ذلك قال رسول اللهﷺ: ((فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنَمَطٍ من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغَتَّني به، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ: قلت: ما أقرأ ؟ قال: فغَتَّني به، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: ماذا أقرأ ؟ قال: فغَتَّني به، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: فقلت ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلاّ افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾. قال: فقرأتها))[5].

وتفسير الآية علّم بالقلم أي علم الإنسان الكتابة بالقلم والإنسان المراد به النبي محمّدﷺ[6].

ابتدأت السورة بفعل الأمر اقرأ ويقتضي ذلك وجود مقروءٍ وهو ما يوحى إليه من القرآن[7]. جاء جبرائيلعليه السلام لمحمدﷺ بنَمَطٍ من ديباج فيه كتاب، فقال له: اقرأ!. هل كان جبرائيلعليه السلام يجهل أنّه مرسلٌ لنبيٍّ أميٍّ لا يعرف القراءة حتى يقول له بصيغة الأمر (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)؟!. لأن اقرأ تستلزم القراءة من كتاب.

1-الرصافي، الشخصية المحمدية، 166.

2-فتوح البلدان، 459.

3-ينظر: فتوح البلدان، 459.

4-الطوسي، الرسائل العشرة، 317.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 236 – 237.

6-ابن الجوزي، زاد المسير، 4/ 466.

7-ابن عباس، تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، 514؛ الحلاق، محاسن التأويل، 9/ 507.

وهناك رأيٌ أنّ صيغة الأمر جاءت إلى النبي محمّد ﷺ لأن يستفتح قراءة القرآن باسم الله تعالى[1]، وهي أنْ تذكر التسمية في ابتداء كلّ سورةٍ من القرآن[2]، وقد تقال للذي لا يقرأ بدافع التحفيز على القراءة. لماذا لم يعترض محمّد ﷺ على أمر جبريل عليه السلام له بالقراءة، بل استفهم منه (ماذا اقرأ) يا جبريل عليه السلام؟ **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي... الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)** فقرأها النبي ﷺ.

لو افترضنا جدلاً أن النبي محمّد ﷺ كان أمياً! أي يجهل القراءة والكتابة! إذاً، قدرة الله أن يقول للشيء كن فيكون من سياق السورة تتحدث عن خلق الإنسان فيها تعبير قدرة الله أن يخلق في النبي محمّد ﷺ القراءة، لكنه لم يكن يدري ما في الكتاب[3].

ومن الشواهد التاريخية التي تثبت قدرة النبي محمّد ﷺ على القراءة والكتابة في صلح الحديبية (6هـ/ 627م) لما أمر الرسول محمّد ﷺ كاتبه الإمام علي عليه السلام بكتابة الصلح ((فقال رسول اللهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم! هذا ما اصطلح عليه رسول اللهِ. فقال سهيل [بن عمرو ت 18ه/ 639م]: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمّد بن عبد اللهِ؟))[4]، فأمر الرسول ﷺ الإمام علي أن يمحو رسول الله ويضع بدلها محمّد بن عبد الله، قال لا أستطيع أن امحو إسمك من النبوة، أخذ الرسول ومحى بيده الكريمة واكتفى بكتابة اسمه فقط[5].

في هذه الرواية التي تؤكّد أن الرسول محمّد ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة، ولم يمارس ذلك من قبل لإثبات الإعجاز القرآني، وتماشياً مع ما كان عليه العرب من استعمال الذاكرة والتناقل الشفاهي. بل نوجه لها النقد الباطني المتمثل بالوضع على اعتراض الإمام علي عليه السلام على أوامر الرسول هذا فيه غرابة؛ لأنّ الإمام هو نفس الرسول وابن عمه وأخيه فحاشاه أن يعصي الرسول المسدّد من الله، ولعلّه يراد منها لم يكن بعض الصحابة يعارضون أوامر الرسول بل منهم الإمام علي عليه السلام.

1-الماوردي، النكت والعيون، 6/ 304؛ الخلوتي، إسماعيل حقي، روح البيان، 10/ 471.

2-القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 20/ 119.

3-الحلاق، محاسن التأويل، 9/ 507.

4-الواقدي، المغازي، 2/ 610.

5-ابن حبان، صحيح ابن حبان، 11/ 212 – 213؛ الماوردي، أعلام النبوة، 121؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، 2/ 21.

إذا كان النبيﷺ لا يقرأ ولا يكتب فكيف قال لهم: ((ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً))[1]. وإذا قال قائل أنّه تعلم القراءة والكتابة في مدة الرسالة، فلماذا لم تتحدث كتب التاريخ والسيرة عن المدة التي تعلم فيها القراءة والكتابة، أو عن كيفية تعلمه وعلى يد من؟ في حين تحدثت هذه المصادر والكتب عن أبسط الأمور ولم تترك لا صغيرةً ولا كبيرةً عن الرسولﷺ إلا وتحدثت عنها. ثم إن انشغاله بالدعوة ليلاً ونهاراً لا يدع له مجالاً للتفكير بتعلم القراءة والكتابة، وهذا دليل على أنّه ﷺ كان يقرأ ويكتب قبل البعثة المباركة[2].

وتتفق المصادر[3] على أنّ الإمام علي عليه السلام كان يجيد القراءة والكتابة بدليل أنّه كان يكتب في صلح الحديبية بنود الصلح. إنّ النبي محمّدﷺ تربى بعد وفاة جده في كنف عمه أبو طالب الذي كان حب محمّدﷺ في قلبه أكثر من حبّه لولديه، وهنا يثار السؤال كيف كان لجعفر الطيار والإمام علي عليه السلام أنّ يتعلما القراءة والكتابة دون ابن عمهما الذي هو أصغر من الأول وأكبر من الثاني؟ وفي الوقت نعلم أنّ التعلم شرف مروم وهو ما يؤكد قطع الشك باليقين أنّ أبا طالب علم ابن أخيه بمعيّة ولديه وهم مجتمعون في دار واحدةٍ.

كان النبي محمّدﷺ معروفاً في رحلاته التجارية إلى بلاد الشام خاصة قبل البعثة، فكيف كان يتعامل مع التجار والعمليات التجارية في الأسواق الكبيرة إن قلنا أنّه لا يحسن القراءة والكتابة؟ والمعروف أن العمل التجاري بحاجة إلى أن يكون الممارس له على معرفة بالكتابة والتدوين والحساب.

وفي حديث حذيفة[4]، أنّ النبيﷺ قال: ((رأيت ليلة أسري بي الجنة والنار في السماء، فقرأت هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[5]))[6].

1-ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، 2/ 1326؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 3/ 309؛ المتقي الهندي، كنز العمال، 7/243.

2-الحمداني، جمعه ثجيل، السيرة النبوية في مرويات الإمام الصادق، 255.

3-البلاذري، فتوح البلدان، 3 / 580؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 4 / 267؛ المقريزي، امتاع الاسماع، 13/ 5.

4-حذيفة: أحمد بن حسين بن جابر بن اليمان، واليمان لقب، ويكنى أبا عبد الله، كان حذيفة من كبار أصحاب رسول اللهﷺ، وهو الذي بعثه رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) يوم الخندق ينظر إلى قريش فجاءه بخبر رحيلهم، مات سنة (36 هـ/ 656 م). ينظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، 1/ 334.

5-سورة الذاريات: آية 22.

6-ابن رجب، التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، 72.

وعن أنس بن مالك أن النبي محمّدﷺ قال: ((ليلة أسري بي رأيت على العرش مكتوبا: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله))[1].

وعن أبي أمامة[2] قال قال رسول اللهﷺ: ((رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبًا الْقرض بثمانية عشر والصدقة بعشر فقلت يا جبرئيل ما بال القرض بثمانية عشر وَالصدقة بعشر قَال لأَن صاحب القرض لَا يأْتيك إلا وهو محتاج وربما وضعت الصدقة في غني))[3]. هذه الأحاديث تؤكّد أنّ رسول اللهﷺ كان يقرأ جيداً.

ولما قيل للإمام الرضا عليه السلام أنّ الناس يزعمون أنّ النبي محمّدﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، قال: ((كذبوا عليهم لعنة الله ... كيف كان يعلمهم ما لا يحسن؟ والله لقد كان رسول الله ﷺ يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لساناً))[4].

وبصدد عامة المجتمع وموقف النبي محمّدﷺ من حثه على القراءة والكتابة روى ابن سعد: ((... كان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه...))[5].

هذا دليل على حرص النبي على توسيع قاعدة العلم بالقراءة والكتابة إلى المسلمين كافة، ولم يطلب من الأسرى أن يعلموهُ وحدهﷺ القراءة والكتابة! دليل على معرفته فنونها بتعليمٍ من قبل الله بعلمٍ لدنيّ وليس علم كسبي.

1-الخركوشي، شرف المصطفي، 6/ 16؛ السيوطي، الخصائص الكبرى، 1/ 13.

2-أبو أمامة: أسعد بن سهل بن حيف بن واهب الأسدي الأنصاري، يكنى أبي أمامة صحابي محدث ثقه روى عنه ابنه، توفي سنة (100هـ/ 718 م)، ينظر: مسلم، الكنى والأسماء، 1/ 103؛ ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، 2/ 344؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 1/ 54.

3-الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، 2/ 280، البيهقي، شعب الإيمان، 3/ 285.

4-المجلسي، بحار الأنوار، 16/ 133.

5-الطبقات الكبرى، 2/ 22.

3 المبحث الثالث

موقف وات من ظاهرة الوحي

أخذت مسألة الوحي القرآني حيزاً كبيراً من اهتمام المستشرقين ومنهم وات، لأن الوحي مرحلةٌ مهمّةٌ من تاريخ الدعوة الإسلاميّة، فهو يمثل بداية دعوةٍ جديدةٍ في عصرٍ جديدٍ، كونه بداية بناء فكرٍ دينيٍّ يربط قلب الإنسان بالخالق، لأن الإسلام تفرد عن سائرِ الأديان بخصائص منها: شموله لمجالات الحياة جميعها، وعلى الرغم من أنه فكرٌ دينيٌّ روحيٌّ فإنه لم يغفل عن حاجات ومتطلبات الإنسان، لذا نلاحظ أنّه غَيّرَ حياة شعوبٍ بكاملها، ما جعل البعض يحاول الولوج من خلالهِ إلى عقيدة المسلمين من أجل إثارة الشك فيها عبر إلصاق العديد من التهم. ولا يخفى أن بداية نزول الوحي على النبي محمّدﷺ كانت في سن الأربعين، إذ كان يتعبد في غار حراء خارج مكة.

الوحي لغة: هو الْكِتَابُ وهو الإعلام في خفاء[1]. مأخوذٌ من الإيحاء وهو الإعلام في الخفاء. وعرفه الزبيدي[2]: ((وأصل الوحي الإشارة السريعَة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعرِيضِ، ويكون بصوت مجردٍ عن التركيب، ويقال للكلمة الإلهيّةِ التي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه وَحْيٌ، وذلك إما برسولٍ مشاهد تُرى ذاته ويُسمع كلامه كتبليغ جِبْريل في صورة معينة، وإما بسماع كلام مِن غير مُعاينةٍ كسماعِ موسى لكلام الله وإما بنزوعٍ فطريٍّ نحو وأوحينا إلى أُمِّ موسى، أو بتسخيرٍ نحو وأَوحى ربك إلى النحل)).

أما الوحي اصطلاحاً: هو أن يُعلِم اللهُ من اصطفاه من عباده كلّ ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقةٍ سريعةٍ خفيّةٍ غير معتادة للبشر[3].

ويُعرّف الوحي أيضاً بأنّه: مصطلحٌ قرآنيٌّ من أعرق وأهمّ المصطلحات الإسلاميّة في مجال الفكر والعقيدة، وهو مصدر التشريع بواسطة جبرائيل عليه السلام، ويشكل الإيمان به القاعدة الأساسية للإيمان بالأنبياء والرسل[4].

1-الرازي، مختار الصحاح، 1/ 334؛ ابن منظور، لسان العرب، 15/ 381؛ الفيروز آبادى، القاموس المحيط، 1/ 1342.

2-تاج العروس، 40/ 172.

3-الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/63.

4-الزحلي، محمّد مصطفي، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، 1/ 42.

وقد استعملها القرآن بهذا المعنى في موارد عدّة، كما جاءت في السنة المطهرة وعلى ألسن العلماء الإسلاميين، وهو الوحي إلى الأنبياء والرسل الذي انقطع بوفاة نبينا محمّد ﷺ[1]. كما في قوله تعالى: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[2].

أخذ وات روايات نزول الوحي من كتاب السيرة النبوية ومنها: ظهر له في الرؤيا الأولى كائنٌ عظيمٌ، وقف منتصباً عالياً في السماء، قريباً من الأفق، ثم انتقل هذا القوي العظيم إلى الأسفل نحوه حتى غدا بينهما مسافة ما بين طرفي القوس أو أقل، ومن ثم أبلغه الوحي[3]. أما الرؤيا الثانية فهي ذلك الكائن العظيم نفسهُ، لكن هذه المرة كان بجوار الكثير من الأشجار بالقرب من حديقة، وكانت هذه الأشجار مغطاةً بطريقةٍ غريبةٍ عجيبة[4].

واعتمد وات على الرؤيا الأُولى التي تحققت بين النبي محمّدﷺ وجبرائيل عليه السلام، بما نزل في القرآن الكريم: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**﴾[6]، وبعد الرجوع إلى كتب التفاسير لم تكن هذه الرؤيا الأُولى وإنّما كانت في حادثة ليلة الإسراء والمعراج، ويتفق وات على عظمة جبرائيل لما طلع إلى النبي

1-الموسوي، هاشم، القرآن في مدرسة أهل البيت، 6.

2-سورة طه: آية 114.

3- ينظر: محمّد النبي ورجل الدولة، 29.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 29.

5-سورة النجم: آيات 1 – 18.

6-سورة التكوير: آيات 15 – 25.

محمّد ﷺ من مشرق الشمس بجناح في الشرق وآخر في الغرب، واقترب منه بمسافة ذراع واحد أو أقل[1].

أمّا الرؤيا الثانية في سورة النجم: الآيات (13 – 18) والتي استعار بها القرآن الكريم بنزلة أخرى مرة أخرى، تفسر أن النبي محمّد ﷺ رأى جبرائيل عليه السلام على صورته التي خلق عليها مرتين: مرة بالأفق الأعلى في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى في السماء، لأنه قرن الرؤيا بالمكان فقال عند سدرة المنتهى، ولأنه قال نزلةً أخرى، أي نازلاً نزلة أخرى[2].

ويطرح وات تفسير الإسلام أن الرؤيا كانت بين النبي محمّد ﷺ وجبرائيل u، لكن نراه يبث سموم التشكيك فيقول: ((هناك أسباب تدعونا إلى الظن أن محمّداً ﷺ قد فسرها في الأصل على أنها رؤية الله ذاته))[3] معللاً أن جبريل لم يذكر في القرآن إلاّ في المدينة، والتعبير «بعبده» في قوله تعالى: ﴿**فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾[4] ويراد بها أن الله هو المعني بالأفعال[5]. لكن تفسير الآية أعلاه أن جبرائيل أوحى إلى النبي محمّد ﷺ ما أوحى إليه الله جلّ جلاله[6].

ولقد استبعد وات رؤية النبي محمّد ﷺ لجبريل عليه السلام بقوله: ((وبهذه الطريقة يمكننا أن نتفادى أن يكون المرئي هو جبريل، وهو أمرٌ مخالف للتاريخ، كما يمكننا أيضاً أن نتفادى التناقض مع النظرة الإسلاميّة في أن محمداً ﷺ لم ير الله))[7].

ونشير إلى رواية من الروايات التي نقلها المؤرخ الطبري عن جابر بن عبد الله الأنصاري حول سورة المدثر إذ يقول النبي ﷺ في الرواية ((بينما أنا أمشي سمعت صوتاً مِنَ السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض))[8]،

1-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 22/ 497 509-؛ السمرقندي، بحر العلوم، 3/ 358 - 360؛ البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 7/ 400 - 407؛ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 4/ 408.

2-الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 9/ 142.

3-محمّد في مكة، 106.

4-سورة النجم: آية 10.

5-محمّد في مكة، 106.

6-البغوي ، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 4/ 303.

7-محمّد في مكة، 108.

8-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 306.

هذا يبين أن الرؤيه حصلت بين النبي محمّدﷺ وجبريل عليه السلام. ويبدو أن وات قد أغفل ما ورد في القرآن الكريم بقوله تعالى: (**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**)[1].

ويبدو أن وات بادعائه أنّ النبي محمّدﷺ قد رأى الله جل جلاله وهو رأيٌ مرفوضٌ لدى كلّ إنسان عاقل سواءً أكان من الموحدين أم العلمانيين؟ فهو يهدف إلى التشكيك بأنّ القرآن وحيٌ مصدره الله جل جلاله بعدة وسائل منها: أنّ النبي محمّدﷺ أقواله تتناقض مع القرآن الكريم فقال أنه رأى الله جل جلاله ومن ثم يتلو قوله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[2] وهذا يشير ـ بزعم وات ـ أن النبي وقع في الخطأ أولاً ثم تداركه بهذه الآية بعد أن عرف من أهل الكتاب أنّه لا يمكن رؤية الله جل جلاله وصحّحها بأنّه رأى جبرائيل u، وأضاف وات أيضا بأنّ النبي محمّدﷺ قد مسّه الشيطان وبدأ يهلوس ويتخيل وتراوده أوهام أنه رأى الله جل جلاله في الحياة الدنيا وهذا أمر لا يعقله أيّ إنسان عاقل.

ولو أنّ وات أقرّ بخلاف رأيه يكون قد اعترف بحقيقة ثابتة أنّ القرآن كلام الله جل جلاله وهذا لا يسوغ له، فهو أراد أن يُبيّن صورة الوهم والخيال للنبيﷺ بالخلط بين الله جل جلاله وجبريل عليه السلام لكي يبرز التناقض بينهما. أما الرواية الإسلاميّة تبين لنا هيأة الوحي «المَلَكُ» بشرية لأنه جالسٌ على كرسيٍّ من سلوك الإنسان، لكن جاءت بصيغة المبالغة وضربٍ من الخيال فوصفته بين السماء والأرض وهذا الحجم مخيف ومهول ولعلّ هذا الوصف جلب صورة الخوف للنبي محمّدﷺ لما رأه، وهذه المبالغة هي من نسيج العقل العربي الذي يسرح بالخيال الخلاب ويصِف الأمور بمبالغة.

وهنالك إجماعٌ في المصادر الإسلاميّة تبيّن أنّ الوحي كان يأتي للنبي محمّدﷺ بالهيئة البشرية متمثلاً بصورة دحية الكلبي[3] وهو رجل وسيم وحسن المنظر[4].

المعروف أنّ المستشرقين حدّدوا مقاييس خاصة للتاريخ تتلائم مع فكرهم وهذه

1-سورة الأنعام: آية 103.

2-سورة الأنعام: آية 103.

3-دحية الكلبي: صحابي بايع تحت الشجرة، وشهد مع رسول الله (صلى اللهُ عليه وآلهِ وسلّم) معركة بدر، حمل رسالة النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم وأوصلها إلى حاكم بصرى الذي يرسلها إلى قيصر الروم، سكن الشام توفي زمن خلافة معاوية، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 189؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 4/ 213.

4-ابن اسحاق، السير والمغازي، 297؛ الترمذي، الشمائل المحمدية، 26؛ الجصاص، أحكام القرآن، 3/ 169.

المقاييس تستبعد أي معجزةٍ أو كرامةٍ أو مقام، وإنما تسير بخطٍّ واحد هو الخط المادي المجرد. فنرى وات يحاول استبعاد فكرة أن الله أرسل جبرائيلﵘ إلى النبي محمّدﷺ وهذا يمثّل الجانب الغيبي! لكي لا يحقق مسألة الوحي من الله، وكذلك يحاول إثبات الرؤيا بين محمّدﷺ والله وهذا يمثل الجانب المادي! وهو خلاف الحقيقة.

تُجمع كتب التفسير أنّ قوله تعالى: ﴿**فَأَوْحَى إِلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾[1] نزلت في مكة، ليلة الإسراء والمعراج بمحمّدﷺ إلى السماء ورأى جبرائيل بصورته الحقيقية، وصل إلى قرب ذراعين أو أقل من عرش الرحمن، فأوحى الله ﷻ إلى النبيﷺ فقرأ عليه جبرائيل ما قرأ، ويقال تكلم مع عبده ما تكلم، ويقال أمر عبده بما أمر، أما عن حقيقة رؤيته لله فكانت رؤيةً قلبيّةً لا بصريّة حسيّة كما تصور وات، ولما سئل النبي محمّدﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: ((رأيته بفؤادي، ولم أره بعيني)) أو ((رأيته بفؤادي مرتين))[2] ثم قرأ: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[3]، وهذا رأي عبدالله بن مسعود، وكذلك عائشة لما سئلت يا أُمَّ المؤمنين هل رأَى محمّد ربهُ؟ أجابته بالإنكار وتكذيب الخبر![4] ثمّ قالت: ((لم ير رسول اللهﷺ ربه))[5] وأجابته من القرآن بقوله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[6]. لقد اِعتمد وات رواية أنس بن مالك ورواية إبراهيم بن طهمان قالوا: ((رأى محمّدﷺ ربه))[7]. لكن الحافظ ابن كثير[8] يشكك في الرؤيا بالبصر، قال: ((وفيها غرابة ولم يذكرها الصحابة)). ونعتد برواية عائشة هي أقرب شخص إلى رسول اللهﷺ برابطة الزواج، وابن مسعود من أفضل أصحاب رسول اللهﷺ ومن شيعة الإمام عليﵥ، أما القرآن هو أصدق المصادر وحسبها أن اللهﷻ يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.

1-سورة النجم: آية 10.

2-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 22/ 505؛ السمرقندي، بحر العلوم، 3/ 359؛ الماوردي، النكت والعيون، 5/ 392.

3-سورة النجم: آية 11.

4-عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/ 375.

5-البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 2/ 302.

6-سورة الأنعام: آية 103، الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 369.

7-البغوي، معالم التنزيل، 2/ 302؛ القزويني، التدوين في أخبار قزوين، 4/ 29؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، 10/ 62.

8-تفسير القرآن العظيم، 4/ 295.

يذكر وات رواية نزول الوحي على النبي محمّدﷺ عندما كان في غار حراء[1] وهي رواية النعمان بن بشير عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة في فقرات على النحو الآتي:

(أ) أول أشكال الوحي التي نزلت على رسول اللهﷺ هي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان كلّما رأى رؤيةً إلا جاءت مثل فلق الصبح.

(ب) ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، حتى فاجأه الحق وقال: ((يا محمد، أنت رسول الله)).

(ج) قال رسول اللهﷺ: كنت واقفاً فجثيت منه رعباً، فرجعت وبوادري ترتجف إلى خديجة فقلت زملوني زملوني إلى أن ذهب عني الروع. فجاءني [الملك] فقال: يا محمّد أنت رسول الله.

(د) قالﷺ لقد عزمت أن أتردى من رؤوس شواهق الجبال. ولكنه ظهر لي وقال: ((يا محمّد، أنا جبريل وأنت رسول الله)).

(هـ) ثم قال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء؟ أو ((ماذا أقرأ))؟، قالﷺ: (فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد ثلاث مرات ثم قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾[2] فقرأتها.

(و) ثم جاءت خديجةعليها السلام فقلت: مالي؟ أي شيء عرض لي؟ وأخبرتها بأمري قالت: ((أبشر، كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتَصدق الحديث وتُؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق)).

(ز) ثم أخذتني إلى ورقة بن نوفل بن أسد وقالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته بما رأيت، قال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، قلت: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يأتِ أحدٌ بمثل ما جئت به إلاّ عودي، وأن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

(ط) ثم فتر الوحي عن رسول اللهﷺ حتى حزن النبيﷺ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي بنفسه تبدى له جبريلعليه السلام فقال: ((يا محمّد، إنك رسول الله حقاً)) فيسكن لذلك حاله وتقر نفسه فيرجع.

(ي) كان النبيﷺ يحدث عن مدة الوحي، قال: فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذى جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء

1-محمّد في مكة، 102 – 105.

2-سورة العلق: آية 1.

والأرض، فجثيت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلى فقلت: زملوني زملوني.

(ك) فدثرناه فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ**﴾[1].

(خ) أضاف الزهري: كان أول ما نزل عليه من الوحي: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[2]. وبعدها ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ**﴾[3].

ويمكن مناقشة ما جاء به وات فهو لم يذكر المصدر الذي نقل عنه الرواية بل اكتفى بذكر سلسلة السند فقط، ووضعها على شكل نقاط. علماً أنّ الرواية وردت في المسانيد[4]، وفي الصحاح[5].

ووردت في كتب السيرة حادثة نزول الوحي على النبي محمّدﷺ وفيها بعض الاختلاف منها: قال محمّد بن شهاب الزهري: فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال رسول اللهﷺ: وهو يُحدّث عن نزول الوحي قال في حديثه: ((بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ففرقت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فدثروه فأنزل الله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر...))[6].

نجد أن جميع من اهتمّ بالسيرة النبوية يعرض روايات الوحي كضرورةٍ لا مناص من تركها، فنُسجت الأكاذيب حولها وتم تناقلها خلفاً عن سلف وكأنّها نصٌّ مقدّسٌ لا يمكن مناقشته. علماً أنّ جميع الروايات التي ناقشت مسألة نزول الوحي على النبي محمّدﷺ لم توفق إلى حدٍّ ما بإعطاء صورةٍ معقولةٍ للنبي محمّدﷺ عند تلقيه الوحي، لذلك بنى المستشرقون على هذه الصورة غير الصحيحة آراءً شتّى، فمنهم من قال: إنّه مريضٌ بالصرع، ومنهم من قال: إنه يتوهم، وآخر قال: إنّه يتحايل، هذه تهمٌ متعددةٌ بناءً على فهمهم الخاطئ

1-سورة المدثر: الآيات 1 – 4.

2-سورة العلق: آيات 1 – 5.

3-سورة القلم: آيات 1 – 5.

4-ابن حنبل، المسند، 43/ 112 - 114.

5-البخاري، صحيح البخاري، 6/ 173؛ مسلم، صحيح مسلم، 1/ 139.

6-البخاري، صحيح البخاري، 6/ 89؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 306؛ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 10/ 243.

للرواية الإسلاميّة لبيان حقيقة أحوال النبي محمّد صلى الله عليه وآله. ومن بينهم وات الذي حاول تقديم توازن بين توجهات منظومة الدين المسيحي وبين المقبول عند المسلمين فاعتمد على رواية السيدة عائشة، لهدف عام يبين فيه أن النبي محمّد صلى الله عليه وآله كان خائفاً عند تلقيه الوحي، ولم يكن على درايةٍ بما جاء له! بل كان محل صدفة ومفاجئة، وفضل السيدة خديجة عليها السلام بتهدئة روع النبي محمّد صلى الله عليه وآله! وهذا خلاف الواقع بل كان النبي على استعداد تام لتلقي الوحي، وتم اختياره من قبل الله جل جلاله ولم يختر السيدة خديجة عليها السلام لهذه المهمة.

ثم هنالك هدفٌ خاص يحاول وات إظهاره وهو فضل النصارى على الإسلام والمتمثل في دور ورقة بن نوفل الذي قام بتهدئة نبيّ الإسلام وإرشاده إلى أنّ الذي جاءه هو النموس الذي جاء لموسى وكأن النبي لم يعرف بذلك!.

وبذلك يصوّر وات النبيَّ محمّد صلى الله عليه وآله في حالة مرضٍ وهستيريا حادّة وضعف بالشخصية وهذا ما جعله يتردّد ويحاول الإقدام على الانتحار؟ كي يتخلص من مواجهة الأزمة والقضاء على القلق! ولم نعهد النبي محمّد صلى الله عليه وآله بمثل هذه الصفات. ومن شمائله لم يتعجب من أمرٍ قط حتى لو خرق النواميس الكونيّة[1]. فرباطة الجأش هذه تدل على قوّة شخصيّته حتى في أشدّ الظروف.

روايتي الزهري عن معمر بن راشد وعن يونس بن يزيد تختلفان عن رواية الزهري عن النعمان بن بشير فهي لم تذكر ((كنت واقفاً فجثيت منه رعباً...))[2].

إنّ الرواية الإسلاميّة التي ذكرها وات تصف حال النبي محمّد ﷺ عندما بُعث، ماهي إلا قصة كاذبة نسجت من الخيال لكي تملأ الفراغ في السيرة النبوية، والتي ينطوي عليها الحط من مكانة النبي محمّد صلى الله عليه وآله، فمن حيث السند فلا يمكن اعتماده لوجود ابن شهاب الزهري[3] الذي عرف عنه بالتدليس، إذ يقول عنه ابن حجر العسقلاني: ((وصفه الشافعي والدار قطني

1-زواوي، أحمد عبد الفتاح، شمائل الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) ، 1/ 98.

2-ابن حنبل، مسند أحمد، 6/ 232؛ البخاري، صحيح البخاري، 6/ 97؛ مسلم، صحيح مسلم، 8/ 97؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك، 3/ 183.

3-ابن شهاب الزهري: محمّد بن مسلم بن عبد اللّه بن شهاب الزهريّ، أبو بكر، القرشي المدني، من التابعين، نزل الشام، روى عن جابر، وابن عمر، وانس وغيرهم من الصحابة، ولد سنة (50هـ/ 670م) ومات في رمضان سنة (124هـ/ 741م)، وبخه الإمام زين العابدين برسالة يذكره فيها أنه من أبواق السلاطين وعمله يظره في الدنيا والآخرة، وينظر: ابن خياط، طبقات خليفة، 261، البخاري، التاريخ الكبير، 1/ 220؛ ابن شعبه الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، 123.

وغير واحد بالتدليس))[1]. كما عُرف عنه أنه من رجال بلاط بني أمية ومن المقربين لبني أمية، وكانوا يغدقون عليه العطاء والهدايا لكي يوظّف لهم أحاديث تخدم الفكر الجبري وسياستهم[2]. أما عروة بن الزبير[3] فقد شاع صيته من كثرة ما قال عنه تلميذه ابن شهاب الزهري ما هي إلا ضرب من ضروب الإعلام والإطراء المتقصد[4]، ولما سُئِل عروة عن أمنيته قال: ((أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم))[5]، تبين لنا أن عروة لم يكن بحراً من العلم في المدينة لتركه من قبل المحدثين فلم يأخذوا عنه العلم. أما عائشة لا يمكن الوثوق بخبرها هذا فهي تنقله وكأنها كانت تعيش في صميم الحدث، وتعيش فترة نزول الوحي، فهي لا تقول حدثني رسول الله ﷺ وإنّما ((عن عائشة أنها قالت))[6]، فهي لم تكن معاصرة للحدث كونها ولدت بعد البعثة بأربع سنين أو خمس[7]. ولهذا لا يمكن قبول روايتها؛ لأنها لم تكن مع الرسول كخديجة ولم تكن ولدت بعد.

أما النقد الباطن للرواية فهو يختلف عما ذكرته كتب السيرة من تهيّؤ النبي محمّد ﷺ واستعداده النفسي والعقلي لتحمل ثقل النبوة والمعجزات التي كان يراها قبل البعثة مثل سجود الشجر والحجر له في صباه[8]، وكذلك تسليم الحجر الأصم عليه فقال ﷺ: ((إني لأعرفُ حجراً بمكة كان يُسلمُ عليّ قبل أَنْ أبعث، إني لأعرفه الآن))[9]، وعندما بلغ عمره الشريف سبع وثلاثين سنة كان يرى في نومه آتياً أتاه ويقول له: ((يا رسول الله))[10]، وانتقل

1-تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس (طبقات المدلسين)، 45.

2-ينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، 55/ 300؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 9/ 379؛ زكار، سهيل، الإمام الزهري المستشار التاريخي للبلاط الأموي، مجلة المنهاج، العدد السابع، السنة الثانية، (1418هـ/ 1997م).

3-عروة بن الزبير: عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، أمه أسماء بنت أبي بكر، من التابعين، يكني أبو عبد الله، من فقهاء المدينة، أحرق كتبه في واقعة الحرة سنة (63هـ/ 682م) وندم عليها، روى عن أبيه وزيد بن ثابت وعائشة وأبو هريرة ومعاوية، توفي سنة (93هـ/ 711م)، الزبيري، نسب قريش، 257؛ ابن سعد، الطبقات المبرى، 5/ 136 و 179؛ ابن خياط، الطبقات، 420؛ القلقشندي، نهاية الآرب، 1/ 360.

4-ناجي، عبد الجبار، نقد الرواية التاريخية عصر الرسالة أنموذجاً، 136– 145.

5-ابن عساكر، تاريخ دمشق، 40/ 367.

6-ابن حنبل، مسند أحمد، 43/ 112 – 114؛ البخاري، صحيح، 6/ 173؛ وات، محمّد في مكة، 102.

7-ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، 8/ 231؛ الحلبي، السيرة الحلبية، 2/ 498.

8-البيهقي، دلائل النبوة، 1/ 62.

9-الدارمي، سنن الدارمي، 1/ 170؛ الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، 246.

10-الطبرسي، أعلام الورى، 1/ 102؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، 1/ 41.

أمر إخبار محمّد ﷺ أنه رسول الله ﷺ إلى اليقظة فعندما كان يوماً في جبال مكة فنظر إلى شخص يقول له: ((يا رسول الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرئيل أرسلني الله إليك ليتخذك رسولاً فأخبر النبيُّ خديجةَ بذلك فقالت: يا محمّد أرجو أن يكون كذلك))[1]، وبعد ذلك تم إعداد النبي محمّد ﷺ بالتطهير والعبادة لله ﷻ فنزل عليه جبرائيل وأنزل عليه ماءً من السماء وعلّمه الوضوء والركوع والسجود، فلما تم له أربعون سنة من عمره علمه حدود الصلاة ولم يُنزل عليه أوقاتها فكان يصلي ركعتين في كل وقت[2]. هذا يعني أن النبي محمّد ﷺ تم إعداده وإخباره بالرسالة من قبل الله ﷻ قبل المبعث الشريف، وتحققت له رؤية جبرائيل عليه السلام فلا يحتاج إلى ورقة كي يخبره أنه نبي، وليس هناك ما يدعو للاضطراب من الوحي الذي صورته الروايات الموضوعة بمشهد الرعب والوحشية التي أخافت النبي محمّد ﷺ.

أما بخصوص الفقرة (و) والفقرة (ز) اللتان تبينان دور السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد عليها السلام وابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بتهدئة روع النبي ﷺ وإخباره بأنه آخر الأنبياء، علماً بأن النبي ﷺ كان أقرب إلى خبر السماء منهم، وهو كان يتهيّأ لنزول الوحي، فضلاً عن ذلك فالرواية جاءت من عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد ولعلّه أراد بها وضع منقبةٍ إلى عمومته بني أسد بن عبد العزة في الإسلام.

أما بخصوص الفقرة (د) والفقرة (ط) حيث يظهر النبي بصورة الفائق المضطرب لدرجة أنّه أقدم على الانتحار، وهذا مخالفٌ للمنطق والعقل فكيف للنبي محمّد ﷺ الذي أعده الله ﷻ لتحمل نشر رسالة الإسلام الخالدة؟ وهو معروف بسيرته العطرة إذ لم يؤذِ أحد قط، فكيف يؤذي نفسه الطاهرة؟. إلاّ أنّ الحقيقة مفادها أنّه لما كان ينزل عليه الوحي يصيبه نوع من العرق والتعب؛ لأن الوحي تجلٍّ إلهيٌّ في روح النبي ﷺ وهو أشده على جسده الطاهر. فالاضطرابات مصدرها نزول الوحي وهي لم تتوقف طيلة فترة نزوله، ولم يكن خائفاً من الوحي لأنّه مسبوقٌ بالرؤية الصادقة التي خُصّ بها الأنبياء حتى تهدأ قلوبهم، وكانت مدتها ستة أشهر قبل نزول الوحي على النبي محمّد ﷺ وهذا هو نوع من أنواع الوحي في المنام[3]،

1-الطبرسي أعلام الورى، 1/ 102، الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، 1/ 86.

2-الطبرسي، إعلام الورى، 1/ 120؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، 1/ 41، المجلسي، بحار الأنوار، 18/ 194.

3-الحلبي، السيرة النبوية، 1/ 334 – 335.

ولقد كان يتهجد بالليل بل كان واجباً عليه ليقوي قلبه ويتحمل التجلي الإلهي فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾**[1]، ولعظم هذا التجلي الإلهي بنزول الوحي قال تعالى: **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2]، لهذا يكون قلب الرسول ﷺ وأعظم ثباتاً من الجبل، وأشدّ صلابةً من الحجر؛ لتحمّله الوحي ونزول القرآن الكريم.

وشكّك وات في أمر الوحي ذاته فقال: ((لقد تملكت محمّد ﷺ منذ وقت مبكر أن الكلمات التي تصل إليه هي وحيٌ من الله مهما كانت الصورة الدقيقة لتجربته الأولى في تلقي الوحي، وقد ظهر الإيمان بذلك منذ البداية في دعوته العامة))[3].

ويبدو أن وات أراد أن ينسف الوحي منذُ بدايته، عندما يشكّك في الكلمات الأولى التي نزلت على النبي محمّد ﷺ، محاولاً استبعاد ما يصل إليه من السماء ليهدم قوله تعالى: **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾**[4].

كذلك يضع وات شكه في الوحي مرةً أخرى فيقول: ((قد سمع من بعض الأشخاص قِسماً من القصص التي يذكرها القرآن))[5].

ويَظهر أنّ وات أخذ يوسّع في شكّه عندما يُرجع تعليم النبي ﷺ إلى أشخاص من اليهود والمسيح كانوا متواجدين في مكة، ليتسنّى لهُ زجّ اليهودية والمسيحيّة في الدين الإسلامي، كما اتهم النبي محمّد ﷺ بأنه تلقى القرآن من عند غيره كما جاء في الرواية الإسلاميّة عن قول المشركين. ومن الأشخاص المذكورين هم:

1- الحدادَ الرومي حسب ادّعائهم، هو الشخص الذي تعلّم منه الرسول ﷺ، واتخذوا هذه الشخصية من غير أبناء جلدتهم؛ لكي يزيل عنهم الحرج، ويقولون

1-سورة المزمل: الآيات 1 – 5. ينظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، 20/ 150.

2-سورة الحشر: آية 21. البغوي، معالم التنزيل، 8/ 87.

3-محمّد في مكة، 127.

4- سورة النجم: آية 3.

5-وات، محمّد في مكة، 128.

عنـدهُ علـم مـا لا يعلمـه أحـد منهم، وتعلـم النبي محمّـدﷺ منـهُ، لكن اللـه ﷻ بيّن زيف ادعائهـم بقولـه تعـالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُـمْ يَقُولُونَ إِنَّمَـا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَـانُ الَّذِي يُلْحِـدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِـيٌّ وَهَـذَا لِسَـانٌ عَرَبِيٌّ مُبِـينٌ**﴾[1].

2- بحيرا النصراني: قولهم عندما سافر النبي محمّدﷺ إلى الشام التقى مع بحيرا وأخذ منه ولما رجع إلى مكة تبنى أفكاره؟

ومثل هذا القول لا يصمد أمام المناقشة، فاللقاء كان بحضور زعماء قريش ولم يكن بانفراد محمّدﷺ وبحيرا، واللقاء كان عابراً ومن دون موعدٍ متفقٍ عليه، وكيف لصبي بعمر الاثني عشرة سنة أن يتعلم نُظم دينٍ كاملٍ، ويحفظها لسن الأربعينَ سنة ثم يعيد نشرها، وزمن اللقاء يثبت بطلان مضمونه، حيثُ إنّه كان لبضع ساعات وهي مجرد فترةٍ لتناول وجبة الغداء ولا تكفي لشرح تعاليم الدين الجديد! كلّ هذه الإشكالات كافية لدحض هذه الشبهة[2]. وبيّن الله ﷻ إعجازه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾[3].

3 - تارة يكون ورقةَ بن نوفل القرشي[4]، ولم يثبت تاريخياً أنّ ورقة كان يدعو للنصرانية! بل كان متنصّراً. ولم تكن هناك علاقة سابقة بينه وبين النبي محمّدﷺ كما يدعي وات وإنما تم اللقاء معهُ بعد زواج النبي محمّدﷺ من خديجةعليها السلام وبالتحديد بعد نزول الوحي مباشرة، ولم تكن بسعي محمّد إليه ليزيل عنه الإشكال! بل جاءت برغبة خديجةعليها السلام. فلو كانت هناك صلةٌ سابقةٌ كما زعم وات من غير دليل لتبادرت إلى ذهن النبي محمّدﷺ لسؤاله عما حدث له[5]. ثم إن موقف ورقة من ذلك اللقاء كان موقف المستفسر لما حصل مع الرسولﷺ في غار حراء!، فلما سمع ما وقع للنبي محمّدﷺ آمن به وشهد على صدقه، ووعده أنه سينصره نصراً مؤزراً، بعد أن أخبره أن قومه سيؤذونه ويخرجونه، ثم لم يلبث ورقة

1-سورة النحل: آية 103. ينظر: الزمخشري، الكشاف، 2/ 635؛ الزقاني، مناهل العرفان، 2/ 423.

2-الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 2/ 421.

3-سورة الإسراء: آية 88.

4-الزرقاني، مناهل العرفان، 2/ 427.

5-عتر، حسن، وحي الله، 91.

أن توفي فترة الوحي[1]. فمن أين لمحمد ﷺ تلك العلوم المتتابعة لأكثر من عشرين سنة بعد وفاة ورقة؟

4 - تارة يكون اليهود والنصارى، حيث إنّ اليهود كانوا يقطنون المناطق الخصبة أي يثرب، وخيبر، واليمن[2] فاتصاله بهم كان نادراً أو منعدماً، ثم ما عسى أن يفيده اليهود الذين اشتهروا بكتم العلم ليغُرُّوا به الناس، ولاعتقادهم أنهم شعب الله المختار[3]، ولقد ثبّت القرآن أصل الديانة اليهودية والمسيحية لكنّه كشف عن أخطاءٍ في قصة النبي موسى عليه السلام التي درجت في العهد القديم بأن ابنة فرعون مصر هي التي تكفلت بتربية موسى عليه السلام[4]، أما النص القرآني يشير إلى زوجة فرعون مصر هي التي تكفلت بتربية موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[5]. أما عن حدث انقاذ بني إسرائيل من عذاب فرعون وغرقه وهلاكه في البحر يبينها القرآن بوضوح في قوله تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾[6]، أمّا في التوراة ذكرت بشكلٍ واضح[7]؛ لكن طريقة كتابة الكتاب المقدس بأسلوبٍ إنشائيٍّ لأنّه كُتب بأيدٍ بشريّةٍ لذلك وجدت فيه أخطاء وينقصه الإعجاز بعكس القرآن الكريم، ولعلّ هذا الغموض في التوراة راجعٌ إلى كُتّاب التوراة من بني إسرائيل الذين يريدون أن يكتموا فضل الله جل جلاله عليهم ونصرته لهم من الظلم بالمعجزات الربانية، وهم يظلمون أنفسهم ويعصون الله جل جلاله ورسله عليهم السلام.

وعُرف عنهم كثرة عنادهم مع الأنبياء، وأنزل عليهم ما يتمنون وهم يعصون دعوة الأنبياء

1-البخاري، صحيح، 1/ 7. (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)).

2-ابن كثير، البداية والنهاية، 6/ 191؛ الوزير، عبد الله بن علي، تاريخ اليمن، 222؛ علي؛ جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 4/ 245.

3-الظالمي، رشيد باني، موسى وبني إسرائيل، 138.

4-سفر الخروج، 2: 10.

5-سورة القصص: آية 9.

6-سورة يونس: الآيات 90 – 92.

7-سفر الخروج، 27: 29.

فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ومع هذا فكانوا يترقبون خروج الرسول الخاتم من بينهم، حتى كانوا يستفتحون على العرب بذلك فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

وقد كان لأحبار يهود المدينة دورٌ إيجابيٌّ في مساعدة مشركي قريش لمعارضة الدعوة الإسلاميّة في العهد المكي لمَّا بعثوا لهم وفداً برئاسة النضر بن الحارث[3] وعقبة بن أبي معيط[4] ليتأكدوا من أحبار اليهود عن صحة خبر بعثة النبي محمّدﷺ، فأعطاهم اليهود المشورة أن يسألونه عن ثلاثة أمور، فإن أخبرهم عنها فهو نبي مرسل وإنْ لم يجبْهم فهو مُتقوّل. وتدور الأسئلة عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ وعن رجلٍ طاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؟ وعن الروح وماهي؟[5]، ونزل عليه قوله تعالى يكشف مضمون سؤالهم الأول والثاني في سورة الكهف[6]، أمّا السؤال الثالث أجاب عليه في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[7] ولو كانوا يعلمون أنهم قاموا بتعليمه لما تحدَّوا بذلك. بل كشف النبي محمّدﷺ خياناتهم وتزويرهم وتحريفهم لكتبهم، ووصفهم بنقض العهود والمواثيق، وكتم العلم، مفنداً أغلاطهم بما جاء به القرآن الكريم[8] في قوله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ

1-سورة البقرة: الآيتان 57 – 58. الفراء، معاني القرآن، 1/ 37.

2-سورة البقرة: آية 89.

3-النضر بن الحارث: هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار، كان من أشد مشركين مكة معارضة للرسول (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) بالتكذيب والإيذاء، ويعد من شياطين قريش، لقوله ((سأنزل مثل ما أنزل الله))، قتل في معركة بدر مشركاً. ينظر ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 301، البلاذري، انساب الأشراف، 1/ 147.

4-عقبة بن أبي معيط: هو عقبة بن أبي معيط (اسمه أبان) بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، يكنى بابنه الوليد بن عقبة الذي ولّاه عثمان الكوفه وعزله لشربه الخمر، قتل في معركة بدر (2هـ/ 623م) مشركاً، ينظر، الزبيري، نسب قريش، 101؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 147 و 297، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 595.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 301.

6-سورة الكهف: الآيات 1 - 26 و 59 – 85.

7-سورة الأسراء: آية 85.

8- دراز، محمّد، النبأ العظيم، 72.

وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [1]. وقوله تعالى: ﴿**قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2]. وكذلك بخصوص اتجاه القبلة بالصلاة قالت اليهود قبلتنا بيت المقدس قبل قبلتكم الكعبة، وردّ عليهم المسلمون قبلتنا الكعبة قبل قبلتكم بيت المقدس فنزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ**﴾[3] كان ذلك جواباً عن قولهم قبلتنا قبل قبلتكم.

5 - تارة يكون من مؤمني أهل الكتاب، فأما الذين لقوه بعد البعثة وبعد الهجرة فقد سمع منهم وسمعوا منه، لكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين، وكان هو لهم معلماً وواعظاً ومبشراً[4].

وأما الذين آمنوا به من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره فلا يعقل أن يعلموه وهم الذين أسلموا على يديه، وسلَّموا بنبوّته، إذ كيف يسلم أولئك الأحبار دون أن يروا صدقه ويتحققوا من نبوته وهم علماء بالكتاب؟![5].

هذه الشبهة أخذها المستشرق وات ممن سبقه من المشركين واليهود والنصارى الذين وجهوها مباشرة للنبي محمّدﷺ وقت نزول الوحي بالقرآن. مدعياً أنّ محمّداًﷺ جاء بالقرآن الكريم من عنده وبمساعدة بعض الأشخاص، وبيّن القرآن الكريم بطلان هذه التهمة بقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا**﴾[6]. والقرآن يثبت نفسه بنفسه ودلّ على صحته في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**﴾[7]. فهذه الشواهد التاريخية والحجج القرآنية تثبت أنّ القرآن نزل من ذات الله بوساطة الوحي إلى النبي محمّدﷺ ولم يشوبه الخلل.

إدعى المستشرق وات بأنه أكثرهم حياديّة، ووقف من الوحي الذي تلقاه النبي محمّدﷺ مواقف غريبةٍ ومريبةٍ لأبعد الغايات، فمن بادئ الأمر أعلن أنه لن يجزم بأنّ القرآن وحيٌ من

1-سورة آل عمران: آية 65. ينظر: فخر الرازي، مفاتيح الغيب، 8/ 253.

2-سورة آل عمران: آية 95. ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 1 / 471.

3-سورة آل عمران: آية 96. ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 1/ 471.

4- دراز، النبأ العظيم، 69.

5- عبيد، محمّد رشدي، النبوة في ضوء العلم والعقل، 334.

6-سورة الفرقان: آية 4؛ ينظر: ابن عطية، تفسير القرآن، 8/ 510 و 11/ 5.

7-سورة النساء: آية 82، ينظر: الرازي، مفاتح الغيب، 7/ 130.

عند الله، ولا أنه من وضع النبي محمّد ﷺ فقال: ((لذلك فلن تجد في بحثي عن القرآن: قال الله، ولا قال محمّد؟ بل سأقول: قال القرآن؟))[1].

من هذا الموضع بدأ يشكك في أن القرآن وحيٌ من عند الله ، ورجح أنّ القرآن بشريُّ المصدر وليس وحياً نزل من عند الله[2]. لذا حاول أن يؤكد التأثير اليهودي والمسيحي على الرسول ﷺ.

وتارة يشكك في مصداقية النبي محمّد ﷺ فيقول: ((فالقول بأن محمّداً ﷺ كان صادقاً لا يعني أنه كان محقاً في معتقده، فقد يكون الإنسان صادقاً، لكنه مخطئاً))[3].

ويتضح أن شخص النبي الكريم ﷺ في نظر وات كان محطّ اشتباه، فهو يفصل بين صدق النبي ﷺ (الصادق الأمين) والوحي القرآني، ولا يعدهُ معياراً لصدق الوحي، فصدقه تصرفٌ شخصيٌّ وأمّا الوحي فهو شأنٌ آخر لا يمكن الربط بينهما.

ورام وات بهذه الشبهة إلى نفي مصدرية القرآن من الله ﷻ، فيعد النبي محمّد ﷺ مخطِئاً في ظنّه أن القرآن وحيٌ يأتيه من الخارج بواسطة ملك، كما يرى بأن القرآن صادرٌ من جهة من جهات نفسه، وتلك الجهة هي اللاشعور الجماعي[4].

لقد اشتهر النبي محمّد ﷺ بأحسن الصفات الأخلاقيّة، ولقب بالصادق الأمين قبل بعثته بالنبوة في أمور الحياة اليومية[5]. فما بالك بالمعتقد الديني الذي فيه جزاء الدنيا والآخرة! فيكون النبي محمّد ﷺ أشد في الحرص عليه. فمن أين جاء وات بأرائه المذكورة آنفاً. وأصدق القول ما نطق به القرآن في وصف أخلاق النبي محمّد ﷺ في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[6].

ويرى وات بأنّ مصدر الوحي الإلهي للنبي محمّد ﷺ هو اللاوعي فيقول: ((إنّ ما يتبدى لرجل أن ثمة ما يوحى إليه من خارج نفسه قد يعني فعلياً بأنه يأتيه من لاوعيه))[7].

1-محمّد في مكة، 5.

2- المطعني، عبد العظيم، افتراءات المستشرقين 10-9.

3-وات، محمّد في المدينة، 325 ومحمّد النبي ورجل الدولة، 32.

4-محمّد النبي ورجل الدولة، 32.

5-الأصبهاني، أخلاق النبي وآدابه، 1/ 17؛ الطبرسي، مجمع البيان، 10/ 179؛ ابن شهر أشوب، مناقب آل أبي طالب، 1/ 268.

6-سورة القلم: آية 4.

7-محمّد النبي ورجل الدولة، 32.

وهو بذلك يصرّ على موضوع الوحي باللاوعي أي إنّ الوحي عبارةٌ عن رؤيا وليست حقيقة. ومثل هذه الأفكار الفلسفية لعلماء النفس المتبناة من قبل المستشرقين يراد بها إنكار الوحي، وكان لزوماً علينا بيان ذلك.

تأثّر وات برأي علماء النفس في مدرسة تحليل الشخصيّة، منهم فرويد ويونغ وفروم الذين قسموا اللاوعي أو اللاشعور إلى: اللاوعي الشخصي، واللاوعي الجماعي.

وأعدّ عالم النفس السويسري كارل غوستاف يونغ (1875 – 1961) أنّ اللاشعور الشخصي يتكون أساساً من المحتويات التي كانت في يوم من الأيام من محتويات الشعور، لكنها اختفت من الشعور أو الوعي خلال عمليات النسيان والكبت، ومن هنا يتكون لا شعور كلّ شخصٍ من الخبرات التي حدثت له طول حياته وعرفها: هي مجموعة الخبرات التي مرّ بها الفرد، وبعض منها سببت له ألماً كبيراً فدفعها عن طريق ألية الكبت إلى اللاشعور فأصبحت في طي النسيان الشخصي[1]، وهذا ما أيّده عالم النفس النمساوي سيغموند فرويد (1856 – 1939) واِعتبرها «الهي Id» مستودعاً أو مخزنَ الغرائز عند الطفل وعرّفها: مجموعة الخبرات المؤلمة التي مرّ بها الفرد في طفولته أو مجموعة الحاجات التي لم تُشبع فسببت له ألماً شديداً ونغصت حياته فقذفها إلى اللاشعور لكي يتخلص من حالة الصراع والألم والضيق[2]، أما عالم النفس الالماني إريك فروم (1900 – 1980) فقد عرّفها: هي الخبرات المؤلمة التي نغصت الحياة على الفرد وجعلته صريع المرض النفسي كونها لا تكبت كلياً فيتخلص منها، ولا تظهر كلياً فيناقشها على أرض الواقع ويحلها[3].

ولكي نوضح الصورة للقارئ بمثالٍ عن خشبةٍ طافيةٍ على سطح البحر يعلم من ينظر إليها أنّها خشبة، ولمّا تضرب بها الأمواج تغطس فتختفي عن شعور الإنسان ويبدأ بالتفكير عن مصيرها ومن ثم تطفو وهكذا دواليك، فلا هي طافية وينظر إليها خشبة، ولا هي غاطسة وتذهب من شعوره.

ومن خلال تعاريف اللاشعور يتّضح لنا أنه يتكون عند الفرد عندما تكون معلوماته كثيرةً ومتعدّدةَ الموضوعات، فإنها تطفوا على السطح وتسيطر على مكونات العقل الآخر، وبالتالي

1-دور اللاشعور ومعنى علم النفس، 44؛ ألن، بامب، نظريات الشخصية، 119.

2-الموجز في التحليل النفسي، 200؛ ألن، نظريات الشخصية، 57.

3-الدين والتحليل النفسي، 65؛ ألن، نظريات الشخصية، 150.

تكون هي القائد للشخصية، ويكون السلوك محكوماً بخبرات اللاوعي، وبالتالي يكون السلوك مخالفاً لما هو مألوف وسائد عند المجتمع، ويعتبرونه سلوكاً مرضيّاً.

أما اللاوعي الجمعي: هو مخزون خبرات الأجداد التي تعود إلى فجر الإنسانية، وهي مشترَكةٌ بين البشر جميعاً، وهذا اللاشعور ينتمي إلى الجماعة وليس إلى شخصٍ بعينه، وهو الذي يأتي منه الدين[1].

العقل الواعي هو الذي يحكم تصرفات الإنسان وقناعاته وأحاديثه، وهو مكان تخزين الأحداث ومركزٌ للانفعالات العاطفية السلبية والإيجابية[2].

ووفقاً لما تقدم يُضم اللاشعور إلى ذكريات وخبرات الطفولة المكبوته. وإذا كانت كذلك فهل يكون للإنسان كلّ المنطق والحجة والإعجاز القرآني مكبوت في اللاشعور للنبي ﷺ. لكن هذا الإعجاز القرآني دليلٌ على أنّه يوحى من قوّةٍ خارج المجال الحيوي للنبي ﷺ إنّه من قوّةٍ أكبر وهي الله ﷻ.

ومثل هذه الأفكار الفلسفية التي يطرحها وات يريد بها إنكار نزول الوحي على النبي محمّد ﷺ كون هذا الاعتراف يقوده إلى اعترافٍ أكثر خطورةً من السابق ألاَ وهو الاعتراف بنبوّة محمّد ﷺ التي طالما تحفّظ عليها وات حتى في النطق، وهذا يقوده إلى التصديق بكلّ ما جاء به القرآن، وهو لا يطيق ذلك لتعصّبه للدين المسيحي وهو بمنصب القس.

وهناك آياتٌ قرآنيّةٌ كثيرةٌ تبرز كمال الوعي للرسول ﷺ في حالة التفريق بين الوحي وأحاديثه الخاصة التي كان يعبر عنها بإلهام من الله ﷻ، وهذا لا شك يؤيد استقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) استقلالاً مطلقاً وتفرّدها عن العوامل النفسيّة تفرداً كاملاً، وخالية عن خياله الداخلي[3]. بل إنّ التمييز بين الوحي وكلام النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) أمراً يسيراً على العرب آنذاك فهم أهل لغةٍ وبلاغةٍ وفطنة.

ويتهم وات النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) فيقول: ((لم يمنعه إيمانه بالوحي في إعادة ترتيب مواده أو بطريقةٍ أخرى تصحيح ذلك إمّا بالحذف أو بالإضافة، وهناك إشارةٌ في القرآن تشير إلى أن الله جعله ينسى بعض المقاطع))[4].

1-ألن، نظريات الشخصية، 119.

2-فرويد، الموجز في التحليل النفسي، 201.

3-الحكيم، الدراسات الاستشراقية، 69.

4-محمّد النبي ورجل الدولة، 32.

لم يشر وات إلى نص من القرآن جعل فيه الله ﷻ النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ينسى بعض المقاطع! بل على العكس من ذلك ورد في القرآن نص بعدم نسيان النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أيّ شيءٍ من ذكر الوحي فقال تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُك فَلَا تنسَى**﴾[1].

وأضاف وات على ذلك فقال: ((فربما يكون محمّدﷺ قد فعل شيئاً في الوحي المنزل عليه كإعادة ترتيب الآيات الموحى بها، وربما يكون قد حاول أن يصوّب النص إذا أحسّ أنّ النصّ الموحى به يحتاج إلى إصلاح))[2].

لقد حافظ النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على النص القرآني بأن يمليه على كاتب الوحي الإمام عليعليه السلام كي يقيد العلم حتى لا يُنسى من قبل الناس، إذ كان يسير بجنب النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) حتى لا يفوته شيءٌ من نزول القرآن، فضلاً عن ذلك كان يبلّغ بقية الصحابة بما نزل من القرآن على النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كي يستبشروا خيراً، ويحفضوا ما سمعوا، لقد عرف عن الشخص العربي قابليته على الحفظ السريع والذاكرة القوية. وقد تدخلت العناية الإلهية بإنزال القرآن وحفظه فقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[3].

أما عن تفضيل الله ﷻ للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فقد صبّ العلم في قلبه، ولم يتخلله النسيان كما في قوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى**﴾[4]. وحفظ القرآن في صدر الإمام عليعليه السلام وسمي القرآن الناطق[5]، فما بالك بالنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) نال أعلى مراتب الشرف بخاتميّة النبوّة.

ويضيف وات على ذلك أنه قال: ((في كثير من الحالات كان يُصغي لكلمات قلبه - أي عقله - بشكلٍ غامضٍ، دون أن يتخيل أنه سمع شيئاً))[6].

1-سورة الأعلى: آية 6؛ ينظر: القشيري، لطائف الإشارات، 3/ 718.

2-محمّد في مكة، 122.

3-سورة الحجر: آية 9.

4-سورة الأعلى: آية 6.

5-ابن بابويه، الإمامة والتبصير، 8؛ ابن طاووس، المجتنى من دعاء المجتبى، 26.

6-محمّد النبي ورجل الدولة، 33.

يعد وات أن كثيراً من الوحي كان نداءً من عقل محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من دون أن يتأكد أنهُ من السماء ولا يجد حرجاً بأن يجعلهُ من الوحي القرآني. ويريد وات بهذا الكلام أنّ رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لم يأتي بشيءٍ من الخارج فكلّ ما جاء به ليس من عند الله ﷻ ولا من جبرائيل عليه السلام وإنّما جاء به من داخل نفسه، وفي حين جاءت لهُ فكرةٌ من نفسه لم تأته في صورة كلمات بل تخيل أنه سمعها وإنّما هي فكرة أحس بها من غير كلمات.

ويرى السيد محمّد ماضي[1] بأن وات عدّ الوحي عبارة عن تجربةٍ ذهنيّةٍ فكريّةٍ أدرك منها النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ما أدرك نتيجة قدرته على التركيز على مستوًى تجريديٍّ لا يطيقه غيره، فكان يختار ساعات الليل لصفائها.

وكل هذه الأقاويل يمكن ردها ببساطة عندما نتعرف على صور الوحي التي استعملها القرآن الكريم في معاني عدّةٍ بشكلٍ دقيق:

1- الوحي هو إعلامٌ سريعٌ وخفيٌّ من قبل الله ﷻ إلى من اصطفاهم من أنبياءٍ ورسل[2].

2- الوحي هو الإلقاء في نفوس بعض العباد من غير الأنبياء وهو الإلهام الفطري للإنسان[3]، كإلقاء اللّه سبحانه ما أراد إلقاءه في نفس أم موسى وإلهامها، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[4]، وقد نقل الشيخ المفيد[5] تفسير هذا اللون من الوحي بقوله عند تفسير الآية الآنفة الذكر: ((فاتفق أهل الإسلام على أنّ الوحي كان رؤيا، أو كلاماً سمعته أم موسى في منامها على الاختصاص))، وكإلقائه سبحانه في نفوس الحواريين ليؤمنوا بعيسى الذي صوره بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ**﴾[6].

1-الوحي القرآني، 391.

2-الزرقاني، مناهل العرفان، 1/ 63.

3-الأعرجي، الوحي، 16

4-سورة القصص: آية 7.

5-تفسير القرآن المجيد، 397 وتصحيح اعتقاد الإمامية، 121.

6-سورة المائدة: آية 111.

3 - الوحي بمعنى الإلهام إلى بعض الناس أو توجيه بعض الخلائق[1]، فهو غريزيٌّ كما في قوله عز وجل: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾[2]. ومثله إلهام فطري كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[3]. وقد أشار الشيخ المفيد إلى أنّ هذا اللون من الإلقاء يحصل لأئمة أهل البيت الهداة عليهم السلام لما اتصفوا به من طهارة الذات، وصفاء النفس، وكمال التقوى، والتوجه إلى اللّه سبحانه، على أن هذا الإلقاء ليس هو إلقاء أحكام أو تشريع، فإنّ ذلك منقطع بعد النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)[4].

أما الإلهام فيعتمد على التفكير في الاستنباط، والتأرجح بين الشك واليقين، والوحي حالةٌ فريدةٌ لا تنحصر تحت طرازٍ ولا تخضع إلى التفكير ولا مجال معها للشك؛ كما أنّ الإلهام لا شعوري ولا إرادي، لكن الوحي فظاهرةٌ شعوريةٌ تتسم بالوعي والإدراك التامين، لأنه خارجي المصدر نابعٌ عن استعداد النفس للنبوة غير متأثرٍ بنفسهِ الداخلية وغير ملتزم بالحدود الطبيعية للعقل البشري، ينقل للإنسان حقائق تتجاوز نطاق إدراكه العقلي[5].

4 - استعمل القرآن كلمة الوحي بمعنى الوسوسة والإلقاء الخبيث في النفس[6]، وقد جاء هذا الاستعمال في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾[7]، وفي قوله عز وجل: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾[8].

1-المجلسي، بحار الأنوار، 18/ 254.

2-سورة النحل: آية 68.

3-سورة القصص: آية 7.

4-تفسير القرآن المجيد، 396.

5-الغزالي، مشتاق بشير، دراسات المستشرقين عن القرآن الكريم ، 59.

6-الأعرجي، ستار، الوحي، 16.

7-سورة الأنعام: آية 121.

8-سورة الأنعام: آية 112.

5 - واستعمل القرآن كلمة الوحي بمعنى الإشارة المفهمة إفهاماً خفياً للمراد الإشارة إليه، فقد جاء هذا الاستعمال في وصفه ﷻ إشارة النبي يحيى عليه السلام إلى أصحابه في قوله تعالى: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**﴾[1].

6 - الإيحاء بمعنى التسخير ووضع النظام التكويني من قبل اللّه ﷻ لتسير وفقه عوالم الطبيعة والمادة والإحياء. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾[3].

لقد اختلفت صور الوحي إلى الأنبياء بثلاث صور منها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[4].

وردت لفظة الوحي واشتقاقاتها في القرآن بنحو ثمان وسبعين مرة[5]. لقد أكد القرآن تلقي الوحي أول لقاءٍ لجبريل عليه السلام بالرسول (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) في غار حراء؛ إذ أقرأه ولم يُلْهِمْه، وأكد له الإقراء بضمه إليه فقال تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[6]، ومثل في قوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى**﴾[7]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه**﴾[8]، ففيها الأمر بالاستماع والإنصات، وهما ينافيان الإلهام الذي يقع في النفس دون استماع لأحد وهو غريزي، فكان النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) إذا أتاه جبريل عليه السلام يستمع فإذا

1-سورة مريم: آية 11؛ ينظر السمرقندي، بحر العلوم، 2/ 370؛ الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 21/ 515.

2-سورة فصلت: آية 12.

3-سورة النحل: آية 68.

4-سورة الشورى: آيتان 51 - 52.

5-عبد الباقي، فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، 747-746.

6-سورة العلق: آية 1.

7-سورة العلق: آية 6.

8-سورة القيامة: آية 18.

انطلق قرأه كما قرأ[1]، وهذا الاستماع والإنصات جاء بأمر الله ﷻ عندما كان النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) يردد ما يوحى إليه مع جبريل عليه السلام بتدوير لسانه فقال تعالى: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾[2].

إنّ القرآن الكريم ظَلَّ ينزل على النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) قرابة الثلاثة والعشرين عاماً، فلا يعقل أن يلازم الحدس أو الإلهام طوال هذهِ السنين ويكون معه في كلّ ما مرَّ من أحداثٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ شهدها الإسلام[3].

كانت أكثر وسائل الوحي أن تأتي الملائكة في صور مختلفة تخاطب الأنبياء بلغاتهم وتبلغهم وحي الله[4].

وكان الوحي يأتي إلى النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) بأنواع منها:

1- سماع الصلصلة (صوت الجرس) يعد تجربة تخيلية، لكن من دون سماع موجودٍ ما يتكلم وليس سماع كلمات منطوقة، وعلى النقيض من ذلك وجد كلمات الوحي في قلبه.

2- أن يتحدث الله من وراء حجاب وربما هي تجربة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم) الأولى وقال له: ((إنك رسول الله يا محمّد))، والوحي هنا من النوع الكلامي التخيلي أي مصدر خارجي.

3- أن يرسل الله رسولاً فيوحي عن طريق هذا الرسول إلى نبيه ما يشاء، وهذا الرسول بحسب المسلمين هو جبريل u، ويعتبر هذا الوحي من النوع الكلامي التخيلي[5].

لقد اِستعمل وات مصطلح التخيلي وهي لا تحمل المفهوم الدارج عن تصور ما لا وجود له في الواقع، بل نقلها عن بولين الذي اِستخدمها على القديسين المسيحيين بمعنى مختلف[6].

1-القشيري، لطائف الأرشادات، 3/ 656؛ السخاوي، علي محمّد، جمال القراء وكمال الإقراء، 493.

2-سورة القيامة: آية 16. القشيري، لطائف الإرشارات، 3/ 656.

3-النبهان، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، 37.

4-عبـد الوهـاب، أحمد، الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام، 44 – 45.

5-وات، محمّد في مكة، 126 - 129.

6-للمزيد ينظر: المترجم، عبد الرحمن حسين، محمّد في مكة، 127 و 129.

ولو تأملنا في الوحي لرأيناه هو نفسه الذي أرسله الله إلى موسى وعيسى عليهما السلام، إذاً فلماذا هذا التشكيك في الوحي الذي جاء إلى محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ويصدقون الوحي الذي جاء إلى موسى وعيسى؟ أليس هذا الكلام يحمل الازدواجية في القياس والتحليل؟ بل هو كراهيةٌ وحقدٌ دفين في نفوس هؤلاء المستشرقين. وهو الذي يأتيهم بكلام فصيح وبليغ، تحدى العرب به عدة مرات في قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[1].

أما عن دور السيدة خديجة عليها السلام وورقة بن نوفل فلا ينكر وات أنّهما شدّا من أزر النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وهنا يلصق شبهته في شخصيّة النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فيقول: ((من الواضح أن محمّداً كانت تنقصه في هذه المرحلة الثقة بالنفس))، و ((إن محمّداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان في حالة تردد ـ وهذا ما يبدو معقولاً، فإنّ هذا الدعم الذي لاقاه لابد أن يكون ذا أهمية عظمى في تطوره الداخلي ـ يعني النمو النفسي ـ))[2]، وأضاف ((محمّد كانت له لحظات من الكآبة، وعند مواجهته ضروباً من اليأس كانت تدفعه للذهاب إلى التلال الصخرية والتفكير في رمي نفسه من جرف شديد الانحدار، وأن ملاكاً كان يراه ويذكره: أنت رسول الله))[3].

وبمثل هذه الشبهات العارية من الصحة والقائمة على افتراضات وات التي يسعى إلى إلصاقها في شخص النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، محاولاً الإساءة له، ومن ثم ضرب الدين الإسلامي في الصميم، لزرع الشك في مصدر قوته المتمثّل في شخص مؤسّسه، يحاول وات أن يضع الرسول محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في صورة الرجل المجنون أو ضعيف الشخصية، في حين أن النبي محمد كان يتحلى بكل سمات الشخصية الكارزمية، وفيه كلّ خصال الخير واليقظة والفراسة والنباهة، فبرجاحة عقله قاد الناس جميعاً والأمة الإسلاميّة إلى العز والنصر المبين.

ولقد كان للطبيب العربي المسلم ابن النفيس رأيٌ سابقٌ بالرد على هذه الشبهة التي

1-سورة البقرة: آية 23 - 24.

2-محمّد في مكة، 119 - 120.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 30.

رواها كتاب السيرة من قبل وبرّء النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من إصابته بمرض الكآبة؛ لأن النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان يُخاطب من قبل الله ﷻ بواسطة الوحي، ويأخذ عنه خطاب اللهﷻ والتشريع[1]. فليس من المعقول أن يُخاطب اللهﷻ إنساناً مصاباً بمرض الكآبة! وكيف كان يستطيع أن يخطب بالناس ويتلو عليهم آيات من الذكر الحكيم؟ لأنّ مرض الكآبة علامته الخجل والانطواء، ونعلم جيداً أنّ النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان يخطب بالناس ليبلغ التشريع بأحاديثه الشريفة التي فيها أحكام ووصايا، وكان يخطب في صلاة الجمعة والعيدين، فلذا لا يمكن أن تقبل شبهة إصابته بالكآبة.

لقد كان وات متجاهلاً أقوال مواطنه الأسكتلندي توماس كارليل[2] الذي سبقهُ بردحٍ من الزمن في كتابه السيرة فقد عدّ النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من الأبطال في التاريخ وهي الصورة الثانية للبطل، الذي تلقى قسطاً كبيراً من العناية في التنشئة الاجتماعية بدايةً من بادية بني سعد، ورعايته من أمه واصطحابه معها إلى أخواله بني النجار، ثم تكفله جدهُ عبدالمطلب فأبصرت عينه الهَرِمة في محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) صورة ابنه عبد الله الذي أحبه كثيراً وكان يقول: ((ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلاً))، ثم أضاف كارليل[3] بأن النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عاش في كنف عمه أبو طالب الموصوف برجاحة العقل، وهذا أحسن نظام عربي في التنشئة الاجتماعية. وهذه الأدوار مجتمعةٌ كفيلةٌ بصقل شخصيّة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم). وما ذهب إليه علماء النفس أن السنوات الخمس الأولى من مراحل الطفولة هي أساس تكوين الشخصية وثبات ملامحها الأساسيّة، وأن البيئة التي ينشأ فيها لها أكبر أثر في تكوين ذاته وبلورة فكرته عن نفسه[4]، والشخصية التي تعرّف اِصطلاحاً هي جملة من الصفات الجسميّة والعقليّة والمزاجيّة والاجتماعية التي تميز الشخص عن غيره تميزاً واضحاً[5]، وهذا ما ناله محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من طفولته، إذ تؤكد الدراسات النفسية أن مرحلة نمو الطفولة ما قبل المدرسة في عمر خمس سنوات يحصل فيها الطفل

1-الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، 183.

2-الأبطال، 53 و 60.

3-الأبطال، 66.

4-الرحيم، أحمد حسن، محاضرات في علم النفس، 299؛ عزت، أحمد، أصول علم النفس، 450 .

5-عزت، أصول علم النفس، 456؛ خلف الله، سلمان، الحوار وبناء شخصية الطفل، 29.

على 50 % من قدراته العقلية في نهاية الثالثة من عمره، ومعظم ما يحصل عليه من معرفة يتم خلال السنوات الأولى من حياته وقبل دخول المدرسة بزمن طويل[1]. ولقد نال النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) القسط الوافر من التأديب الإلهي. وصدّق بوصف تأديبه فقال: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))[2]. والتأديب ليس تهذيب اللفاظ فقط وإنّما قولك تأدبت على فلان يعني تعلمت، أي الله ﷻ مَنْ علم الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم). فنعم الرب المربي ونعم النبي المتربي.

وخير دليل على ما يؤكد السلامة العقلية والنفسية للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عندما اتهمه المشركون بالجنون فبين الله ﷻ بطلان ادعائهم وردّ عليهم في قوله تعالى: ﴿**وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ**﴾[3].

لم يرد في المصادر الإسلاميّة إشارةً أنّ محمّداً ﷺ كان متردّداً أو تنقصه الثقة، بل بالعكس ثقته العالية تحمل ثقل النبوة، فبمجرد نزول الآية: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[4] بادر الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) دون أدنى تردّدٍ أو وجلٍ بإبلاغ قومه الدعوة، وعلا صخرة من جبل الصفا ثم قال: ((يا صباحاه فاجتمع عنده قريش فقال: لو قلت أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال إنيّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد))[5]، وفي اِختلاف بسيط ورد في السيرة: ((نادى رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في قريش بطنا بطنا فقال: أرأيتم لو قلت لكم إن خيلاً تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك مِنْ كذب قط فقال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد))[6]. بل إن الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بمجرد أن أُمر بإعلان الدعوة دخل في مواجهةٍ مع الكفار كما في قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[7]، ويكون معنى الأمر الإعراض عن المشركين

1-الصالح، محمّد أحمد، الطفل في الشريعة الإسلامية، 109.

2-الزركشي، محمّد بن عبد الله، اللآلي المنثور في الأحاديث المشهورة، 43؛ المجلسي، بحار الأنوار، 68/ 382.

3-سورة التكوير: آية 22.

4-سورة الشعراء: آية 214.

5-السمعاني، تفسير القرآن، 4/ 69؛ العامري، بهجة المحافل وبغية الأماثل، 1/ 89.

6-أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 177؛ الماوردي، أعلام النبوة، 241.

7-سورة الحجر: آية 94.

قطع العلاقة معهم لأن المواجهة قد بدأت، وهذا يؤكد عدم الاستمرار في الصمت[1]، في حين يفسرها الطبري أن الله يأمره بالتريث في ذلك، إذ إنّ الإعراض عن المشركين معناه أكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم[2]. وثقة النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بنفسه وبالله كانت واضحةً دائماً وفي أصعب الظروف كغزوة أحد سنة (3هـ/ 624م) عندما انشغل المسلمون بالغنائم وبقي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وحده حتى وصل إليه المشركون فرموه بحجرٍ وقع في شفتهِ فأصيبت رباعيته[3] ودميت شفته وشجّ في وجهه، وسال دمه الطاهر على وجهه وهو يقول: ((كيف يفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم!))[4]. وهو في رباطة الجأش، ولم يترك أرض المعركة فاراً ويجعلها سنة للمحاربين المسلمين من بعده، بل نلاحظ في سيرته العطرة الثبات في أصعب الظروف، والتقدم مضيّاً بالسير لنشر الإسلام.

ولم نسمع عن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أنّه تخفّى في المنزل، أو سكت وهذا دليلٌ على قوة شخصيّته وثقته بنفسه فهو لم يتعجب من أمرٍ قط، وما يوحى إليه من الله ﷻ. علماً أن النبوة والرسالة لم تكن قائمةً على استعدادات شخصيّةٍ أو مؤهلات فرديّةٍ، أو دعم من بعض الأشخاص كما يظن وات، بل هي اختيار الله واصطفاء الأخص من عبادهِ ومنهم خاتم الأنبياء محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم).

ثم إنّ مسؤولية إقدام النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على الانتحار برمي نفسه من شواهق الجبال التي صورتها الرواية الإسلاميّة وجدّد نسخها وات، فيها انتقاصٌ كبيرٌ من مقام النبوة، ومخالفة لسيرة الأنبياء والمرسلين جميعاً الذين اِختارهم الله ﷻ وأحسن اختيارهم لما عرف عنهم من التحلي بشدة الصبر والامتثال لأوامر الله عليهم السلام. فالنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قد عرف نفسه في منزلة النبوّة! فلا داعي للخوف والتردّد، وكذلك فإن جبرائيل عليه السلام كان يأتيه مرات ويقول له أنت رسول الله. إلا أن نقول أنّ هذه الأكذوبة يُقصد منها أن محمّداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان شاكاً بنبوته! لكي يسحب هذا الشك إلى المسلم حتى يزعزع إيمانه.

1-ابن إسحاق، السير والمغازي، 26.

2-مجمع البيان، 7/ 55.

3-رباعيته: أول الأسنان هي الثنايا، ثم الرباعيات بعدها، ويقال وكسرت رباعيته: هِيَ السن الَّتِي بعد الثَّنية وَهِي أَربع محيطات بالثنايا اثْنَان من فَوق وَاثْنَانِ من أَسْفَل، ينظر الفراهيدي، العين، 2/ 133؛ عياض، مشارف الأنوار على صحاح الآثار، 1/ 280.

4-الكلاعي، الاكتفاء، 97.

لا شك أن الأفكار الأساسية المتشابهة بين القرآن الكريم مع أفكار الكتاب المقدس لليهود والإنجيل للنصارى هي كفكرة الله ويوم الحساب والوحي والنبوة وقصص الأنبياء، هذا ما دفع الغرب يصل إلى نتيجةٍ مؤداها أن القرآن الكريم من عمل النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، وليس معجزةً، ولا أصليّاً، بل هو مجرد تكرار، يكرر القصص التي سبق أن سمعها[1].

ولقد أضاف وات على هذه الشبهات شبهةً أخرى من تفسيره الخاطئ للقرآن وفهمه القاصر للوحي بوصفه للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بأنّه تعتريه الشكوك والمخاوف وهذا الخوف جذوره سامية من الإله وقد يكون وضعه عباءة لحماية نفسه، وربما يكون وصفه في القرآن من غير حجاب، ومن الممكن أيضاً أنّ العباءة [الحجاب] قد وضعت لاستجلاب أو اِستحداث الوحي[2].

لم نجد في القرآن الكريم آية تثبت ادعاء وات بوصف النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من غير حجاب، ولم نجد في كتب السيرة والتاريخ أن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وضع عباءة لحماية نفسه من الوحي، أو لاستجلاب الوحي. بل إنّ هناك إحدى أنواع الوحي للنبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) وهي كونه من وراء حجاب كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[3]. وهنا وات فسر بالخطأ آية الوحي من وراء حجاب بأن النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان خائفاً من الوحي فوضع عليه عباءة ليحمي نفسه من الوحي تارة؟ ولكي يجلب إليه الوحي تارة أخرى؟

التكلم من وراء حجاب أحد أنواع الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام لما جاء إلى الميقات فقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ...**﴾[4] والتكليم من وراء حجاب هي أعلى منزلة عند الأنبياء فقال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ...**﴾[5]، وفي

1-وات، محمّد في مكة، 171-170.

2-محمّد النبي ورجل الدولة، 37.

3-سورة الشورى: آية 51.

4-سورة الأعراف: آية 143.

5-سورة البقرة: آية 253.

الآيـة دلالـةٌ عـلى تكليـم اللـه ﷻ إلى جماعـة؛ لأنّهـا جـاءت بصيغـة الجمع «منهـم» وهم مـوسى عليه السلام لأنـه كليـم اللـه ﷻ ونبـي اللـه آدم عليه السلام لما سُـئل النبـي محمّد عـن آدم هل هو نبـي؟ قـال:)) نعم مكلـم))[1].

وقد فسر ابن كثير[2] الآية «مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ» هم آدم عليه السلام وموسى عليه السلام والنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في ليلة الإسراء والمعراج إلى السماء عند سدرة المنتهى.

وقد زعم وات بأن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان يستدعي الوحي متى ما أراد وفي هذا يقول: ((تؤخذ كلمة مدّثر عادةً على أنها تعني مغطى بدثار فإذا كان هذا المعنى صحيحاً فإنّ فعل ذلك له علاقة ما بتلقي الوحي، فربما يكون ذلك لحث الوحي أو وهو أكثر احتمالاً لحماية المتلقي الآدمي من خطر التجلي الإلهي))[3].

هل يعقل أن يكون الدثار أداة لاستجلاب الوحي؟! وانقطاع الوحي عن الرسول دليل على عدم إمكانيّة الرسول استدعاء الوحي. والوحي كان يأتي الرسول فجأةً لا استشرافاً وإلزاماً ولا اختياراً.

ومن هذا يتّضح لنا أنّ النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لم يكن خائفاً من الوحي كما يزعم وات، ولم يكنْ بوسعه نزول الوحي عليه. ولعل وات لم يتصور خوف النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من الله ﷻ وبكائه على هذه الأمة التي يدعوها إلى الهداية وهم يعرضون عن ذكر الله ﷻ، ولما نطالع سيرة النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) نجده رجلاً مهيباً عجيباً لم تعرف البشر رجلاً مثله من قبل، ولا تعرف مثله من بعد، لقد كان رحيماً حتى مع أعدائه شديد الحرص على هداية الناس وخائفاً عليهم من عقوبة الله ﷻ، ومن رحمته كان يذرف الدمع بالبكاء لما يتلى عليه قوله تعالى: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[4] وذلك من باب حرصه على أمته يبكي ورفع يده وقال: ((اللهم أمّتي أمّتي، والله ﷻ علام الغيوم يعلم بما أبكى نبيّه (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فأرسل جبريل عليه السلام وقال اذهب إلى محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فقل له إنّا سنرضيك

1-ابن حبان، صحيح ابن حبان، 14/ 69؛ الطبراني، المعجم الأوسط، 5/ 77.

2-تفسير القرآن العظيم، 1/ 670.

3-محمّد في مكة، 116 – 117.

4-سورة المائدة: آية 118. ينظر: البغوي، معالم التنزيل/ 3/ 123.

في أمتك ولا نسوءك))[1]، وخوفه من اللهﷻ جعله منهمكاً بالعبادة فقال تعالى: ﴿**طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[2] المخاطب بقوله تعالى هو النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لأن طه من أسماء النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عندما أكثر من الصلاة[3].

ولقد أجاد وات وأنصف النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) برفع الشبهة التي أطلقها أعداء الإسلام حول أن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان مصاباً بالصرع، وبالتالي فإنّ رسالته الدينيّة غير صحيحة، لأن الأعراض المصاحبة للصرع غير الأعراض المصاحبة للوحي بنزوله على محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لأنه كان بكامل القوة البدنية والعقلية، أما أعراض الصرع فهي تؤدي إلى انهيار القوة البدنية والعقلية، وأن الظواهر المصاحبة للوحي لا تصلح برهاناً نعتمد عليه في رفض الوحي أو قبوله[4].

مثل هذه الشبهات يحاول المستشرقون أنْ يطعنوا بها الدين الإسلامي ونبيه محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، من دون دليلٍ أو حجّةٍ قاطعة؛ لأنّهم لم يجدوا ثغرةً تمكنهم من الطعن في الإسلام ولا نبيّه (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، لذا تعكزوا على الروابط المشتركة في الأديان السماويّة متجاهلين أنّ مصدرها واحد وهو الله الذي بعث المرسلين بالتعاقب لإصلاح الخلل في العباد، وشحن طاقات البشر بالتقرب إلى الله وإكمال النقص في العقيدة، وخير الأعمال خواتيمها لذا ختم الله الأنبياء والمرسلين بحبيبه محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم).

وفي ضوء ما تقدم يتّضح لنا أنّ وات سار على نهج من سبقه من المستشرقين في الإيمان بالوحي الذي نزل على موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام. ولما يصل إلى عصر النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ينكر نزول الوحي عليه، ويشكك به ويعدّه من افتراء النبيﷺ وادعائه كي يصدقه الموحدين وينظموا إليه. ويرجع سبب إنكاره حتى ينفي النبوة، ولو اِعترف بالوحي فإنّ هذا يقوده إلى الاعتراف بنبوة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)؛ هذا يعني التصديق

1-مسلم، صحيح مسلم، 1/ 191؛ ابن عوانه، مستخرج أبي عوانه، 1/ 137؛ ابن حبان، صحيح، 16/ 217؛ البيهقي، شعب الأيمان، 1/ 479.

2-سورة طه: الآيتان 1 – 2.

3-ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 5.

4-محمّد في مكة، 130.

بالنبوة ومن ثم التسليم والإيمان بما جاء به النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، وهذا ما يخشاه وات؛ لتعصبه وتمسكه بالنصرانيّة كونه من رجال الكنيسة التي عمل بها قساً.

مثل هكذا طرح ينم عن عنصريّةٍ بأن يكون عيسى عليه السلام خاتم الأنبياء بدلاً من محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) الذي خصه الله جل جلاله بالخاتمية؛ كي يصلح الخلل الذي ساد في منظومة التوحيد الإلهي بالعهد القديم والجديد على يد الأحبار والرهبان. لقد رأى النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بعينه الخلل الذي أصاب المسيحيّة والانحراف في التوحيد والعقيدة حيث إنّهم يؤمنون بالثالوث بدلاً من دين التوحيد المطلق. لا شك أن إرادة الله جل جلاله تحققت بأن يكون محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) خالص لختم الرسالة الخالدة، ولم يضع قدمه بخطوة واحدة في طريق معصية الله جل جلاله. وجعل الله جل جلاله نسله في الموحدين من نسل إبراهيم عليه السلام الذي كان مسلماً في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

1-سورة آل عمران: آية 67.

4 المبحث الرابع

موقف وات من بعض الآيات المعترض عليها

اِتخذ المشركون والمنافقون من الآيات الشيطانيّة ذريعةً لهم للنيل من النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على أنّه ذكر آلهتهم بخير كي يجعلوا لها نصيباً مع الله ﷻ، إلاّ أنّ بطلانها بان واضحاً للعيان. وبعد مضي ثلاثة عشر قرناً على الحادثة تعكّز المستشرقون ومنهم وات على بعض الروايات الضعيفة والمدسوسة بإطلاق الشبهات على النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بهتاناً.

فاستعرض وات حادثة الآيات الشيطانيّة برواية رواها أبو العالية في تفسير القرآن للطبري[1]، مفادها: كان محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) حريصاً على صلاح قومه محباً مقاربتهم بعد أن تولّوا عنه مما جاءهم به من الله، وتمنى أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، متمنياً أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم، فأنزل الله سورة النجم ولما وصل إلى قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾[2]، ألقى الشيطان على لسانه، لما كان يحدث به نفسه، ويتمنى أن يأتي به قومه: ((تلك الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن لترتجى))، ولما سمعت قريش فرحوا ما ذكر به آلهتهم وسجدوا في المسجد، وأتى جبريل عليه السلام معاتباً النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على ما قاله فأصابه الحزن الشديد، فأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[3][4].

سلّم وات بصحّة هذه الرواية وعليه اعتبر أنّ هذه الآيات جزءٌ من القرآن. إذاً هناك حقيقتان مؤكدتان هما:

أولاً - نظن أن هذه القصة لم يخترعها المسلمون المتأخرون زمناً، ولا نظن أن غير المسلمين قد أقحموها في التاريخ الإسلامي.

1-محمّد في مكة، 117 - 119. ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، 18/ 664 – 665.

2-سورة النجم، آية 19 – 20.

3-سورة الحج: آية 52.

4-محمّد في مكة، 196.

وثانياً: إنه من المؤكد أن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قد أعلن بعد ذلك أن هذه الآيات الشيطانية ليست من القرآن وأن آيات أُخر قد حلّت محلها تحمل مضموناً مختلفاً تماماً[1].

ومن ثم اتخذ وات تأكيد الحادثة بزعمه: فمن المؤكد أن محمداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قام بتلاوة الآيات الشيطانية كجزء من القرآن، وفي وقت لاحق، تلا وحياً آخر ينسخ تلك الآيات، ومن الغريب أن نبي التوحيد غير المتساهل في إشراك آلهة أخرى مع الله، بأنه يأذن بالشرك في تلك الآيات التي تلاها؛ لأن محمداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان كثير الرغبة في إيجاد طريقةٍ ما تجعل قبول الإسلام أمراً سهلاً للتجار والأغنياء[2].

لقد كان ديدن المستشرقين الجريء وراء هدفٍ أساسه تشويه صورة الإسلام، إذ نراهم يبحثون في القضايا الخلافية، ويتقصون المسترذلَ من الأخبار والمستقبح من الروايات، ويعد وات أحدهم إذ يعدّ حادثة الغرانيق أساساً لكونها وردت في بعض المصادر.

إنّ الرد على هذه الشبهة يستوجب أولاً الوقوف على معنى الغرانيق. الغرانيق جمع، ومفردها غُرنَيق (بضم الغين وفتح النون)، ويُعرّف الدميري[3]: الغرنيق بأنه ((طائرٌ أبيضٌ طويلٌ العنق من طير الماء))، واكتفى الفراهيدي[4] بأن ((الغرنيق والغرنوق: طائر أبيض والغرنوق الرجل الشاب الأبيض الجميل، ولم يجمعها بهذا المعنى إذ لم يذكر الغرانيق إلا جمعاً للغرنوق)) وعزلها الجاحظ[5] عن فصيلة الكراكي. وتجاهل كلاً من الجاحظ والفراهيدي رواية الغرانيق العلا ولم يذكرا عنها شيء.

والأصل في الرواية ما ذكره محمّد بن عمر الواقدي (ت 207هـ) وهو مؤرخٌ عباسيٌّ تتلمذ على يديه عددٌ من الأعلام في مقدمتهم كاتبه ابن سعد (ت 230هـ) الذي نهج على خطاه في أمورٍ عديدةٍ منها ترسيخ قضيّة الغرانيق في كتابه الطبقات الكبرى[6]، والواقدي أساساً متهمٌ

1-محمّد في مكة، 209.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 83.

3-ينظر: حياة الحيوان الكبرى، 2/ 182.

4-كتاب العين، 8/ 458.

5-كتاب الحيوان، 4/ 51.

6- 1/ 160.

بسرد الإسرائيليات والخرافات[1]، وعلى خطا الواقدي سار جمهور من المؤرخين كالطبري[2] وابن الأثير[3] ومن المفسرين كالقرطبي (ت 671هـ) ضعّف الرواية مع الإيحاء بأن الشيطان ربما ترصد لسكنات النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وهو يرتل القرآن فدس فيها ما تختلقه من تلك الكلمات[4].

أمّا المفسرون فإنهم يتناولونها ضمن أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[5]، وهذا عند أهل العلم باطل، وما يُروى عن ابن عباس غير ثابت، فأما عند العلماء ما يقع في القراءة من السهو والغلط فينسخ الله ذلك بتنبيه عليه[6]، وقد تكون ترسبات تلك الرواية التي أسسها الواقدي وتلميذه ابن سعد في حين تركها كتّاب السيرة فلم يقترب منها ابن إسحاق المتوفى سنة (ت 151هـ) وهو أقدم من كتب في السيرة وألف في المغازي، وإنما أجاب عندما سُئل عنها أنها ((من وضع الزنادقة))[7]، وقد يكون من بين الزنادقة أتباع فرقتي (الكرامية)[8] و(الحشوية)[9]، حيث إن هاتين الفرقتين تقرّان بأنّ النبيﷺ قال تلك العبارة وأنه أخطأ في تبليغ الرسالة فما أجرأهم على شخص رسول اللهﷺ وإلا فكيف تكون الزندقة؟

1-العبودي، بيداء حيدر، السيرة النبوية في الاستشراق الفرنسي، 222.

2-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 226 – 228.

3- الكامل في التاريخ، 2/ 52 – 53.

4-الجامع لأحكام القرآن، 21.

5- سورة الحج: الآية 52.

6-السخاوي، علي محمّد، سفر السعادة في سفير الافادة، 1/ 396.

7-البيهقي، دلائل النبوة، 2/ 289؛ العامري، يحيى بن أبي بكر، بهجة المحافل وبغية الأماثل، 1/ 98؛ هيكل، محمّد حسين، حياة محمّد، 125.

8-الكرامية: هي فرقة أسسها محمّد بن كرم والتي أشتقت أسمها منه، من أهالي سجستان، والمتوفى عام (255هـ/ 868م)، وهي من الفرق التي تنتهي بالتنجيم والتشبيه؛ ينظر: الشهرستاني، الملل والحلل، 1/ 108.

9-الحشوية: هم فرقة ظهرت في العصر العباسي الثاني، سموا بالحشوية لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن الرسول الأكرم محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، أي يدخلونها فيها وهي ليست منها. وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه، يجوزون الكبائر، ينظر، الشيخ المفيد، المسائل السرورية، 47؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 14/ 158.

تنقسم آراء العلماء في قصة الغرانيق إلى قسمين:

فالقسم الأول يرى أنه لا أصل لهذه القصة ولا دليل عليها وبهذا الرأي يقول كل من القاضي عياض[1] والفخر الرازي[2] وابن حجر العسقلاني[3] والآلوسي[4].

القسم الثاني يرى أنّ هذه القصة لا أصل لها وقد وقعت بصورةٍ أخرى غير التي جاءت بها الروايات وبهذا يقول ابن حجر العسقلاني: ((وأهم الرواياتً العربية التي قالت بقصة الغرانيق هي روايات الطبري الكثيرة. وهي باطلة لا أصل لها، وهو إطلاق مردود عليه))[5].

وهذا الحديث - أي الغرانيق - رواه أكثر من واحد من كتّاب السيرة والمفسرين، ولكن وُجّه إليه كثير من الانتقادات من علماء الجرح والتعديل[6] وذكر البخاري[7] هذه القصة واقتصر على سجود النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وسجود المسلمين والمشركين معه. فسجود المسلمين جاء امتثالاً لأمر الله ﷻ، أما سجود المشركين فبما سمعوا من أسرار البلاغة وعيون الكلام الفصيح وليس لأن الرسول محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ذكر آلهتهم بخير، وإنما دُسَّ ذلك في القصة افتراءً وكذباً. وسبب ذلك الافتراء والدس أنّ الذين سجدوا مع النبي محمّد صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من المشركين توالى عليهم اللوم من أهل الشرك الذين لم يحضروا، فعند ذلك كذبوا على رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم كلمة تقدير ليعتذروا بذلك عن سجودهم[8].

1-الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلاً بالحاشية المسماة مذيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للشمني، 890.

2- مفاتيح الغيب، 2/ 135.

3- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، 67.

4- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 130.

5-فتح الباري، 8/ 439.

6-هذا الحديث منكر من جهة الرواية، ومن جهة الدراية أيضاً، لم يخرج (بهذه الصيغة التي فيها سجود النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) للأوثان) لم يرويه أحد من أصحاب الستة الصحيحة ولا رواة ثقة بسند سليم متصل، ومن حكيت هذه الحكايةَ عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها بل رواه جماعة بأسانيد ضعيفة واهية مقطوعة، وهي في جملتها موقوفة على جماعة من التابعين الذين لم يشهدوا القصة، ولم يروها عمن حضرها من الصحابة. ينظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 2/ 124؛ المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، 3/ 136 - 138؛ أبو ليلة، محمّد محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية، 135.

7- صحيح البخاري، 587.

8-ينظر: ابو زيد، أحمد، السيرة النبوية، 92.

أما الجصاص: فله رأي في تفسير الآية المذكورة سلفاً قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1]، لما تلا النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) هذه السورة، وذكر الأصنام، علم الكفار أنه يذكرهم بالذم والعيب، فقال قائلٌ منهم حين بلغ النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾[2]، تلك الغرانيق العلا، وذلك بحضرة الجمع الكثير من قريش في المسجد الحرام، بمعنى إضافة من شخص ما، فقال سائر الكفار الذين كانوا بالبعد منه: إن محمداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قد مدح آلهتنا، وظنوا أن ذلك كان في تلاوته، فأبطل الله ﷻ ذلك من قولهم، وبين أن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لم يتل ذلك، وإنما تلاه بعض المشركين، وسمي شيطاناً لأنه من شياطين الإنس. كما في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾[3]. والشيطان اسم لكلّ متمرّد عاتٍ من الجنّ والإنس. هذا الرأي أكثر قبولاً.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ الكثير من المستشرقين وجمهورهم ينقلون هذه القصة ويعدونها حقيقةً تاريخيّةً ولا يشيرون لأي تجريح أو تضعيف لهذه الروايات الواهية. إلاّ من ندر منهم كالمستشرق البريطاني برتون، والسيد ريتشارد (1821-1890) إذ يرى بأنها من تلفيقات الفقهاء[4]. والمستشرق كيتي[5] إذ يرفضها لضعف إسنادها[6].

وهناك رأي لأحد المفكرين الإسلاميين المحدثين وهو أنّ كفار قريش لما كانوا يطوفون بالكعبة كانوا يقولون: ((واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنّهن غرانيق العلى وأن شفاعتهن لترجى))، كانت هذه العبارات مركوزةً في أذهانهم، هاجسةً في خواطرهم، يخيل لهم سماعها وأن الشيطان نطق بها عند انقطاع نفس النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في التلاوة، فحاكى بها صوته بعد أن ارتصد الشيطان

1-سورة الحج: آية 52؛ ينظر: أحكام القرآن، 5/ 84.

2-سورة النجم: آية 19 - 20.

3-سورة الأنعام: آية 112.

4- نقلاً عن أبو ليلة، القرآن الكريم، 134.

5- لم نجد له ترجمة في المصادر التي اطلعنا عليها.

6- أبو ليلة، القران الكريم، 134.

في سكتةٍ من سكتاته فألقى تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا إليه فظنها من قول النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فأشاعه في مكة أنه (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قد رجع إلى دينهم[1].

ويرى الباحث أن الطهطاوي بالرغم من مكانته المرموقة في الفكر الإسلامي وحركة الإصلاح العربي، كان غير موفق في استنتاجه!، ونسي أن النبي معصوم بالعصمة الكبرى لا يتسلل إليه الشيطان أبداً ولا يتشبه به جسداً ولا صوتاً، ويؤكد ما ذهبنا إليه قول رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم): ((من رآني في منامه فقد رآني، لأنّ الشيطان لا يتمثل في صورتي))[2]. وفي اختلاف بسيط في السنن قال: ((مَنْ رآني في المنام فقد رآني في اليقظة، فإنّ الشيطان لا يتمثل على صورتي))[3].

ونلخص إلى أنّ الحادثة موضوعةٌ ومفتعلةٌ ولا صحة لوقوعها، لنفيها في القرآن والحديث النبوي الشريف، ولتناقضها مع قواعد العصمة. بل وضعها المشركون لإعلاء ذكر ألهتهم وتناولتها المصادر الإسلاميّة المبكرة بدون تمحيص، ومن بعدهم وظفها المستشرقون للصق الشبهة في النبي (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) وهم يصطادون بالماء العكر. وتبعتها أحداثٌ مهمةٌ في حياة النبي (صلى اللهَ عليهِ وآلهِ وسلّم).

1-الطهطاوي، رفاعة رافع، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجار، 1/ 113 - 114.

2-الصدوق، الأمالي، 121؛ الطوسي، الأمالي، 224.

3-ابن ماجة، سنن، 5/ 60؛ أبو داود، سنن، 7/ 371.

5 المبحث الخامس

أبرز أحداث العهد المكي

تضمنت المرحلة المكيّة أحداثاً جسام، وشكلت خطراً حقيقياً على حياة النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) والصحابة المسلمين أولاً وعلى الدين الإسلامي الجديد ثانياً. وسنعرض أبرز تلك الأحداث وكيف تصدى لها النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بكل حزم وإيمان مطلق، ومن جانب آخر نرى تجلي قدرة الله ﷻ بالنصر المؤزر للمسلمين وهي:

1- المعارضة:

بدأت الدعوة الإسلاميّة سنة 609م، واستمرت في قسمها الأول ثلاث سنوات بالانتشار بصورةٍ هادئةٍ بين أفراد قبيلة قريش، وعُرفت المرحلة الأولى بالسرية؛ لاِتباع أسلوب التكتم والاتصال الفردي بين الأتباع. ثم تطلبت ضرورة نشر الدعوة المرحلة العلنية واستمرت عشر سنوات بأمرٍ من الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بقوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]. لم تعد الدعوة سراً خفياً على أهل مكة جميعهم؛ بحكم صغر مدينة مكة وقوة الترابط بين سكانها، ويبدو أنّ زعماء المشركين لم يتصدوا لمعارضة الإسلام بعد إعلان الدعوة؛ لأنه لم يتعارض بعد مع مصالحهم الاقتصادية، وحين تصادم معهم حاربوه.

يعد وات السبب الرئيس في معارضة قريش للإسلام هو تعرّض القرآن إلى الأصنام بالتسفيه، وحِدّة التناقض بين ما دعا إليه محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على أساسٍ قرآنيٍّ من ناحية والتراث العربي القديم من ناحية] أخرى إذ عدّه السبب العنيف للمعارضة[2].

وافق وات برأيه ما ورد في المصادر أنّ اشتداد المعارضة للدين الإسلامي بعد نزول الآيات التي فيها ذم لآلهة الشرك، وتسفيه توجههم لها بالعبادة. فقال ابن إسحاق[3]: ((فلما

1-سورة الحجر: آية 94.

2-محمّد في مكة، 167 و 195.

3-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 264؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 64.

بادر رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموا وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته)).

وهناك تناقضٌ كبيرٌ بين ما دعا إليه النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في النص القرآني من نبذ عبادة الاصنام وعبادة الله جَلَّ جَلَالُهُ الواحد الأحد من جانب ومن جانب آخر موروث التراث العربي القديم المتضمن الشرك وتعدّد الآلهة، والسير على أثر الأباء من دون التفكير والتأمل في وجود الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كما في قوله تعالى: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾[1].

لقد تخطّى وات بداية المعارضة القريشية للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عندما انقضت ثلاث سنوات من عمر الدعوة السرية، ونزلت سورة إعلان الدعوة بقوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[2]. ولما أراد النبي تبليغ الدعوة أمر الإمام علي عليه السلام بإعداد مأدبة طعام خاصة ليجمع بني عبد المطلب ويبلغهم رسالته، وبعد إتمام المراسيم تعذر على النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) تبليغ رسالته وذلك بسبب ضجيج أبي لهب [هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم] ولغطه وتفريقه بني عمومته[3]، وبعد دعوتهم في اليوم التالي لمأدبة طعام وبعد فراغهم من الطعام، بدأ كلامه بحمد الله تعالى جَلَّ جَلَالُهُ الذي بعثه إلى الخلق عامة وإليهم خاصة فقال: ((وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللّسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهما العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأمم وتدخلون بهما الجنّة وتنجون بهما من النّار: شهادة أن لا إله إلاّ اللّه، وأنيّ رسول اللّه، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه وعلى القيام به يكون أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي من بعدي))[4]. فلم ينهض أحد لتلبية ندائه والإيمان برسالته السماوية إلا الإمام علي عليه السلام وكان أصغر الحضور سناً! ويجلسه الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وتكرر هذا الموقف في المرة الثانية والثالثة، فقال النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) للإمام عليه السلام: ((اجلس فأنت أخي ووصيّي ووزيري ووارثي

1-سورة الزخرف: آية 22؛ ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 4/ 157.

2-سورة الشعراء: آية 214.

3-ابن حنبل، المسند، 1/ 138؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 118؛ الطبري، تاريخ، 2/ 321.

4-ابن شهر آشوب، متشابه القرآن ومختلفه 2/ 31؛ الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، 12/ 89.

وخليفتي من بعدي))[1]. فنهض القوم يهنئون أبا طالب أن دخل في دين ابن أخيه وجعل ابنه علياً عليه السلام أميراً عليه[2].

وضع المشركون من بني عبد المطلب اللبنة الأولى في المعارضة بالوشاية والنفاق إلى أبي طالب، وهو أول أسلوب بالمعارضة الداخلية من العشيرة لشق الصف بين النبي محمّد ﷺ وعمه أبي طالب من جهةٍ، وعشيرته بني هاشم من جهة ثانية، إلاّ أن أبا طالب برجاحة عقله وعمق إيمانه احتوى الموقف وقدم حمايته للنبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) والدين الإسلامي.

ويفترض وات أنّ دافع القريشين للمعارضة هو ((أن أقوى الدوافع الكامنة وراء معارضة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، هو الخوف من أن مكة إذا دخلت الإسلام وتخلّت عن الوثنيّة توقف البدو عن التردّد على الكعبة كمعقلٍ وثنيٍّ وبالتالي تحطمت تجارة أهل مكة))[3]. لأنهم يعدون آلهة قريش هي ديانة وتجارة، ومن ثمّ ينفي هذه الفرضية لسببين أولهما أن الهجوم كان على الأنصاب وليس على الكعبة، والثاني أنّ هذه الأنصاب المجاورة لمكة لا تكاد تكون بقدرٍ من الأهميّة حيث يكون هجرها أمراً كافياً لهدم تجارة مكة، وبهذين السببين ينسف نظريةً المخاوف الاقتصادية التي كانت كامنةً وراء الخوف من الهجوم على الأوثان[4].

ويبدو للباحث أنه سببٌ رئيس كون العامل الديني مرتبط بالعامل الاقتصادي برباط قوي ويؤثر أحدهما بالآخر، والقبائل العربية كلها كانت تعبد الأصنام ولكلّ قبيلةٍ صنم خاص بها عند الكعبة، لذلك كانت عدد الأصنام المنصوبة حول الكعبة 360 صنم، بعدد القبائل العربية وتأتي جميع القبائل العربية لتحج في موسم الحج وتعبد أصنامها الموجودة حول الكعبة[5]. لما أقرّ الإسلام بوحدانيّة عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام سوف تفقد مكة مكانتها الدينيّة وتخسر تجارتها، وهذا بدوره يسبب إلى معادات كل القبائل العربيّة وأن تتحوّل جميع

1-المفيد، الإرشاد، 1/ 7.

2-الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، 12/ 90.

3-محمّد في مكة، 269.

4-محمّد في مكة، 296.

5-ابن الكلبي، الأصنام، 33؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 17/ 220.

القبائل العربيّة بدلاً من حماية قوافل قريش بموجب الأيلاف إلى منعها ومحاربتها، وهذا معناه توقف قوافل قريش التجارية تماماً. لذلك كان أول من رد عليه أبو لهب عندما عرض الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) الدعوة على أعمامه قائلاً: ((... واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة... فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به))[1].

ويحاول وات تضعيف حجم المعارضة باعتبارها قضيّةً فرديّةً من قبل نفرٍ قليلٍ فقال: ((والذي يكاد يكون مؤكداً هو أن هؤلاء النفر الذين كانت لهم ارتباطات تجارية ببعض الأنصاب قد تضايقوا؛ لأن مهاجمة هذه الأنصاب كانت تنطوي على هجوم عليهم... أن بعض القرشيين الذين كانت لهم ممتلكات في الطائف هم الذين بدؤوا المعارضة الفعالة لمحمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)))[2]. وأضاف وات قائلاً: ((إنّ المعارضة الحقيقية الأولى ارتبطت بالتعرّض للأصنام من خلال النص القرآني، أن بعض أثرياء قريش الذين يمتلكون ثروات في الطائف كانوا هم زعماء الحركة المعارضة لمحمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)))[3] وعزز ذلك بقوله : ((وإن إيقاف وظيفة المعبد هناك من شأنه أن يضر بأولئك الذين كانوا منخرطين في التجارة فيها))[4].

ويبدو ذلك الأمر مقبولاً لزعماء مكة إذ شعروا بخطر الدعوة على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالشرك ورعاية الأصنام، وهذا ماذكره الطبري عن عروة بن الزبير بقدوم بعض التجار القريشيين من الطائف إلى مكة، معلنين بدء المعارضة للدعوة الجديدة وجمعوا أتباعهم وأغروا من أطاعهم، فأبقوا النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في ثلةٍ قليلةٍ ممن حفظهم الله ﷻ منهم.

يتّضح لنا سبب موقف كبار تجار مكة في مقاومة الدعوة الإسلامية من قوة الارتباط بين الأوضاع الدينية في مكة ونشاطاتهم التجارية[5].

ويعد وات الموقف السياسي المتمثل بالسلطة العليا في مكة بإصدار قرار الحكم هو الدافع لزعماء القبائل في معارضة النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فقال: ((فالسبب

1-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 659؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، 1/ 68.

2-محمّد في مكة، 269.

3-محمّد في مكة، 195 - 196.

4-محمّد النبي ورجل الدولة، 79.

5-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 328.

الرئيسي للمعارضة كما يبدو مؤكداً هو أن زعماء قريش رأوا في نبوة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ـ إذا ما أقروها ـ مضامين سياسية، فالتقاليد العربية القديمة تعطي الحكم أو الزعامة في القبيلة أو العشيرة له (لمحمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)) ما دام (بحكم نبوّته) هو الأكثر حكمةً وتدبيراً وهو الأكثر قدرةً على الفصل في أي نزاع ينشب))[1].

لقد أجاد وات في ترشيحه النص أعلاه كسبب رئيس للمعارضة، لكن فاته الرجوع إلى القرآن الكريم الذي يأمر الناس على طاعة الله ﷻ ورسوله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ويحث عليها ونزلت هذه الآيات جميعها في العهد المدني لا المكي[2].

فلعدم وجود نص قرآني يأمر الناس بطاعة الله ﷻ والرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في العهد المكي لذا يُرجح أن يكون السبب قبلي، لكنه اِجتزأ المعلومة التي مفادها الحسد والتغابن، فقريش كما نعرف مجموعةٌ من البطون ورسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من بني عبد مناف، فكان من أسباب رفض بطون قريش اعتناق الإسلام، ألاّ يكونوا تبعاً لرجل من عبد مناف، لذا قال عمرو بن هشام أبو جهل:))واللَّه إني لأعلم أنه لنبي، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعاً؟))[3]، ولما سأل الأخنس بن شريق[4] أبي جهل (هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي) عن ما سمعه بدعوة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أجابه الأخير: ((تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الركب، وكنا كفرس رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه))[5]، وفي رواية أخرى قال أبو جهل: ((زَاحَمْنَا بَنِي عَبْدِ مُنَاف فِي الشَّرَف حَتَّى إِذَا صِرْنَا كَفَرَسَيْ رِهَان قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْه وَاللَّه لَا نَرْضَى بِه وَلَا نَتَّبِعُهُ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَا وَحْيٌ كَمَا يَأْتِيه))[6]، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ**

1- محمّد في مكة، 270.

2-ينظر سورة آل عمران: الآيتان 32 و 132؛ سورة النساء: آية 59؛ سورة المائدة: آية 92؛ سورة الأنفال: الآيات 1 و 20 و 46؛ سورة النور: الآيتان: 54 و 56؛ سورة محمّد: آية 33؛ سورة المجادلة: آية 13؛ سورة التغابن: آية 12.

3-الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 4/ 1283؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2/ 134.

4-الأخنس بن شريق: هو عمير بن بن أبي سلمة بن عمرو بن وهب بن علاج الثقفي، سمي الأخنس لأنه خنس في بني زهرة يوم خروج أهل مكة إلى بدر، وهو حليف بن زهرة، أسلم يوم فتح مكة وهو من الطلقاء، توفي في أول خلافة عمر بن الخطاب ☒، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 10 – 11؛ السمعاني؛ الأنساب، 1/ 137.

5-ابن إسحاق، السير النبوية، 170؛ البيهقي، دلائل النبوة ، 2/ 206.

6-أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، 4/ 637.

أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً﴾[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ**﴾[2].

وقد بالغ زعماء قريش في حسدهم لرسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فتمنى بعضهم أن يكون هو نبي هذه الأمة وصاحب هذه المنزلة بدلاً من محمّد بن عبد الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة[3] وهو أحد زعماء المشركين في مكة قال:))أينزل القرآن على محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وأترك أنا؟ وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك سيد ثقيف حبيب بن عمرو في الطائف ونحن عظماء القريتين أي مكة والطائف))[4]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[5]، سبب نزول هذه الآية هو احتجاج الوليد بن المغيرة على بعث النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالنبوة فقال: ((لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً))[6]. وكذلك أمية بن الصلت[7] كان يقول هذا القول ويتمنى هو هذا المقام الإلهي العظيم[8]. وهذا المنطق يكشف دور المعارضين والحسد الذي كان يعتريهم بما أخص اللهُ الرسولَ محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من النبوّة وعلوّ المرتبة، وهذا ما جعلهم يوقفون الدعوة ويصدّونها.

1-سورة المدثر: آية 52.

2-سورة الأنعام: آية 124.

3-الوليد بن المغيرة: هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، عرف بعدائة للإسلام ويعد أحد زنادقة قريش، ابنه عمارة الذي جاؤوا به إلى أبي طالب ليعطيهم النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لكي يقتلوه ورفض أبو طالب، وهو موفد قريش للحبشة كي يرد المهاجرين المسلمين، وبذم الوليد نزلت سورة الكافرون، وكان من المستهزئين ونزلت بحقه ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ سورة القلم: آية 10، مات كافراً سنة (1هـ/ 622م)، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 98، ابن حبيب، المحبر، 161؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 398.

4-الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 499.

5-سورة الزخرف: آية 31.

6-البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 2/ 128؛ السقا، محمّد الغزالي، فقه السيرة، 26.

7-أمية بن الصلت: هو أمية بن ابي الصلت (اسمه عبد الله) بن ربيعة بن عبدعون الثقفقي، من الشعراء قرأ الكتب المتقدمة ورغب عن عبادة الأوثان، أدرك الإسلام ولم يسلم حسداً بالنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فقال: ((آمن بلسانه وكفر بقلبه)) توفي في صدر الإسلام، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 3/ 153؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، 1/ 412؛ الهيتمي، أشرف الوسائل، 329.

8-الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 21/ 592؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 4/ 76.

ويفيد وات: ((وربما كان زعماء قريش من بعد النظر بمكان بحيث يدركون التعارض بين قيم القرآن الكريم من ناحية ونشاطهم التجاري من ناحية أخرى ـ التي كانت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت ـ ... ربما شعروا أن هذه القيم ستعطي محمّداً دعماً سياسيّاً إن هو فكّر في القيادة السياسية))[1].

ومن النص الآنف الذكر، يعد وات معارضة قيم القرآن إلى النشاط التجاري لقريش كان سبباً لتصدي الدعوة من قبل الزعماء، إلاّ أنه ينفيه لعدم وجود إشارة لتحريم الربا حتى بعد الهجرة فيقول: ((فلم تكن هناك أي إشارة لتحريم الربا حتى بعد الهجرة بمدة طويلة))[2].

إنّ التجارة هي النشاط الاقتصادي الرئيس لقريش، لِذا لعب تجار مكة دوراً مهماً في تسيير القوافل التجارية إلى الشام وإلى اليمن، وكذلك كان يعضدها المكيون بالتجارة مع سوق عكاظ، وتارة أخرى كانوا في دور الوساطة التجارية، ويتمثّل أساس هذه التجارة في جلب البخور والطيب واللبان والحلل من اليمن وبيعها في دمشق، واجتلاب بضاعة أخرى من هناك، لاسيمّا القمح والطعام والنقد وهذا أمر حيوي بالنسبة إلى مكة[3]؛ ولحماية مصالحهم عقدوا المعاهدات مع القبائل على طول الطريق لضمان تسيير القوافل وحمايتها، لذلك كانت قوافل قريش الوحيدة في الجزيرة العربية التي لا تتعرض لها أيّ قبيلة، ويظهر ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**﴾[4]، ويراد بتفسير الآية أن الله جعل لهم الحرم آمناً لتعظيمهم بيته وهم يشاركون من حولهم القبائل في الدين، ودفع عنهم الاستلاب والاختطاف والناس حولهم في خوف[5]. فلم يكن الربا العامل الأساس بل مزاولة التجارة هي أوسع من الربا.

اعتبر وات المعارضة كانت نتيجة خلاف فرديٍّ بين أبناء الأسرة الواحدة أو بين مجموعة الأسر في العشيرة فقال: ((وبينما كان بعضٍ المعارضين لمحمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ينطلقون من منطلقٍ فرديٍّ عميق، فإن الأكثر محافظةً منهم ربما احتفضوا بولاءٍ من نوع

1-محمّد في مكة، 270 - 271.

2-محمّد في مكة، 271.

3-جعيط، هشام، في السيرة النبوية، 2/ 129.

4-سورة العنكبوت: آية 67.

5-الماتريدي، محمّد، تأويلات أهل السنة، 8/ 245.

خاص للجماعة. وعلى هذا فإنهم رأوا في اتجاه الإسلام نحو إيجاد فصلٍ حادٍّ في الأسرة أو العشيرة (المقصود فصل بين الأجداد أو الآباء الوثنيين، والأبناء المسلمين) دليل على أن الابتعاد عن نهج الآباء والأجداد سيؤدي إلى عواقب وخيمة، وربما بدا لهم أنّ هذا التغيير سيمس البناء الاجتماعي كله. والحقيقة، أن الإسلام ـ بمعنى أو بآخر ـ كان يفعل ذلك حقاً))[1].

وهذا الرأي غير مقبولٍ جملة وتفصيلا فلم يفعل الإسلام الفرقة بين الأباء والأبناء في الأسرة الواحدة كما توهّم وات بطرحه، بل الإسلام يؤكد على الوحدة وعدم الفرقة بين أبناء المجتمع كله! فما بالك في الأسرة الواحدة وخصوصاً بين الأبناء والأباء.

أما العلاقة بين الأبناء المسلمين والأباء الكافرين فقد أمر الله ﷻ بعدم طاعتهم على الشرك ومصاحبتهم بالدنيا بالمعروف ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[2]، لقد وصى الله الإنسان في الوالدين ومعاملتهم بإحسان وهذا حق الأبوة، أما حق الوالدين والإيمان بالله فلا يجوز طاعتهم على الشرك لأن الله ﷻ لا شريك له في الملك وهو الذي يجزي الإنسان على عقيدته كما في قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[3]. وهاتان الآيتان مكيتان، أي إنّ القرآن منذ البداية حدّد العلاقة مع الوالدين ومع الله ﷻ.

كذلك يرجح وات خلافهم مع النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على مصير آبائهم وأجدادهم دفعهم للمعارضة فقال: ((وهناك سبب آخر للمعارضة بالإضافة لمهاجمة الأوثان، وهو التأكيد على أن آباءهم وأجدادهم الوثنيين خالدون في جهنم، فالولاء للآباء والأجداد مرتبطٌ إرتباطاً وثيقاً بما تركوه من تراث)) [4].

ويبدو أنّ وات قد اعتمد في طرحه هذا على ما جاء في بعض المصادر الإسلاميّة، من

1-محمّد في مكة، 271.

2-سورة لقمان: آية 15.

3-سورة العنكبوت: آية 8.

4- محمّد في مكة، 271.

أن الرسول ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة u، لزم بيته لعظم البلاء وشدة إيذاء قريش له (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، فاندفع أبو لهب وأخرج محمّدا (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من حمايته، وهذا ما أثار غضب قريش فجاء المنافقان عقبة بن أبي معيط وأبو جهل إلى أبي لهب وطلبا منه أن يسأل محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عن عبد المطلب أين هو؟ فأخبره مع قومه، ثم طلبوا من أبي لهب أن يعيد عليه السؤال فقال النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم):))ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار)) فغضب أبو لهب ورفض حماية ابن أخيه محمّد[1].

وبعد القراءة المتأنية للرواية أعلاه يبدو أنّها موضوعة، والهدف من الوضع هو تبرير موقف أبي لهب المعارض للدعوة الإسلامية، مع إيجاد العذر له لعدم فرضه الحماية لابن أخيه محمّد كي لا يلحق به العار، لانضمامه إلى تحالف أعداء النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) مع المشركين.

أما عن نسبه الشريف وانتقاله في الأصلاب الشامخة فقال رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم): ((فأهبطني اللَّهُ عز وجل إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح في سفينته، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم عليه السلام، ثم لم يزل ينقلني في الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبوي، ولم يلتقيا على سفاح قط))[2]. ومن هذا الحديث الشريف يوضح النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أنّ جده عبد المطلب هو من الأصلاب الكريمة الذي حمل نطفة النبوة في صلبه وأودعها في ابنه عبدالله الذي أنجب محمّداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فكيف يكون هو في النار؟. فضلاً عن ذلك فإن عبد المطلب كان من الأحناف؛ لأنه قد حرم الخمرة وكثير من عادات قريش في الجاهلية وما يدلّ على إيمانه هو أنه لما هدّد أبرهة بهدم البيت قال: للبيت رب يحميه، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدل على إيمانه وتوحيده[3].

ولعظم مكانة عبد المطلب بين قومه في عصر قبل الإسلام وصّى النبي محمّد (صلى اللهُ

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 211؛ ابن كثير، السيرة النبويه، 2/ 148؛ الحلبي، السيرة الحلبية، 2/ 51.

2-الآجري، الشريعة، 3/ 1419؛ القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/ 77؛ مرتضى العسكري، الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، 2/ 40.

3-ابن هشام، السيرة، 1/ 44؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، 1/ 273.

عليهِ وآلهِ وسلّم) الإمام علي عليه السلام فقال له: ((يا علي إن عبد المطلب سن في الجاهلية خمس سنن أجراها الله جل جلاله له في الإسلام: حرم نساء الآباء على الأبناء، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿**وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً**﴾[1]. ووجد كنزاً فأخرج منه الخمس وتصدق به، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]. ولما حفر زمزم سماها سقاية الحاج، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[3]. وسن في القتل مائة من الإبل، فأجرى الله جل جلاله ذلك في الإسلام. ولم يكن للطواف عددٌ عند قريش فسنَّ لهم عبد المطلب سبعة أشواط، فأجرى الله جل جلاله ذلك في الإسلام))[4].

وفي رواية أخرى قال رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم): ((يا علي إن عبد المطلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذُبح على النصب ويقول: أنا على دين أبي إبراهيم عليه السلام))[5]، كما أنه حرّم شرب الخمرة والطواف حول البيت عراة[6].

وهذا الحديث النبويّ الشريف يمثّل دليلاً قاطعاً على أن عبد المطلب لم يكن مشركاً بل كان موحداً وحنيفاً على ملّة إبراهيم عليه السلام. والموحدون لا يدخلهم الله في النار، وإنما هذه الشبهة وضعت نكاية بهم لعظم شرفهم ولم يجدوا ما يعيبون به عليهم.

وبخصوص عداوة أبي لهب الموجهة ضد النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قبل وفاة أبي طالب يحاول وات تخفيفها فقال ((إنّ ما ذكر عن عداوة أبي لهب لمحمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قبل وفاة أبي طالب كان مبالغاً فيه بسبب إسفافه[7] في العداء لمحمد

1-سورة النساء: آية 22؛ ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 10/ 16.

2-سورة الأنفال: آية 41؛ ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 15/ 484 - 486.

3-سورة التوبة: آية 19؛ ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 16/ 12.

4-الطبرسي، مكارم الأخلاق، 440؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، 4/ 365؛ الحر العاملي، وسائل الشيعة، 9/ 496 – 497.

5-الطبرسي، مكارم الأخلاق، 440؛ الصدوق، الخصال، 313، الفيض الكاشاني، الوافي، 26، 177.

6-ابن الجوزي، تلقيح مفهوم أهل الأثر، 332.

7-إسفافه: اشتقت من السفاف وتعني الكذب، ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، 1/ 459.

(صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بعد ذلك))[1]، ويقال: إن أبا لهب وعد في البداية أن يحمي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالطريقة نفسها التي حماه بها أبو طالب، ويضيف وات ((إن سبب رفض أبي لهب رسمياً حماية محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كانت على أساس أنّ محمّداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) زعم أن عبد المطلب في النار، وهذا ما مكّن أبا لهب من دون أن يلومه أحد أو من دون أن يفقد شرفه واحترامه))[2].

ونلاحظ أن وات بعد مدة من الزمن يعطي تفسيراً ماديّاً لوقوف أبي لهب بالضدّ من محمّد ﷺ فيقول: ((أبو لهب كان له أصدقاء من كبار التجار وكانوا يحرّضونه على الوقوف ضد ابن أخيه))[3].

لقد نسي وات أنّ أبا لهب نزلت بحقه سورة المسد توعده فيها الله ﷻ بنار جهنم وهو في الدنيا، ورغم طغيانه لم يتمكن من نسف الدعوة الإسلامية وتكذيب نبوة محمّد ﷺ فلو حاول إعلان إسلامه كذباً لتمكن من تكذيب ما نزل على النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لكن الله صدق في قوله وأعمى بصيرة الكافرين ونصر الإسلام.

وكانت عداء أبي لهب للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) منذ بداية الدعوة، فقد اتخذ هو وزوجته أم جميل جانب المواجهة والمجابهة للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، بما كانا يقومان به من السب واللعن والتكذيب إلى غير ذلك. فضلاً عن أنها أمرت ولديهما عتبة وعتيبة بطلاق ابنتي النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لأنه ادعى النبوّة[4].

ويحاول وات أن يعطيَ صورةً عن عبد المطلب جدّ النبي بأنه كان مشركاً، وعن أبي طالب عم النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أيضاً من أنّه لم يعتنق الإسلام رغم حمايته لمحمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)[5]. والحقيقة تقال، لم يكن وات لديه عداء مع عبد المطلب أو أبي طالب، بل إنّ العداء الأموي الذي قام بتأليف النصوص والروايات

1-محمّد في مكة، 273.

2-محمّد في مكة 273 ومحمّد النبي ورجل الدولة، 104 - 105.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 68.

4-ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 71؛ الخركوشي، شرف المصطفى، 2/ 44؛ أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 70 - 71.

5-محمّد في مكة، 248، 273.

ودسها في التراث الروائي الإسلامي هو ما دفعه للقول بكفرهما، إذ اعتمد وات على هذه النصوص بدون تمحيص.

فضلاً عن الأسباب الآنفة الذكر، هناك أسبابٌ أُخر قد تجاهلها وات، كانت وراء دفع مشركي قريش بقوة في معارضة الدعوة، وتتلخص هذه الأسباب في الخوف على الشهوات والملذات وأوضاعهم اللاأخلاقية وغير الإنسانيّة، فمن المعروف أن المشركين كانوا أصحاب لهو وفسق ومجون، وأمضوا قروناً على هذا من دون أن يقيدهم شيء، فوجدوا في الدعوة مخالفةً لعاداتهم وتقاليدهم؛ لأن الإسلام يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق وترك المعاصي، وحرّم الزنا والإباحية، ومنع الظلم. فهؤلاء الذين يعبدون الأصنام يُشبعون حاجاتهم وغرائزهم من دون رادع بل إنهم يمارسون دينهم وفي الوقت نفسه، من دون أن تطلب منهم هذه الأصنام شيئاً أو تنهاهم عن شيء. فقد ذكر ذلك جعفر بن أبي طالب في حضرة النجاشي ملك الحبشة قائلاً: ((يا أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف...))[1].

ومن المعروف أيضاً أنّ المشركين كانوا يستغلون الضعفاء والفقراء في مكة وغيرها لمصالحهم الخاصة، وجاء محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بدعوة الإسلام الجديد يبث في هؤلاء روحاً جديدةً، وبدأ يؤكد لهم مفهوم كرامة الإنسان وحرية الفرد، وبعد أن كانوا مهمشين في المجتمع أصبحت لهم آنذاك مكانةٌ ويسمع رأيهم، بل أكثر من ذلك أخذوا يجالسون النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، وهذا ما أثار غضب زعماء وسادة مكة المشركين[2].

لقد خاف الزعماء والأغنياء في مكة معاً على ما كانت لهم فيها من مراكزَ ومنافعَ أدبيةٍ وماديةٍ عظيمةٍ، فبيت الله الحرام يعتبر أمناً لجميع العرب، ويعتبرون قريشاً أمناً لهم في الأمور الدينيّة والدنيويّة، وكانت هذه تحفظ لهم عزة الجانب ووفرة الحرمة، فكان الخوف ناشئاً في نفوسهم من أن نجاح الدعوة الجديدة سيكون سبباً لانصراف الناس عن مكة، وكانوا يرون فيها تهديداً لذلك المركز العظيم والمنافع الكبرى، لذلك تشدّدوا في معارضة الدعوة بتزمت أعمى[3].

1-ابن حنبل، المسند، 5/ 291؛ ابن الجوزي، المنتظم، 2/ 382.

2-الهمذاني، تثبيت دلائل النبوة، 2/ 643.

3- دروزة، محمّد عزة، سيرة الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) صورة مقتبسة من القرآن 1/ 181؛ زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، 385.

وكذلك تعالى سادة قريش المشركين على المسلمين الأوائل نتيجة الفوارق الطبقية في المجتمع، فدفعتهم الأنفة لمعارضة الإسلام وعدم الدخول فيه، وقالت قريش: ((يا محمّد إنما يجالسك الفقراء والمساكين وضعفاء الناس، فلو ذكرت آلهتنا بخير لجالسناك فإن الناس يأتونك من الآفاق))[1].

ارتكزت عداوة قريش للنبي ﷺ وللمسلمين على أساسٍ عقائديٍّ محض، وحربها للإسلام لم تقم لحماية كيانٍ أو أسرةٍ أو قبيلةٍ، لكنها قامت للقضاء على العقيدة التي وقفت لهدم الجاهلية بكل صورها وأشكالها وإقامة الإسلام بدلاً عنها[2]، ومثّل الله حالهم وهم يريدون إبطال نبوة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبثق من الآفاق والله ﷻ يريد إتمامه فقال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[3] وقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[4].

وعلى جهلهم فقد كان خوفهم من القبائل العربية المشركة أن تطردهم من أرضهم إن هم آمنوا برسالة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، ويظهر ذلك من قول الحارث بن نوفل[5] أحد وجهاء قريش البارزين لرسول الله: ((إننا نعرف ما تقوله حقاً، لكن الذي يمنعنا من اتباعك والإيمان بك خوفنا من هجوم العرب علينا ويطردونا من أرضنا ولا طاقة لنا على ردهم))[6]، وقد أنزل الله في ذلك قولاً تعيه القلوب وتستجيب له العقول: ﴿**وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا...**﴾[7] وأجاب الله على قولهم: ﴿**... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً**

1-العفاني، أبو التراب، سيد بن حسين، وا محمداه إن شانئك هو الأبتر، 2/ 658؛ وات، محمّد في مكة، 202.

2-العليمي، أحمد محمّد، مرويات غزوة بدر، 259.

3-سورة التوبة، آية 32؛ الزمخشري، الكشاف، 2/ 265.

4-سورة الصف: آية 8؛ الزمخشري، الكشاف، 4/ 525.

5-الحارث بن نوفل: هو الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، صحابي أسلم مع أبيه وحسن إسلامه، استعمله النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على مكة، تزوج هند بنت أبي سفيان صحر بن حرب، يكنى بابنه عبد الله الذي أصطلح عليه أهل البصرة أيامَ ابن الزبير ولقب «ببة» أنتقل الحارث إلى البصرة أيام عبد الله بن عامر بن كريز، توفي آخر خلافة عثمان. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 42 – 43؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 4/ 229.

6-الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، 12/ 261.

7-سورة القصص: آية 57؛ الزمخشري، الكشاف 3/ 422.

آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، أي إنّ الله مكنكم طيلة تلك السنوات في هذه الأرض ويجعلها حرماً تتهافت إليه القلوب ويؤتي إليه الثمرات من مختلف بقاع العالم، فهو قادرٌ أن يحفظكم من هجوم الجاهليين والمشركين الوثنيين من بعد إيمانكم وإسلامكم فلا تبرروا عدم قبولكم الإسلام بخوفكم من هجوم العرب عليكم. ولحرمة مكة قال رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم): ((إن إبراهيم عليه السلام حرّم مكة))[2]، وفي رواية أنّ الله حرّم مكة وحكم بتحريمها، وإبراهيم أظهر حرمتها إلى الناس ودعا لأهلها بالحرمة[3] كما جاء في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**[4]، وكذلك جاء في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾**[5]، إن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قال في خطبته يوم الفتح: ((إن مكة حرام حرّمها الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض لم تحل لأحد قبلي ولا لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار ثم هي حرام إلى يوم القيامة))[6].

وأخيراً يشكك وات في المعارضة القرشية ضد المسلمين ويصورها بالاعتدال فيقول: ((إنّ المعارضة كانت أكثر اعتدالاً مما يشاع))[7].

في واقع الأمر لم يكن وات منصفاً للمسلمين الأوائل بما عانوه من أنواع العذاب وخصوصاً المستضعفين منهم فقد ذاقوا سوء العقاب من سادتهم، وعصمهم الله جل جلاله من الفتنة. ولم تقتصر المعارضة على هؤلاء فقط، بل طالت النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لكن ليس على يد زعماء المشركين؛ كونه يتمتع بحماية عمّيهِ أبي طالب والحمزة عليهما السلام، بل كان بتحريض زعماء المشركين للأطفال برمي النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالحجارة ويحثون عليه التراب، وأخبر رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) الإمام علي عليه السلام

1-سورة القصص: آية 57؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 3/ 389.

2- ابن حنبل، المسند، 4/ 141، ابن أنس، موطأ، 2، 889.

3-الصنعاني، سبل السلام، 2/ 197.

4-سورة البقرة: آية 126؛ ابن الجوزي، زاد المسير،1/ 110 - 111.

5-سورة ابراهيم: آية 35؛ السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 7/ 111.

6-النسائي، سنن النسائي، 5/ 211؛ السرخسي، المبسوط، 2/ 167.

7-محمّد في مكة، 268.

رغم صغر سنه بذلك، وحين تعرض الصبيان لرسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كعادتهم، حمل عليهم أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يقضمهم في وجوههم وآنوفهم وآذانهم، فيرجع الصبيان باكين إلى ساداتهم ويقولون: ((قضمنا علي! قضمنا علي فسمي بسبب ذلك القضيم))[1]. ونلاحظ أن أبا طالب وابنه علي عليه السلام كانا يبذلان قصار جهدهما في حماية النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) حتى يتمكن من نشر دعوة الدين الإسلامي الجديد.

ويرى جعفر مرتضى العاملي[2] أن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) شكى ما يلقاه من صبيان المشركين إلى علي عليه السلام، لا إلى أبي طالب، ولا إلى حمزة، ربما لأنه (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لا يريد أن يدخل عليهما أي قدرٍ من الأذى النفسي في أمر ليس باستطاعتهما مواجهته بصورةٍ مباشرة، فضلاً عن ذلك أنّ من المتوقع في هذه الحال لجوء أبي طالب إلى الآباء لمنع الأبناء من أذى النبي ﷺ وهو ما قد يُفسر على أنّه ضعفٌ وعجزٌ، وربما يدعوهم ذلك إلى إذكاء هذه الحالة ضد رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم). إذاً فأين الاعتدال في المعارضة التي يتكلم عنها وات وهم يعذبون المستضعفين، ولعدم قدرتهم على إيذاء النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) يحرضون الأطفال على إيذائه.

وبعد أنّ فشلت كلّ أساليب المشركين في معارضة الدعوة الإسلاميّة توجّهوا إلى الجانب الغيبي المتمثل بالحسد [العين] لقتل النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، فذهبوا إلى بني أسد إذ كانت العين عند بعض رجالهم فإذا جاء أحدهم ورأى قطيع الإبل أو الأغنام قال: لم أر اليوم كمثلها، هلك بعضها وأدخلها القدر وتغذى منها، فجاء المشركون بأحد العيّانين فقال: لم أرى مثله رجلاً، فعصمه الله جلّ جلاله من ذلك[3] فنزل قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾[4]. ثقافة العصر لم ترتق على أسسٍ غيبيّةٍ كالحسد رغم وجود اعتقادات بها، وعلى الرغم من أنها غير منتشرة ولا يمكن استبعادها فكانوا يعتقدون بوجود قوةٍ أو طاقات نفسيّةٍ قادرةٍ على أنْ تخترق جسد الإنسان، وهي الآن غير مستبعدةٍ في عصرنا الحديث من قبيل الطاقة الإيجابية والطاقة

1-القمي، تفسير القمي، 1/ 113 – 114؛ البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، 1/ 682؛ المجلسي، بحار الأنوار، 20/ 52.

2-ينظر: الصحيح في سيرة الإمام علي عليه السلام، 2/ 49.

3-الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، 9/ 431 - 432؛ البغوي، معالم التنزيل، 8/ 201؛ الزمخشري، الكشاف، 4/ 597.

4-سورة القلم: آية 51.

السلبية وتأثيرها على الشخص. فلما استنفذ المشركون جميع الوسائل ذهبوا إلى استخدام الطاقة النفسية لمواجهة الرسول محمّد ﷺ.

2 - الهجرة إلى الحبشة:

تمثل الهجرة إلى الحبشة علامةً مميزةً لجهود المسلمين الأوائل، وتحملهم العناء ومشقة السفر فراراً بالدين الإسلامي، وخوفاً من الفتنة، وخلاصاً من الاضطهاد، وتنفيذاً لأوامر النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم). إلاّ أن وات لا يعتبر المعارضة القريشية للمسلمين واضطهادهم من قبل المشركين السبب الوحيد الذي حثهم للهجرة، وذلك لبقاء البعض منهم في الحبشة بعد استقرار المسلمين في المدينة[1]. وأضاف وات سبباً آخر تمثل في أن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان مهتماً كثيراً بالتخفيف عن أتباعه الصعوبات المادية التي كانوا يواجهونها، فإذا بقي هؤلاء في مكة سيتعرضون إلى ضغط أسرهم فقد يرتدّون وينكرون عقيدة الإسلام[2].

لم يكن النبي محمّدﷺ يراوده الخوف على المسلمين المهاجرين إلى الحبشة أن يرتدوا عن الإسلام ويعتنقون المسيحية بتأثير من أهل الحبشة؛ وذلك لوجود ملك عادل لا يُظلم عنده أحد، كما أن المهاجرين متمسكون بعقيدتهم ورغم ذلك ارتد نفرٌ قليلٌ منهم.

ويحاول وات بطرحه هذا أن يضعف حجم دور المعارضة المكية ضد المسلمين الأوائل، غير أن الروايات الإسلاميّة تبين ما تعرّض له المستضعفون من المسلمين الأوائل من أشدّ أنواع العذاب، فوثبت كلّ قبيلةٍ على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بعمه أبي طالب[3]. وعظم البلاء على بلال بن رباح[4] وعمار بن ياسر[5] يعذبونهم بحرِّ الرمضاء، وقُتلت أم عمار سمية وهي أول شهيدة

1-محمّد في مكة، 239 - 240 ومحمّد النبي ورجل الدولة، 90.

2-محمّد في مكة، 240.

3-ابن إسحاق، السير والمغازي، 148؛ ابن هشام، السيرة، 1/ 296.

4-بلال بن رباح: الصحابي بلال بن رباح الحبشي مولى أبي بكر، يكنى أبو عمرو وأبو عبد الله، مؤذن رسول الله، أسلم في مكة وعُذب، اشتراه أبو بكر وأعتقه، شهد بدر وأحد، توفي بالطاعون في الشام سنة (20ه/ 640م). ينظر: ابن سعد، الطبقات، 7/ 270؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 213.

5-عمار بن ياسر: الصحابي عمار بن ياسر مولى بني مخزوم يكنى أبا اليقضان، من السابقين في الإسلام هو وأمه وأبوه، قال بحقه (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم): ((ويحك يا ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية)) صدق رسول الله فقد استشهد عمار بمعسكر الإمام عليَ عليه السلام في صفين (37هـ/ 711م). ينظر: ابن حنبل، مسند، 6/ 53؛ المقدمي، التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم، 28.

في الإسلام[1]، ومنهم خباب بن الأرت[2]، وصهيب بن سنان الرومي[3]، وعامر بن فهيرة[4]، ومنهم أبو فكيهة[5] وكثيرون غيرهم [6] نزلت بحقهم قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[7]. والآيات القرآنيّة أيضاً تقطع بأن الاضطهاد والفتنة في الدين كانت هي العامل الأساس في هجرة المسلمين إلى الحبشة، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾[8] وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[9] وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[10].

ويعطي وات أسباباً أُخرى للهجرة، منها أنهم ذهبوا من أجل العمل بالتجارة هناك، وكانت التجارة تمثّل الوظيفة أو العمل الاعتيادي للمكيين، وبالتالي وجدوا فرصاً في الحبشة يمكن استغلالها في التجارة. ومن ثم يصرح أن هذا السبب في حدّ ذاته غير كافٍ لتبرير هجرة المسلمين إلى الحبشة[11].

1-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 665؛ النجدي، محمّد عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول، 80 و 83.

2-خباب بن الأرت: الصحابي خباب بن الأرت بن جندلة بن زعد بن خزيمة التميمي، مولى بني زهرة شهد مع النبي (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) جميع المشاهد، توفي سنة (37هـ/ 657م). ينظر: ابن مندة، معرفة الصحابة، 486؛ ابن ماكولا، الإكمال في رفع الأرتياب.

3-صهيب بن سنان: الصحابي صهيب بن سنان بن مالك النمري، من أهل الموصل وسبي بغزو الروم ونشأ عندهم ألكن، هرم وقدم مكة وحالف عبد الله بن جدعان، أسلم في دار الأرقم بن الأرقم، له رواية توفي سنة (38هـ/ 658م). ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 170.

4-عامر بن فهيرة: الصحابي مولى أبو بكر، وكان يرعى له الغنم، دخل الإسلام قبل دار الأرقم بن الأرقم، هاجر مع النبي (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) إلى المدينة، شهد بدر وأحد، استشهد يوم بئر معونة (4هـ/ 625م). ابن أبي خيثمة، تاريخ ابن أبي خيثمة، 1/ 387.

5-أبو فكيهة: الصحابي أفلح الأزدي مولى صفوان بن أمية بن حرب، وقيل هو يسار، ابنته فكيهة زوجة حطاب بن الحارث القرشي، أسلم قديماً هاجر للحبشة، لم نعرف وفاته، ابن الأثير، أسد الغابة، 4/ 264 و 2/ 41.

6-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 662 – 667.

7-سورة النحل: آية 41. ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 20/ 209.

8-سورة البروج: آية 10؛ نزلت في أصحاب الأخدود، وأنها تشمل كل من فعل ذلك لأن الحكم عام واللفظ عام، ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 31/ 112 – 113.

9-سورة النحل: آية 110؛ ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 20/ 277.

10-سورة النحل: آية 41؛ ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 20/ 209.

11-محمّد في مكة، 241 ومحمّد النبي ورجل الدولة، 91.

وهنالك أسبابٌ تحث المسلمين إلى الهجرة، منها أن الإسلام لكلّ أبناء المعمورة انطلق من شبه الجزيرة العربية إلى جميع البلدان من المشرق والمغرب ولم يستثن بقعة في طريقه دون أن يضع فيها أسسه ومبادئه. ونَشر الإسلام يحتاج إلى قوّةٍ وحركة، وحركة المسلمين في البحر في هذه الفترة كانت ضعيفةً جداً، وأن معرفة التجارة والريح التي تُسيّر السفن لا تفي بالغرض المطلوب لنشر الإسلام الذي يحتاج على الأرض المطاردة والمقاطعة والقتال وغير ذلك.

نعم ربما أن السبب الاقتصادي لم يكن هو الآخر غائباً عن دوافع الهجرة إلى الحبشة، لأنّ قريش مارست ضغطاً اقتصادياً قوياً ضدّ من أسلم وبالتالي فإن الجوع قد يضعف همة المسلمين، وكانت الحبشة أحد الأقطار التي تتجه نحوها أنظار المكيين لوجود علاقات تجارية سابقاً بينهما، فلا غرابة أن يسعى الرسول محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) إلى إنقاذ أتباعه من الضغط الاقتصادي الذي فرضه عليهم تجار مكة، كما أورد الطبري[1] عن عروة بن الزبير حيث يقول: ((وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفقاً من الرزق ومتجراً حسناً، فأمرهم بها رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فذهب إليها عامتهم لما قُهروا بمكة وخاف عليهم الفتن)).

وبالتالي فإنّ هذه الفرضيات التي قدمها وات تكاد تكون مقبولةً لحدٍّ ما بأنّ الإسلام كان غضاً ولم يؤمر النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالخروج بالإسلام خارج مكة لعدم وجود حواضن لهُ. كما أن الحليف السياسي يبدو ضعيفاً لعدم الحاجة إليه في ذلك الوقت. كما أن العامل الاقتصادي إذا صح فهو لتحسين حالة المسلمين فقط؛ لأن الإسلام اعتمد على أموال أم المؤمنين السيدة خديجة عليها السلام للصمود بوجه الضغوط الاقتصادية التي مارستها قريش ضدهُ.

ثم يفترض وات أن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كان يخطط للحصول على المساعدة العسكرية من قبل الحبشة لتمكنهِ من السيطرة على مكة، كما من المحتمل أنّ جده قد فعل ذلك من قبل حيث طلب دعم أبرهة العسكري، أو جعل الحبشة قاعدة لمهاجمة التجارة المكية، أو كان يحاول خلق طريق بديل للتجارة من الجنوب إلى الإمبراطورية البيزنطية بعيداً عن متناول يد المكيين[2].

1-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 328؛ أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 3/ 866.

2-محمّد في مكة، 241.

وفي معرض حديث وات عن طلب الرسول ﷺ المساعدة العسكرية من قبل ملك الحبشة، ادعى أنّ جده عبد المطلب سبق وأن طلب المساعدة العسكرية من أبرهة؟!! ومعروف أن أبرهة جاء إلى مكة غازياً ينوي هدم الكعبة فكيف يطلب منه المساعدة؟

وهذه كذبةٌ شنيعةٌ، فالمسلمون في مكة قبل الهجرة إلى المدينة لم يؤذن لهم بالقتال فكيف يطلب صاحب الدعوة مساعدةً ليس هو في حاجة إليها؟!

ولو كان قد طلبها لتواترت الأخبار عنها، ولما توانى ملك الحبشة في إمداده بها كما لم يتوان في إكرام المهاجرين الذين وفدوا عليه[1].

وآخر احتمال يعده وات مهمّ، يتمثّل في الانقسام الحادّ في الرأي داخل الحركة الإسلاميّة بقيادة أبي بكر، الذي ينحدر من عشيرةٍ ضعيفةٍ وأصبح أهم شخصية في المسلمين بعد محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، أما عثمان بن مظعون[2] فهو من عشيرةٍ نافذةٍ لكن لم تكن له مكانة في المجتمع الإسلامي ولم يكن يطيق أبا بكر ولا يحب أن يتبعه سياسيّاً[3].

والحقيقة أنّ استنتاج وات في هذا المجال ضعيف؛ لأن من ضمن المهاجرين إلى الحبشة عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله[4] هما من أصحاب أبي بكر الذي جاء بهم إلى الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ليسلموا، والزبير بن العوام[5] ومصعب بن عمير[6] وعبد

1-مطعني، عبد العظيم، افتراءات المستشرقين على الإسلام، 76 – 78.

2-عثمان بن مضعون: الصحابي عثمان بن مضعون بن حبيب بن وهب القرشي الجمحي، أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة، ورجع وهاجر إلى المدينة اشتهر بنسكه بالعبادة، أول مهاجر توفي بالمدينة وأول من دفن بالبقيع، سنة (2هـ/ 623م). ينظر: أبو المحاسن، محمّد الإكمال في ذكر من له رواية، 290.

3-محمّد في مكة، 242 ومحمّد النبي ورجل الدولة، 91 - 92.

4-طلحة بن عبيد: الصحابي طلحة بن عبيد الله التيمي، يكنى أبو محمّد خرج مع عائشة في معركة الجمل، ولما رأى مروان بن الحكم انسحاب الجيش منكسرين، أخذ بثأر عثمان فضرب طلحة بسهم في ركبته وقال إلى أبان بن عثمان ((كفيتك أحد قتلة أبيك))، ودخل في دار لبني سعد بالبصرة وتوفي متأثراً بجراحه (36هـ/ 656م). ينظر: الزبيري، نسب قريش، 281؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 2/ 246.

5-الزبير بن العوام: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، أمه صفية بنت عبد المطلب، صحابي ولقب بحواري رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، اعتنق الإسلام بعد أبو بكر، خرج مع عائشة في معركة الجمل وقتل سنة (36هـ/ 656م). ينظر: الزبيري، نسب قريش، 3؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، 1/ 53.

6-مصعب بن عمير: الصحابي مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة، بعثه النبي إلى يثرب مع أهل العقبة يعلمهم القرآن ويصلي بهم، كان يحمل لواء النبي في بدر استشهد في أحد سنة (3هـ/ 624م). ينظر: الزبيري، نسب قريش، 19؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 55، 239.

الرحمن بن عوف[1][2]، فهنا يُستبعد أن الرسول سيرّ عثمان بن مظعون إلى الحبشة لوقوع الخلاف بل على العكس الأصحاب هاجروا[3]. وكان لا بد للرسـول الكريم (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من معالجة هذا الأمر، فانتخب من الصحابة المتكلم والعارف بأحوال الحبشة والتاجر للهجرة إلى الحبشة بعد أن زودهم بالمعلومات والرسائل والإشادة بهم والنصح والدعاء لهم، فشجعهم بالخروج في الزمان والمكان المعينيين فأشار لهم بأن يتفرقوا بعد أن ابتلوا أو شطت بهم عشائرهم وأمرهم بالرحيل صوب الحبشة[4]، هذا لو علمنا أن طريق الهجرة ليس بالسهل، فالطريق من مكة إلى جدة بعيدة ومجهدة، ثم إنّ المهاجرين متوجهون إلى مكانٍ قد يكون غريباً عليهم، وفي البعثة هاجر معهم بعض النسوة ومنهن من أسقطت حملها في السفينة، كرقية بنت رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) زوج عثمان بن عفان[5]، كما تعرض آخرون إلى حوادث أخرى أثناء الهجرة، فقد لدغت حية الصحابي خالد بن حزام بن خويلد الأسدي ابن أخت أم المؤمنين خديجة عليها السلام[6].

كما أن أبا بكر في الهجرة الثانية خرج مهاجراً إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد[7] لقيه ابن الدغنة سيد القارة[8]، فقال: له أين تريد؟ فأجاب أخرجني قومي فأسيح في الأرض فأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: مثلك لا يخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على النوائب فارجع، فرجع أبو بكر بجوار ابن الدغنة

1-عبد الرحمن بن عوف: الصحابي عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، قبل الإسلام اسمه عبد عمرو وسماه النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عبد الرحمن، هاجر إلى الحبشة وثم إلى المدينة، وشهد بدر والمشاهد الأخرى مع النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ، وضعه عمر بن الخطاب في أصحاب الشورى السته، توفي سنة (32هـ/ 652م) وعمره خمسة وسبعين سنة. ينظر: الزبيري، نسب قريش، 265؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 203.

2-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 322 – 323.

3-العلي، صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب، 368.

4-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 117، الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 21/ 16.

5-المقدسي، البدء والتاريخ، 5/ 17.

6-البخاري، التاريخ الصغير، 1/ 102؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 2/ 432.

7-برك الغماد: هي في أقاص هجر [اليمن] وتقع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر. ينظر: البكري، عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، 1/ 243 – 244؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/ 399 – 400.

8-ابن الدغنة: هو الحارث بن يزيد، رئيس قبيلة القارة وهي قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يضرب بهم المثل بالرمي، ينظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 207؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، 1/ 115.

وأخبر مجلس قريش بمجاورة أبي بكر، وقبلوا الجوار بشرط أن يمارس أبو بكر عبادته في داره خشيةً على أولادهم ونسائهم من اعتناق الإسلام، امتثل أبو بكر بشرطهم ولزم داره[1].

هذه الرواية تبين حجم المعارضة الكبيرة التي نالت أبا بكر وليس فقط المستضعفين. أما دخوله بجوار ابن الدغنة مؤشراً على أن أسرة وعشيرة أبي بكر كانوا على ملّة الشرك فلم يعترضوا. وإن السبب الرئيس للهجرة هو الفرار بالدين الإسلامي من ظلم قريش، ولكي يتمتعوا بحرية ممارسة المعتقد، وكذلك حرص المشركين على منع المسلمين من ممارسة العبادة علناً وجعلها سراً خشية تسرب الإسلام إلى أبنائهم.

إذاً، كان الرسول الكريم (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) يشجع الصحابة على الهجرة ويحدّد من يهاجر، فأعطوا درساً عظيماً في الطاعة والإيثار والصبر والجهاد، هذا مع العلم أن الإسلام كان في أيامه الأولى.

ونلاحظ أن وات أعطى الأسباب التي دفعت المسلمين بالهجرة إلى الحبشة ثمّ قام بتضعيفها جميعاً، بهدف أن تكون جميع الأسباب مجتمعة ساهمت بالهجرة، من دون أن يجزم بواحد من الأسباب كي يبعد الشبهة عن عنف المعارضة التي تلقاها المسلمون الأوائل فهو يدافع عن افتراضه بهذه الطريقة.

وهناك سببٌ مهم للهجرة إلى الحبشة نلاحظ أن وات تجاهله وهو استبعاد أن يكون الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قد استهدف من حث أتباعه على الهجرة إلى الحبشة، الحصول على موطئ قدم هناك لنشر الدعوة الإسلاميّة فيها[2].

وهذا السبب قابل للطرح؛ لأن الحبشة تعتنق الديانة المسيحية فهم أقرب إلى الإسلام كونهم موحدين، والدين الإسلامي لم يقتصر على دعوة العرب فقط بل كانت الدعوة لجميع الناس.

يرجح وات أن الشروع بالهجرة إلى الحبشة حدث بعد إلغاء أو نسخ الآيات الشيطانية، وذلك حوالي السنة الخامسة من البعثة سنة 615م، نتيجة لما خلفته من وضع صعب في مكة؛ من أجل تفادي الاضطهاد، وكانت هجرة واحدة رجع بعضهم إلى مكة، ثم هاجروا مع

1-المقدسي، البدء والتاريخ ، 4/ 150 – 151؛ ابن مندة، المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة، 1/ 191 – 192؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، 1/ 318 – 319.

2-دروزة، محمّد عزة، سيرة الرسول، 1/ 278.

محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) إلى المدينة في عام (1ه/ 622م)، أما الآخرون فبقوا في الحبشة حتى (7ه/ 628م)[1].

لا يمكن قبول هذا النص؛ لأنّ الرواية الإسلاميّة تشير إلى عودة بعض المهاجرين إلى مكة عندما سمعوا بالهدنة بين قريش والنبي بحسب حادثة الغرانيق، ثم ما إنْ لبثوا فعادوا إلى الحبشة بعد تيقنهم من عدم صحة الخبر[2]. وهي أيضاً رواية ضعيفة فالمسافة بين مكة والحبشة بعيدة. كما أن الأخبار لا تصل بسهولة إلى المسلمين الذين اندمجوا في مجتمع الحبشة، وأخذوا يعملون في مختلف الأعمال.

أغلب المصادر الإسلاميّة تجمع على أن هناك هجرتين: فكانت أول هجرة في الإسلام، في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر، وركبوا سفينتين لتجار أحباش، فلم يدركوا منهم أحداً، وكان عليهم عثمان بن مظعون[3]، واستقر بهم المقام في بلاط النجاشي بمدينة كعبر عاصمة مملكة النجاشي أكسوم، ويذكر ابن هشام أنّ عددهم كان عشرة رجال[4]، في حين يرى آخرون أنهم كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة[5]، في حين ينفرد اليعقوبي[6] بعددهم فيقول كانوا اثني عشر رجلاً. ويتفق الجميع على خروجهم متسللين، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه. ومما تقدم نلحظ أن الهجرة تمت على خلاف رغبة قريش، لذا حاولوا تعقبهم ولم يفلحوا.

وهؤلاء المهاجرون عادوا إلى مكة عندما بلغهم دخول قريش في الإسلام في شهر شوال من السنة الخامسة للبعثة[7]. ونتيجة لما لاقوه من أذى عشائرهم، فأذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة مرة ثانية إذ بدأت الرحلة في شهر شوال في السنة الخامسة من البعثة [8]، وكان عدة

1-محمّد النبي ورجل الدولة، 88 – 90.

2-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 206.

3-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 344.

4-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 165؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 2/ 45.

5-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 203؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 1/ 546.

6-تاريخ اليعقوبي، 2/ 29.

7-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 206.

8-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 207؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 3/ 66.

من خرج في هذه الهجرة ثلاثة وثمانين رجلاً[1]، ومن النساء ست عشرة امرأة؛ إحدى عشرة امرأة قرشية وخمسة غرائب[2].

3 - المقاطعة:

هي واحدة من أساليب المعارضة القريشية للدعوة الإسلاميّة، بل هي أسوء الأساليب التي عمل بها المشركون كونها متمثلة بالحصار الاقتصادي والاجتماعي ضد بني هاشم والمطلب بكل الفئات العمرية، وبلغ ذروته وطول زمنه إذ بلغ ثلاث سنين عجاف.

وحاول وات تمرير المقاطعة بصورةٍ بسيطةٍ فقال: ((أنها ربما لم تكن صارمة بما فيه الكفاية طالما أن الكثير من العشائر المقاطعة كانوا مصاهرين بالفعل لبني هاشم))[3].

ويبدو أن وات لم يكن ملماً بما جرى في شِعب أبي طالب من جوعٍ وعطش ومرض قاسى منهُ المحاصرون في الشِّعب سيما بعد نفاد أموال خديجةعليها السلام، وحتى وإن بادرت بعض القبائل لإيصال الغذاء إلى الشِّعب إلا أنها لم تكن تكفي لمن عاش محاصراً في الشِعب[4].

وُيضّعف وات الجانب العقائدي المتمثل بحماية محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وفرارهم بالدين الجديد إلى شعب أبي طالب فقال: ((أن بسط الحماية على محمّد لم يكن هو السبب الوحيد للنزاع «المقاطعة»))[5].

لقد تيقن مشركي قريش أن الدعوة للإسلام تشكل خطراً حقيقياً عليهم، لذا حاولوا تقويض هذا الدين الجديد المتمثل بشخص الرسول الكريم محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، إذ حاكوا المؤامرات لقتله ابتداءً بمساومة أبي طالب ليتركه لهم ليقتلوه، ويعطوه بدلاً منه عمارة بن الوليد[6] يتخذه ولداً له بدلاً منه، لكن أبا طالب رفض فقال: ((ما أنصفتموني، تسألوني

1-ابن هشام،، السيرة النبوية، 2/ 323 – 330.

2-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 368 – 369.

3-محمّد في مكة، 251.

4-البيهقي، دلائل النبوة، 2/ 311 – 312.

5-محمّد في مكة، 251.

6-عمارة بن الوليد: عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي أخو خالد بن الوليد، يكنى أبو فايد، من افتك العرب قبل الإسلام رام الغدر بعمر بن الخطاب في رحلة لهُ إلى الشام، وفي الإسلام من أشد الأعداء للنبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، بعثته قريش إلى النجاشي ليرد المسلمين، وحدثت له قصة وفقد عقله وهام مع الوحوش ومات كافراً. يَنظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 48/ 220؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 5/ 216.

أن أدفع إليكم ابني لتقتلوه، وتدفعون إليّ ابنكم لأربيه لكم))[1]، وفي رواية أخرى بنفس المضمون فقال:))بئس ما سمتوموني أدفع إليكم ابن أخي لتقتلوه وآخذ ابنكم فأغذوه))[2]. وأنشد قائلاً[3]:

كذَبْتُـمْ وبيـتِ اللَّـهِ نَـتْرَكَ مكَّـةً ونظعَـنَ إلاَّ أمرُكُـم في بَلابـلِ

كَذَبْتُم وبيتِ اللَّهِ نُبَزى محمدا ولمّا نُطاعِنُ دونَهُ ونُناضِلِ

ونُسْـلِمَه حتى نُـصَرَّعَ حَوْلَـهُ ونَذْهُلَ عن أبنائِنا والحَلائلِ

وفي اليوم الثاني صعد سير الأحداث وحضر في أندية قريش يتوعدهم ويهددهم بالقتل لو خدشوا ظفراً لمحمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، ولهيبته وصرامة موقفه اعتذر الجميع من أبي طالب[4].

فبدأت المقاطعة في السنة السابعة للبعثة النبوية واستمرت حوالي ثلاث سنين[5]، وذلك بعد أن يئسوا عن مساومة أبي طالب وتمسكه بحماية النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عمدوا لإيذاء النبي ومحاولة قتله علانيةً لقمع الإسلام في مهده، فاشتد البلاء فانطلق أبو طالب مع قومه وقاموا بين أستار الكعبة يدعون الله ﷻ من ظلم قومهم فدعا ربه قائلاً: ((اللهم إن أبى قومنا إلا النصر علينا فعجل نصرنا وحل بينهم وبين قتل ابن أخي، ثم أقبل إلى جمع قريش وهم ينظرون إليه وإلى أصحابه فقال... ندعو برب هذا البيت على القاطع المنتهك للمحارم، والله لتنتهون عن الذين تريدون، أو لينزلـن الله بكم في قطيعتنـا بعض الذي تكرهـون فأجابوه أنكم يابني عبد المطلب لا صلح بيننا وبينكم، ولا رحم إلا على قتل هذا الصابىء محمّد...))[6].

لذا جمع أبو طالب بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدخلوا النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ

1- الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، 1/ 108؛ المجلسي، بحار الأنوار، 18/ 185.

2-البلاذري، أنساب الأشراف، 10/ 207؛ النجدي، مختصر السيرة، 94 – 95؛ أبو زهرة، خاتم النبيين (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، 1/ 374.

3-أبو طالب، ديوان أبو طالب، 60.

4-الواقدي، المغازي، 1/ 70؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 2/ 31.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 16؛ ابن حبيب، المحبر، 11.

6-ابن إسحاق، السيرة النبوية، 158.

وسلّم) شعبهم، فلما عرف المشركون أن القوم منعوا رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من الأذى عمدوا إلى محاصرتهم داخل شعب أبي طالب وكتبوا صحيفة المقاطعة[1]، واجتمع مشركي قريش في أنديتهم وتباحثوا أمرهم لمواجهة الدعوة الإسلاميّة وتمخض تآمرهم على قتل رسول الله ﷺ وإخراجهم من مكة إلى الشعب فقالوا: ((قد أفسد أبناءنا ونساءنا))[2].

وهناك سببٌ آخر للمقاطعة يتعلق بالمهاجرين إلى الحبشة وما حضوا به من إكرام النجاشي وترحيبه بهم بالمكوث معززين في بلاده، وفشل مبعوثي المشركين عمرو بن العاص[3] وعبد الله بن ربيعة[4] في إقناع النجاشي بإرجاع المهاجرين إلى ديارهم، ولذلك إزداد إيذاء المشركين للرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وأصحابه وحاصروهم في شعبهم[5]. حتى إنهم شعروا أن محمداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قد أفسد عليهم حلفاءهم خارج مكة، وأنه أصبح يشكل خطراً حقيقياً على مصالحهم وتجارتهم؛ لذا قرروا التخلص منه.

ولما علمت قريش بتحصين بني هاشم في الشعب، وأن أبا طالب كثّف الجهود لحراسة النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، وعيونه ساهرة عليه، وعجّزهم من الوصول إليه، عمدوا إلى فرض الحصار عليهم وقطع الميرة عنهم، فلم يسمح لأحدٍ من المحاصرين بالخروج إلا في المواسم، وعانوا الويل فكان يُسمع عويل الأطفال من شدة الجوع[6]. فبلغ منهم الجوع حداً حتى إنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر، ووصل بهم الأمر حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة[7].

1-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 350.

2-ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 165.

3-عمرو بن العاص: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم ابن سعد بن سهم، من دهاة العرب، موفد قريش للنجاشي كي يرد المسلمين وفشل بمسعاه، اعتنق الإسلام في الحبشة وجاء للنبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في المدينة قبل فتح مكة، قاد سرية ذات السلاسل، فتح مصر (20هـ/ 640م) وتولاها عزله عثمان ونزل فلسطين وكان يحرض الناس بالخروج على عثمان، أعطاه معاوية ولاية مصر طعمة كي يقاتل معه الإمام علي عليه السلام في صفين، خدع أبا موسى الأشعربي بالتحكيم، توفي سنة (52هـ/ 672م). ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، 2/ 351، 10/ 279.

4-عبد الله بن ربيعة: عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن الحارث بن مالك الثقفي، من مشركي مكة تزوج أم الحكم بنت أبو سفيان وأنجب منها عثمان بن عبد الله قتل كافراً يوم حنين، لم نجد له وفاة. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 6/ 55؛ الزبيري، نسب قريش، 363.

5-ابن إسحاق، السيرو المغازي، 213 - 214.

6-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 3؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 209؛ الأصفهاني، دلائل النبوة، 200.

7-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 377؛ السهيلي، الروض الانف، 3/ 126 - 127.

وألزمت قريش المشركين في شروط الصحيفة ألا يصاهروهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم. وسجلوا حلف التعاقد في صحيفة علقوها في جوف الكعبة، توثيقاً لحرمتها وتوكيداً على أنفسهم في إلتزامها[1].

ويتضح لنا من تعليق الوثيقة في الكعبة المشرفة ليطلع عليها كل من يزور البيت الحرام ليس من أهل مكة والحجاز فقط، بل كل من يقصد البيت، وهذا مؤشرٌ إيجابيٌّ على أنّ الدعوة الإسلاميّة أخذت بالتوسع، وأخذ يُعمل لهم الحساب ولا يتعامل معهم سراً بل هم كيانٌ متطورٌ.

أما عن دوافع إلغاء المقاطعة فيخمن وات بقوله: ((بمرور الوقت تحققوا من أن الحلف الكبير والمقاطعة قد دعما من موقف العشائر القوية التي هدفت إلى إحكام السيطرة الاحتكارية على تجارة مكة، وأن ذلك أدّى بالتالي إلى إضعاف العشائر الأخرى))[2].

يمكن القول: أنّ هذا النص بعيدٌ عن الحقيقة، فإذا كانت القبائل الكبيرة والمسيطرة على التجارة قد زادت قوتها وسيطرتها فهل ستنتظر إلى القبائل الصغيرة وما سيحدث لها، لا سيما أن ظروف القبائل كانت تشير بوضوح إلى سيطرة القبائل الكبيرة على أمور التجارة والسياسة.

ومن هذا يتضح لنا الجانب المادي في تفسير وات لحركة التاريخ، فجعل التجارة والقوة السياسية هي الدافع الحقيقي وراء إنهاء مأساة المقاطعة، وأسدل الستار على الجانب الغيبي المتمثل برعاية الله ﷻ للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ومن دخل معهُ الشِعب. وكذلك تجاهل صبر وعزيمة المسلمين وإرادة المؤمنين أقوى من بطش الطغاة.

لقد حبى الله رسوله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بكرامات ومعجزات أذهلت المشركين، وكانت صحيفة المقاطعة واحدة منهاً، إذ أرسل الله عليها دودة الأرضة فأكلت ما تآمر عليه المشركون من شروط المقاطعة ولم تُبقِ منها شيئاً سوى (باسمك اللهم) فأرسل الله جبرائيل عليه السلام فأخبر النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بذلك فأخبر عمه أبو طالب بما أوحى الله ﷻ إليه، وتكتم أبو طالب على الخبر وذهب إلى وجهاء قريش في أنديتهم، فأستبشروا بقدومه ظنوا أنه سيسلمهم محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، لكنه طلب منهم

1-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 379؛ الطبري، تاريخ الرسل الملوك، 2/ 225.

2-محمّد في مكة، 252.

جلب صحيفتهم ونشرها لأن ابن أخيه أخبره أن الله ﷻ لم يبقِ منها شيئاً سوى باسمك اللهم، فإن كان صادقاً فكفوا عن الأذى، وإن كان كاذباً سأسلمهُ إليكم، فوجدوا صدق قول الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)[1]، فاستبشر أبو طالب وتبرأ بعضهم من هذه الصحيفة وانتهت المقاطعة بإرادة الله[2].

مثل هذه الأسباب وغيرها المتعلقة بتدخل قوة الإرادة الإلهيّة، في نصر عبده ورسوله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وخذلان كيد المشركين في كسر أقوى حصار اقتصادي واجتماعي، حققت نصر الإسلام وأعطت دليلاً ماديّاً لمشركي قريش في أكل الأرضة للصحيفة التي بين أيديهم وتعاهدوا عليها بالظلم والعدوان، كذلك جاءت مؤيّدةً لنبوة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ونزول الوحي من الله، وهنا يحاول وات تغيبها كي يوهم القارئ أن محمداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لم يحضَ بتسديد ورعاية الله بل يعول على ذكر أسباب تدخل بعض الأفراد في كسر الحصار.

4 - الخروج إلى الطائف:

كان لرسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) صبرٌ جميلٌ في تحمل عام الحزن لفراق عمه المدافع والمحامي عنه أبي طالب، وزوجته المخلصة خديجة عليها السلام، وطمع فيه المشركون وهموا بقتله فعرض نفسه على قبائل العرب يسألهم أن يأووه ويمنعوه فراراً بدينه فيقول: ((لا أكره أحداً منكم، إنما أريد أن تمنعوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي، فلم يقبله أحد))[3].

ومن مفهوم الرسالة المحمدية أن الإسلام دينٌ عالميٌّ، وجه النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أنظاره صوب الطائف لتكون نقطة الانطلاق لنشر الإسلام خارج مكة وفي السنة الثانية عشرة للبعثة خرج إلى الطائف[4]، وذلك لأسباب أجاد وات في ذكرها، ومنها قربها من مكة أربعين ميلاً إلى الشرق، وسكانها كانوا متململين من السيطرة المكية، وكان عازماً في المضي قدماً في نشر رسالتة التي ابتدأها في مكة[5].

1-ابن شهر اشوب، مناقب آل ابي طالب، 1/ 59.

2-ابن اسحاق، السير والمغازي، 161؛ اليعقوبي، تاريخ، 2/ 31.

3-اليعقوبي، تاريخ، 2/ 24.

4-ابن حبيب، المحبر، 12؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 343.

5-محمّد النبي ورجل الدولة، 104 – 105.

وأما أهل الطائف فجلّهم من ثقيف وحمير وقوم من قريش، وفيها قبيلتان بارزتان هما بنو مالك وعلاقتهم بقبيلة هوازن، والأحلاف وعلاقتهم بأهل مكة، ولا توجد إشارة تفيد بأن النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قرر الهجرة لغرضٍ غير نشر الدعوة وتحصينها ومنعها، ولعلّ هذا السبب يشير إلى أن العلاقة بين مكة والطائف لم تكن على ما يرام، وأن أهل مكة كانوا يستغلون أهل الطائف، وأن لأهل مكة مصالح كبيرة في الطائف، إذ إنّ كثيراً من بساتينها كانت ملكاً لأهل مكة، ولبعضهم أموال وقروض تعطى بالربا الفاحش إلى قوم من ثقيف من بني ضمرة[1] وكانت أموال الربا عظيمة[2]، والحركة التجارية بينهما كانت كبيرة، فكان يريد أن يفصل بينهم، ويهدد تجارة المكيين مع اليمن كونها تقع على الطريق التجارية بينهما، ففاوض فيها النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) نفراً من سادة ثقيفٍ وأشرافهم، وهم أخوة كل من عبد ياليل، ومسعود، وحبيب، أولاد عمرو بن عمير، فلم يجد منهم القبول والترحاب، بل وبتأثير أهل مكة أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فاجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط ـ أي بستان ـ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، ومنع بنو ثقيف عنه من آمن به[3]، إلا أنّ محاولته كانت جادةً في إيجاد مكانٍ بديلٍ عن مكة لإقامة كيانٍ سياسيٍّ جديد.

وترتب على خروج النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) إلى الطائف لتبليغ الدعوة، فشل مساعيه في ذلك، فقد لقي معارضةً شديدةً من قبل سفهائهم وغلمانهم بتحريض سادتهم، فأصطفوا صفين وأخذوا يرمون رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وزيد بن حارثة[4] بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، فانسحب حتى دخل بساتين الطائف[5]، ثم أخذ يدعوا بدعائه المشهور: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناسِ...))[6].

1-بني ضمرة: من قبائل العرب ترجع إلى كنانة وهم من ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانى، ويعرفون بني الضِّمري، ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 1/ 465.

2-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 29؛ الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن، 3/ 70 الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1/ 199؛ السيوطي، الدر المنثور، 1/ 261.

3-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 344؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 2/ 290؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 16/ 211؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 2/ 0166

4-زيد بن حارثة: الصحابي زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، توفي أبوه وجاء به العرب وباع غلاماً في سوق عكاظ اشتراه حكيم بن حزام للسيدة خديجةعليها السلام بستمائة درهم، وهبته للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) وأعتقه وتنباه ابناً، يكنى بابنه أسامة، وأبلى بلاءً حسناً في الإسلام فاستشهد في معركة مؤتة سنة (8هـ/ 629م)، ينظر، الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش، 355، 367؛ البلاذري، أشراف الأنساب، 1/ 476.

5-ابن إسحاق، السير والمغازي، 118؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 237.

6-الطبراني، المعجم الكبير، 14/ 139؛ البيهقي، دلائل النبوة، 67؛ المقدسي، محمّد بن عبد الواحد، الأحاديث المختارة، 9/ 181.

ونستنتج من ذلك أن رحمة النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لم تنقطع حتى عن كفار قريش فعندما جاءه مَلكُ الجبال جبرائيل عليه السلام وطلب منه أن يطبق عليهم الأخشبين[1] رفض وقال (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كلمته المشهورة: ((بل أرجو أَنْ يخرج مِنْ أَصلابهم مَنْ يعبد اللهَ وحده لا يشرك به شيئاً))[2].

ويتحدث وات عن عودة النبي محمّد ﷺ من الطائف فقال: ((كان محمّد في ظل حماية الرجل الذي وافق على حمايته بعد عودته من الطائف وقصد [المطعم بن عدي[3]]))[4].

لقد أخذ وات الرواية من مصادر التاريخ الإسلامي[5] بدون النظر والتمحيص كون الرواية فيها تصغير لمكانة ودور بني هاشم فتبين ضعفهم بعد وفاة أبو طالب، فضلاً عن إساءتها لمقام النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) إذ تبينه بصورة الخائف، ولم يستطع دخول مكة ويطلب الجوار من اثنين ورفضا! وثم يطلب الجوار من مطعم بن عدي فيجيره!. لذا يبدو لنا الوضع في الرواية كون النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لا يحتاج للجوار كي يدخل مكة فهو ليس طريدَ مكة ولا خليع بني هاشم، بل هو خرج من مكة مصان الكرامة وبرغبته لنشر الرسالة السماوية فيستبعد دخوله بجوار المطعم بن عديّ[6].

التناقض واضح في الرواية كون النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) يطلب الجوار في دخول مكة لكي يبلغ رسالات ربه، والمطعم بن عدي يوافق على جواره، فكيف يصح ذلك وهو مات مشركاً عن عمر تسعة وتسعين سنة، وأخوه طعمة بن عدي قتل مشركاً في بدر،

1-الأخشبين: مثنى مفردها الأخشب، وهما جبلين يقعان في مكة الأول جبل أبي قبيس في جهة الجنوب الشرقي من مكة والثاني جبل الأحمر في جهة الشمال من مكة، والتسمية تطلق على كل جبل خشن غليظ الحجارة. ينظر: الأزهري تهذيب اللغة، 7/ 44؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، 1/ 383 – 384؛ الزبيدي، تاج العروس، 2/ 358.

2-الفاكهي، أخبار مكة، 4/ 258؛ البزار، مسند البزار، 18/ 141؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، 14/ 517.

3-المطعم بن عدي: هو المطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد المطلب القرشي، أدرك الإسلام ولم يسلم، توفي قبل معركة بدر بمكة سنة (2هـ/ 623م) عن عمر تسعة وتسعين سنة، أخوه طعيمة بن عدي قتل في بدر مشركاً، ويكنى بابنه جبير اعتنق الإسلام بعد فتح مكة وكان نساب قريش. ينظر: البلخي، قبول الأخبار ومعرفة الرجال، 1/ 136؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 1/ 115؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، 9/ 326.

4-محمّد النبي ورجل الدولة، 11.

5-ابن إسحاق، السير والمغازي، 1/ 381؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 212؛ ابن حبيب، المحبر، 11.

6-الشابندر، غالب، ليس من سيرة الرسول، 30.

وابنه جبير من مسلمي الفتح[1]، فهذه العائلة لم يصح إسلامها فكيف للنبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أن يسلم مصيره لمشركي مكة ويحتمي بجوارهم؟

زيادة على أنه قبل أشهر كان المطعم يحتج على أبي طالب لعدم تسليمه النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) للمشركين حتى يقتلوه ويأخذ بدله عمارة بن الوليد وتهدأ مكة من خطر الدين الجديد فقال: ((والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وشهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً))[2]، لكنّ أبا طالب رفض رأي المطعم وبيّن له حقيقة أمره بخذلان بني هاشم وموقفه المعادي للدعوة فقال: ((والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، فحقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم))[3]، وهنالك ما يبين حجم العداء لبني هاشم والدعوة الإسلاميّة من قبل أشخاص هم عمرو بن العاص والوليد بن المغيرة والمطعم بن عدي، ومن قبل بطون قريش بني عبد شمس وبني نوفل، وظهر ذلك في أبيات من الشعر قالها أبو طالب[4]:

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظي من حياطتكم بكر

من الخور حبحاب كثير رغاؤه ... يرش على الساقين من بوله قطر

أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر

أخص خصوصا عبد شمس ونوفلا ... هما نبذانا مثلما ينبذ الجمر

ومن هذه الأدلة التاريخيّة يتضح لنا بطلان صحة رواية دخول النبيﷺ إلى مكة بجوار المطعم بن عدي، لوجود العداء المحتدم بين البيتين، وللخلاف العقائدي بين الطرفين، فضلاً عن ذلك كون النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) برجاحة عقلة وحنكته وشجاعته لم يكن يوماً ذليلاً، فهو لم يهب شيئاً قط. وإن قبلنا صحة دخوله بجوار المطعم بن عدي إذاً أين كان عمه حمزة الذي شاع صيته بالشجاعة ودخل الإسلام بتحدي مجتمع مكة؟ فهو خير حامٍ وخير مجير كونه شهد بدراً وأحد؟ والمطعم مات كافراً. لعلّهم أرادوا وضع منقبة للكفار على النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)؟ ولبني عبد مناف على بني هاشم.

1-ابن الأثير، أسد الغابة، 2/ 67؛ البري، الجوهرة في نسب النبي، 1/ 32.

2-ابن إسحاق، السير والمغازي، 1/ 267؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 327؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، 1/ 153.

3-ابن إسحاق، السير والمغازي، 1/ 267؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 327؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 118.

4-ديوان أبو طالب، 36 – 37؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1/ 213.

لا شك أن هدف النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالخروج إلى الطائف ليس التوسع أو إيجاد موقع بديل، بل كان يسعى لنشر الدين الإسلامي وهداية الناس إلى الإيمان وإنقاذهم من الشرك والظلمة الحالكة التي عاشوا فيها، وتخليصهم من الرق والاستعباد إلى عبادة رب العالمين.

5 - بيعة العقبة:

لقد سعى النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) إلى نشر الدعوة الإسلاميّة خارج مكة، فبعد انتهاء موسم الحج ورجوع الحجيج إلى ديارهم حاول النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أن يعرض مبادئ الإسلام على مسامع ستة رجال من الخزرج[1] فأسلموا، فأخذ منهم ميثاق الايمان بالله ورسوله، وفي السنة الثانية عشر من البعثة سنة 621م جاؤوا ومعهم سبعة رجال آخرين ومن بينهم رجلين من الآوس والتقوا مع رسول الله ﷺ في موضع يدّعي العقبة[2] فآمنوا بالله وصدقوه وهم عُرفوا بأصحاب العقبة الأولى، وبعث معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويُعلّمهم الإسلام، ويفقههم في الدين[3]، كما أطلق عليها في ما بعد بيعة النساء[4]؛ لأن الرسول محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بايع على نفس هذه المبادئ نساء قريش حين أسلمن بعد فتح مكة سنة (8هـ/ 629)[5]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه البيعة في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[6]، وفي السنة الثالثة عشر من البعثة سنة 622م جاء ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتين، والتقوا مع رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في العقبة وكان معه عمه العباس بن عبد المطلب وعرفت بالعقبة

1-هم أسعد بن زرارة بن عدس، عوف ومعاذ أبنا الحارثة بن رفاعة، رافع بن مالك بن العجلان، عقبة بن عامر بن نابي، جابر بن عبد الله بن رئاب. ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 430 431؛ ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 107؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/ 689.

2-العقبة: هي مكان بين مكة ومنى، وتبعد عن مكة نحو ميلين، ينظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، 134؛ الأصطخري، المسالك والممالك، 17.

3- ابن هشام، السيرة النبوية 1/ 234؛ اليعقوبي، التاريخ، 25.

4-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 471.

5-ابن كثير، السيرة النبوية، 1/ 335؛ الشريف، مكة والمدينة، 279.

6-سورة الممتحنة: آية 12؛ ينظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 10/ 3350 – 3352.

الثانية، وتعهدوا بحماية الرسول عندما يصل إلى مدينتهم والدفاع عنه وأطلق عليها بيعة الحرب[1].

هذه الرواية التي تناولتها المصادر الإسلاميّة يوافقها وات باعتماده على رواية عروة بن الزبير[2]، إلا أنه يشكك في تعرض المسلمين للفتنة من قبل مشركي قريش بعد سماعهم ببيعة العقبة الثانية وأمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب، ويوجه نقداً ظاهريًّا للرواية من خلال سندها ((عروة بن الزبير ينتمي إلى أسرة الزبير التي كانت معادية لبني أمية، وأن تراث أسرته كان بالتالي يميل إلى المبالغة في الاضطهاد وتأثيره على مسير الأحداث؛ نظراً لأن بني أمية كانوا مشاركين وبعمق في المعارضة ضد محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، ومن هنا فإن الدوافع التي ذكرها عروة لا يمكن اعتبارها رواية متوازية))[3].

ويبدو أن وات قد أصاب كبد الحقيقة في وصفة لعائلة عروة بن الزبير المغالية في الاضطهاد عند حكمها لمكة والبصرة والكوفة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام حتى عام (73ه/ 692م)، والخلاف القائم بينهم وبين بني أمية هو صراع زعامة لا أكثر.

أما النقد الباطني لمتن الرواية يتمثل في الفتنة التي لحقت بالمسلمين والتي أنزل الله في صددها قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[4]. الآية تعود إلى حقبةٍ مدنيّةٍ متأخرة؛ وبالتالي فليس يصلح الاستشهاد بها هنا[5].

وللرد على شبهة المبالغة بالاضطهاد الذي تعرض له المسلمون، فمن نص بيعة العقبة الثانية لما تكلّم رسول الله مع الأنصار ((... أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسائكم وأبنائكم...))[6]، يتضح أن اضطهاد المسلمين والنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بلغ ذروته والبلاء أعظم، ما دفع الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أن يضع في أعناق الأنصار أمانة

1-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 441 - 442؛ اليعقوبي، تاريخ، 25 - 26.

2-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 368 – 369.

3-محمّد في مكة، 285.

4-سورة سورة البقرة: آية 193.

5-محمّد في مكة، 285.

6-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 442.

التكفل بحمايته وأن يمنعوا عنه الخطر كما يمنعونه عن نسائهم وأبنائهم، كون الإنسان العربي المؤمن بالرسالة المحمدية محبٌّ للحرية ويمتشق سيف الغضب للذود عن النساء والأولاد.

ويؤكد ما ذهبنا إليه اندفاع الأنصار بعد بيعة العقبة الأولى إذ قدموا إلى مكة وهم يتواعدون المسير إلى الحج وموافاة رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)[1] لغرض دعوته للهجرة إلى مدينتهم وقالوا: ((حتى متى نترك رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) يطول ويطرد في جبال مكة ويخاف؟))[2]. وهذا النص يبين وصول أخبار ما كان يفعلة المشركون من اضطهاد للمسلمين عامةً وللرسول محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) خاصة إلى يثرب وهي تبعد حوالي 460 كم عن مكة، واندفاع الأنصار لحماية الإسلام ونشرِهِ عن عقيدة مهما كانت النتائج.

ولما أبرم النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بيعة العقبة الثانية مع الأوس والخزرج، لم يستطع أصحاب رسول الله ﷺ أن يقيموا في مكة من شدّة إيذاء المشركين لهم، ومخافة الفتنة في الدين[3]. روي عن السيدة عائشة أنها قالت: لما اشتد البلاء على المسلمين من المشركين في مكة شكوا إلى رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ثم استأذنوه في الهجرة، فقال: ((قد رأيت دار هجرتكم، أُريت سبخةً ذات نخلٍ بين لابتين وهما الحرتان))[4]، ثم مكث بعد ذلك أياماً وخرج إلى أصحابه وهو مسرور فقال: ((لقد أخبرت بدار هجرتكم، ألا وهي يثرب، فمن أراد منكم فليخرج))[5]. هذا يبين أن موضوع الهجرة إلى المدينة لم يكن أمراً عفويّاً وارتجاليّاً من رسول الله ﷺ أو مغامرة بأصحابه كي يخلصهم من أذى المشركين، بل كانت نابعةً عن دراية وإيحاء، وتسديد من قبل الله ﷻ. كذلك التحضيرات التي قام بها النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) قبل الهجرة من عقد بيعة العقبة الأولى الصغرى وبيعة العقبة الثانية الكبرى لذا أصبح النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) والمسلمون يشعرون بأن قوّةً جديدةً تقف إلى جانبهم متمثلةً بمسلمي الأوس والخزرج، وهنالك أرض طيبة تتهيّؤ لاستقبالهم.

لقد أثار وات الشكوك حول اصطحاب النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) عمه

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 221.

2-ابن كثير، السيرة النبوية، 1/ 334.

3-السلمي، محمّد صامل، صَحِيحُ الأثَر وجَمَيلُ العبر من سيرة خير البشر 155 ،ﷺ.

4-ابن حنبل، مسند أحمد، 42/ 419؛ البيهقي، السنن الكبرى، 9/ 17.

5-ابن حنبل، المسند، 42/ 419؛ البيهقي، السنن الكبرى، 9 /17.

العباس بن عبد المطلب معه إلى بيعة العقبة الثانية فقال: ((وربما كانت الإشارة إلى موقف العباس عم النبي إشارة يمكننا رفضها؛ باعتبارها وضعت بعد ذلك لشجب المعاملة السيئة التي لاقاها الرسول من بني هاشم في هذا الوقت... فإن هذا القول غير صحيح، ...أن حكاية زيارة العباس للعقبة ماهي إلاّ مجرد اختراع – تلفيق – صرف من وضع أبواق الدعاية العباسية))[1].

نعم لقد أجاد وات في شكه وأصاب الحقيقة، وعلّلها بأنّ بعد رجوع النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من الطائف دخل مكة في جوار زعيم عشيرة نوفل، فمن المؤكد ظل تحت حماية بني نوفل لا تحت حماية عشيرته[2].

وهنالك سببٌ آخر أغفلهُ وات يتعلق بالجانب العقائدي، إذ بقي العباس بن عبد المطلب على دين قومه أهل مكة، بل بالغ أكثر عندما خرج ضد الرسول محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في معركة بدر الكبرى (2هـ/ 623)، ووقع بالأسر وشُدّ وثاقه مع الأسرى وبدأ يتألم ويأن تلك الليلة وهذا ما أرق النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ولم ينم ليلته فسأله أصحابه ما أسهرك يا رسول الله؟ قال: ((لقد أسهرني أنين عمي العباس في القيد))[3]، لذا أرخي وثاقه بعد أن أمرهم الرسول ﷺ بذلك مع جميع الأسرى، ولما ألقت الحرب أوزارها فدي العباس نفسه بفداء عشرين أوقية من الذهب[4]، وقيل سبعين أوقية ذهب ثمن فداءه[5].

لقد حاول كتاب السيرة والتاريخ رفع الحرج عن العباس بن عبد المطلب، لاشتراكه مع جيش المشركين ضد رسول الله ووقوعه في الأسر وفداء نفسه، ونزلت فيها قوله تعالى: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**﴾[6]، ومنهم الواقدي[7] لقد ذكر المعركة بكل تفاصيلها أغفل أو تغافل موقف العباس

1-محمّد في مكة، 286 – 287.

2-محمّد في مكة، 287.

3-اليعقوبي، تاريخ، 2/ 30؛ الطبري، تاريخ، 2/ 463؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 2/ 128.

4-الطبري، تاريخ، 2/ 463؛ الحلبي، السيرة النبوية، 2/ 199.

5-اليعقوبي، تاريخ، 2/ 30.

6-سورة الحج: آية 19؛ ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 2/ 453؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 7/ 13 - 14.

7-المغازي، 70.

ووقوعه في الأسر، واختصر بذكر حمزة وهو أسن من النبي بأربع سنين والعباس أسن من النبي بثلاث سنين، أما ابن هشام[1] ينقل عن ابن إسحاق روايةَ اعتناق العباس وزوجته أم الفضل الإسلام، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه.

ولو قبلنا صحة هذه الرواية، ورواية اصطحاب العباس مع النبي في بيعة العقبة الثانية، لكان الأجدر برسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) أن يفك رقبة العباس من الأسر من دون فداء ويصرح للمسلمين بإسلام عمه العباس وإنه كان يعمل بالتقية، بل نلاحظ أن العباس يقول لرسول الله ((تركتني فقير قريش))[2]، ويضيف عليها الطبري في قول العباس ((يا رسول الله إني كنت مسلماً، وقال رسول الله أعلم بإسلامك))[3] في هذه الرواية الموضوعة حاول المؤرخ إزالة الحرج عن العباس، لكن أساء فيها إلى رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فهو لا تأخذه بالله لومة لائم، فكيف يأخذ فداءً من مسلم كتم إسلامه وهو عمّه؟

ومرة أخرى يدلو ابن هشام[4] بدلوه ليرفع الحرج عن العباس فيصور لنا استثناءً من الرسول محمّد ﷺ عن قتل فئة في المعركة فيقول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم): ((إنيّ عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد خرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري العاص بن هشام بن الحارث الأسدي فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً)).

أجمعت المصادر الإسلاميّة أن العباس بن عبد المطلب يعتبر من الأشراف المطعمين لحرب بدر[5]، إلاّ أن ابن حبيب[6] يرفع الحرج عن العباس ويضيف أن قريش كفأت قدور العباس ولم تطعمها لميله إلى رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم).

اِمتازت معركة بدر بخصوصيّةٍ تمثلت في قلة عدد المسلمين مقابل زيادة عدد المشركين، وهي أول مواجهةٍ حقيقيّةٍ بين الإسلام والشرك، وتدخلت إرادة الله لنصر المسلمين، فيُستبعد

1-السيرة النبوية، 1/ 646.

2-الحلبي، السير النبوية، 2/ 199.

3-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 463.

4-السيرة النبوية، 1/ 629.

5-ابن هشام، السيرة، 2/ 223؛ الخركوشي، شرف المصطفى، 3/ 12؛ السهيلي، الروض الأنف، 5/ 145.

6-المحبر، 161.

أن يُصدر رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) استثناءً، والذي يثير الشك أن الاستثناء كان عاماً إلى بني هاشم والجميع يعرف العباس من سراة القوم وعم النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، فلماذا له استثناء خاص بالاسم. بل كان له دورٌ فاعلٌ في المعركة فقد نحر يوم الواقعة عشرة جزر فأكفئت القدور[1].

أمّا اليعقوبي فهو الآخر دافع عن العباس بأنّه كان مستكرهاً كالأسير، وأسلم ورجع إلى مكة يكتم إسلامه. والحقيقة أن العباس اعتنق الإسلام يوم فتح مكة مع أبي سفيان، وعد من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم[2].

ويتّضح لنا هذا التزوير في الحقائق التاريخية بدافع الخوف من السلطة؛ لأن التدوين التاريخي بدأ في العصر العباسي، والعباس بن عبد المطلب الجد الأعلى للأسرة العباسية، أو بدافع التقرب للسلطة للحصول على المال أو الحظوة فغُيِّبت حقائق كثيرة وبدلت أخرى.

وعن حادثة بيعة العقبة وقبول أهل يثرب بدعوة الإسلام قد حاول وات بث سموم فكره بالإساءة لشخص النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فيقول: ((كما أن الحقيقة التي مؤداها أن محمّداً ﷺ لم يكن شخصاً مرغوباً فيه في مكة))[3].

وهدف وات بهذه الشبهة تصغير جهود النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في عرض الدين الإسلامي على القبائل خارج مكة وصولاً إلى يثرب. بافترائه أن النبي محمّد ﷺ شخص غير مرغوب فيه داخل مجتمع مكة، لذا سعى بالحصول على مكان خارج مكة كي يلاقي به القبول من أهلها. إلا أنّ عدم القبول ليس لشخص النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وإنما عدم قبول المجتمع المكي لتعاليم الدين الجديد فقط، والخلاف في الجانب الديني والعقائدي، فضلاً على ذلك أن النبي محمّد ﷺ لم يكن يسعى لنشر الإسلام في مكة فقط بل في جميع المدن.

كيف لم يكن النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) مقبولاً في مكة وهو الذي كان يعرف بالصادق الأمين، حتى إنّه في حادثة بناء الكعبة قد اختلفت قريش في ما بينها في

1-اليعقوبي، التاريخ، 1/ 30.

2-اليعقوبي، التاريخ، 1/ 30.

3-محمّد في مكة، 288.

وضع الحجر الأسود، بعد أن وصل الأمر بهم أن يقتتلوا فقالوا: ((حكموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفج، قالوا: رضينا وسلمنا، فطلع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: هذا الأمين قد رضينا به، فحكّموه))[1].

كذلك روي أن رجلاً من إِرَاش أو إِرَشَةٌ[2] كان يطلب من أبي جهل مالاً ثمن إبل ابتاعها له في مكّة، وكان أبو جهل يسوّف في سداده، فجاء إلى نادي قريش وطلب من سادات مكة أن يقوم رجل منهم ليكلم أبا جهل فرفضوا! ثم أشاروا عليه أن يذهب إلى محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وهم يستهزؤون به لما يعلمون ما بين النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وأبو جهل من عداوة، فلما ذهب ذلك الرجل إلى النبي محمّد ﷺ وطلب منه ذلك وافق على طلبه وذهب معه، فجعل الله ﷻ الذلة في وجه الأول عندما يرى وجه رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) حتى مكن الإِراشي من استحصال دينه فقال: ((جزاه اللَّه خيرا، فقد واللَّهِ أخذ لي حقي))[3]. وهذا إن دل على شيءٍ فإنّه يدل على عظمة رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بين قومه، حيث كان مشهوراً بالصدق والأمانة والعفة.

أما عن تقبل الأنصار لعقيدة الدين الإسلامي ودعوتهم للنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بالمجيء إلى مدينتهم، وقف وات كسائر المستشرقين إلى التشكيك بذلك القبول فيقول: ((إن الأنصار نصروا محمداً (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) المسيح المنتظر الذي كان يتوقع اليهود مجيئه، فإنّ هذه الفكرة عن المسيح هي التي ألفت بين الأنصار))[4].

نستنتج من طرح وات هذا عدة مضامين أُخر، منها على سبيل المثال:

1 – جعل نسبة الدين الإسلامي إلى الديانة اليهوديّة.

2 – الإشارة إلى المنتظر لا يمثل المسلمين بل من الديانة المسيحية.

3 - التشكيك في قدرة الرسول محمّد ﷺ وضعف مكانته.

1-الأزرقي، أخبار مكة، 1/ 129؛ أبن الضياء، محمّد بن أحمد، تاريخ مكة المشرفة، 98.

2-إراش: ينتسبون إلى إراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك ابن زيد بن كهلان بن سبأ، أخي الأزد بن الغواث، من ولده أنمار بن إراش، من القبائل العربية اليمنية، فولد إراش بن عمرو: أنمار بن إراش، ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 343؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 1/ 387

3-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 27؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 128.

4-محمّد في مكة، 282.

وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّه يدل على أنّ المستشرق وات كان يريد أن يقلل من أهمية النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) في اِحتواء مجتمع الأنصار وصياغته ليكون قوةً ضاربةً بيد الرسول محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) لمواجهة أعداء الدين الإسلامي من جانب، وأنه سيكون الأداة الطيعة والمخلصة لنشر مبادئ العقيدة خارج شبه الجزيرة العربية وإلى العالم أجمع.

وهذه شبهةٌ كبيرةٌ قللت من دور الأنصار وإيمانهم العظيم، وما قدموه في سبيل نصرة الدعوة حتى امتدحهم رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) فقال: ((اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار))[1]، وفي حديث آخر قال رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم): ((لَوْ سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، الأنصار كرشي، وعيبتي، فأحسنوا إلى مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم))[2].

ويبدو لنا جلياً أن السبب الحقيقي لقبول أهل يثرب فكرة الدين الإسلامي ناتجٌ من طبيعة معتقدهم بإله خفي هو الله ﷻ، فلما دعاهم النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) إلى الإسلام وتوحيد الله ﷻ لم تكن الفكرة غائبةً عن أذهانهم، فهم على العكس من أهل مكة الذين يؤمنون بدين الظواهر وعبادة الأوثان فلاقوا صعوبة في تقبل فكرة الإله الخفي المتجسد بذات الله (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) فكانوا أكثر عناداً من أهل يثرب.

لقد عانى مجتمع يثرب من الانقسام نتيجة الحرب الدائرة بين الأوس والخزرج وكانت آخرها معركة بعاث سنة 617م[3]، إذ استطاع النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) أن يكسب الناس بنفوذه الروحي وبأخلاقه العالية وبحسن سياسته، بأن ألقوا مقاليد أمورهم إليه، وأذعنوا لأوامره سواءً أكان ذلك أيام السلم، أم في زمن الحرب[4]، وهنا تتدخل عناية الله ﷻ حيث أنزل الرحمة والسكينة في قلوب الأوس والخزرج، وألف بين قلوبهم لما خصهم الله ﷻ به من الدور الجديد لنصرة الإسلام وعز نبوة محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) وصور ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[5].

1-ابن راشد، جامع معمر، 11/ 62؛ أبو داود، مسند أبي داود، 2/ 64؛ أبن ماجه، سنن ابن ماجة، 1/ 114.

2-أبو داود، مسند أبي داود، 4/ 227؛ الحميدي، مسند الحميدي، 2/ 309.

3-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 170؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، 1/ 177؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 3/ 181.

4-بيهم، فلسفة تاريخ محمّد، 194.

5-سورة الأنفال: آية 63.

الفصل الرابع

دعوة النبي محمّد ﷺ في المدينة بجوانبها السياسيّة والعسكريّة

الفصل الرابع:

دعوة النبي محمّدﷺ في المدينة بجوانبها السياسيّة والعسكريّة

المبحث الأول: الهجرة إلى يثرب

المبحث الثاني: التنظيمات السياسيّة والعسكريّة في المدينة

1 – بناء المسجد

2 – وثيقة المدينة (الدستور)

المبحث الثالث: علاقة النبي محمّدﷺ بيهود المدينة وموقفهم من دعوته

المبحث الرابع: علاقة النبي محمّدﷺ بالقبائل العربيّة والوفود

1 – التوجّه نحو شمال شبه الجزيرة العربيّة

2 – رُسل النبي محمّد ﷺ إلى الملوك

3 – وفود القبائل العربية إلى النبي محمّدﷺ

المبحث الخامس: غزوات النبي محمّدﷺ

بدأت المرحلة الثانية من الدعوة الإسلاميّة بوصول النبي محمّد ﷺ إلى يثرب، والتي أخذت اسمها الجديد مدينة رسول الله ﷺ وعرفت بالمدينة المنورة، وطيبة، وطابة؛ لأنها طابت بقدوم رسول الله ﷺ إليها. أما عن تغيّر اسمها فجاء موافقاً للمرحلة الجديدة، في نهاية مدة الشرك والكفر وبداية مرحلة الإيمان والتوحيد، فضلاً عن أن اسم يثرب يدل على الحزن والتثريب، ولأجل أن يعلم اليهود أنها ستصبح موطناً للمسلمين الذين ينتمون إلى أمة العرب تحت راية النبي محمّد ﷺ. تبلورت في يثرب ملامح الدولة العربية الإسلاميّة بقيادة الرسول محمّد ﷺ، إذ شكل فيها المسلمون أمّةً مستقلّةً منها بدأت تتّسع الرقعة الجغرافيّة للإسلام، لينتشر في شبه الجزيرة العربيّة ويمتدّ من بلاد الشام شمالاً إلى اليمن جنوباً إلى أطراف الخليج العربي. فارتفع عدد المسلمين إلى أن تشكلّت الدولة الإسلاميّة بقيادة النبي محمّد صلّى الله عليه وآله.

1 المبحث الأول

الهجرة إلى يثرب

تمثل الهجرة عاملاً مشتركاً بين جميع الأنبياء، ولكونها كذلك فلا غرابة أن هاجرَ النبي محمّدﷺ من بلاد منعه أهلها أن يتمم ما أراده الله[1]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿... **وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً...**﴾[2].

كانت هجرة معظم الأنبياء إلى بيت المقدس، وخص الله ﷻ نبينا محمّدﷺ بالهجرة (التي هي موضوع بحثنا) إلى يثرب التي عرفت في ما بعد بالمدينة المنورة، فهو النبي الوحيد الذي سكنها[3]. وكان النبيﷺ عارفاً بفضل مكة، فلما خرج منها خاطبها بألم فقال: ((وَاللهِ إنكِ لخير أرض الله، وأحب أرض اللهِ إلى اللهِ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت))[4]، وهذا يؤكد أن الهجرة كانت قسراً وعلى مضض.

لقد أبدى وات رأيه بخصوص هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة فقال: ((هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة بهدوء، ربما لم يكن المكيون الوثنيون على دراية بما يحدث من ورائهم، ولم يُبدوا أي محاولة للتدخل في مغادرة المسلمين. وبإرسال النبي محمّدﷺ أصحابه قَبْله إلى المدينة ضمن أنه لن يلاقيَ فشلاً آخر كالذي لاقاه في الطائف، أما محمّد سيبقى في مكة إلى آخر لحظةٍ ممكنةٍ ليشجع المترددين من المسلمين))[5].

ونستشف من رأي وات: أن النبي محمّدﷺ كان يُخطط رسميّاً للهجرة، بإخراج أصحابه بهدوء، وضمن نجاح عمله مستفيداً من إخفاقه بالطائف، وهذا يدل على حسن ترتيب النبي محمّدﷺ بحساب خطواته وحرصه المتزايد على أرواح أتباعه وسلامة وصولهم، إلا أنه تجاهل السبب المباشر وراء بقاء النبي محمّدﷺ في مكة، وعده ليشجع المترددين من المسلمين.

1- الخضري، محمد، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، 63.

2- سورة النساء: آية 100.

3- الدمشقي، ابن ناصر الدين، جامع الآثار في السير ، 1633.

4- ابن ماجة، سنن، 4/ 289؛ الهيثمي، موارد الظمآن، 3/ 350.

5- محمّد النبي ورجل لدولة، 116 – 117.

لم يكن سبب تأخر النبي محمّد ﷺ في مكة بإرادته فهو ينتظر الإذن بالهجرة من الله ﷻ إذ قال النبي ﷺ: ((إن اللَّهَ عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها. فاخرجوا أرسالاً [جماعة في أثر جماعة]، وأقام رسول اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه [وآله] وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج مِنْ مكة، والهجرة إلى المدينة))[1]، وليس هذا فقط بل كان في ذمته أموالاً لبعض الناس يريد إيفاءها.

وما يشير إلى ذلك رؤيا النبي محمّد ﷺ الصادقة فهي وحي من الله ﷻ إذ أخبر أصحابه أنه يرى دارَ الهجرة إلى أرضٍ فيها نخيل وتحققت الرؤيا فكانت الهجرة إلى يثرب[2].

وقد ذكر وات من بقي بمكة فقال: ((ولم يبق في مكة غير النبي محمّد ﷺ وأبي بكر وعلي عليه السلام وهم قادرون ومستعدون للهجرة))[3].

كما أرجع وات سبب تأخر هجرة النبي محمّد ﷺ إلى المدينة لأسباب منها حسب قوله: ((لانتظاره حتى وصول غالبية أتباعه إلى المدينة، إلى رغبته في التأكد من أن المترددين لم يمنعهم ترددهم من إكمال الشوط، وليتأكد من أنه سيكون في موقف قوي ومستقل وألا يكتفي بالاعتماد على مسلمي المدينة وحدهم عندما يصل إليها))[4].

ولما علمت قريش بمخطط النبي محمّد ﷺ في الهجرة إلى يثرب تآمروا لاغتياله فاجتمعوا ورشحوا من كلّ بطن من بطون القبائل رجلاً واحداً لقتل النبي ﷺ؛ حيث كان الهدف من تعدد البطون واختلافها ضياع دمه بين القبائل؛ ولكي يصعب على قبيلته الأخذ بثأره، ومن ثم قبول الدية التي سوف يتقاسم بها جميع أهل مكة[5]. وهذه المؤامرة التي دبرت في ليل دليلٌ على عظمة وهيبة النبي محمّد ﷺ من جانب، وضعف ومهانة المشركين من جانب آخر، وذلك بأن يجتمع عددٌ كثيرٌ منهم ويتحالفوا لقتل رجل واحد خفية وفي حالة نومه، ومثل هذا يحدث إلا أن يكون القاتل ضعيفاً جداً، والمقصود قتله عظيم الشأن مثل الملوك أو شجعان العرب[6].

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 468؛ البيهقي، دلائل النبوة، 2/ 459؛ السهيلي، الروض الأنف، 2/ 148.

2- البخاري، صحيح البخاري، 9/ 52؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 3/ 400.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 116.

4- ينظر: محمّد في مكة، 291.

5- اليعقوبي، تاريخ، 2/ 26.

6-ابن النفيس، الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، 175.

وهذه الرواية تتفق عليها جميع المصادر الإسلاميّة[1]، واعتمدها المستشرق توماس كارليل[2] عند كتابته سيرة النبي محمّدﷺ ويعتبرها مؤامرةً لقتل النبي محمّدﷺ، لكن وات يشكك في صحتها فيقول: ((رغم أننا نشكك قليلاً بهذه القصة إلا أنه يبدو واضحاً بالفعل بأن خطراً حقيقياً كان يحيط بمحمد، لكن ذلك كان في فترة ما بين خروجه من مكة...))[3].

اتخذ وات أسلوباً جديداً في التشكيك، فهو يؤيد المضمون العام للرواية المتمثل بالخطر الذي أحاط بالنبي محمّدﷺ، إلاّ أنه اِستبعد الخطر في مكة وجعله في طريق الهجرة فقط، ولربما كان السبب في اندفاعه أن يصوّر للقارئ بأن النبي محمّدﷺ إنسان عادي في قريش، ولم تكن المعارضة تروم القضاء عليه لأنه لا يشكل خطراً عليهم، وأن بني هاشم ضعفوا ولم يستطيعوا توفير الحماية إلى محمّدﷺ وتكفل في حمايته المطعم بن عدي وهو على ملة قومه المشركين، زيادة إلى ذلك أنه حاول أن يغيّب الدور البطولي للإمام علي عليه السلام الذي فدى بنفسه الطاهرة روح الرسول الأعظم محمّدﷺ ونام في فراشهﷺ تلك الليلة المحفوفة بالمخاطر.

ونلاحظ أن وات مضطربٌ في تحديد الخطر على النبي محمّدﷺ فأقره مرةً ونفاه في أخرى فهو رأى بأن محاولة اغتيال الرسولﷺ في مكة مستبعدة فقال: ((الذي يبدو أنه ليس من سبب يجعلنا ننكر عقد مثل هذا الاجتماع، أنّ الذين حضروه كما يقول ابن إسحاق: قد تحققوا أن محمداًﷺ كان يخطط لنشاطات معادية لهم، ومن ناحية أخرى، فإن توالي الأحداث وضح أنه لم يكن هناك محاولةٌ تتسم بالتصميم على قتل محمد، وعلى هذا فالاتفاق الذا اتفق عليه زعماء قريش في هذا الاجتماع كان أقل خطورة مما تؤكده المصادر، وعلى أي حال، فإن الخطر المحدق (الخطر وشيك الحدوث) ربما عجل برحيل محمّدﷺ (هجرته)، ومن الصعب أن نكون متأكدين من طبيعة هذا الخطر ومداه، فالرواية عن الهجرة بشكل عام تتسم بوجود كثير من الزخارف المقحمة، وحتى المراجع الأولى ربما لا تخلوا من الإضافات، ومن الممكن أن يكون محمّدﷺ - بعد الاجتماع الذا عقده زعماء قريش- قد تعرض للإزعاج والمضايقة في مكة))[4].

1-أبو نعيم الصبهاني، دلائل النبوة، 325؛ البيهقي، دلائل النبوة، 2/ 472 – 474؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 3/ 216.

2-الأبطال، 78.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 11.

4- محمّد في مكة، 291 – 292.

فهنا يؤيد وات عقد المشركين اجتماع دار الندوة، ويستبعد اتفاقهم على اغتيال النبي محمّد ﷺ، إذاً ما الضرورة التي دعتهم إلى عقد الاجتماع؟! فمن المعروف أن دار الندوة تعقد وتبرم فيها أمور السلم والحرب وهذا تناقض في رأي وات، ثم يضيف عليه تناقضاً آخر يعترف فيه بخطر كان يحيط بالنبي محمّد ﷺ ويستبعد الاغتيال، إذاً ما هو الخطر إذا لم يكن الاغتيال؟! وأخيراً يضعفها بقوله أن محمداً ﷺ تعرض للإزعاج والمضايقة بدون دليل ويطلقها جزافاً.

نعم كانت في بداية مرحلة الدعوة الإسلاميّة معارضةٌ من مشركي قريش لشخص النبي محمّد ﷺ، لا تتجاوز سوى الكلام والتهديد، كونهم يأملون إقناع النبي محمّد ﷺ على التخلي عن الدين الجديد، ولم يبادروا بقتله لوجود أعمامه أبو طالب وحمزة بن عبد المطلب عليهما السلام، ولما يئسوا من إقناعه اعتقدوا أنه ﷺ بعث لنشر دين جديد، لذا تجذر الصراع بين المسلمين والمشركين وأصبح صراع قيم ومبادئ، لأن الإسلام جاء بقيم تهدّد المشركين في الجانب السياسي بتأسيس دولة، وفي الجانب الاقتصادي بنظام الحلال والحرام، وفي الجانب الاجتماعي بإنقاذ الناس من براثن الظلم... لذا فمشروع الإسلام خطر على الظالمين ولا سيما بعد أن عرفوا بمخططات النبي محمّد ﷺ بتأسيس دولة، عقب بيعة العقبة الأولى وبعث معهم مصعب بن عمير؛ لهداية الناس إلى الإسلام في يثرب. بعد بيعة العقبة الثانية وبالتحديد قبل أيام من الهجرة، تيقظ مشركي مكة لمشروع هجرة النبي محمّد ﷺ وخطورته عليهم لذا سارعوا إلى أهل يثرب في محاولة إفشال مخطط الهجرة وقالو لهم: ((يا معشر الخزرج، إنا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه مِنْ بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه واللّهِ ما مِنْ حَيٍّ مِنَ العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم))[1].

وفي هـذه الأيـام الحرجـة تتدخـل العنايـة الإلهيّة كي تحفـظ النبي محمّـد ﷺ، وأنزل اللـه قولـه تعـالى ليخـبر النبي محمّـد ﷺ بتآمر كبار قريـش لقتلـه: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾**[2].

لم تكن هجرة النبي محمّد ﷺ برغبةٍ شخصيّةٍ، بل جاءت بإذنٍ من الله جل جلاله فأوحى له

1- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 365؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 3/ 38؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 3/ 279؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 3/ 200.

2- سورة الأنفال: آية 30؛ ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 4/ 346؛ البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 3/ 349.

جبرائيل بالخروج بعد وفاة أبي طالب وقال له: ((إنّ الله جَلَّ جَلَالُهُ يقرئك السلام، ويقول لك اخرج عن مكة فقد مات ناصرك))[1]، ولهذه الرواية أهميةٌ كبيرةٌ لأنها تبين مكانة ودور أبي طالب في الإسلام عامة وحياة النبي محمّدﷺ خاصة فيخبره الله جَلَّ جَلَالُهُ بالخروج من مكة بعد وفاة أبي طالب، فيكون قدرهُ بحجم الأنصار كافة في حماية النبيﷺ خاصه والإسلام عامة.

إنّ هجرة النبي محمّدﷺ من مكة إلى يثرب دليلٌ على عظمتها وعلى هداية الله جَلَّ جَلَالُهُ إليها، فلا يقبل من عاقل أن يخرج باختياره من أفضل بقاع الأرض مكة التي كرمها الله جَلَّ جَلَالُهُ ويذهب إلى المدينة المنورة وهي دون ذلك، فلا بد أن يكون خروجه اضطرارياً ولا يمكن أنْ يكون على سبيل النفي؛ لأنه لا يليق بعظماء الناس، ولا يمكن أنْ يكون على سبيل الهزيمة في القتال؛ فإنّه لا يليق بالشجعان، وإنما الحكمة من خروجه أن تُسن الزيارة إلى قبر الرسولﷺ ويرغب المسلمون الحجاج والمعتمرون من أطراف البلاد الذين لم يروا شخص الرسولﷺ في حياته أن يزوروا قبره، وهي جزء من إحياء شريعته، فلو كان قبره في مكة لكانت زيارته تقع بالتبع لزيارة البيت الحرام، ويظن المسلمون أنّ الحج لأجل البيت فقط ويُنسى قبر النبيﷺ ما يؤدي إلى نسيانهﷺ، ولذا ينبغي أنْ يكون قبره في بلد آخر حتى يكون السفر إليه لقصد عظمته وحفظ الشريعة[2].

وكان النبي محمّدﷺ يتوخى من الهجرة ليس الانتقال الجغرافي فقط، بل أيضاً لِهجرة إخوان السوء، وابتعاد المسلمين عن الأوطان التي باشروا بها الزلة وعبادة الأوثان لكي يمحو عن ذاكرتهم مواطن عبادتهم القديمة ويبعدهم عن مواقع الشرك[3].

كان خروج النبيﷺ إلى المدينة في الرابع والعشرين من ذي القعدة[4]، وقيل خرج أول يوم من ربيع الأول بعد العقبة بشهر يوافق ثلاثة عشر عاماً من البعثة[5]، وللباحث رأي بترجيح الرواية الثانية كون خروجه في بداية ربيع الأول، والثابت في السيرة وصوله المدينة في شهر ربيع الأول ويمكن تحقيق ذلك بنفس الشهر، أما الرواية الأولى إذ خرج شهر

1- الشيخ المفيد، إيمان أبو طالب، 24؛ الفصول المختارة، 283؛ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، 1/ 282، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 1/ 29.

2-ابن النفيس، الرسالة الكاملية في السيرة، 173 – 174.

3-القشيري، لطائف الإشارات، 1/ 641.

4- ابن كثير، السيرة النبوية، 2/ 218.

5- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 179؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، 1/ 325؛ الهيتمي، أشرف الوسائل لفهم الشمائل، 47؛ المجلسي، بحار الأنوار، 19/ 87.

ذي القعدة ووصوله شهر ربيع الأول يكون زمن هجرته خمسة أشهر وهذا لا يوافق الزمن المطلوب. بعد أن حقق منجزات كبيرة في مكة المتمثلة بإظهار الدين الجديد الذي يتفق مع حاجات مجتمعه الجديد والإنسانية جمعاء، ووصل برعاية الله ﷻ إلى يثرب في يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، بعد ثلاثة عشر عاماً من مبعثه الشريف[1].

وهناك من المستشرقين من تناول الهجرة النبوية الشريفة ووافق على الرواية الإسلاميّة في اجتماع المشركين وأجمعوا أمرهم على قتل النبي محمّد ﷺ سواءً أترتب على ذلك أثر أم لم يترتب[2].

ثم استطرد وات بخصوص هجرة النبي محمّد ﷺ إلى المدينة المنورة قائلاً: ((لما وصل النبي محمّد مشارف يثرب دخل قباء[3] سنة621م ولم يمضِ فيها يومين أو ثلاثة، أدرك مباشرة أن قباء ليس المكان المناسب لإقامته الدائمة، وقريباً من قباء تقطن قبيلتان يهوديتان مع شركائهم من العرب الذين لم ينظموا إلى دعوة محمّد وبيعته، وهذا القرب سيغدو فيما بعد مصدراً للقلق الدائم))[4].

ثم استطرد وات بالكلام عن أسباب ترك قباء وعلل عدم رغبة الرسول ﷺ السكن فيها بسبب قربه للقبائل اليهودية، لكن للباحث رأياً وهو أن وات لم يصب الحقيقة للأسباب الآتية:

1 – أن قباء مدينةٌ صغيرةٌ كونها قريةً من ضواحي يثرب، ويثرب هي المدينة الأكبر وهي تجمعٌ سكّانيٌّ ومركزٌ تجاريٌّ كبير، فليس من المعقول أن يبقى النبي محمّد ﷺ في قباء ويقيم دولته فيها ويترك يثرب.

2 - تنفيذاً للاتفاق الذي حصل بين الرسول ﷺ والمؤمنين من أهل يثرب عندما قدموا له في بيعة العقبة الثانية؛ لذا فسكونه في يثرب يلبي متطلبات تأسيس الدولة ويساعد على الوفاء بالعهد لأهل يثرب.

1- اليعقوبي، تاريخ، 2/ 27؛ المسعودي، مروج الذهب، 2/ 447؛ الطبراني، المعجم الكبير، 17/ 172.

2-ينظر: ولز، هـ. ج، معالم تاريخ الإنسانية، 3/ 790.

3-قباء: مدينة صغيرة تبعد عن يثرب (المدينة المنورة) ستة أميال، بها منازل الأوس والخزرج قبل الإسلام. اليعقوبي، البلدان، 1/ 152.

4- وات، محمّد النبي ورجل الدولة، 118.

ولما وصل النبي محمّدﷺ المدينة فقد جدّد الأنصار البيعة بالمنعة فقالوا: ((يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا))[1].

اتفقت جميع المصادر الإسلاميّة على أن الرسولﷺ لما هاجر خلّف الإمام عليؑ في مكة لأداء بعض الأمانات وليوهم المشركين أنه ما زال نائماً في فراشه، وخرج مهاجراً بعده بثلاثة أيام ومعه الفواطم[2] وجماعة من ضعفاء المؤمنين[3]، وبقي النبي محمّدﷺ في قباء بعض الأيام ينتظر وصول الإمام عليؑ إليه كي يدخلوا معاً إلى يثرب فقال: ((ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن عمي وابنتي ـ يعني علي وفاطمة ـ))[4]، وأكد الشبلنجي[5] من المبرر بالذكر أن الإمام عليؑ أدرك النبي محمّدﷺ في قباء وهذا ما يتوافق مع زمن خروج النبي محمّدﷺ وبقائه في قباء مع زمن خروج الإمام عليؑ والمسير معاً.

وعلى العكس ممّا يتصوره وات من وضع قباء غير الملائم، فلما عزم النبي محمّدﷺ على الخروج من قباء سأله أهلها يا رسول اللهﷺ هل خرجت ملالاً أو تريد داراً خيراً من دارنا؟ أثنى رسول اللهﷺ عليهم وأخبرهم قائلاً: ((أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس، كما ينفي الكير خبث الحديد))[6]. هذا النص يبيّن صدور الأمر من الله ﷻ إلى النبي محمّدﷺ باختيار يثرب موطن الاستقرار بعد الهجرة.

ومن أهم أعمال النبي محمّدﷺ في قباء بناء أول مسجد للمسلمين بمشاركة الصحابة مع رسول اللهﷺ[7]. هذا يدل على أهمية قباء عند رسول اللهﷺ، وانتشار

1-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 27.

2-الفواطم: هن كل من النسوة المهاجرات أمهُ فاطمة بنت أسد، وزوجته فاطمة بنت محمّدؑ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة، ينظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، 4/ 91؛ الريشهري، محمد، موسوعة الإمام عليؑ، 160.

3- اليعقوبي، تاريخ، 2/ 27 ؛ الحلبي، السير النبوية، 2/ 52.

4- الطوسي، الامالي، 469؛ ابن الصباغ، الفصول المهمة في معرفة الأئمة، 303.

5-نور الأبصار، 22.

6- الحميدي، مسند الحميدي، 2/ 207؛ ابن حنبل، مسند، 7/ 72.

7- المسعودي، مروج الذهب ، 2/ 447.

الإسـلام فيهـا وإن كان عددهـم قليـل، فأصبـح الجامع يمثل رمز الإسـلام والمسـلمين. ومـا للمسـجد مـن أهميـة في حيـاة المسـلمين، إلا أن وات حـاول إغفالـه عـن قصـدٍ حتـى يقلـل مـن قيمـة المسـجد ودوره في فعاليـة الأمّة.

لقد نظر النبي محمّد ﷺ إلى المجتمع نظرةً ثاقبةً تنمّ عن بصيرةٍ واعيةٍ لخبيرٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ همّهُ توحيد العرب تحت رايةٍ واحدةٍ ونبذ الخلافات القديمة متجاوزاً الصعوبات لتحقيق ذلك.

وحدد وات زمن الهجرة والوضع السياسي في يثرب فقال: ((هاجر النبي محمّد ﷺ إلى المدينة سنة (1ه/ 622م)، وكان القتال بين القبائل على قدم وساق حتى وصل النبي محمّد ﷺ، وأدى الوضع الجديد المتمثل بوجوده في المدينة إلى انخفاض حدة المشاحنات التي كانت جارية هناك))[1].

لقد أجاد وات في هذه الفقرة بقوله أن وصول النبي محمّد ﷺ إلى المدينة أدى إلى تهدئة الأوضاع فيها، إذ سئم الناس من الحرب التي لا رابح فيها، وأن النبي محمّد ﷺ قبل وصوله مهّد الأرضية بإقامة كيانٍ سياسي، متمثل بشروط بيعة العقبة الثانية التي أصبح بموجبها قائداً سياسياً يمتثل لأوامره جميع الأنصار وكان من بينهم رؤساء عشائر الأوس والخزرج مثل سعد بن معاذ[2] وأسيد بن حضير[3] وسعد بن عبادة[4]، وطلب منهم ترشيح اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم، فعمل النقباء على تنظيم قبائلهم حين وصول النبي ﷺ[5].

1- ينظر: محمّد النبي ورجل الدولة، 112 - 114.

2-سعد بن معاذ: الصحابي سعد بن معاذ بن النعمان بن آمرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، سيد الأوس، شهد بدر واستشهد في معركة الخندق سنة (5هـ/ 626م). ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 375؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 346.

3-أسيد بن حضير: الصحابي أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك الأنصاري الأشهلي النقيب، يكنى أبا يحيى وقيل أبا عيسى، شهد بدرًا وأحدًا وما بعدها، له رواية، روى عنه أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة، وكان يقال لأبيه حضير الكتائب، وكان من أعمدة السقيفة، توفي في شعبان سنة (20هـ/ 640م). ينظر: بن ماكولا، الإكمال، 2/ 482؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 1/ 139؛ ابن حجر، الأصابة، 1/ 83.

4-سعد بن عبادة: الصحابي سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي حزيمة بن ثعلبة بن طريف بن خزرج، نقيب بني ساعدة، سيد الخزرج، يكنى أبو ثابت، شهد العقبة وكان كريماً سخياً، حضر السقيفة ولم ينل حضاً، لم يبايع أبو بكر ولا عمر، قتل غدراً بسهم في حوران سنة (20هـ/ 640م)، ابنه قيس بن سعد من أجود العرب. ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 411؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 250.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 443؛ الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، 47.

لقد كان أهل المدينة يترقبون قدوم النبي بحفاوة ولهفة وخرج الجميع باستقباله وهم فرحين، ولم يقتصر الأمر على المسلمين بل حتى بعض اليهود كانوا يترقبون قدوم النبي ﷺ، ولما رجع أهل المدينة إلى بيوتهم ظهراً جاءهم أحد اليهود كي يخبرهم فقال: ((يا بني قيلة[1] هذا جدكم قد جاء))[2].

لقد كانت سلطة النبي محمّدﷺ في المدينة مقتصرة على المهاجرين ثم أخذت تتوسع تدريجياً بدخول أهل المدينة في الدين الإسلامي.

1-قيلة: هي قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن هذيم من قضاعة: اسم الجدة الكبرى للأنصار، أم الأوس والخزرج ولدي حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 364.

2- ابن حبان، دلائل النبوة، 2/ 503؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 2/ 268.

المبحث الثاني

التنظيمات السياسيّة والعسكريّة في المدينة

اتخذ النبي محمّدﷺ حين وصوله المدينة المنورة حزمةً من الإجراءات لتنظيم الشؤون العامة، وكان يهدف من ورائها إلى تأسيس نظامٍ جديدٍ للأمّة الإسلاميّة، ومن أهمها:

أولاً: بناء المسجد

يُعد بناء المسجد من أول وأهم الأعمال التي قام بها النبي محمّدﷺ في المدينة المنورة كونه رمزاً إسلامياً مهمّاً، لكن وات تجاهل هذا العمل، واكتفى بالقول: ((حصل محمّدﷺ على مكان للإقامة بعد بناء منزل لهُ، ساعده كل من أتباعه المكيين وأهل المدينة، إضافة إلى مشاركته هو في هذا العمل، وبينما كان الغرض الأساسي من البناء أساساً لأن يصبح مأوى لمحمد وعائلته ويسهل تعاملاته الإدارية، نجد أنه احتوى فناء واسعاً، وربما قرر بشكل ما، أن يخصص ذلك مكاناً لعبادة المسلمين العامة))[1].

نرى أن وات يتناول بناء دار النبي محمّدﷺ بإيجاز تام، ويجعل سبب البناء لتسهيل تعاملات النبيﷺ الإدارية. ويشكك في أنه مكان للعبادة فيقول: ((لربما قرر بشكل ما أن يخصص ذلك مكاناً لعبادة المسلمين العامة)).

وفي كتابه «محمّد في المدينة» فإنه رغم كثرة عدد الصفحات إلا أنّه تناول فيه قضايا بسيطة وعامة وبإسهاب، وأهمل دور النبي محمّدﷺ في بناء المسجد، واكتفى بذكر بناء الدار التي أصبحت مسجداً فقال: ((وسط الواحة اختار مكاناً لبيته، وكان يقيم قريباً منه أثناء بناء البيت، وقد أصبح هذا البيت والساحة التي أمامه في ما بعد، الجامع الكائن في وسط المدينة الحديثة))[2]، ويضيف على ذلك شبهته فقال: ((كانت فكرة بنائه لاستمالة اليهود إلى جانبه، لذا فإن محمداًﷺ حين بنى مسجد المدينة بناه على شكل كنيس اليهود))[3].

1-ينظر: محمّد النبي ورجل الدولة، 119.

2-محمّد في المدينة، 4.

3-محمّد في المدينة، 304.

وبذلك نلاحظ أن وات تعمّد التكتّم على ذكر بناء المسجد، لنسف أهم مرتكز يساعد على صقل شخصيّة العربي البدوية القائمة على العصبيّة القبليّة، وقدرة المسجد في الحلول بدل المنتديات الأدبيّة والقبليّة للمساعدة على بناء المجتمع، ويكتفي بذكر بناء الدار الذي تحول بعد وفاة النبي محمّد ﷺ وزوجاته إلى مسجد كبير.

ولما وصل النبي محمّد ﷺ المدينة نزل في قباء، وأقام عند بني عمرو بن عوف أربعة أيام، وأسس مسجده[1]، وعليه يكون النبي محمّد ﷺ قد اختار موقع المسجد وصلى فيه، وبعد أن خرج يوم الجمعة إلى المدينة ثم قام بنو عوف ببناء المسجد الذي أسس على التقوى[2]، ونزلت في مسجد بني عوف قوله تعالى: ﴿**لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾[3].

وبعد وصول النبي محمّد ﷺ المدينة تنافست عشائر المدينة لنيل شرف استضافته وكانوا يأخذون زمام الناقة وهو يعتذر إليهم ويقول: ((خلو سبيل الناقة فإنها مأمورة))[4]. وآخر مكان بركت فيه الناقة كان دار مالك بن النجار[5] مكان لخزن التمور، واشتراه النبي محمّد ﷺ منهم، واختط مكاناً للمسجد وبالقرب من المسجد جعل داراً له، وقام الرسول ﷺ ببناء المسجد وهو يشارك أصحابه البناء كي يرفع عزيمتهم في العمل، وارتجز المسلمون يقولون[6]:

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وكان رسول الله يقول[7]: ((لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة)).

1-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 494؛ البيهقي، السيرة النبوية، 1/ 141؛ السهيلي، الروض الأنف، 4/ 232.

2-القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 2/ 666؛ السمهودي، وفاء الوفا، 1/ 250.

3-سورة التوبة: آية 108، ينظر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 3/ 97 - 98.

4-ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 142؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، 1/ 335.

5-مالك بن النجار: هو مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، من أولاده عمرو الذي حضر فتح مصر وولي برقة ويعرفون ببطن بني مغالة، ومعاوية يعرفون ببطن حديله، وغنم هم بطن بني غنم، وعامر ويعرفون ببطن بني مبذول. ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 391؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 1/ 347، 472.

6-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 119 – 120.

7-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 120؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 20/ 196

وارتجز الإمام علي عليه السلام فقال[1]:

لاَ يَسْــتَوِي مَــنْ يَعْمــر المســاجدا ومــن يبيــت راكعــا وســاجدا

يــدأب فيهــا قائمــاً وقاعــداً ومــن يكــر هكــذا معانــدا

لقد تم بناء جدران المسجد بمادة اللّبِنة، وتتوسطه أعمدة من جذوع النخيل، تحمل سقفاً من جريد النخيل، تبلغ مساحته مائة ذراع مربع أي ما يقارب ستين متراً مربعاً، وجهت قبلة المسجد إلى بيت المقدس؛ لأن المسلمين كانوا يتوجهون في صلاتهم إليها[2]. وهذا البناء المتواضع إلى حدٍّ ما تم إنجازه بما تيسّر لهم من مواد في الطبيعة، وبسعر زهيد إن لم يكن مجاناً وبجهود الصحابة، لذا يتّضح لنا اختلاف بناء المسجد بشكله الكلي عن كنيس اليهود التي تحمل الناقوس وتتزين جدرانها بالرسوم والزخارف، ولديهم الآجر والقير. وعن الشبهة التي أدلى بها وات حول بناء المسجد على غرار كنيس اليهود هذا لا ضير فيه لأن كل من الكنيس والدير والمسجد هي دور عبادة يذكر فيها اسم الله جل جلاله وتمارس فيها طقوس خاصة، وهي أماكن تجمع الموحدين أو عبارة عن مركز ديني، وهي جانب قوة للإسلام لا جانب ضعف أو عيب. واشتق اسم المسجد من السجود لله جل جلاله وطاعته. ويعتبر هذا الاتهام جزءًا من توهمهم في نسب كلّ شيءٍ في الإسلام إلى اليهوديّة والنصرانيّة.

كانت من بين أهم المواضيع التي ركز عليها النبي محمّد ﷺ بناء دور يعبد فيها الله جل جلاله، فورد في السنن والصحاح أن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَنْ بنى لِلَّهِ مسجداً بنى اللَّهُ لهُ بيتاً في الجنة))[3]. هذا يؤكد أهمية المسجد في الدولة الإسلاميّة كافة وفي حياة المسلمين جميعاً.

ولقد بيّن الله أن المشركين لم يسعوا إلى بناء بيوت لله بل هم يبنون بيوتاً للأصنام يعملونها بأيديهم، بل خص الله المؤمنين من الموحدين في بناء المساجد وقرنه بمنزلة الإيمان بالله فقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ**

1-أبو طالب، الإمام علي عليه السلام، ديوان الإمام علي عليه السلام، 73؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 121.

2-المقدسي، البدء والتاريخ، 4/ 86؛ الكناني، المختصر الكبير في سيرة الرسول، 55؛ الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، 47.

3-ابن ماجه، سنن ابن ماجه، 1/ 474؛ ابن خزيمه، صحيح ابن خزيمة، 1/ 637.

آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1].

والغرض من تأسيس المسجد دينياً لأداء الصلاة، وسياسياً مقراً لحل المشكلات واستقبال الوفود، وإدارياً مركزاً لإدارة الدولة وشؤون المسلمين[2]، وعلمياً فهو أول مدرسة يتلقى بها المسلمون تعاليم الدين الجديد وأحكام العبادة، واجتماعياً ملتقى يتسامر فيه أبناء القبائل المختلفة التي لطالما تنافرت في الجاهلية[3]، فضلاً على ذلك أصبح داراً يسكن فيه عددٌ كبيرٌ من فقراء المهاجرين المتعففين الذين لا سكن لديهم وهم يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، وكانت صفة المسجد مثواهم فنسبوا إليها[4]، وأفضل وصف لهم في قوله تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾[5].

ثانياً: وثيقة المدينة (الدستور)

أدرك النبي محمّدﷺ ضرورة وضع دستور لكلّ سكان المدينة يوضح فيه ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، ويعرفهم بمصدر الحكم، ويجدّد لهم وسائل العمل داخل المدينة وخارجها وفق نظام الأمة الإسلاميّة الجديدة، وهو أول دستور إسلامي نص على تشريع الحكم في الدولة الإسلاميّة في المدينة أعلنه النبي محمّدﷺ.

ولهذه الأهمية أخذ المستشرق وات على عاتقه التشكيك في بعض الجزئيات من الدستور فقال: ((احتفظ ابن إسحاق بوثيقةٍ قديمة، لا يذكر شيئاً عن الطريقة التي وصلت بها الوثيقة إليه، ولا متى وكيف طبق هذا الدستور))[6].

يُعد ابن اسحاق أول أخباريٍّ دوّنَ العلم في المدينة وكتب في السيرة النبوية، وما يؤكد

1-سورة التوبة: الآيتان 17 – 18؛ ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 2/ 242.

2-الشريف، مكة والمدينة، 386.

3-المباركفوري، الرحيق المختوم، 172.

4-ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر، 1/ 155.

5-سورة البقرة: آية 273؛ ينظر: ابن المنذر، كتاب تفسير القرآن، 1/ 42 - 45.

6- محمّد في المدينة، 337.

صحة أخباره أنّه عاش بين سنة (80هـ - 151هـ) مع بعض الصحابة منهم أنس بن مالك وسعيد بن المسيب[1]، فهو عاش مع جيل من التابعين فلعله سمع منهم بنود الوثيقة فلم يذكرها بالسند، وحفظ لنا أقدم وثيقة تستحق الدراسة والبحث في مضامينها، ونقلها عنه السهيلي[2] ابن سيد الناس[3]، وكذلك ابن كثير[4] فوردت عندهما من دون إسناد أيضاً، وقد ذكر البيهقي[5] إسناد ابن إسحاق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون البنود التي تتعلق باليهود لذلك لا يمكن الجزم بأنه أخذها من نفس هذه الطريقة أيضاً. كما أن في سلسلة إسناده للرواية رواةٌ متهمون بالكذب والضعف[6] وقد ذكر ابن سيد الناس أن ابن أبي خيثمة[7] أورد الكتاب (الوثيقة) فأسنده بهذا الإسناد ((حدثنا أحمد بن خباب أبو الوليد حدثنا عيسى بن يوسف حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده، أن رسول الله كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه ـ أي بنحوـ الكتاب الذي أورده ابن إسحاق))[8]. والإسناد الذي ينتهي إلى كثير بن عبد الله المزني لا يُؤخذ به، فقد اتهمه ابن حنبل بالضعيف ومنكر الحديث وليس بشيء[9] ولكن يبدو أن الوثيقة وردت في القسم المفقود من تاريخ ابن أبي خيثمة إذ لا وجود لها في ما وصل إلينا منه. كذلك أوردها أبو عبيد[10] وزنجويه[11] بإسنادٍ يقف عند ابن شهاب الزهري، وهو الذي يبعد عن زمن كتابة نص الوثيقة حوالي 124 سنة بحسب تاريخ وفاته! لذا يكون شكّ وات بسند الرواية واقعياً؛ لعدم وروده عند ابن إسحاق. لكن

1- الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 33.

2-الروض الأنف، 4/ 240.

3- عيون الأثر، 1/ 227.

4- البداية والنهاية، 3/ 224 - 226 .

5- السنن الكبرى، 8/ 106.

6-ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، 1/ 197.

7- ابن أبي خيثمة: وهو أحمد بن زهير بن حرب بن شداد، نسائي الأصل، مؤلف كتاب «التاريخ الكبير» عَلم الحديث عن أحمد بن حنبل ويحي بن معين، والأدب عن محمّد بن سلام الجُمحي، وقال عنه الدار قطني ثقة مأمون، توفي في سنة (279هـ/ 892م)، وقد بلغ 94 عاماً، انظر: ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، 1/ 42.

8- عيون الأثر، 1/ 197.

9-ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، 7/ 154.

10- الأموال ، 260.

11-الأموال، 2/ 466.

المصادر الإسلاميّة أدركوا هذه المشكلة منذ وقتٍ مبكّرٍ، فحاول بعضهم الإتيان بسلاسل من الأسانيد لم تزد إلا ارتباكاً وتعقيداً[1].

ومن هذه الطرق التي وردت منها الوثيقة بنصها الكامل، يوجد تطابقٌ كبيرٌ بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير في العبارات أو اختلاف بعض المفردات أو زيادة بنود قليلة، ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام، لأنها تتضمن وثيقةً برمها النبي محمّدﷺ بين الصحابة من المهاجرين والأنصار أولاً، والموادعة مع اليهود من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة من سكان المدينة ثانياً.

وعن تاريخ كتابة بنود الوثيقة يرى وات: ((أن بنود الوثيقة التي كتبت في أوقاتٍ مختلفةٍ قد جمعت في ما بعد))[2].

ومثل هذا الطرح يُرجّحه أحد الباحثين وهو أنّ الوثيقة في الأصل وثيقتان: إحداهما خاصة بالمسلمين من مهاجرين وأنصار، والثانية خاصّة باليهود[3]. لو أخذنا نص الرواية الأول الذي ذكره ابن إسحاق: ((وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمّد النبي صلى اللهُ عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أُمة واحدة من دون الناس،...))[4]. لو تأملنا قليلاً: نجد فيه أن النبيﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وأقرهم على دينهم من مبدأ حريّة المعتقد ولا إكراه في الدين، ومن ثم يحدّد فيه فئة المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وحتى من جاهد معهم بالتحالف القبلي المعقود بينهم سابقاً، وتحديدهم بمصطلح أمة يُراد بها المجتمع كله. هذا يوضح أنّ الوثيقة واحدةٌ وكتبت في زمنٍ واحدٍ، لأنّها شاملةٌ لكل مكونات المجتمع[5]. وما يؤكد صحة ذلك أنّ اليهود جزءٌ فاعلٌ في مجتمع المدينة. ولما وصل النبيﷺ إلى المدينة جاء اليهود يستفهمون عن طبيعة الدعوة، وريثما تيقنوا

1-النصر الله، جواد كاظم، وشهيد كريم الكعبي، وثيقة المدينة في رؤى الاستشراق - مونتغمري وات نموذجاً - بحث منشور في جامعة الكوفة، 215.

2- محمّد في المدينة، 343 - 344.

3-العلي، إبراهيم محمد، صحيح السيرة النبوية، 145؛ ينظر: العمري، ضياء أكرم، السيرة النبوية الصحيحة، 1/ 276.

4-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 501 - 502.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 501 - 504.

من صحتها طلبوا الهدنة على أن يكونوا جزءاً مسالماً من المجتمع، فوافقهم النبي محمّد ﷺ على طلبهم[1]، إلاّ أن اليهود معروفون بنقضهم للعهود والمواثيق كما في قوله تعالى: ﴿**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾[2].

وحسب ما اطلعنا عليه، أنّه ليس بين المتقدمين من كُتّاب السيرة ذكرُ وقتين لها، فضلاً عن أوقاتٍ مختلفةٍ! مع أنّ ذلك لم يكن ليعيبهم في شيء، وفي نظر وات ادعى عدم إمكانية التزوير فقال: ((ولم يكن بإمكان أيّ مزورٍ في العصر الأموي أو العباسي أن يضم غير المسلمين إلى الملّة الإسلامية، أو يحتفظ ببنودٍ ضدّ قريش ويجعل لمحمد هذه المكانة المتواضعة))[3]، وهنا وات يناقض نفسه في طرح الحقائق التاريخية حيث يشكك بصحة الوثيقة من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى يستبعد وقوع التزوير، فهو يحاول جاهداً استبعاد اليهود من بنود الوثيقة لكي يعطي صورةً للنبي محمّدﷺ أنّه كان في غاية القساوة مع اليهود، وأمره بالقضاء عليهم كان مبيّتاً وعن قصد. والمدققون من المتأخرين ذكروا وقتين لا ثالث لهما، ولكن كان الأول بين المهاجرين والأنصار، والثاني بين المسلمين واليهود، وما الذي يخالف الواقع أو العقل في ذلك.

وأعطى وات رأيه في الوثيقة بأن هناك اتفاقٌ بين النبي محمّدﷺ وقبائل المدينة في العقبة قبل الهجرة، وردت بنودها في الوثيقة وهي الفقرات (15، 16، 19، 23)، أو يمكن أن يكون قد أعدها النقباء بعد الهجرة[4].

بعد القراءة المتأنية يتضح أن البند الخامس عشر ((وأن ذمة الله واحدة: الإجارة عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس))[5] يتحدث عن إجارة المؤمن، أي: له أن يكفل، ويحفظ، ويمنع من أن يتعرض له أحد بأذى، وذلك في الوقت الذي لم يكن للمؤمن فيه أيّ احترامٍ ولا قيمة من مشركي مكة ومن غيرهم، فكيف يجير غيره في نفس الوقت الذي لا يستطيع أن يمنع فيه نفسه. إنّ إجارة المسلم أصبحت ذاتُ قيمةٍ بعد الهجرة، لوجود هذا الكيان السياسي، أو أن يكون لهم من القوة

1-الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهداى، 1/ 158.

2-سورة البقرة: آية 100. ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 77.

3- محمّد في المدينة، 342.

4- محمّد في المدينة، 346. ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 501 – 504.

5-وات، محمّد في المدينة، 339.

والمنعــة مــا يجعل غيرهم يســتجير بهــم ليجيروه. ووات يعلــم أنّ ذلك مــا كان ليحدث أبداً قبــل الهجرة[1].

وكذلك البند السادس عشر((وأن من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا تناصر عليهم))[2]، كيف يكون قد تعاهد فيه النبي ﷺ والمسلمون ـ قبل الهجرة -ـ مع اليهود، وهو ينصّ على أنّ من تبعنا من يهودٍ فإنّ له النصر والأسوة غير مظلومين، وكما هو معلوم أن الرسول ﷺ وقبائل المدينة ـ أنفسهم ـ كانوا مستخفين ليلة العقبة، حتى من أهل يثرب، وفي حالةٍ من الاستضعاف، يترقبون بها أن يؤيدهم أحد، أو يدفع عنهم ظلماً مما وقع بهم، بل لا يستطيع كثير منهم أن يعلن إسلامه، ومن عُلِمَ إسلامه فهو المتحمّل لتبعة ما ينزل عليه ويحيق به من الكفرة[3].

فكيف لهذه الصفوة المؤمنة أن ينصروا يهوداً وهم في مكة الخالية من اليهود؟، وأين كان اليهود ليلة العقبة كما يدّعى وات، بل كان اجتماع النبي ﷺ وأهل العقبة المسلمين ليتعاهدوا مع النبي ﷺ ويطلبوا منه ألا يظلموا؟، وهل يُطلب ذلك من النبي ﷺ، إلا في ظلّ سيادة يتمتع بها المسلمون، أي في حالٍ يكونون فيها متمكنين من أن يظلموا أو أن يكفوا الظلم؟، وما حدث لهم ذلك إلا في ظلٍّ دولة المدينة، فكيف يُصرّح وات بأنّ هذا البند قد وقع قبل الهجرة؟! والكلّ يعلم أنّ المسلمين قبل الهجرة كانوا ثلةً قليلةً يسعون للوصول إلى المدينة.

أما البند التاسع عشر ((وأن المؤمنين يبيء [يرجع] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه))[4]، فهو يتكلم عن القتال في سبيل الله تعالى، وفي الدور المكي لم يذكر القتال بل شُرِع بعد الهجرة[5] كما قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[6]، ولا يغفل عن بال وات وضع المسلمين في مكة ومن ثم في المدينة.

1- الدبيسي، محمّد مصطفى، السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، 434.

2-وات، محمّد في المدينة، 339.

3-الدبيسي، السيرة النبوية، 434.

4-وات، محمّد في المدينة، 339.

5-الواقدي، المغازي، 3/ 1068.

6-سورة التوبة: آية 73.

والبند الثالث والعشرونُ ((وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمد))[1]، إذ ذكر فيه أن مرجعية أيّ خلافٍ لأهل الصحيفة، إنما هي لله وللرسول محمّد ﷺ، وهذه المرجعيّة العليا التي أقرها الله ﷻ في فض النزاعات بالرجوع إلى النبي ﷺ، كانت على أثر الصراع المحتدم بين الأوس والخزرج إذ جعلوا النبي ﷺ الحاكم الأعلى عليهم، وتحققت تحديداً بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾[2]. وبذلك يتضح لنا أن السلطة العليا أصبح للنبي ﷺ في المدينة، لنزول الآية في العهد المدني. وعليه يكون استنتاج وات بأن السلطة العليا للنبي ﷺ عندما كان في مكة غير صحيح، بل إن ذلك تحقق في المدينة.

وهكذا فإن افتراض وات لا يصمد أمام النقد والتحليل في بنود نصّ الوثيقة للفقرات أعلاه، فهو يحاول إثبات براءة اليهود من تبعات تآمرهم على قتل النبي محمّد ﷺ، ولا يوجد معهم ميثاق، وأن تصفية الحساب معهم كان قبل إبرام الوثيقة والموادعة.

فيقول وات في ذلك: ((وعلى الرغم من الإشارة في الوثيقة إلى العديد من الجماعات اليهودية، إلا أنه لا توجد أدنى إشارة صريحة إلى القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث بأسمائها: [بني قينقاع بني النضير بني قريظة]، ولا يبدو حتى أنهم قد شملوا ضمنيناً، ومن المستبعد أنهم قد حذفوا كلهم بالكامل. وفي صيف 627م تم تصفية ثالث هذه القبائل اليهودية [قريظة] وبالتالي يبدو أن الوثيقة اتخذت شكلها الأخير، كما في وضعها الحالي، بعد ذلك التاريخ، تاريخ صياغتها))[3].

يحاول وات أن يوضح بأن بنود الوثيقة كتبت بعد القضاء على القبائل اليهودية الثلاثة، وبالتحديد بعد معركة الأحزاب سنة (5هـ/ 628م)، مشيراً إلى ضعف احتمال أن تكون ذكرت الأحلاف المنتمية إليها، ويتضح أن وات أراد تبرئة اليهود من خيانة المسلمين، عن طريق عدم ذكر القبائل اليهودية الثلاث: قريظة والنضير وقينقاع بمسمياتهم المعروفة في الوثيقة.

1-وات، محمّد في المدينة، 340.

2-سورة النساء: آية 59.

3- وات، محمّد النبي ورجل الدولة، 120.

لقد تجاهل وات تحالفات مجتمع يثرب قبل وصول النبي محمّدﷺ إليهم، فكان اليهود فريقين: فريق بني قينقاع، وهم حلفاء الخزرج، وفريق متكوّن من بني النضير وبني قريظة، وهم حلفاء الأوس[1]. فكانوا ملتزمين بتحالفهم، فإذا نشبت الحرب بين الأوس والخزرج خرجت بنو قريظة وبنو النضير مع الأوس، وخرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وعلى هذا ربما تكون القبائل اليهودية الثلاث قد ذكرت ضمن القبائل المرتبطة معها.

وبعد أن استنفذ وات كلّ شكوكه من صحّة بنود الوثيقة وتاريخ كتابتها، أخذ منحىً آخر هذه المرة يسعى فيه إلى الطعن في شخصيّة النبي محمّدﷺ ومكانته بين المسلمين فقال: ((ليس دستور المدينة دليلاً صادقاً على مكانة النبي حين وصوله إلى المدينة في أيلول سنة (1ه/ 622م) غير أن سلطاته كما يحددها الدستور ليست واسعةً ولا بد أنّها كانت أضيق في مطلع إقامته في المدينة، كما أن وضع المهاجرين على قدم المساواة مع إحدى قبائل المدينة، يعني أن محمداً كزعيم المهاجرين كان مساوياً لزعماء مختلف القبائل، ولما كان المهاجرون مذكورين قبل غيرهم فلربما كان لمحمدﷺ أولويةٌ شرفيةٌ بين زعماء القبائل، وعلى ذلك لم يكن النبي رئيس دولة أوتوقراطية[2]. فهو ليس سوى شخصيّةٍ مهمّةٍ بين شخصيات أخرى))[3].

لقد فات وات أن النبي محمّدﷺ كان قد جمع السلطتين الدينية والدنيوية بيده، فلا أحد لهُ حق الاعتراض على سياسته أو حكمه؛ لأن الله ﷻ من خوله تلك الصلاحيات فقد قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾[4]. ثم ألزم المؤمنين الطاعة فقال: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾[5]. ثم أكد على هذه الصلاحيات المطلقة والسلطة الواسعة لما قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[6]. لذا فإن

1-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 382؛ ابن خلدون، تاريخ أبن خلدون، 2/ 288.

2-أوتوقراطية: الأصل أوتوقراط كلمة يونانية تعني الحاكم الفرد أو من يحكم بنفسه، وفي الإنجليزية هي شكل من أشكال الحكم تكون فيه السلطة السياسية بيد شخص واحد بالتعيين لا بالانتخاب.

3- وات، محمّد في المدينة، 347 - 348.

4-سورة النساء: آية 59.

5-سورة النساء: آية 80.

6-سورة النساء: آية 65.

وات لم يجد مبرراً لمثل هذا القول فأطلق شبهة أن الرسول ﷺ كان بعيداً جداً على أن يكون قائد دولةٍ أوتوقراطيٍّ، بل جعله شخصيّةً مهمّةً من بين شخصياتٍ أخرى في المدينة.

في واقع الأمر أنّ القراءة المتأنّية للوثيقة تستشعر من خلالها أن النبي محمّد ﷺ كان مهيمناً على المدينة سياسياً وهذا ما تضمنت الوثيقة في بندها السادس والثلاثين: ((إنه لا يخرج من المدينة أحد، إلا بإذن رسول الله ﷺ))[1]، وهذا دليلٌ على عظمة سلطان النبي محمّد ﷺ على المسلمين، ولعهده مع اليهود؛ وذلك لما يراه من مصلحة، كأمن المدينة، أو اقتصادها، أو غير ذلك من المصالح العامة. ولربما في حيز تطبيق بنود الوثيقة كان النبي محمّد ﷺ لا يمتلك تلك القدرة أو السلطة على سلطة المدينة لأن كثيراً من القبائل رفضت الانصياع للأوامر؛ لعدم اعتناقها الإسلام، أو أنّها حديثة عهد بالإسلام.

أضافت الفقرة الثانية والأربعين من بنود الوثيقة أن الجميع يخضع للنظام العام، إذ أقر جميع أهل الصحيفة ومن بينهم اليهود بسلطة عليا تتحاكم فيها حال وقوع حدث أو شجار أو غير ذلك بين المسلمين واليهود، وهي الرجوع إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ[2]، وأمّا ما يختصمون فيه من قضاياهم الشخصية، فهم يُردّون فيها إلى التوراة، ليقضي لهم فيها أحبارهم، إلا حيث يُحكّمون فيها النبي محمّد ﷺ، فإن شاء قضى بينهم، وإن شاء أعرض عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿**فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[3]. وبموجب الوثيقة يكون النبي محمّد ﷺ هو رئيس الدولة، ويرجع الجميع إليه في الحكم وتنفيذه، وهو المسؤول عن أمن المدينة وسلامة المقيمين فيها.

يعطي وات ملامحاً خاصة لشخصيّة النبي محمّد ﷺ، حيث إنّ النبي ﷺ زعيم المهاجرين، وهو كسائر الزعماء في المدينة، أو هو شخصيّةٌ مهمّةٌ من بين الشخصيات! لكن وات يبتر المعلومة التاريخية حتى يشوش أذهان القارئ فلم يذكر لنا الشخصيّة المهمة الأخرى؟ وما هو دوره حتى في أيِّ مفصلٍ من مفاصل الحياة العامة؟. لكن مصادر السيرة والتاريخ لم تذكر لنا سوى شخصية النبي محمّد ﷺ ودورهُ السياسي والعسكري والإداري والاجتماعي

1-وات، محمّد في المدينة، 340.

2-وات، محمّد في المدينة، 341.

3- سورة المائدة: آية 42.

والقضائي بموجب الوحي السماوي، فهو الوحيد الذي يتلقى الوحي ويمارس دوره في النبوة والسياسة. وكذلك الوفود من القبائل القادمة للمدينة كانت تلتقي بالنبي محمّدﷺ، وأما عن طاعة النبيﷺ فقد فرضت من قبل الذات الإلهية حين وصول النبي محمّدﷺ المدينة المنورة كما جاء في قولة تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[1]. في هذه الآية الكريمة قرن الله ﷻ طاعته بطاعة النبيﷺ بل جعلها علامة المؤمن. وهذا أعلى الدرجات الرفيعة التي حضي بها النبي محمّدﷺ من السلطة العليا في المدينة. كذلك هناك في بيعة العقبة الثانية ـ وهي بيعة الأنصار للنبي محمّدﷺ والتي عرفت ببيعة الحرب، وقد ذكر ذلك ابن إسحاق ـ دليلٌ على وجوب طاعة الرسولﷺ، حيث يقول في بيعة العقبة: ((بايعنا رسول اللهﷺ في يسرنا وعسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم))[2].

ومن ثم يقدم وات أدلّةً على ضعف المكانة التي كان يحتلها محمّدﷺ منها: ((بعد حديث الإفك الذي تعرض لعفة عائشة وحيث أظهر عبد الله بن أُبي بن سلول رغبته في نشر النميمة، لم يستطع محمّد التعرض مباشرة لابن أُبي))[3]. وأضاف قائلاً: ((حين عرضت مشكلة معاقبة قريظة على خيانتها لم يغامر محمّد في إصدار أي حكم بنفسه، فلو أنّه قرّر سفك دماء قريظة لدعا الشرف بعض حلفاء اليهود، ولو كانوا مسلمين، إلى الثأر لهم، ولهذا ترك تقرير العقوبة إلى زعيم القبيلة التي كانت قريظة حليفة لها))[4].

وعن الفقرة الأولى التي لا نرغب التحدث بها لحرمة أمهات المؤمنين وخشية الجدال والكلام عنها، وفي هذه الحادثة كان الله ﷻ هو الحكم بها، والنبي محمّدﷺ الموحى له لا ينطق عن الهوى، وتأخيره بإصدار الحكم لا يريد أن يسبق الله ﷻ الذي أثبت بطلان كلام المنافقين في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[5]، هذه الآية بينت حكماً صادراً من الله ﷻ بحق عبد الله ابن أبي السلول فمن الأجدر ألاّ

1- سورة الأنفال: آية 1. ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 3/ 59.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 454.

3- محمّد في المدينة، 348.

4- محمّد في المدينة، 349.

5- سورة النور: آية 11.

يتخذ النبي محمّد ﷺ حكماً فيه ويترك الحكم إلى الله ﷻ، كما نعرف أن النبي لا ينطق عن الهوى بل بوحي من الله ﷻ.

وللرد على الفرية الثانية بخصوص بني قريظة عندما أوكل النبي محمّد ﷺ الحكم عليهم إلى سعد بن معاذ الأنصاري زعيم قبيلة الأوس حليفة بني قريظة، فإنّ وات قام بإظهار صورة ضعف مكانة النبي ﷺ عبر هذه الحادثة في مقابل إظهار علوّ مكانة سعد بن معاذ، وأنّ الأمور آلت إلى انكسار مكانة النبوة وسلطة النبي محمّد ﷺ.

لقد عالج النبي محمّد ﷺ هذه المسألة بحكمة وعقلانيّة فلم يصدر حكمهُ في حقّ اليهود، ولا يراد أن يقال أن محمداً ﷺ كان يتحيّن الفرصة للخلاص منهم، لذا خيّرهم بأن يحكم رجلٌ ممن يرضونه فيهم فيكون حكمه نافذاً على الجميع ومن ضمنهم رسول الله ﷺ. ولحلّ ملابسات اشتباه وات، أن النبي محمّد ﷺ في حادثة بني قريظة قبل مقترح بعض وجهاء الأوس، أن يوكل سعد بن معاذ في الحكم على حلفائهم بني قريظة كرامة لهم، كما ترك إلى عبد الله بن أُبي زعيم الخزرج الحكم على حلفائهم بني قينقاع. فأين الضعف الذي يراه وات؟ بل إنّ النبي محمّد ﷺ أراد أن يوظف الشورى مع إشراك الحلفاء في اتخاذ القرار، لذلك أناط المهمة بسعد بن معاذ، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدل على نضجٍ سياسيٍّ راقٍ من قبل الرسول ﷺ، وتوزيع السلطات بين أصحابه، ولا يكون دكتاتوراً في دولةٍ جديدةٍ يحكمها بشريعة دين الإسلام. فضلاً عن هذا فإنّه يؤكد ظروف التحالف الموجود بينهم وبين سعد بن معاذ، وقد رجح أن يحكم فيهم لكي تكون إدانتهم واضحةً أمام الملأ، وأن النبي ﷺ أجابهم لإلقاء الحجة عليهم بالحكم حتى يكم أفواه المتقولين بالدفع عنهم لاحقاً.

3 المبحث الثالث

علاقة النبي محمّد ﷺ بيهود المدينة وموقفهم من دعوته

تتنوع المدينة ديمغرافياً من العرب واليهود، وتشتهر بذلك من بين القبائل العربية مثل الأوس والخزرج، والقبائل اليهودية مثل بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة، وهم متنافسون إلى درجةٍ كبيرةٍ، ولم يكونوا مؤتلفين في ما بينهم، وتحكمهم المصالح التجارية والقبلية.

وبوصول النبي محمّد ﷺ إلى المدينة سنة (1ه/ 622م)، لم تكن نهاية الصراع مع المشركين، بل أضيف إليه صراعٌ جديدٌ مع أهل الكتاب متمثل باليهود الذين كان موقفهم في البداية منسجماً مع الموقف العام لأهل المدينة وهو الترحيب بقدوم النبي محمّد ﷺ والتعاون معه من أجل تحقيق الصالح العام لسكان المدينة، بحسب ما جاء في دستور المدينة في الفقرة رقم واحد ((المؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمّة واحدة من دون الناس))[1].

وقد عرف اليهود بأن النبي محمّد ﷺ هو الموعود والمذكور في التوراة عندهم خصوصاً بعد اللقاء الذي جمع بين النبي محمّد ﷺ من جانب وبين حيي وأبي ياسر ولدي أخطب من جانب آخر[2]. لما جلسا عنده من الصباح حتى المساء وتيقنا أنه هو النبي ﷺ الموعود، رجعا مذهولين، فقال أبو ياسر إلى حيي: أهو هو؟ أي هو الرسول الذي نعرفه في التوراة، أجابه حيي نعم والله؛ إذاً ما نصنع معه؟ أجابه حيي بالقسم عداوة والله[3].

وذكرت هذه الرواية إجمالاً عند ابن إسحاق عن طريق صفية بنت حيي بن أخطب دون تفصيل سوى الإشارة بأنهم عرفوا النبي محمّد ﷺ وتيقنوا من نبوته.

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/501.

2-حيي بن أخطب: حيي بن أخطب بن سعية بن عامر من ولد هارون بن عمران عليه السلام، وأخوه أبو ياسر من يهود المدينة (بني النضير) ، ابنته صفية التي اصطفاها النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وتزوجها، دسه أبو سفيان إلى بني قريظة يسألهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ويكونوا معه في معركة الخندق فنجح في مسعاه، قتل مع بني قريظة. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 95؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 443.

3- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 191؛ السهيلي، الروض الأنف، 4/ 207.

وما يؤكد صحة قول صفية من العداوة بين أبيها حيي مع رسول الله ﷺ، ما جاء عن عروة بن الزبير لما وصل النبي محمّد ﷺ إلى قباء فأتاه أبو ياسر بن أخطب فسمع منه ولما رجع إلى قومه قال: ((يا قوم أطيعوني، فإن اللهَ عز وجل قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون))[1]، فعصاه أخوه حيي وكان مطاعاً في قومه الذي استحوذ عليهم الشيطان فناصروه ونصبوا العداء لرسول الله ﷺ[2].

ومما تقدم يدل على موقف حيي وأبو ياسر من النبي محمّد ﷺ حسداً لأن النبوة جاءت في العرب وتحديداً في ولد النبي إسماعيل عليه السلام لأنهم كانوا يريدون أن يكون النبي الخاتم منهم.

ولم يقتصر هذا الموقف العدائي على هذين الزعيمين اليهوديين، بل شاركهم الآخرون من الأحبار، فقد ذُكر أن العداوة نصبت بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله جل جلاله، العرب إذ بعث منهم النبي محمّد ﷺ خاتم النبوة[3].

وبعضهم الآخر لم يكتم غضبه فراح يحرض الأوس والخزرج بالوقوف ضدّ دخول النبي محمّد ﷺ إلى يثرب فقالوا لهم: ((لقد جلبتم على أنفسكم باتباعكم هذا الرجل الضلال والبلاء العاجل بمعاداة الأمم، ولو كنتم يهوداً لناظرناكم))[4]. أما اليهود والنصارى كان لهم نفس الموقف المعارض، ورغّبوا الناس باعتناق دينهم اليهودية والنصرانية بدلاً من الإسلام الدين الجديد، وهددوهم بما سيلاقونه من يهود ونصارى العرب، وهولوا عليهم عظم الخطر الذين سيلاقونه بعدم الهداية إلى طريق الحق[5]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[6].

وإزاء كل هذا عَدَّ وات وجود اليهود في المدينة عاملاً مساعداً على انتشار الأفكار التوحيدية، وتمهيداً لقبول نبوة محمّد ﷺ، وبعد وصوله للمدينة عقد معاهدات مع اليهود،

1- البيهقي، دلائل النبوة، 2/ 532؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 4/ 525.

2- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 7/ 275؛ الصالحي، سبل الهداية والرشاد، 3/ 377.

3- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 513؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 227.

4- الهمذاني ، تثبت دلائل النبوة، 2/ 401.

5-الهمذاني، تثبيت دلائل النبوة، 2/ 401.

6- سورة البقرة: آية 135؛ ينظر الثعلبي، الكشف والبيان، 1/ 282؛ الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب، 1/ 322.

فقد كرس الكثير من وقته في الأسابيع الأولى بعد الهجرة للحصول ولو على شيء من الاعتراف بنبوته من قبل اليهود[1].

ولدفع مثل هذه الشبهة التي صوّرها وات عن النبي محمّدﷺ من أنه كان يتقرب فيها من اليهود حتى يحصل على اعترافهم بنبوته عارية عن الصحة، لأنها لم تكن في بداية الدعوة بل مضى ثلاثة عشر عاماً على البعثة النبوية فلم يكن بحاجة للاعتراف من اليهود بنبوته التي خصه الله ﷻ بها وأنزل عليه القرآن كما في قوله تعالى: ﴿**وَما محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...**﴾[2].

لقد باشر النبي محمّدﷺ بتبليغ الدعوة، فبدأ بدعوة اليهود إلى دين الإسلام بوصفهم أصحاب ديانة سماويّة سابقة، وهم يتوعدون قدومه كما ورد في كتبهم بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[3]، وكان النبي محمّدﷺ يأمل من أهل الكتاب أن يعتنقوا الدين الإسلامي؛ لما يعرفونه عنه في كتبهم كما أنّ أصلهم التوحيد لا الشرك، وعليه فدعوتهم أفضل من دعوته للمشركين عبدة الأصنام وغيرهم، إلا أن اليهود اتخذوا موقف العداوة من الإسلام والنبي محمّدﷺ وأنكروا الدعوة الإسلاميّة برمتها، ونصبوا الحرب والعداء المبرح[4] وعاتبهم الله ﷻ على عدم تصديقهم للنبي محمّدﷺ كما في قوله تعالى: ﴿**يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾[5]، إلا أنّ رسول اللهﷺ كان على درجة عالية من اليقين بعصيان اليهود لرسالته، لسالف خبره عنهم بما فعلوه مع أنبياء بني اسرائيل من قبل.

ومن أولى أعمال النبي محمّدﷺ في المدينة سعى إلى تأسيس الأمة التي من مقوماتها الوحدة بين جميع سكان المدينة مع حلفائهم، وأولى محاولاته التي بذلها من أجل كسب

1- محمّد النبي ورجل الدولة، 125.

2- سورة آل عمران، آية: 144.

3- سورة الأعراف، 157.

4- ابن هشام، السيرة النبوية، 3/ 52.

5-سورة آل عمران: 70. ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 222.

اليهود وتأليف قلوبهم، التي تجلت بأقوى صورها في التنظيمات التي وضعها في الصحيفة لتنظيم العلاقات بينهم وبين المسلمين[1].

لقد نظم النبي محمّد ﷺ العلاقة مع قبائل يهود المدينة ـ بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ـ اتفاقية نصّها: ((وادع[2] اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم أن لا يعينوا عليه أحداً وإن دهمه بها عدوّ نصروه))[3].

ولدينا رواية للبلاذري[4] تؤكد ذلك نصها ((لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كتب بينه وبين يهود يثرب كتاباً وعاهدهم عهداً...))، وجاء عند الطبري[5] أن رسول الله ﷺ كان قد وادع حين قدم المدينة يهودها على أن لا يعينوا عليه أحداً وأنه إن دهمهم بها عدو نصروه.

ويصور وات موقف النبي محمّد ﷺ من بني قينقاع بقوله: ((ذكر محمّد بعد عودته من بدر دعوته لليهود مشيراً إلى الخسائر الضخمة التي تكبدتها مكة وأنّ ذلك مثل مصير الذين لا يستجيبون لرسالة الله))[6].

ويبدو أن الانتصارات التي حققها النبي محمّد ﷺ في واقعة بدر الكبرى أدت إلى التفاف جماعات من الأوس والخزرج حوله، وبدأ انتشار الدين الإسلامي بين الآخرين بالتدريج، لم يرقْ ذلك لزعيم اليهود شاس بن قيس[7]، فأرسل أتباعه من المنافقين يجلسون مع الأنصار ويذكرونهم يوم بعاث[8] وينشدون على مسامعهم أرجوزة الحرب على لسان شعرائهم من

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 501 ؛ خليل، عماد الدين، دراسات في السيرة، 321.

2- وادع: أي ساكن، يقال رجل وادع، أي رجل ساكن أو سكون وسكن، الفراهيدي، العين، 2/ 225؛ الأزهري، تهذيب اللغة، 3/ 50.

3- الأزهري، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، 261؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، 1/ 353.

4-فتوح البلدان، 26 – 27.

5-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 479.

6- محمّد في المدينة، 318.

7-شاس بن قيس: هو شاس بن قيس بن عبادة بن زهير من الأوس، شيخاً عظيم الكفر طاعن في السن من أشراف الأوس في الجاهلية يعتنق اليهودية شديد العداء للإسلام، لم نعرف وفاته، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 289؛ ابن حجر، الأصابة، 1/ 306.

8-يوم بعاث: هو أحد أيام العرب المشهورة بين الأوس والخزرج وقعت عندما كان النبي (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) في مكة قبل الهجرة إلى المدينة بخمسة سنين. ينظر: المسعودي، التنبيه والأشراف، 1/ 177؛ ابن الجوزي، المنتظم، 2/ 386 – 387.

الأوس والخزرج، ما أشعل فتيل العصبيّة القبلية، حتى تنازل وتنافر من الطرفين أوس بن قيظي من بني حارثة الأوسي مع جبار بن صخر من بني سلمة الخزرجي، وامتشقوا سيوفهم فقال أحدهم لصاحبه: ((إن شئتم رددناه الآن جذعة أي ـ رجوعها إلى أول ما يبتدأ بها[1] ـ))[2]، عندها تدخل النبي محمّدﷺ وفض النزاع فقال: ((يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم؟))[3]. وإزاء هذه الحادثة قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[4]. وأنزل الله في أوس بن قيظي، وجبّار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾[5].

كذلك الحال مع بني قينقاع الذين انزعجوا من انتصار النبي محمّدﷺ في معركة بدر فقَالُوا: ((لَمْ يلقَ محمّد مَنْ يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحَد، وأظهروا نقض العهد))[6].

وعلى وفق هذه المعطيات من الأحداث جمع النبي محمّدﷺ بني قينقاع وحذرهم من مكائدهم ودعاهم للإسلام فقال: ((يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسلٌ، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم))[7]، إلا أنهم بادروا الإجابة بالسخرية والاستخفاف برسول الله ﷺ فقالوا: ((يا محمّد لا يغرنّك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا

1-الفراهيدي، العين، 1/ 221.

2- ابن الأثير، أسد الغابة، 1/ 326؛ الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله 304 /1 ،ﷺ؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 247؛ الحلبي، السيرة الحلبية، 2/ 149.

3- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 556؛ السهيلي، الروض الانف، 4/ 252.

4- سورة آل عمران: آية 98 – 99.

5- سورة آل عمران: أية 100.

6- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 479.

7- ابن إسحاق، السير والمغازي، 314-313؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 47.

لعرفت أنّا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا))[1]، فأنزل الله تعالى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾[2].

إلا أن وات حاول نفي الحقيقة ووضع نصّاً يخدم مصلحته قائلاً: ((يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا))[3]، هذا يتلاءم مع أهدافه حتى يصور النبي محمّدﷺ وكأنّهُ متحاملٌ على اليهود وأراد أن يفرض عليهم اعتناق الإسلام بالسيف وفي حالة الرفض يكون مصيرهم القتل مثل قريش، لكنه تجاهل النص الذي ذكره ابن إسحاق الآنف الذكر عن الرسول محمّدﷺ المتضمن تحذير اليهود من خشية الله ﷻ سوف ينزل عقابه فيهم، بما يقترفونه من معصية الله ﷻ ومعارضة النبيﷺ وارتكابهم المؤامرة والدسائس التي ذكرناها أعلاه، فضلاً عن أن مسيرة اليهود عبر التاريخ ملطخة بالمكائد والعصيان لله ﷻ والأنبياء جميعاً.

لقد ساءت العلاقة معهم بسبب تجاوزهم كل الحدود الشرعية وطغيانهم، وخاصة الحادثة المتمثلة في انهاك حرمة امرأة مسلمة عندما قام أحد صيّاغ بني قينقاع بشد طرف ثوبها إلى ظهرها وعندما قامت بانت عورتها، فضحكوا عليها، وصاحت المرأة فامتشق رجلٌ من المسلمين سيفه وقتل الصائغ، فاجتمع يهود السوق على المسلم فقتلوه[4]. كانت هذه الشرارة التي أججت الموقف وربما كانت هي السبب المباشر في إنزال العقاب على بني قينقاع. إلا أنّ المصادر الإسلاميّة لم تسعفنا بذكر اسم الرجل! ولم نجد له ترجمةً ضمن قوائم الصحابة! بل جاءت حادثة مجتزاة.

لم تكن هذه الأسباب فقط، بل رافقها تآمرهم على حكومة المدينة، من خلال تحريض المشركين على اقتحام المدينة، ومدهم بالأموال والسلاح، وكل الدعم المادي والمعنوي للحرب، فضلاً عن التطاول على حرمة الرسول محمّدﷺ من خلال الشتم والسب كما أنهم تآمروا على حياته شخصياً وأرادوا اغتياله[5].

1- أبو داود، سنن أبي داود، 4/ 616؛ البيهقي، دلائل النبوة، 3/ 173؛ السهيلي، الروض الأنف، 4/ 247.

2- سورة آل عمران: الآيتان 12 – 13.

3- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 552؛ البيهقي، السنن الكبرى، 9/ 183؛ ابن الأثير، جامع الأصول، 2/ 65.

4- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 48؛؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، 2/ 146؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 4/ 5

5-المباركفوري، الرحيق المختوم، 222.

وبخصوص السبب في النزاع مع بني قينقاع، قال وات:))رأى محمّد القضيّة سبباً للحرب، أرسل النبي محمّدﷺ قواته لمحاصرة القبيلة، وثم استسلم بنو قينقاع بعد محاصرةٍ دامت خمسة عشر يوماً، وأجبروا على مغادرة المدينة حاملين معهم النساء والأطفال، وأعطوا مهلة ثلاثة أيام لجمع الأموال التي لهم عند الناس، ولكنهم تخلوا عن أسلحتهم وربما عن قسم من ممتلكاتهم كأدوات الصياغة مثلاً))[1]. ونراه في كتاب آخر يعلق على هذه الحادثة بقوله: ((هوجمت قبيلة قينقاع بعد أن سببت خصومة تافهة لموت مسلم))[2]. ومن ثم يشكك بالقضية فقال: ((القليل من الموثوقية يمكن أن تنالها تلك القصة، ذلك أنها تروي أيضاً في أساطير شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأن محمّداً يتحرك بسريّةٍ في ظلّ صراع المصالح بين بني قينقاع وبين المهاجرين وقد غدت فعلاً معظم تجارة المدينة الداخلية بعد ذلك الحدث بأيدي المهاجرين))[3].

وللرد على أقوال وات الذي اعتبرها خصومة تافهة، فهو لم يعرف طباع العرب عامة المتمثلة بحشمة المرأة التي تمثل شرف القبيلة، فضلاً عما جاء به الإسلام من أن في النظر إلى المرأة الأجنبية حرمة شرعية، فما بالك بما فعله اليهودي مع المرأة حيث كشف عورتها في السوق. ولقد تجاهل وات ما فعله اليهود من تماديهم بالشر ولم يعبؤوا بالقيم الخلقية والتقاليد العربية، إذ جبل الإنسان العربي عامة والمسلم خاصة على حماية الشرف وصيانته وعفة النساء من الذل[4].

ولعلّ ما فعله اليهودي مع المرأة المسلمة بدافع إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي، وضياع وقار وهيبة المرأة، حيث قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[5]. إلا أن موقف الرجل المسلم وامتشاق السيف وقتل اليهودي جاء من حكمة وإذا فسدت المرأة فلا تَسَلْ عن هَلَكَة الجيل، فمحافظة منه على شرف المرأة المسلمة كي تربي جيلاً مؤمناً يقرّ بحدود الله ﷻ.

ومن ثم يشكك وات بموثوقية القصة التي تناولتها جميع المصادر الإسلامية، واعتبرها من أساطير الجزيرة العربية، ولربما أطلق حكمه على القصة بأسطورةٍ نابعةٍ من ثقافة مجتمع

1- محمّد في المدينة، 319.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 24.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 170.

4- ابو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 394 – 395.

5-سورة النور: آية 19.

أوروبا الذي عاش فيه اختلاط الرجال بالنساء بقليل من الحشمة، لكن لا أعتقد أن وات غاب عن باله فكرة حشمة العربيات؛ لكنه يبرر لليهود ويلقي باللوم على العرب، ومن ثم يفسرها بالجانب المادي بطموح النبي محمّد ﷺ بالصراع مع بني قينقاع على السوق.

رغم أن هذه الحادثة قد لا تُستبعد لكن السبب الرئيسي يبدو سيطرة المهاجرين ونجاحهم في التجارة ومنافستهم للتجار اليهود؛ لأن المهاجرين من مكة هم في الأصل تجاراً وأظهروا مهارة جعلت اليهود يتخوفون على مصالحهم وتجارتهم.

ومن أولى اهتمامات النبي محمّد ﷺ في المدينة هو الجانب الاقتصادي لارتباطه الوثيق بالكيان السياسي الذي أسسه النبي ﷺ في المدينة، وبنظرةٍ فاحصة لأسواق المدينة التي يسيطر عليها اليهود، فهذا يشكل خطراً كبيراً متمثّلاً في وجود دولةٍ داخل دولة، فكان لا بدّ من إجراءٍ إداريٍّ سريعٍ يحوّل هذه السيطرة بيد أبناء الأمة الجديدة، فبحث عن مكان آخر في المدينة يجعله سوق تجاري[1]، فذهب النبي ﷺ مع أصحابه إلى سوق النبط[2] فنظر إليه فقال: ((ليس لكم هذا السوق))[3].

ثم رجع إلى هذا السوق الذي أشار عليه أحد أصحابه فطاف فيه فقال: ((نعم هذا سوقكم لا ينتقص ولا يضرب عليه خراج))[4].

واستطاع المسلمون بحسن تعاملهم أن يحوّلوا الناس من سوق اليهود إلى سوقهم ما جعل كعب بن الأشرف[5] يدخل إلى سوق المسلمين ويقطع أطنابها[6]، فقال رسول الله

1- محمد، أحمد، الجانب السياسي في حياة الرسول، 69.

2-سوق النبط: سوق كانت موجودة بالمدينة المنورة منذ العصر الجاهلي، وكانت تقام مرة في العام، والنبط: الواحد نبطي، ونباطي بتثليث النون، والجمع أنباط؛ ونبيط: قوم من العجم كانوا ينزلون بين العراقين فسموا نبطا، لاستنباطهم ما يخرج من الأرض، ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم، ومنه يقال: كلمة نبطيّة، أي: عاميّة، ولا علاقة لهم بدولة الأنباط المعروفة. ينظر، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، 3/ 58؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 7/ 72؛ شراب، محمّد بن محمد، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، 145.

3-ابن شبه، تاريخ المدينة، 1/ 304؛ ابن أبي عاصم، الآحاد والمثاني، 2/ 454.

4- ابن شبه، تاريخ المدينة، 1/ 304؛ ابن ماجة، سنن ابن ماجة، 3/ 343.

5-كعب بن الأشرف: هو كعب بن الأشرف من بني نبهان بطن من طي، شاعر جاهلي، وأمه من يهود بني النضير، فاعتنق اليهودية وشرف في أخواله وسكن معهم، وأدرك الإسلام ولكنه ناصب المسلمين العداء. وحرض قريشا على الانتقام من المسلمين بعد هزيمتهم في بدر وهجا رسول الله ﷺ وآذى المسلمين والمسلمات، قتل بين بدر وأحد. ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 379؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 51؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 225.

6-أطنابها: مفرها طنب هو حبل يشد به الخيمة والخباء والسرادق، وهو يتكون من مجموعة خيوط كثيرة. ينظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، 18/ 359.

ﷺ: ((لا جرم لأنقلنّها إلى موضع هو أغيظ له من هذا فنقلها من موضع بقيع الزبير[1] إلى سوق المدينة))[2].

ولعلّ هذا الأسلوب التهجمي الصارم الذي اتبعه كعب بن الأشرف، كان في الأشهر الأولى للهجرة حيث لا يزال لليهود نفوذٌ قويٌّ، ويلاحظ أيضاً أن كعب بن الأشرف شعر أن مصالح اليهود الاقتصادية قد أصبحت في خطر نتيجة منافسة السوق الجديد.

لقد كان هذا التصرف من كعب حافزاً للنبي محمّدﷺ بأن يفكر جديّاً بطرد اليهود من المدينة، وكذلك اليهود عامة كانوا يتحينون على المسلمين، وكانوا يستغلون الأوضاع الاقتصادية، بما يعملون من مضاربات تجارية، فضلاً عن التعامل بالربا وقد حرمه الإسلام وكان بنو قينقاع أول من طرد وبعدها استطاع النبي محمّدﷺ أن يمسك بزمام الاقتصاد المدني ويوجهه الوجهة الإسلاميّة الخالية من كل استغلال وجشع[3]، لذلك فقد تظافرت عوامل عدة كانت سبباً لطردهم من المدينة.

أما بخصوص القبيلة الثانية من اليهود وهم بنو النضير، فقد تفاوض النبي محمّدﷺ معهم لمساهمة المسلمين بدفع دية الرجلين من بني عامر بن مالك بن النجار اللّذين قُتلا بحادثة بئر معونة[4]، ولبّى النبيﷺ دعوتهم لوجبة طعام أعدوها وحيكت معها خيوط مؤامرة قتل النبي محمّدﷺ من قبلهم وعلى يد عمرو بن جحاش[5]، وذلك برمي حجارة على رأسه

1-بقيع الزبير: موقع في المدينة يعرف بالبقال ويسمى بقال بقيع الزبير، والبقيع هو المكان الذي تكثر فيه الأشجار، وسمي نسبتاً إلى الزبير بن العوام الذي أقطعها له النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/ 470؛ شراب، محمد، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، 52.

2- السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، 2/ 257.

3- كرمي، أحمد عجاج، الادارة في عصر الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، 79 – 80.

4-بئر معونة: بئر معونة هو ماء من مياه بني سليم وبني عامر، قدم عامر بن مالك بن جعفر أبو البراء على رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) وقدم له هدية رفضها النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) كون صاحبها مشركاً، طلب عامر من النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) أن يرسل معه الصحابة لدعوة قومه للإسلام وتعهد بحمايتهم، أرسل النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) معه سبعين من الصحابة سنة (3هـ/ 624م) وفي بئر معونة غدر بهم عامر واستشهد الصحابة دعاة الإسلام. ينظر: الواقدي، المغازي، 1/ 346 – 347.

5-عمرو بن جحاش: هو عمرو بن جحاش بن كعب بن بسيل النضري، من أعداء الإسلام وحاول الغدر بالنبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم)، لم يسلم، وبعد أن أسلم ابن عمه يامين بن عمير بن كعب عاتبه النبي (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) على فعل ابن عمه عمرو فقتله يامين لغدره بالنبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم). ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 2/ 61؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 5/ 538.

الشريف من سطح الدار، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما عزم عليه اليهود، فانسلّ النبي ﷺ من دارهم راجعاً إلى المدينة، وأمر المسلمين بالتهيؤ لقتالهم، وتم محاصرتهم وأمرهم بمغادرة المدينة وإلا الموت[1]. إلى جانب وحي السماء المسدّد لخطى النبي محمّد ﷺ وحمايته كذلك حسن استخدامه للجانب الاجتماعي، وفطنته أيقظ انتباهه للمؤامرة التي حيكت لقتله.

ولقد أضاف وات بأن محمداً ﷺ عقب الحادثة باعتقاده يجب على بني النضير دفع القسم الأكبر من الديّة مقارنةً ببقية سكان المدينة كونهم حلفاء بني عامر، بل إنّ بني النضير لم يعتقدوا هذا بل يجب عليهم دفع القليل[2]، وهذا لم يرد ذكره في المصادر الإسلاميّة ولعل وات اجتهد بإضافة تفسيره المادي للأحداث، كي يعطي صورة للنبي محمّد ﷺ بأنّه ابتز بني النضير بدفع المبلغ الأكبر من الدية، إلا أن دستور المدينة حددها على الجميع بالتساوي. يبدو أن البيئة العربية الصحراوية لها أثر في البناء التاريخي لدى وات فاعتقد بأن كل حركات الرسول ﷺ بناءً على المادة والربح لانتشال العرب من الفقر.

وقد شكك وات في محاولة تآمر بني النضير على قتل النبي محمّد ﷺ فقال: ((يبدوا إنذار محمّد ﷺ لبني النضير غير متناسبٍ مع حجم اعتدائهم أو بالأحرى لم يكن مناسباً لتلك الأسباب الواهية الظاهرية التي قدمها، بأنهم كانوا يفكرون في الغدر به))[3].

واتخذ وات أسلوب التشكيك بقول النبي محمّد ﷺ عندما أخبر أصحابه بتآمر بني النضير على قتله، لأنه يتعلق بالجانب الغيبي المتمثل بإيحاء الله ﷻ إلى النبي محمّد ﷺ بالخطر المحيط به، ومن المعروف أن وات يستبعد التسديد من الله ﷻ بحفظ النبي ﷺ كونه مكلفاً بأداء رسالةٍ سماوية، وعلى الرغم من عدم ذكر مؤامرة الغدر في نص القرآن، إلا أنه لا يمنع نزول الوحي بالتحذير.

وبعد التشكيك يعطي وات احتمالات دفعت النبي محمّد ﷺ لطرد بني النضير يقول: ((ربما السبب الظاهر بعد كارثة بئر معونة التي ألمّت بالمسلمين، أصبح أهل المدينة منزعجين من اليهود بسبب علاقاتهم مع قبيلة بني عامر، ومن المرجح كان محمّد ﷺ يهدف

1- الواقدي، المغازي، 1/ 363 – 367؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 3/ 199 – 203؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 551 – 552.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 192.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 193.

بأفعاله تلك، إلى رفع معنويات المسلمين بعد المصائب الأخيرة التي حلّت بهم، ومن جهة أخرى لتقوية مكانته في المدينة))[1].

ومثل هذه الادعاءات الواهية التي قدمها وات لا دليل عليها، فإذا كانت حادثة بئر معونة هي السبب فما ذنب بني النضير وهم براء منها، لعل وات أراد أن يصور للقارئ أن محمداًﷺ كان متعطشاً للحرب مع اليهود ومصادرة أموالهم بدون سبب بل كان وليد رغبةٍ صادقةٍ للتخلص منهم كونهم يهوداً، وأن الرسول يحاول تعويض هزيمته وتقوية مكانته بالمدينة.

ونسي أنه عند قدوم النبي محمّدﷺ المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه[2]، إلا أنهم تآمروا على المسلمين لما جاء أبو سفيان على رأس قوات في غزوة السويق[3]، ونزلوا عند قبيلة بني النضير فاستقبلهم سيدهم سلام بن مشكم[4]، فقرى وسقى وكشف لهُ عن خبر المسلمين، وبعث أبو سفيان فرسانه فعاثوا فساداً في بعض مزارع الأنصار وقتلوا رجلين من الأنصار[5].

إن قرار النبي محمّدﷺ بإخراج بني النضير من ديارهم إلى بلاد الشام لم يكن شخصياً أو ارتجالياً لسبب تافه كما يدعي وات، بل جاء بأمرٍ وتوجيه من الله ﷻ، كما جاء في سورة الحشر التي نزلت آياتها بحق بني النضير، وأوشك ابن عباس أن يسميها سورة بني النضير[6] فقال تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**

1- محمّد النبي ورجل الدولة، 195.

2- الديار بكري، تاريخ الخميس، 1/ 460؛ القاري، شرح الشفا، 2/ 423.

3-غزوة السويق: بعد خسارة المشركين في معركة بدر تحمس أبو سفيان للثأر من المسلمين فقدم المدينة متخفياً ومعه سبعين رجل، أغتالوا رعاة المسلمين وحرقوا الحرث، ولما سمع النبي ﷺ خرج لطلبهم، هرب أبو سفيان ومن معه وهم يرمون متاعهم السويق أي الشعير ممزوج بالدهن، ويجمعه المسلمين وسميت بغزوة السويق سنة (2هـ/ 623م). ينظر: الواقدي، المغازي، 1/ 181.

4-سلام بن مشكم: سلام بن مشكم بن الحكم بن الحارثة بن الخزرج القرظي، من يهود المدينة الأكثر عداء للإسلام، زوجته زينب بنت الحارث بعد فتح خيبر سعت للغدر بالنبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) وأصحابه قدمت له شاة مسمومة، وكان خماراً في الجاهلية، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 95؛ أبن الأثير، اسد الغابة، 1/ 30.

5- الواقدي، المغازي، 1/ 181 – 182؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 3/ 47 49-.

6- الواحدي، أسباب نزول القرآن، 310 – 314؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 5/ 283 – 285.

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

ومن أساليب الحرب محاولة إضعاف الخصم اقتصادياً، وإخضاعه لشروط الجلاء، متمثلة بقلع أشجار النخيل كونها مصدر قوة اليهود، ولهذا أمر النبي محمّدﷺ بقلع نخيلهم وتجريفها ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم، ولم يكن هذا فساداً إنما هو وسيلة لنشر السلام والأمان والتقليل من إراقة الدماء، وكان هذا عقوبة بأمر الله ﷻ وإذنه[2]، كما في قوله تعالى: ﴿**مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾[3].

وربّ سائلٍ يسأل كيف يقطع النبي محمّدﷺ النخيل والأشجار وفي وصاياه للجيش يأمرهم بغير ذلك؟ وهذا الأمر كان لضرورةٍ عسكريّةٍ لكونهم كانوا قد اتخذوا من النخيل والأشجار سواتر يقاتلون من ورائها، ولكي لا تحصل خسائر كبيرة من قتلى أو جرحى للمسلمين، فكان لا بد من قطع تلك الأشجار لتكون الساحة مكشوفة فيتحرك المقاتل بحريةٍ وسهولةٍ، كما أنه يستطيع تلافي النبال والسهام.

أما عن القبيلة الثالثة من يهود المدينة وهم بنو قريظة فقد انتقلت من المسالمة والموادعة مع رسول اللهﷺ التي عقدها كعب بن أسد القرظي[4] إلى الحرب بجانب الأحزاب في غزوة الخندق، وبتحريضٍ من حيي بن أخطب الذي حثهم على نصرة الأحزاب ومزقوا الصحيفة[5]. إذ كان زعماء اليهود قد أغروا قريش والقبائل الأخرى بغزو المدينة وتعهدوا بمدهم بالأموال والسلاح.

1- سورة الحشر: الآيات 1 – 4.

2- أبو شهبه، السيرة النبوية في ضوء القرآن و السنة، 400.

3- سورة الحشر: آية 5؛ ينظر السمعاني، تفسير القرآن، 5/ 398؛ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، 4/ 501؛ النسفي، مدارك التنزيل في حقائق التأويل، 3/ 456.

4-كعب بن أسد القرظي: هو سيد بني قريظة وحليف الأوس قبل قدوم النبي (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) إلى المدينة عقد معه ميثاق حلف وأمان بين المسلمين وبني قريظة، لكنه نقض العهد وتحالف مع حيي بن أخطب مما تسبب في وقوع غزوة بني قريظة سنة (5ه/ 626م) أدت إلى مقتله مع بني قريظة. ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 221 و235 و243؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 130.

5- الطبري، جامع البيان، 19/ 130؛ العاني، عبد القادر، بيان المعاني، 5/ 465؛ المدخلي، إبراهيم بن محمد، مرويات غزوة الخندق، 244.

ولنكثهم العهود في وقت الحرب، أمر رسول اللهﷺ محاصرتهم، وبعد الاستسلام أوكل الحكم فيهم الأنصاري سعد بن معاذ الأوسي إذ حكم بقتل الرجال وسبي النساء، ونفذ بحقهم القصاص لما فعلوا من تآمرٍ على المسلمين أيام الحرب[1] .

وعَدَّ وات رأيه عن مصير بني قريظة هو جزءٌ من الرأي السائد في أوروبا والقائل ((بأن الصنيع الذي قام به محمّد بحق بني قريظة باعتبارها مذبحةً ودعوةً للعمل الوحشي وغير الإنساني))[2].

وهذا الرأي غير صحيح لأن النبي محمّدﷺ هو نبي الرحمة والإنسانية. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[3]، ومن مبادئه هو احترام الإنسان والإنسانية، وإشاعة روح الأخوة بين البشر وعدم التفرقة بينهم إذ قال: ((الناس ولد آدم وآدم مِنْ تراب))[4] وتحقيق مبادئ المساواة بين جميع الناس قال: ((الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إنما الفضل بالتقوى))[5]، وكان يوصي أصحابه إذا خرجوا في غزوة أن يتحلوا بالأخلاق الإسلاميّة فيقول لهم: ((... ولا تقتلوا امرأةً، ولا صغيراً ضرعاً، ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعن شجرةً، ولا تعقرن نخلاً، ولا تهدموا بيتاً))[6]. وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنّه يدل على المعاني الإنسانية التي جاءت بها الرسالة الإسلامية.

أما الأسباب التي دعت النبي محمّدﷺ لمعاقبة بني قريظة فمنها:

1 - إن الموقف المشين لبني قريظة اتجاه الرسولﷺ خاصة والمسلمين عامة شكل خطراً كبيراً على حياة النبيﷺ والدولة الإسلاميّة كاد أن يودي بحياة الجميع؛ لذا كان الحكم صادراً من حجم تآمرهم وقت الحرب وطعن المسلمين من الظهر قد سبب موقفاً حرجاً وأزمةً على الصعيد السياسي والعسكري والاجتماعي، وقد صور اللهﷻ الموقف الحرج في قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ**

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 3/ 251 – 252؛ ابن سعد، الطبقات، 2/ 277.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 221.

3-سورة الأنبياء: آية 107.

4-البيهقي، السنن الكبرى، 9/ 154.

5-السرخسي، المبسوط، 5/ 23.

6-البيهقي، السنن الكبرى، 9/ 154.

الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1]. لذلك يحق للنبيﷺ والمسلمين إنزال القصاص العادل بحق بني قريظة لخطورة الموقف على الإسلام والمسلمين.

2- إنّ دماء بني قريظة معلقة في عنق حيي بن أخطب، فهو الذي نقض العهد بين قومه بني النضير والنبي محمّدﷺ وتم إجلاءهم بدون قتل، وفي يوم الأحزاب سار إلى قريش وغطفان لتأليبهم للحرب ضد النبيﷺ، وهو الذي حرض بني قريظة لمواجهة المسلمين، ولو أنهم لم يصغوا له والتزموا بحكم النبي لما آل مصيرهم بهدر دمائهم، لكن موقفهم بلغ العداوة حداً أصبح من غير الممكن الإبقاء عليهم وإعطائهم فرصة ثانية للظفر بالمسلمين ودين الإسلام[2].

3- إن يهود بني قريظة عملوا على نشر الدس والمؤامرة وزرع الفتن ونشر الاضطراب والقلاقل في مجتمع المدينة، حتى يخلخلوا الجبهة الداخلية، ما تسبب في زعزعة الأمن وتقويض السلم، ما حمل الرسولﷺعلى محاربتهم والفتك بهم؛ فقال تعالى ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**﴾[3]، وفي سياق الآية نفسها قال تعالى: ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾[4]. وجميع أنواع الفتنة والتضليل الذي عمله ويعمله المبطلون للصد عن سبيل الله وإغراء الناس على الخروج من حكم دينه وعداء أهله وإيذائهم، هي أشد من القتل وأكبر لا محالة[5].

4– لم يتعظ بنو قريظة بما حل بأقرانهم يهود بني قينقاع وبني النضير إذ تم إجلاءهم من المدينة نتيجة تآمرهم على المسلمين، وهم يعرفون شخصية النبي محمّدﷺ تتصف بالحزم والوفاء بالوعد إزاء القضايا التي تخص مصير الدين والأمة.

5– واللافت للنظر أن اليهود يعرفون نوع الحكم الذي سينفذ في حقهم حالة الخيانة

1- سورة الاحزاب: آيات 10 – 13؛ ينظر الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 8/ 10؛ القشيري، لطائف الارشاد، 3/ 154.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 562؛ انظر كذلك هيكل، حياة محمّد،283.

3- سورة البقرة: آية 191.

4- سورة البقرة: آية 217.

5- الدوسري، عبد الرحمن بن محمد، الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، 1/ 76.

حسب ما جاء في سفر التثنية[1]، فعندما حاصر الرسول محمّدﷺ بني النضير قال سلام بن مشكم إلى حيي بن أخطب حسب الرواية الإسلاميّة: ((يا حيي أقبل هذا الذي قال محمد، فإنما شرفنا على قومنا بأموالنا، قبل أن تقبل ما هو شر منه، قال: ما هو شر منه؟ قال: أخذ الأموال وسبي النساء وقتل المقاتلة))[2]. ويرى أحد الباحثين أنّه من الممكن القول أن سعد بن معاذ كان مطلعاً على التوراة قبل إصدار حكم القتل بحق بني قريظة[3]. وهذا القول يؤكده المستشرق بودلي[4] يقول: ((لو فكر يهود المدينة في الأمر لوجدوا أن محمداً ما فعل شيئاً أكثر أو أقل من تنفيذ التعليمات التي وضعها قومهم في الاصحاح العشرين من سفر التثنية الاشتراع)).

6 – ولم يكن الخروج إلى بني قريظة إلا بأمر من اللهﷺ بواسطة جبرائيل عليه السلام فقال النبي محمّدﷺ: ((لا يصلي أحد العصر إلاَّ في بني قريظة))[5]، وجاء تسديد الله جل جلاله بالحكم العادل بحق بني قريظة أنهم لم يُقتلوا جميعهم بل قُتل قادتهم ومن تورط بالتآمر معهم أما القسم الثاني فقد أسروا كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا**﴾[6].

إلاَّ أنَّ وات يشكك بوجود التزام بينهم وبين النبي محمّدﷺ يقول: ((في الجزيرة العربية عندما تكون القبائل في حالة حرب، وليس لديهم اتفاق في ما بينهم، فإنهم يكونون في حلٍّ من الالتزام تجاه بعضهم البعض))[7].

1-سفر التثنية: الاصحاح 20، الحرب والمحاربة فتح المدن: ((وإذا قدمت إلى مدينة لتقاتلها فأدعها أولاً إلى السلم فإذا أجابتك بالسلم وفتحت لك أبوابها فكل القوم يكون لك تحت السخرة ويخدمك وإن لم تسالمك بل حاربتك فحاصرها وأسلمها الرب إلهك إلى يدك فأضرب كل ذكر بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتنمها لنفسك ولك غنيمة أعدائك ألتي أعطاك الرب إلهك أياه. ينظر: سفر التثنية: الاصحاح 20 الآيات 10 - 15.

2- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 553.

3-الجميل، محمّد بن فارس، النبي ﷺ ويهود المدينة، 274.

4-الرسول محمد، 193.

5- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضلة، 2/ 867؛ ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، 8/ 408.

6- سورة الأحزاب: آية 26. ينظر ابن عطيه، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 4/ 379؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 3/ 459.

7- محمّد النبي ورجل الدولة، 221.

الالتزام والحلف جزء من سلوك العرب فهو جزء من سياسة النبي ﷺ معهم كونهم اعتادوا عليه. فمثل هذا الادعاء عارٍ عن الصحة، لأن وات تجاهل ما اجتمع عليه كتاب السيرة حول عقد المصالحة بين النبي محمّد ﷺ وبني قريظة، وسيدهم كعب بن أسد القرظي وادع رسول الله ﷺ[1]، وفي معركة الخندق نقضوا العهد وانضموا إلى الأحزاب، وكعادة النبي محمّد ﷺ في تمحيص الأخبار فأرسل وفداً من كبار الأنصار وهما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة بغية التأكد من صحة ما يقال عن نقض العهد، فأجابهم كعب: ((من رسول الله؟!! لا عهد بيننا وبين محمّد ولا عقد))[2].

ولعلّ وات أراد من هذه الشبهة أن يبرئ بني قريظة من عدم اشتراكهم في الحرب مع المسلمين لعدم اتفاقهم مع النبي محمّد ﷺ فهم في حلٍّ من ذلك، ومن ثم يكون إنزال القصاص بهم مخالف لأعراف شبه الجزيرة العربية، ونراه يتجاهل الصحيفة على الرغم من أنها تلزمهم بالدفاع عن المدينة.

ثم أوضح موقف النبي محمّد ﷺ من تنفيذ القصاص تجاه بني قريظة قائلاً: ((أن محمداً فاجأ معاصريه في قيامه بتلك المذبحة في حق جميع ذكور بني قريظة، هو لم يكن خائفاً من عواقب تصرفه))[3].

لقد تمادى بنو قريظة بالاعتداء على المسلمين وشكلوا خطراً حقيقياً، بينما كان المسلمون يعملون في حفر الخندق، وإذا استأذنوا الرسول ﷺ بالذهاب إلى أهليهم في منتصف النهار ينهاهم الرسول ﷺ وإذا ألحوا عليه أمرهم أن يأخذوا السلاح خوفاً عليهم من غدر بني قريظة فيقول: ((إني أخاف عليكم بني قريظة))[4].

فكان رسول الله ﷺ لا يأمن على أصحابه من بني قريظة كونهم على طريق المسلمين، لأنه يخشى غدرهم في أي لحظة، وما تربصوا به للمسلمين أن يأخذوهم على حين غرة.

1-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 237؛ مسكوية، تجارب الأمم، 1/ 258؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 2/ 37.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 222؛ ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 257؛ السهيلي، الروض الأنف، 6/ 256؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 2/ 88؛ النجار، الدرة الثمينة في أخبار المدينة، 232.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 221.

4- الواقدي، المغازي، 2/ 474؛ المقريزي، إمتاع الأسماع، 1/ 238؛ الصالحي، سبل الهدى والرشاد، 4/ 381.

زيادة على ذلك فقد بالغوا في عدائهم للمسلمين حتى كانوا يمدون قريشاً في أثناء الحصار على المسلمين بالتمر والشعير وحتى أعلاف الماشية[1].

أما بخصوص سعد بن معاذ الذي أصدر الحكم بحق بني قريظة، فقد أجاد وات الحكم بأن محمداً ﷺ لم يمارس ضغطاً على سعد لمعاقبة بني قريظة، لأن سعداً لم يغلّب ولاءه للعشيرة أو القبيلة على الولاء للجماعة الإسلاميّة، بل حكم بناءً على واجبه تجاه الله ﷻ والمجتمع الإسلامي[2]. فهي الخيانة العظمى حسب رأي وات.

أما بخصوص تنصيب سعد بن معاذ للحكم على بني قريظة بتكليف من قبل النبي محمّد ﷺ وهو الحاكم الرئيسي للمدينة بموجب الدستور، لعله راجعٌ لأسباب منها:

1 - مكانة سعد بن معاذ بين قومه الأوس وهو شيخهم وبني قريظة حلفائهم فلا يعترض الطرفان على الحكم.

2 - إضافة أن الرسول ﷺ أراد مشاركة أصحابه معه في إدارة الدولة الإسلاميّة فضلاً عن صنع القرار السياسي.

3- أراد أن لا يثير غضب أهل المدينة بأن رسول الله ﷺ يتحكم برقاب أهل المدينة وحلفائهم وعلى المجمل جاء حكم سعد مثل ما توقعه الرسول ﷺ لذا قال لهُ: ((لقد حكمت فيهم مثلما حكم الله من فوق سبع سماوات))[3].

4 – تحكيم سعد بن معاذ جاء بطلب من بني قريظة وكانوا يأملون أن يشفع لهم كما شفع ابن أبي في بني النضير.

وللباحث رأي بما ذكرته المصادر الإسلاميّة عن مذبحة بني قريظة! واقتلاع النخيل! ماهي إلّا افتراءات اليهود على سيرة النبي محمّد ﷺ، فهي تحمل في سطورها طابعاً إسرائيليّاً بإظهار اليهود بدور المضطهدين، ومحاولة تشويه صورة النبي محمّد ﷺ الذي بعث رحمة للعالمين.

1- السمهودي، وفاء الوفاء، 1/ 304؛ الحلبي، السيرة الحلبية، 2/ 647.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 222.

3-البخاري، صحيح البخاري، 4/ 28؛ الطوسي، المبسوط في فقه الإمامية، 2/ 17؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 2/ 604.

4 المبحث الرابع

علاقة النبي محمّدﷺ مع القبائل العربيّة والوفود

يعتز الإنسان العربي بانتمائه إلى القبيلة التي بمجموعها تكوّن المجتمع العربي، وتعد القبيلة نظاماً سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً متكاملاً، ويتآلف أبناؤها تحت لواء زعيم القبيلة، ولهذا الأثر الذي تضطلع به القبيلة واستكمالاً لنشر الدين الجديد كان للنبي محمّدﷺ أثرٌ بارزٌ في توحيد القبائل العربية تحت مظلة الإسلام. إلاّ أن وات قدم صورةً قاتمةً لعلاقة النبي محمّدﷺ مع القبائل العربية فقال: ((كان هدف محمّدﷺ في السنة الأولى والثانية بعد الهجرة كسب الأصدقاء، بحيث إنه حين ذهب وأصحابه للحرب كانوا يستطيعون التنقل بحرية دون خوف من الرجم. ويقال أنه عقد أثناء غزوة نخلة[1] معاهدةً مع مدلج وضمرة... استفاد محمّدﷺ في علاقاته مع كنانة وخزاعة وسائر القبائل المجاورة لمكة من تنازع المصالح داخل دائرة نفوذ مكة... وربما هدفه الأول هو مجرد إقامة علاقات صداقة معها. ثم أخذ هدف آخر له يظهر شيئاً فشيئاً وهو كسب الأنصار للقيام بالغزوات))[2].

لكن في الحقيقة أن النبي محمّدﷺ سعى حين وصوله المدينة المنورة إلى ضرورة إقامة علاقات طيبةٍ ووطيدةٍ مع القبائل العربية القاطنة أطراف المدينة وحتى الأبعد منها في شبه الجزيرة العربية؛ وذلك إدراكاً منهﷺ للواجب الذي تمليه عليه الأخوة الإنسانية التي تدعوه لإقامة علاقات طيبة مع أخيه الإنسان ولإدراكه الكامل لأهمية طيبة المجتمع العربي واستغلالها لأجل نشر الإسلام حتى يأخذ صفته العالمية التي أرادها الله ﷻ له لطبيعة الدعوة الإسلاميّة صفة عالمية وحسب ما أشار الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[3]، وقوله: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾[4].

1-غزوة نخلة: هي سرية نخلة وليس غزوة، أمر بها النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) عبد الله بن جحش وأعطاه كتاب وأمره بفتحه بعد المسير على يومين، ولما فتحه وجد فيه التوجه إلى نخلَة وهي بستان ابن عامر، ولم يستكره أصحابه على السير، وافقه الصحابة على السير لأجل التصدي لعير قريش وتكللت بالنجاح للمسلمين، كانت قبل معركة بدر سنة (2هـ/ 624م). ينظر: الواقدي، المغازي، 1/ 13– 14.

2- محمّد في المدينة، 126 – 127.

3- سورة الأنبياء: آية 107.

4- سورة الفرقان: آية 1.

وهذا يؤكد عالمية الرسالة المحمّديّة، وعدم تخصيصها على الإطلاق لقبيلة أو قوم، على الرغم من أن النبي محمّدﷺ أُرسل إلى قومه في بادئ الأمر، إلا أن نطاق دعوته اتسع حتى تستوعب كلّ الإنسانية، لقولهﷺ: ((يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم خاصة، وإلى الناس عامة))[1]، وفي السياق نفسه قال: ((وإنما بعثني اللهُ رحمة للعالمين))[2]، ومرة قال: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[3]، وفي زيادة عند ابن حنبل[4]: ((بعثت إلى الأحمر والأسود، وكان النبي إنما يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة،...)). والمقصود بالأسود العرب لأن غالب ألوانهم الأدمة أي أسمر يميل للسواد، والحمر هم العجم[5]. فرسالات الأنبياء من قبله كانت لأقوامهم، ورسالته كانت أعم وأشمل من باقي الرسالات، وهي أيضاً تتفق مع الشرائع السابقة وتستوعب أممها.

يرى الباحث بأن هنالك سبباً آخر دفع النبي محمّدﷺ بالتقرب من القبائل العربية؛ كونهم وثنيين وليس لديهم معتقدٌ دينيٌّ يوحدهم، فهم بالفطرة يبحثون عن نبي يزودهم بالغذاء الروحي والديني لذا كانوا أسرع لقبول الدين الإسلامي الجديد، الذي خلصهم من الشرك والأوثان.

لقد خص الله ﷻ العرب بحمل رسالة الإسلام ووصفهم خير أمة أخرجت للناس لذا أخذ النبي محمّد ﷺ بحثّ الخطى لدخول العرب في الإسلام وتحملهم أعباء هذه الرسالة السماوية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[6].

1- ابن حنبل، فضائل الصحابة، 2/ 712؛ المقدسي، الأحاديث المختارة، 2/ 72؛ المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، 13/ 175.

2- الطبراني، المعجم الكبير، 6/ 259؛ البيهقي، شعب الأيمان، 8/ 474.

3- الهيثمي، موارد الضمآن، 1/ 328.

4-مسند أحمد، 22/ 165.

5- الكليني، الكافي، 1/ 480؛ البغوي، شرح السنة، 14/ 217.

6- سورة آل عمران: آية 110.

1 - التوجه نحو شمال شبه الجزيرة العربية:

وجه النبي محمّدﷺ بعض السرايا إلى الجهة الشمالية من شبه الجزيرة العربية باتجاه طرق تجارة مكة والشام؛ لإخضاع القبائل العربية القاطنة على الطريق ودخولها الإسلام، وسلط وات الضوء على هذه الأحداث فقال: ((لقد أدرك محمّد على الأقل بعد غزوة دومة الجندل في أغسطس وسبتمبر 626م الأهمية الاستراتيجية في توسعه في هذه الجهة إلى الشمال... لا يمكن أن يكون اهتمام محمّدﷺ بالطريق إلى الشمال مصادفة محضة: فمن غير المرجح على الإطلاق، أن يكون اهتمام محمّدﷺ الرئيسي بالقبائل الشمالية بسبب اهتمامهم بالإسلام))[1].

ويعطي وات أسباب اهتمام النبي محمّدﷺ بالطريق تجاه الشمال[2]:

1 – يرجع جزئياً إلى إدراكه أهمية التجارة السورية في الاقتصاد المكي، لذا كثف محمّد ﷺ من غزواته ضد القوافل المكيّة، وسد طريق تجارتهم إلى الشمال.

2 – كان ضرورة التوجه بتلك الغزوات خارجياً باتجاه الشمال استجابة لاندفاع العرب في أعمال السلب أو الغزو.

نلاحظ أنّ السببين اللذين طرحهما وات يفسران الجانب المادي من السيطرة على الطرق التجارية، والثاني أيضاً فحواه مادي يعتمد على الغزو والسلب، إلا أن وات قد أهمل سبباً أهم مما سبق يتضمن إقامة سياسة النبي محمّدﷺ بعد فتح مكة سنة (8هـ /630م) على فصل القبائل المسيحية عن الدولة البيزنطية والدولة الفارسية وذلك لتحقيق الاستقلال الكامل في شبه جزيرة العرب حتى تصبح الدولة الإسلامية بعيدة عن التدخلات الأجنبية ولا وجود فيها لأيّ قوّةٍ سياسيّةٍ بعد أن اندحرت القوة الرئيسية والمتمثلة بزعامة قريش.

تعد هذه المنطقة ـ شمال شبه الجزيرة العربية ـ منطقةً مهمةً للدولة العربية وتعدها ضمن أراضيها التي يجب أن تُحمى وتكون تحت سيادتها، ولمنع توغل الدول المجاورة فيها وتتمتع بذات الأهمية لتلك الدولة كونها تشكل موقعاً جغرافياً مهماً تمثل بإطلالة على حدود الدولة الناشئة، ولما عزمت قريش على غزو المدينة بدأت تجمع حولها القبائل العربية القاطنة

1- محمّد النبي ورجل الدولة، 131 – 132.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 233.

حول مكة والمدينة لتحقيق مبتغاها، ومن رجاحة عقل النبي محمّدﷺ وحنكته العسكرية كان يراقب تطلعات وتحركات أعداء الإسلام فلذا سارع بتوجيه بعض السرايا والغزوات إلى الطرف الشمال الغربي من الجزيرة العربية كضربةٍ استباقيةٍ لمنع انضمام القبائل العربية الشمالية مع التحالف المعادي للإسلام الذي يقوده مشركي مكة في دومة الجندل[1]، وكان لهذه العمليات العسكرية الاستباقية نتائجُ وطّدت دعائم الحكم الإسلامي وقوّت ساعد المسلمين وشلّت حركة قريش.

وكذلك كان هنالك عدوٌ آخر متمثلٌ بالدولة البيزنطيّة التي كانت تراقب عن كثبٍ تقدم القوات الإسلامية، وكانت رغبة القيصر في إيقاف هذا الزحف متخذاً من القبائلٍ العربية المسيحية التابعة لإمبراطورية الروم درعاً لكبح جماح التقدم الإسلامي باتجاه الشمال، فقد بان للنبي محمّدﷺ أهميّة جبهة الشمال؛ لذا سبق الأحداث بالتوجه نحو الشمال حتى يفشل خطة القياصرة قبل أن يتمكنوا من تحقيق أهدافهم[2]. ومن أهم القبائل في الشمال هي تميم، وبكر بن وائل، وتغلب، وحنيفة، ولخم، وكلب، وكندة، وقد تمكن النبي محمّدﷺ من فرض سيطرته على تلك القبائل في الجبهة الشمالية، إما باعتناقهم الإسلام، أو دفع الجزية مقابل توفير الحماية وحرية المعتقد، كما حدث بعد غزوة تبوك مع يوحَنا بن رؤبة صاحب أَيْلَة[3] وأكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل[4]، وهما سيدان لقبيلتين نصرانيتين.

لقد أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فقد دأبت قبيلة كلب بن قضاعة التي كانت تنزل دومة الجندل على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعًا من الحصار الاقتصادي عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة، ولذلك غزا رسول اللهﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (5هـ/ 627م)[5]. فكانت بهدف نشر الإسلام أولاً، ومنع الأذى عن تجار المسلمين ثانياً.

1-الشيباني، الرسول في الدراسات الإسلاميّة المنصفة، 64 – 65.

2- بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، 112.

3- الواقدي، المغازي، 3/ 1031؛ ابن هشام، السيرة، 2/ 525.

4- الواقدي، المغازي، 3/ 1031؛ ابن حزم، جوامع السيرة النبوية، 253.

5- الواقدي، المغازي، 1/ 402 – 404.

حدّد وات ثلاث غزوات نحو الشمال وهي: غزوة ذات أتلة[1] بقيادة كعب الغفاري، وغزوة مؤتة، وغزوة ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص[2].

اِستدل وات على أهمية طريق الشمال، من خلال عدد المشتركين في الغزوات ومقارنته مع غزوة خيبر والحديبية فقال: ((حين نستعرض عدد الرجال الذين اشتركوا في مختلف الغزوات باتجاه سورية، نلاحظ أن طريق الشمال تحتل مكاناً مرموقاً في تفكير محمّد الاستراتيجي، فقد قاد منذ آب سنة 626م 1000 رجل إلى دومة الجندل. كما أن عدد 3000 رجل الذي جمعه في مؤتة في أيلول سنة 629م، بينما عدد 30000 في معركة تبوك في كانون أول سنة630م))[3].

يبدو أن طرح وات واقعيٌّ إلى حدٍّ كبير، إلا أنّه لا يُعوّل عليهِ في تفسير حدثٍ كبيرٍ في تاريخ السيرة النبوية، ولعل وات تجاهل أسباباً أكثر موضوعيّةً تتمثل بزيادة عدد المسلمين، ورغبتهم في الفتوحات الإسلاميّة واندفاعهم في نشر الدين الإسلامي لا من أجل الغنائم. ويبين لنا كم كانت الدعوة إلى الإسلام تُعطى من تضحياتٍ قبل أن تتمكن من تثبيت أقدامها في قلب الصحراء، ولمقاومة الروم البيزنطيين لهذه الدعوة قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4].

عدَّ وات التوجه نحو قبائل الشمال في رأي النبي محمّد ﷺ متنفساً لطاقات العرب الحربية، نتيجة لزيادة عدد السكان، ولكي يخضع العرب لسلطته، كان عليه أن يضع حداً للحرب بين القبائل، لذا وجههم للقتال نحو قبائل الشمال[5].

يبدو أن طرح وات واقعي، كون العرب أمة عاشت حياة الصحراء وعهدت الحرب في أيامها الطويلة، وهم حديثي العهد بالإسلام؛ لذا حاول النبي محمّد ﷺ استثمار هذه الطاقات بإخضاع القبائل العربية المتاخمة للدولة البيزنطية والتي اتخذتها درع بشري لحمايتها[6]،

1-ذات أتلة: الرواية الصحيحة هي سرية ذات أطلاح على حدود الشام بقيادة كعب بن عمير الغفاري سنة (8هـ/ 629م). ينظر: الواقدي، المغازي، 2/ 752 – 753.

2- محمّد في المدينة، 78.

3- محمّد في المدينة، 157.

4-سورة التوبة: آية 41.

5- محمّد في المدينة، 158.

6- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3/ 288.

وبالفعل نجح النبي محمّد ﷺ بمسعاه بوصول طلائع المسلمين إلى حدود دولة الروم، وإنذارها بخبر السقوط.

لا شك في أن غرض النبي محمّد ﷺ هو أسمى من كون إخضاع قبائل الشمال تحت سيطرة دولة المدينة لأغراضٍ عسكريةٍ بحتة، لأن طبيعة الدعوة توجب عليه نشرها إلى مختلف الأصقاع، كما أن إخضاع تلك القبائل تحت سيطرته ضرورةٌ مرحليّةٌ كون الروم البيزنطيين كانوا قد جعلوهم خط دفاعٍ يحمي مصالحهم ضدّ أيّ اعتداءٍ خارجيٍّ، لذلك أصبح العرب بالواجهة، فأراد النبي محمّد ﷺ أن يضم تلك القبائل إلى حضيرة الدولة الإسلاميّة من دافعٍ قوميٍّ أملته عليه العقيدة والاستراتيجية العسكرية، ومن جانبٍ آخر كان هدف الرسول ﷺ تجريد الأعداء من حلفائهم ومؤيديهم، يعني إضعافهم ومن ثم الانتصار عليهم، كما أن تلك القبائل كان من الأجدر لها أن تكون مع أبناء عمومتها من العرب خير لها من الروم البيزنطيين الذين لا يهمهم سوى مصالحهم، لذلك كانوا يحرضون على التعرض للمسلمين بين الحين والآخر، فكان إخضاعهم واجباً مقدساً أملته الظروف الجديدة.

لم يكن توجه النبي محمّد ﷺ محصوراً بالشمال بل توجه بالاتجاهات الأربعة وخضعت الجزيرة العربية كلها له ﷺ، فوجّه نحو جنوب اليمن حملةً بقيادة معاذ بن جبل[1] وتوقف عن السير، ثم عززها بحملة أقوى بقيادة خالد بن الوليد لكنها لم تفلح، وأخيراً تم فتحها بسرية قادها الإمام علي عليه السلام. فمنها ما تمّ فتحه سلماً ومنها ما تم فتحه عنوة[2].

أما جهة الشمال وبالتحديد ملك بصرى فقد أرسل له رسول الله ﷺ كتاباً كما فعل مع مختلف أنحاء الجزيرة، لكن غطرسة شرحبيل بن عمرو الغساني واعتماده على دعم الروم جعله يسيء للحارث بن عمير الأزدي وهو رسول[3] فأوثق رباطه ثم قتله وهو أول رسول يقتل للنبي ﷺ[4]. فقاد حملات ضدهم لأنهم قتلوا سفيراً وهو أمرٌ طبيعيٌّ للدفاع عن سيادة الدولة ومنع المشركين من الطمع بالمسلمين وقتل الصحابة غدراً.

1-معاذ بن جبل: الصحابي معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، من بني سلمة بن سعد، يكنى أبا عبد الرحمن، شهد بدر كان عمرة عشرون سنة، توفي بالشام بطاعون عمواس سنة (18هـ/ 639م). ينظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 425؛ البلاذري، انساب الأشراف، 1/ 247.

2-ينظر: البيهقي، دلائل النبوة، 5/ 396؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 22.

3-الحارث بن عمير الأزدي: الصحابي الحارث بن عمير الأزدي من بن لهب، أستشهد بدعوته للإسلام سنة (6هـ/ 627م). ينظر: ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 1/ 289.

4-الواقدي، المغازي، 2/ 756؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 255.

2 - رُسل النبي محمّد ﷺ إلى الملوك:

إن فشل المشركين في حصار المدينة [معركة الخندق] (5هـ/ 627م)، وعقد صلح الحديبية سنة (6هـ/ 628م)، مكن النبي محمّد ﷺ من تحييد قريش وشل حركتها وهم أصحاب التأثير القوي في شبه الجزيرة العربية بأجمعها، فلا صعوبة عليه أن يرُسل بعوثه إلى حكام البلاد المجاورة، يعرض عليهم الإسلام. واختلف المؤرخون في وقتها منهم قال بعد عمرة الحديبية[1]، إلا أن ابن سعد[2] لا يحدّد تاريخاً دقيقاً في إرسال الرُسل من قبل النبي محمّد ﷺ إلى ملوك العرب والعجم دعوة إلى الله ﷻ بل جعلها بين الحديبية ووفاته فقال ((كان رسول الله ﷺ قَدْ فرّق رجالاً من أَصْحَابه إلى ملوك العرب والعجم، دعاة إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في ما بَيْنَ الحديبية ووفاته)).

غير أن وات وقف بالتشكيك فيها فقال: ((ولكن محمداً ﷺ كان بعيد النظر، فتطلع إلى ما وراء الفوائد المباشرة وكان بإمكانه أن ينظر إلى وحدة تشمل شبه الجزيرة العربية، أو مجموع القبائل التي تنتسب للعرب، غير أن قول بعض المصادر الإسلامية، وهي ليست أقدم المصادر، بأن النظر إلى الإسلام على أنّه دينٌ عامٌ وشاملٌ، وأنّه دعا الإمبراطور البيزنطي والفارسي، وغيرهما من الملوك إلى الدخول فيه، هو قولٌ خاطئٌ، لقد كان الإسلام منذ البداية ديناً عاماً مضمراً، وليس من الصدفة أنه بنموّ الدولة العربية أصبح شاملاً، غير أنّه من البعيد أن يوجه رجلٌ سياسيٌّ حكيمٌ كمحمد مثل هذا النداء المحدد في هذه المرحلة من حياته))[3].

ويبدو أن ادعاء وات بخصوص الرسائل التي أرسلت إلى الملوك في أنها لم ترد في بعض المصادر، وقوله كذلك أنها لم ترد في المصادر الإسلاميّة القديمة فهو كلامٌ غير دقيق والدليل على ذلك هو أن ابن هشام[4] قد أورد نصاً كاملاً: ((فبعث رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام. فبعَث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهميّ إلى كسرى، ملك فارس، وبعث عمرو ابن أُمية الضمري إلى النجاشي، ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 258.

2-النص أورده الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 644؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 3/ 494؛ الصالحي، سبل الهدى والرشاد، 11/ 346.

3- محمّد في المدينة، 61.

4-السيرة النبوية، 2/ 607؛ ينظر: البيهقي، دلائل النبوة، 4/ 395.

بلتعة إلى المقوقس، ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفرٍ وعيادٍ ابني الجلندى الأزديين، ملكي عمان، وبعث سليط بن عمرو، أَحد بني عامر ابن لؤيٍ، إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي الحنفيين، ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي، ملك البحرين، وبعث شجاع ابن وهب الأسدي إلى الحارث بن أَبي شمر الغساني، ملك تخوم الشام. بعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأَيهم الغساني، وبعث المهاجر بن أبي أميةَ المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري، ملك اليمن)).

وفي روايةٍ مختصرةٍ عند خليفة بن خياط [1] جاء فيها: ((سنة سبع وفيها إرسال الرسل إلى الأُمراء والملوك وفيها بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس وشجاع بن أبي وهب إلى الحارث بن أَبي شمر وسليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي وعبد الله بن حذافة إلى كسرى ودحية بن خليفة إلى قيصر)). هذه مصادرٌ أصليةٌ في السيرة والتاريخ تنقل نص الرسائل التي بعث بها النبي محمّدﷺ.

وأورد الطبري[2] نص الرسالة التي بعثها النبي محمّدﷺ إلى قيصر الروم: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك)).

ولقد حرص رسول اللهﷺ على بعث الرُسل، وحث الصحابة بالخروج، وحذرهم من التقاعس كما تقاعس الحواريون أصحاب عيسى عليه السلام، فقال لهم: ((إني بعثت رحمة وكافة، فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى ابن مريم، قالوا: يا رسول الله وكيف كان اختلافهم؟ قال: دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه، فأما من قرب به فأحب وسلم، وأما من بعد به فكره وأبى))[3].

لعلّ إشكال وات على صحة الرسالة يريد من خلاله أن يرسم صورةً للنبي محمّدﷺ ذلك الرجل الضعيف، وسلطانه لا يتجاوز حدود شبه الجزيرة العربية ومقتصر على العرب والمسلمين. ودفاعه عن هرقل كي لا يحط من شأنه لتعصبه لدين النصرانية التي اهتزت عروشها بظهور الإسلام، ويؤكد ذلك إشعالهم فتيل الحروب الصليبية.

1- تاريخ خليفة، 79.

2-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 649.

3-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 607؛ الطبراني، المعجم الكبير، 20/ 8؛ العامري، بهجة المحافل وبغية الأماثل، 2/ 157.

ويعطي وات سبباً لشكوكه بالرسائل فقال: ((إذا كانت الرسائل دعوة إلى الدخول في الإسلام، والاعتراف بمحمد كزعيم ديني لأنه لا يمكن تصور إمبراطور الروم، ونجاشي الحبشة، يستجيبان لمثل هذه الدعوة... أنه يستبعد من محمّدﷺ في هذا الوقت دعوة هؤلاء الحكام الأقوياء للدخول في الإسلام))[1].

أما عن نص الرسالة التي أراد بها النبي محمّدﷺ تبليغ الدعوة الإسلاميّة بأسلوب سلميٍّ تنفيذاً لما أمره الله ﷻ به كما في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[2]. أراد رسول اللهﷺ من هذه الرسائل التي بعث بها حتى وإن لم يدخلوا الإسلام فهي وسيلة إعلام بظهور خاتم الأنبياء محمّدﷺ الذي وعدت به جميع الكتب السماوية، وكذلك تبليغ لمن لم يسمع ولم يعرف مبادئ الإسلام، وإلقاء الحجة عليه. ومن واجبات النبوة التي تحملها النبي محمّدﷺ في تبليغ رسالته إلى غير قومه من العرب فقوله: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[3]. هذا يدل على بعثة النبي محمّدﷺ ليس للعرب فقط بل معهم العجم، ما يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية. إنّ إصدار هذه الرسائل والبعث بها في تلك الفترة الزمنية يدل على قوة شخصية النبي محمّدﷺ، وعظم دولته، وإيمانه الراسخ بما بعث من أجله.

ذكر وات الرواية الإسلاميّة التي بعث بها النبي محمّدﷺ برسائل إلى حكام البلدان المجاورة يدعوهم إلى قبول الإسلام. ثم يطعن فيها ويصرح بأنّه لا يمكن الاعتماد عليها لأسباب منها ـ بحسب رأيه ـ: ((أنها ترجع إلى رغبة المسلمين اللاحقة في إظهار أن محمداًﷺ كان يعتبر دينه ديناً عالمياً. وربما أيضاً، لتبرير الحروب ضد بلاد فارس وبيزنطة كحروب خاضها ضدهم بعد أن دُعيت تلك الإمبراطوريات إلى الإسلام))[4]. ومن ثم يرى وات: ((أن النبي محمّدﷺ أرسل مبعوثين إلى الحكام الذين أشير إليهم. إلا أنه من المحتمل أن محمداًﷺ كان يقدّم رؤيته لما كان يحدث في الجزيرة العربية من جهة، وكان يحاول من خلال تلك الرسائل إحباط جهود

1- محمّد في المدينة، 62 – 63.

2- سورة النحل: آية 125.

3- الهيثمي، موارد الظمآن، 1/ 328.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 250.

المكيـين في طلـب العـون مـن هـذه الـدول مـن جهـة ثانية، والسـعي أيضـاً إلى نـوعٍ من التوافـق السـياسي معهـم مـن جهةٍ ثالثـة))[1].

يبدو أن طرح وات كان موفقاً كونه منطقيّاً ومعقولاً إلى حدٍّ كبير؛ لأن النبي محمّدﷺ يسعى إلى تثبيت أركان الدولة لنشر الإسلام.

وما يؤكد صحة بعث الرسائل إلى كسرى وقيصر، عندما اشتكى تجار العرب المسلمين إلى النبي محمّدﷺ مخاوفهم من ملكي العراق والشام ومضايقتهم لهم، تنبأ النبي محمّد ﷺ بزوال دولة فارس والروم فقال: ((إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده))[2]، وروي بزيادة: ((إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمّد بيده، لتنفقن كنوزهما في سبيل الله))[3]. هذا مؤشرٌ إيجابيٌّ يدل على بصيرة النبي الثاقبة، وتطلعه إلى علوّ مكانته وسمو معتقده، وعالمية الدين الإسلامي، وإشارةً إلى قادة الإسلام بما سيفتح على أيديهم الله ﷻ البلاد ويخضع لسلطانهم العباد.

3 - وفود القبائل العربية إلى النبي محمّدﷺ:

بعد أن فتح الله ﷻ مكة للمسلمين بنصرٍ عظيم، دانت معظم القبائل العربية بالإسلام، فجاءت سنة (9هـ/ 632م) الوفود من مختلفٍ القبائل العربية إلى النبي محمّدﷺ معلنةً إسلامها طوعاً، هذا يدل على بيعةٍ مطلقةٍ لدولة النبي محمّدﷺ. ما أرق المستشرق البريطاني وات ليبث سموم شبهته لينال تحجيمٍ دور النبي قائد الأمة فيقول: ((أنه قد بولغ كثيراً في اتساع انتشار الإسلام، وأنه لم يعتنق الدين الجديد سوى بعض القبائل في ضواحي المدينة ومكة. ويمكن أن تكون قد عقدت تحالفات سياسية مع بعض القبائل الأخرى... أما الوفود من جميع القبائل واعتناقها الإسلام، فهذه اختراعاتٌ لتمجيد نجاح محمّدﷺ وربما للتقليل من شأن أبي بكر))[4].

تحدثت جميع مصادر السيرة النبوية والتاريخ عن عام الوفود التي جاءت إلى النبي

1- محمّد النبي ورجل الدولة، 250.

2- أبو داود، مسند أبي داود، 4/ 306؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 3/ 513.

3- الشافعي، مسند الشافعي، 2/ 186؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 7/ 98.

4- محمّد في المدينة، 119.

محمّد ﷺ معلنة إسلامها[1]. وهذه حقيقةٌ لا يختلف عليها اثنان، لذا حاول وات بشبهته أن يقلّل من انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وبالتالي ينفي تصديره إلى خارج شبه الجزيرة العربية وإلى بعض النصارى، فهو يدافع عن نصرانيته.

ومن بعد تلك الشبهة التي لم يتمكن وات من تحقيقها، دأب ساعياً بالتشكيك تارة بعدد أفراد الوفد القلائل، وتارة أخرى أنهم لا يمثلون إلا قسماً من القبيلة فقال: ((حتى إذا سمعنا عن وفد قبيلة إلى محمّد ﷺ، من الممكن ألا يمثل إلا قسماً من القبيلة))[2]، وثم قال: ((أن الوفد الذي كان يُرسل، يمكن أن لا يمثل القبيلة كلها، بل يمثل نفسه فقط))[3]، وأضاف قائلاً: ((أن يأتي وفدٌ من قبيلةٍ ما، لا يعني أن القبيلة بأسرها أصبحت مسلمةً، لأن أعضاء الوفد كانوا في بعض الأحيان لا يمثلون إلا أنفسهم))[4].

مثل هكذا أقوال يكون لمعاجم اللغة العربيّة السبق بالرد عليها: الوفود وهم جمع الوفد والوافد[5]. والوفد هم الجماعة المختارة للقدوم على العظماء، وتنطبق على الشخص الموجه من أمير إلى أمير أعلى مرتبة منه[6]. ويفهم من ذلك لفظة الوفد تطلق على الأشخاص القادمين إلى من هم أعلى مرتبة منهم. ويؤكد هذا أيضاً تعريف الفراهيدي للوفد بقوله: ((هو الذي يفد عن قوم إلى ملك في فتح أو قضية أو أمر والقوم أوفدوه))[7].

أما المعنى الاصطلاحي للوفادة: فإنها تمثل أهم وسيلة تسهم إسهاماً فعالاً في إيصال الآراء، والأفكار، والمطالب، والحاجات، والمواقف، أو إنجاز وتحقيق بعض المهام إلى أصحاب الشأن والنفوذ مما يتطلب ويستوجب في حقهم حسن الاستقبال والتكريم[8].

1-البلاذري، فتوح البلدان، 117؛ اليعقوبي، التاريخ، 2/ 89؛ ابن أعثم، الفتوح، 1/ 22؛ القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 2/ 82.

2- محمّد في المدينة، 117 – 118.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 290.

4- محمّد في المدينة، 120.

5- الجوهري، الصحاح، 2/ 553.

6- ابن منظور، لسان العرب، 3/ 464؛ الزبيدي، تاج العروس، 2/ 539.

7-العين، 8/ 80.

8- الهاشمي، سلمى عبد الحميد، وفادة ابناء البصرة إلى بلاط الخلافة في القرن الأول والثاني للهجرة، 200.

عرف العرب الوفادة قبل الإسلام ومارسوها وحتى إنهم مارسوها في ما بينهم، أو مع غيرهم من بلدان الأمم المجاورة، ومن اشتهر اسمه بصفة الوفد هو هاشم بن عبد مناف وهو رجل كثير الوفادات[1].

فقد تزايد عدد الوفود القادمة إلى النبي محمّدﷺ بعد فتح مكة، وخصوصاً بعد عودة النبي محمّدﷺ من غزوة تبوك (9هـ/ 630م) على مشارف بلاد الشام، واصطلح المؤرخون على تسميته عام الوفود[2]؛ لأن القبائل العربية كانت تراقب عن كثب نتيجة الصراع المحتدم بين معسكر الإيمان بقيادة النبي محمّدﷺ مع أصحابه، ومعسكر الكفر بقيادة مشركي قريش؛ وتتربص بإسلامها مصير قريش فهم زعماء الناس وكبراءهم، وأهل البيت الحرام وسدنته، وقادة العرب، ولما فتحت مكة ودانت قريش لسلطة النبي محمّدﷺ وعفا عنهم وسماهم الطلقاء[3]، عرفت قبائل العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول اللهﷺ، فدخلوا في دين الله ﷻ أفواجاً في قوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ * إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾[4]. الآيات تؤكد صراحةً نصر المسلمين على المشركين بعام الفتح، وقدوم الناس أفواجاً (تعني الوفود بصيغة الجمع).

لقد بايعت هذه الوفود النبي محمّدﷺ طوعاً بعد قدومها المدينة، وكان المبايعون يتكلمون بالنيابة عن قبائلهم، وبهذا تكون البيعة ملزمةً لهم ولمن ورائهم من أفراد قبائلهم، وكان الرسول يحسن استقبالهم ويقدم لهم الهدايا الثمينة. وقد جاءت معظم هذه الوفود من أطراف شبه الجزيرة العربية كاليمن وعُمان والبحرين وبعض بلاد الشام وأطراف العراق[5].

لقد عدَّ النبي محمّدﷺ فتح مكة سنة (8هـ/ 628م) حدّاً فاصلاً وتمييزاً بين المسلمين، فمن جاء قبل الفتح هم وفود هجرة ، ومن هم لاحقين بعد الفتح عُدّوا بالخير والحسنى بدرجة الجهاد، قالﷺ: ((لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، إذا استنفرتم فانفروا))[6]،

1- الميداني، مجمع الأمثال، 1/ 327؛ الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، 1/ 105.

2- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 559 ؛ ابن سعد، الطبقات، 1/ 291؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 1/ 23؛ ابن بحرق، حدائق الأنوار، 365.

3- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 412؛ عبد الجبار، صهيب، الجامع الصحيح للسنن والمساند، 15/ 106.

4- سورة النصر: آيات 1 – 3.

5- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 298 – 327؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 654؛ أبن الأثير، أسد الغابة، 1 190.

6- ابن حنبل، مسند أحمد، 2/ 476؛ أبوداود، مسند أبي داود، 4/ 137.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿...**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[1]. نستشف مما تقدم أن في الفتح وعام الوفود انتشر الإسلام في جميع أطراف شبه الجزيرة العربية، ويمثل مرحلة بداية عالميّة الدعوة الإسلامية.

وعن عمرو بن سلمة الجرمي[2] قال: ((كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون اتركوه وقومه فإنه إنْ ظهر عليهم فهو نبي صادقٌ، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر ـ أي قومي ـ بإسلامهم))[3]، وهذا النص يبين أن العرب كانت تنتظر انتصار النبي ﷺ على قريش لكي يدخلوا في الإسلام، وأن بعض الوفود كانت عبارة عن شخص واحد أو بضعة أشخاص، فهم يمثلون جميع أفراد القبيلة، ولسانها الناطق، ويؤخذ برأيهم من قبل الأغلبية المطلقة في قبائلهم.

لم تكن الوفود ظاهرةً فرديّةً أو مختصرةً بعد فتح مكة، بل سبقتها وفودٌ جماعيّةٌ سنة (5ه/ 626م) لبني مزينة بلغ عددهم أربعمائة رجل، وتحرج النبي ﷺ من توفير الطعام لهم لكثرتهم[4]. أما عام الوفود سنة (9هـ/ 630م) جاءت القبائل إلى النبي ﷺ معلنةً عن إسلامها طوعاً، فكانت معظم الوفود تمثل قبائلها رسمياً، لكنها لا تمثل أخلاقيات وسلوك كل فرد فيها، فهم ليسوا على مستوى واحد من التعامل والثقافة[5]، فنزل الوحي يعلم المسلمين كيفية الخطاب بأدب مع مقام النبي محمّد ﷺ وتبين جهالة الأعراب بمكانة النبي ﷺ[6] فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾[7]. وفي هذا العام تم توحيد الجزيرة العربية سياسياً لأول مرة في تاريخها تحت راية الإسلام.

1- سورة الحديد: آية 10.

2-عمرو بن سلمة بن قيس الجرمي، يكني أبو بُرَيد، رأى رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، كان يؤم قومه رغم صغر سنه، من قراء القرآن وروي عنه أبو قلابة، نزل البصرة، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 253.

3-سمط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 4/ 204؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 5/ 40؛ المقريزي، امتاع الأسماع، 14/ 10.

4-ابن الجوزي، المنتظم، 3/ 217 – 218؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، 2/ 195.

5-الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت بالأحاديث الصحيحة، 4/ 188 – 189، العمري، السيرة النبوية الصحيحة، 2/ 542.

6-القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 2/ 84.

7-سورة الحجرات: آية 4. ينظر: الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 1016؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 5/ 146.

5

المبحث الخامس

غزوات النبي محمّدﷺ

تمثل المغازي اللبنة الأولى التي ارتكز عليها المؤرخون لتدوين سيرة النبي محمّدﷺ وذلك للأثر البارز الذي قام به النبي محمّدﷺ في المرحلة المدنية، فأخذ التابعون ومنهم أبان بن عثمان الأحمر البجلي (ت 105هـ/ 723م) وابن شهاب الزهري (ت 124هـ/ 741م) بدأوا يدوّنون ما يسمعونه من الصحابة والتابعين من مواقف بطوليّةٍ للنبي محمّدﷺ وأصحابه البررة[1].

ولهذه الأهمية تناولها المستشرقون في مؤلفاتهم بالدس وبث الشبهات في أسبابها ونتائجها، كونها صفحةً مشرقةً من السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، محاولةً منهم للطعن في شخص النبي محمّدﷺ، ومن هلاء المستشرقين نجد وات الذي صوّر الجهاد في الإسلام بصورة الغزوة البدوية أي الغارات في الجاهلية فقال: ((إن التحول في استخدام كلمة غزوة إلى استخدام كلمة جهاد لم يكن أكثر من تغيّر قد لحق الاسم فقط: تغليف نفس النشاط الغزوي الذي كان يمارس في الأساس البدوي بهالة دينيّة))[2].

انطلق الرسول محمّدﷺ بثلة من المؤمنين لجهاد المشركين ونشر الدين الإسلامي تحت عنوان الجهاد في سبيل الله ﷻ ووعدهم الجنة وهي دار القرار كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[3]، وتدرج القرآن بإعطاء التشريع في القتال بصورة التحريض على القتال في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾[4].

1- الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات،222؛ الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 3/ 371.

2- ينظر: محمّد النبي ورجل الدولة، 140.

3- سورة التوبة: آية 111.

4- سورة الأنفال: آية 65.

وللرد على هذا الخلط الذي وقع فيه وات بين الجهاد والغزو حيث اعتبرهما فعلاً واحداً رأينا أنّه من الأجدر أن يكون الرد عليهِ من معاجم اللغة كما يلي.

أولاً - الغزو

الغزو: مأخوذة من غزا يغزو غزواً[1]، وفي اللغة الغَزْوَة هي طَلَبُ شَيْءٍ. وَيُقَالُ: غَزَوْتُ أَغْزُو. وَالْغَازِي: الطَّالِبُ لِذَلِكَ، وَالْجَمْعُ غُزَاةٌ وَغَزِيٌّ أَيْضًا[2].

أما اصطلاحاً الغزو: هو السّير إلى قتال الْعَدو وانتهابه في داره[3].

ثانياً - الجهاد

اشتقّ الجِهاد في اللغة من جذر الفعل جَهدَ أي المشقة، ويقال: جهد نفسه، ورجل مجهود، وجاء مجهوداً[4]، يُقَالُ جَهَدَ الرجُل فِي الشَّيء: أَيْ جَدَّ فِيهِ وبالَغ، وجَاهَد فِي الحَرْب مُجَاهَدَة وجِهَاداً[5].

والجَهاد في اللغة هي الأَرض الصُّلْبَةُ، وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي لاَ نَبَاتَ بِهَا[6].

ويتضح لنا مما تقدم أن معنى الجهاد أُخِذ من عظم المشقة التي يعانيها المجاهدين، وتشبهه بالأرض الصلبة التي لا نبات فيها لقساوتها.

أما اصطلاحاً، الجِهَاد: مُحارَبة الكُفار، وَهُوَ المبُالَغة واسْتِفْراغ مَا فِي الوُسْع والطَّاقة مِنْ قَوْلٍ أَوْ فعْل وبَذْل الوُسْع فِي طَلَب الأَمْرِ[7]. أو الجهاد: استفراغ الوسع في طلب العدو[8]، وقتال من ليس لهم ذمّة من الكفّار أو القتال في سبيل الله[9].

1-ابن دريد، جمهرة اللغة، 2/ 820.

2-ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/ 423.

3- ابن سيدة، المحكم و المحيط الاعظم، 6/ 38؛ الفيومي، المصباح المنير ، 2/ 447.

4- الزمخشري، أساس البلاغة، 1/ 153.

5- ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث والاثر، 1/ 319.

6- ابن منظور، لسان العرب، 3/ 134.

7- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والاثر، 1/ 319.

8- المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، 133.

9- عبد الحميد، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، 1/ 410.

وحدد الجهاد في ثلاثة أوجه: جهاد العدو الظاهر، وجهاد الشيطان، وجهاد النفس[1]. واستعمل مصطلح الجهاد للدعاء بالدين الإسلامي ونشره ومحاربة الشرك.

ومن خلال هذه التعاريف لكل من الجهاد والغزو في اللغة والاصطلاح يكون الفرق واضحاً بينهما، فالجهاد: هو مختصٌ بالقتال في سبيل الله، أما الغزو: قتال العدو مطلقًا[2]. وهناك نقطةٌ جوهريَّةٌ على القارئ الانتباه لها، وهي أن الجهاد والغزو كانا في سبيل الله ﷻ وفي سبيل نشر شرائع الله ﷻ، فالمجاهد صاحب عقيدة ودين ومبادئ، وهكذا برهن الإسلام عن تضامن بسمو أهدافه وغاياته وهذا بخلاف ما تصوره وات بأن الجهاد والغزو لم يختلفا عما كانا عليه عند العرب في الجاهلية بل اختلف بتغيّر اللفظ فقط.

وعن الغزوات والسرايا[3] التي بعثها النبي محمّدﷺ صرح وات قائلاً: ((أن الملمح الرئيسي لسنة 623م، هو التركيز على تنظيم الغزوات ضد القوافل المكية... إلا أنها لم تأت بأيّ نجاحٍ يذكر، على الأقل في تحقيق أهداف المسلمين الرئيسية التي كانوا يبغونها من تلك الغزوات... ولقد زادت مشاعر القلق لدى المكيين؛ وبنفس الوقت أظهرت لبدو المنطقة أن محمداًﷺ يريد المال من هذه الغزوات))[4] .

وألمح وات بصورةٍ واضحةٍ بأن النبي محمّدﷺ خلال السنة الأولى بعد الهجرة كان شغله الشاغل وهمه الكبير هو غزو القوافل التجارية للمكيين، للحصول على المال، إلاَّ أنه في حقيقة الأمر حدث تغيّر بأسلوب الدعوة الإسلاميّة في الدور المدني عما كان عليه في الدور المكي، متمثلاً بأسلوب الجهاد وحمل السلاح بوجه المشركين؛ لكي يظهر نصب أعينهم هيبة النبي محمّدﷺ وعظمة الدين الإسلامي الجديد، وأول آية نزلت على النبي محمّد ﷺ في الإذن بالقتال[5] قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[6]، ومن ثم خاطب الله ﷻ النبي محمّدﷺ وأمره بجهاد الكفار في قوله تعالى: ﴿**يَا**

1- المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، 133.

2-الهندي، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، 5/ 365.

3-وهي تسمية أطلقها أصحاب المغازي والسير على حملات الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وعملياته العسكرية فالحملات التي قادها الرسول سميت غزوات، أما التي عهد بها إلى غيره من الصحابة سميت بالسرايا. ينظر: ابن سعد، الطبقات، 2/ 6-5.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 132 – 134.

5- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 467؛ البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 1/ 236.

6- سورة الحج: آية 39؛ مجاهد، تفسير مجاهد، 482؛ الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 735.

أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]. علماً أن جميع السرايا والغزوات لم يحصل فيها قتال بل كانت مناوشات كلامية، إلاّ سرية عبد الله بن جحش التي وقع فيها القتال، وكان خطأ من المسلمين واجتهاداً شخصيًّا خلافاً لوصيّة النبي محمّد ﷺ إذ بعثهم ((أن يتجسسوا [يترصدوا] أخبار قريش))[2] وذلك من أجل معرفة تحركات قريش لأخذ الاحتياطات اللازمة لحماية المدينة؛ لأن النبي محمّد ﷺ كان يتوجس خوفاً من هجومٍ مباغتٍ تشنّه قريش يُسبب للمسلمين المتاعب والمشاكل[3]. لم يكن جميع المقاتلين المشاركين بالغزوات هدفهم السعي للكسب والحصول على الغنائم، فهنالك من الناس من ينطبق عليهم عنوان أنّه خرج تحت راية لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله بقصدٍ صادقٍ ونوايا واضحة، يريدون التقرب لله ﷻ بعد أنْ فهموا مبادئ هذا الدين ووجدوا فيه الحق، فراحوا يتلمسون رضا الله ﷻ والتقرب إليه بخروجهم إلى الجهاد في سبيله.

ومن ثم ضعّف وات حدة رأيه حول الهدف الذي كان يسعى النبي محمّد ﷺ والمسلمون تحقيقه في الغزوات من جمع المال إلى نشر الدين الإسلامي فقال: ((إن ممارسة العرب الطبيعية لفعل الغزو، قد تبناها المجتمع الإسلامي، ولكن خلال ذلك تم التحول بمنهجية الغزو وأهدافه: فقد غدت الغزوات الآن نشاطَ المؤمنين ضد الكفار، وأخذ بعد ذلك مكانة ضمن السياق الديني. وبالتالي كانوا يُروّجون لهدفٍ من أهداف المجتمع الإسلامي، وهو تأسيس مكانٍ يعبد الله ﷻ فيه بشكلٍ حقيقي))[4].

وطرح وات تساؤلاً حول عدم مشاركة الأنصار مع المهاجرين في المغازي يقول: ((لم يكن هناك سبب يفسر: لماذا لم يُدعَ الأنصار من قبل المهاجرين للمشاركة بالغزوات معهم، فإن كانت تلك الحروب في سبيل الله ﷻ، فيجب على المسلمين كافة المشاركة فيها))[5]؟ وهو يجيب على نفسه عندما أخذ المكيّون يدعمون الحراسة أكثر على قوافلهم، وأراد المسلمون النجاح في غزواتهم ألحتهم الحاجة إلى زيادة عدد المشاركين، ويُرجّحُ وجود سببٍ آخر شجع الأنصار للانخراط في الغزوات وهو

1- سورة التوبة: آية 73 ؛ سورة التحريم: آية 9.

2-الواقدي، المغازي، 1/ 13 - 16.

3-الشابندر، غالب، ليس من سيرة الرسول الكريم، 295.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 139.

5- محمّد النبي ورجل الدولة، 139.

نـزول قولـه تعالى: ﴿**يـا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَابْتَغُـوا إِلَيْهِ الْوَسِـيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَـبِيلِهِ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1].

ذكر الواقدي السرايا والمغازي التي وقعت قبل معركة بدر ولم يكن فيها مشاركة من قبل الأنصار باستثناء سرية حمزة بن عبد المطلب إذ درج فيها خروج الأنصار وعددهم خمسة عشر صحابي، وفي الرواية نفسها يناقض نفسه ويقول: ((عن ابن المسيب وعبد الرحمن بن سعيد بن يربوع، قالا: لم يبعث رسول اللهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم أحداً مِنْ الأنصار مبعثاً حتّى غزا بنفسه إلى بدرٍ، وذلك أنه ظنّ أنهم لاَ ينصرونه إلاّ في الدار، وهو المثبت))[2]، أما ابن هشام قال: ((بعثٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين وليس معهم من الأنصار أحدٌ))[3]. هذان النصان يبينان صحة ما قاله وات من عدم مشاركة الأنصار في السرايا والمغازي قبل معركة بدر، لكن الأسباب وراء جهاد المهاجرين تنفيذاً لأمر الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[4]، أن الله ﷻ أذن للمسلمين بالجهاد وهم في مكة لكون سورة الحج نزلت في مكة[5]، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة اشتد عضدهم عندما كتب الله ﷻ عليهم الجهاد في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[6]، فيها فرض الجهاد ضد الكفار لكون سورة البقرة نزلت في المدينة[7]. ويرجح سبب قلة اشتراك الأنصار؛ إلى عهدهم مع النبي محمّدﷺ في بيعة العقبة الثانية كان للدفاع والحماية في دارهم[8]، والسبب الآخر كان الثأر بين المهاجرين والمشركين فقط لسابق ما سلف منهم ضدهم فلم يندب النبي محمّدﷺ لها إلا المهاجرين[9]، وجاء الأمر من الله ﷻ بمقاتلة مشركي

1- سورة المائدة: آية 35.

2-المغازي، 1/ 10.

3-السيرة النبوية، 1/ 591.

4- سورة الحج: آية 39 ؛ ينظر السمعاني، تفسير القرآن، 3/ 441.

5-البيهقي، أحكام القرآن، 2/ 13؛ ابن كثير، الفصول في السيرة، 121.

6- سورة البقرة: آية 216.

7-الجصاص، أحكام القرآن، 1/ 389؛ ابن كثير، الفصول في السيرة، 121.

8- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 360؛ ابن كثير، الفصول في السيرة، 112.

9- دروزة، محمّد عزة، سيرة النبي محمّد صورة مقتبسة من القرآن الكريم، 2/ 321.

مكة الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم في قوله تعالى: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ...**﴾[1].

وظاهر الآية التي وظفها وات لحث الأنصار على المشاركة بالقتال، مضمونها يحث على الجهاد في سبيل الله ﷻ ولم يجزم بالفلاح وقال لعلكم أي ليس من المؤكد أن يستطيعوا القيام بالجهاد، وسياق الآيتان السابقتان في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[2] تتحدث عن اليهود ومحاربتهم لله ﷻ ورسولهﷺ ومحاولتهم الغدر والمكر وأحبط نواياهم الله ﷻ، وأما الآية 35 من سورة المائدة التي استدل بها وات على الجهاد فهي تشير إلى أنّ عبادة الله ﷻ تقسم على فريقين منهم من يعبد الله لا لغرض سوى الله ﷻ، ومنهم من يعبد الله ﷻ لغرض آخر[3].

وعَدَّ وات الغزوات السبع الأولى في الثمانية عشر شهراً بعد الهجرة، ضئيلة الأهميّة لعدم حدوث شيءٍ فيها، ومع ذلك فهي أمثلةٌ رائعةٌ على موقف محمّدﷺ من المكيين[4].

ويتساءل وات عن نوايا النبي محمّدﷺ في الأشهر الأولى بعد الهجرة إلى المدينة فقال: ((من الصعب معرفة نوايا محمّدﷺ في هذا الوقت: هل كان هدفه سلبياً، وهو تحطيم تجارة قريش؟ أَم كان ينظر إلى أبعد من ذلك وهو فتح مكة؟ ويجيب على سؤاله بالقول لا شيء يدل على أن محمداً كان يفكر في الاستيلاء على تجارة مكة من أجل المدينة))[5]. والدليل على ذلك أن النبي محمّدﷺ لم يستولِ على أي قافلةٍ تجاريةٍ لأهل مكة.

فنستنتج من طرح وات الحقيقة التي أخفاها وهي نية النبي محمّدﷺ في فتح مكة، وهو الهدف الأساسي؛ كون مكة المركز الديني الأول بالنسبة للمسلمين فيها بيت الله الحرام الذي بناه النبي إبراهيمعليه السلام وجعله محجة للمسلمين وقبلة الصلاة وهي تحت سلطة الكفار

1- سورة البقرة: آية 191.

2-سورة المائدة: آيتان 33 – 34.

3- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2/ 187؛ الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 11/ 348 – 350.

4- محمّد في المدينة، 5.

5- محمّد في المدينة، 8.

وهذا لا يجوز ولا مكان لهم في دولة الإسلام، وليست نيّته السيطرة على التجارة، إلّا أن وات يناقض نفسه قائلاً: ((ماهي الكيفية التي يمكن أن يقرها محمّدﷺ للمهاجرين كي يحصلوا على لقمة عيشهم بعد وصولهم المدينة؟...؛ لذا من المؤكد أنه أشار إلى المهاجرين المسلمين من أجل كسب لقمة عيشهم إما أن ينخرطوا في التجارة أو بالسطو على تجارة مكة... إن محمداًﷺ حتى قبل مغادرته مكة، كان ينظر إلى الغارات على القوافل المكية كإمكانية قائمة لا بل احتمال أرجح، كان المسلمون في تلك الغزوات هم الطرف المعتدي))[1].

ولما وصل المسلمون المهاجرون إلى المدينة المنورة أوجد النبي محمّدﷺ حلولاً لتوفير لقمة العيش للمهاجرين بنظام المؤاخاة مع إخوانهم الأنصار، من الواضح أن مجتمع مكة يختلف عن مجتمع المدينة إذ لم يكن يزاول الزراعة؛ كون مكة وادي غير ذي زرع، فهم بالدرجة الأولى تجارٌ ويمارسون تربية الإبل والأغنام، علاوة على ذلك فإنّ معظم المسلمين المهاجرين من الطبقة الفقيرة عاشوا في تعفف، ومنهم أصحاب الصفة[2]، فلم يكن لديهم تطلع للعيش المترف والبذخ كما لمشركي قريش، فمن الطبيعي لم يكونوا بحاجة إلى الأموال الكثيرة التي تدفعهم للغزو ونصب الكمين للقوافل وسلب أموالها كما يتصوره وات. ليس الهدف من السرايا والمغازي الجانب الاقتصادي إلاّ في درجة ثانية أو ثالثة من جانب المسلمين، بل الغاية هي إنزال هزيمة بالجانب الاقتصادي للمشركين باعتباره عصب الحياة. علماً وأنّ الرسولﷺ كان يشرك مجموعةً معيّنةً من الصحابة لا كلهم باعتبار الهدف المنشود سواءً أكان التعرّض للقافلة أم جمع المعلومات أم غير ذلك.

ويبدو للباحث أن السرايا الأولى التي أخرجها النبي محمّدﷺ للتصدي لقوافل قريش كانت لأسبابٍ عدة:

وسيلة إعلام اتخذها النبي محمّدﷺ لإخبار قيادات مشركي قريش، بظهور قوة المسلمين وإمكانية تهديدهم بالخطر.

1- محمّد النبي ورجل الدولة، 135.

2-أصحاب الصفة هم مجموعة من المسلمين الفقراء المهاجرين إلى المدينة، لم يجدوا سكناً لهم، لذا أسكنهم النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) بالجهة الشمالية من المسجد النبوي الشريف، كي يكونوا بالقرب منه ليعينهم على شظف العيش، ونَال بعَضهم لاحقاً مكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي، للتفاصيل ينظر: ابن سعد، الطبقات، 1/ 196 - 197.

2- محاولة عرقلة تجارة قريش واتخاذها وسيلة للضغط عليهم بالحصار الاقتصادي ريثما قبولهم الدخول في الدين الإسلامي.

- بعث السرايا وخروج النبي محمّد ﷺ في الغزوات ومنها معركة بدر؛ محاولة لاستعادة أموال المسلمين التي سلبتها منهم قريش في مكة.

4 – إرسال رسالة إلى الداخل (مجتمع المدينة) بقوة الدولة وقدرتها العسكرية في الدفاع والمهاجمة.

وفي هذا الطرح الذي تبناه حاول وات بث الضباب حول جهاد النبي محمّد ﷺ باعتباره باعثاً للحرب فقط، ويعود رأيه إلى المبالغة في عدد الغزوات أولاً وعدم التمييز بين السرايا والمغازي ثانياً، ساعياً بذلك تشويه الحقيقة على القراء الغربيين من جهة ومن جهة أخرى المسلمين الذين لم يتثقفوا بالثقافة الإسلاميّة الصحيحة.

ويذكر الواقدي[1] عدد المغازي التي اشترك فيها رسول الله ﷺ وهي سبع وعشرين غزوة، إذ جعل خيبر غزوة ووادي القرى غزوة، بينما الطبري[2] عدّدها بست وعشرين غزوة، وقاتل في تسع منها فقط. أما عدد السرايا التي بعثها بقيادة أصحابه تبلغ سبع وأربعين سرية، وذكر ابن كثير[3] أن مغازي رسول الله ﷺ وسراياه ثلاث وأربعون، منها أربع وعشرون سرية وتسع عشرة غزوة، وهناك رواية تذكر أَن الرسول ﷺ قاد خمساً وعشرين حملة بنفسه وقاتل في تسعة وأسند سبعاً وأربعين منها إلى بعض الصحابة[4].

قام الرسول ﷺ بأول خطوةٍ عمليةٍ لإعداد الجيش، وهي تشكيل السرايا والتي عرفت في السنتين الأولتين كحملاتٍ استكشافيّةٍ صغيرةٍ لا يقصد بها الحرب، بل هي من أعمال الدوريات الحربية غرضها المحافظة على الحدود أو الاستكشاف والاستطلاع ورصد الأعداء. وكان الرسول ﷺ يحيط هذه السرايا بالسرِّية، وكان يختار قادتها بنفسه ما يدل على معرفةٍ كبيرةٍ بمتطلبات العمل الاستطلاعي من شجاعةٍ وتضحيةٍ وجرأةٍ وإخلاص، وكانت

1- المغازي، 1/ 7؛ وينظر كذلك ابن سعد، الطبقات، 2/ 5.

2-تاريخ الرسل والملوك، 3/ 152؛ المسعودي، مروج الذهب، 2/ 287.

3-البداية والنهاية، 3/ 242.

4- ابن حزم الأندلسي، جوامع السيرة النبوية، 15 - 19.

بعض هذه السرايا ذات طابعٍ هجوميٍّ لإيقاع الضرر بالعدو والانسحاب بسرعة لاعتباراتٍ عسكريةٍ، لأن الدافع الرئيس منها هو ردّ العدوان والسعي لحماية حريّة العقيدة، وكان بعض هذه السرايا موجهاً ضد قوافل قريش[1]، وقد ساعد الموقع الجغرافي للمدينة على طريق القوافل المسافرة من مكة إلى الشام على الإضرار بمصالح قريش التجارية[2]، إذ لا يبعد الطريق أكثر من أربع فراسخ [13كم]، فما كان على المهاجرين من المسلمين إلا الاهتمام بالمجموعة المرافقة للقوافل التجارية المكية، ثم يعودوا أدراجهم بسهولةٍ قبل ظهور أي جماعةٍ لمساعدتهم، أي اتباعهم طريقة القتال بالصحراء التي تعرف بالكر والفر[3].

وكذلك للضغط اقتصادياً على قريش لتغيّر موقفها من المسلمين، وذلك كون التجارة عصب الحياة الاقتصادية لمكة[4]، فتعمل على عقد التحالفات مع المسلمين ما يترك المجال مفتوحاً لدخول القبائل العربية في الإسلام دون حواجز أو قيود، وكذلك تقديراً لمكانة قريش المتميزة بين هذه القبائل[5].

وتشكل هذه القوافل تعويضاً كذلك للمهاجرين عما استولت عليه قريش من أموالهم عند الهجرة وعما تسببت لهم من أذى، وبذلك تخفف من وطأة الضائقة الاقتصادية للمهاجرين في المدينة في بدء هجرتهم[6].

والهدف الأخير من هذه السرايا أن رسول الله أراد بها إظهار القوّة أمام القبائل القاطنة قرب المدينة حتى يعزل قريش عن حلفائهم من هذه القبائل، وحمل هذه القبائل على فك حلفها مع قريش والتحالف مع المسلمين الأقوياء وعدم التفكير بغزو المدينة، فذكر أن غزوة الأبواء[7] وهي أول غزوة غزاها الرسول ﷺ بعد اثني عشر شهراً للهجرة[8] بنفسه كان يريد قريش وبني

1-الطبري، تاريخ الرسل و الملوك، 2/ 402 - 472.

2- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 472-402.

3- الشريف، مكة والمدينة، 400.

4- الملاح، الوسيط في السيرة النبوية، 216.

5- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 643 - 644.

6- الملاح، الوسيط في السيرة النبوية، 216.

7- الأبواء، قرية تابعة للمدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/ 92.

8- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 8؛ ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، 103.

ضمرة بن بكر بن مناة بن كنانة فوادعته فيها بنو ضمرة، دون أن يحدث قتال بين الطرفين[1]. أما الفتوحات التي تحققت كانت تهدف لنشر الإسلام، ومن الشواهد التاريخية على ذلك عندما بعث النبي محمّد ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن أوصاه قائلاً: ((إنك تقدم على قومٍ من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أنْ يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات))[2]. إنّ الفتوحات كانت تحمل في ثناياها وصايا النبي محمّد ﷺ للهداية والإيمان، لا للسيطرة وجمع الغنائم كما يتصورها آخرون.

فالطابع العام لغزوات النبي ﷺ كان دفاعاً عن النفس لا اعتداءً. وليس الإسلام فحسب بل كلّ الأديان لا تمنع الإنسان من الدفاع عن نفسه. فضلاً عن ذلك أن النبي محمّد ﷺ كان همّه نشر الإسلام وإنقاذ البشرية من الظلال إلى الهداية.

ومن نماذج اتهامات وات للمسلمين في حروبهم الجهادية ضد مشركي قريش خروجهم إلى معركة بدر فقال: ((بعض الأنصار قد حضروا تلك الغزوات، لكن هؤلاء كانوا من دون شك من فقراء المدينة الذين اجتذبتهم أعمال النهب أو الغنائم التي كان يحوز عليها المسلمون... ربما كان أغلب المسلمين يعتقدون أن قدومهم إلى هذا المكان هو لنهب القافلة التي كان حراسها أقل مكانة أو قوة منهم))[3].

لقد اعتاد وات في تفسيره لمعظم سيرة الرسول ﷺ، على الاتجاه المادي بدرجة أولى وتجاهله لباقي الأسباب الأخرى التي تقف وراء الحدث. كان خروج المسلمين للتصدي لقافلة تجارة قريش نتيجةً طبيعيةً وردّ فعل للنبي ﷺ وصحابته على استفزازات قريش واعتدائها المتكرر على عِير المسلمين، ومنها في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة أغار كرز بن جابر الفهري[4] على مراعي أهل المدينة، ونهب عدداً من الإبل والمواشي، ولما سمع النبي محمّد ﷺ بما فعل المشركون خرج بإثره لاستعادة ماشية المسلمين،

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 591.

2-البخاري، صحيح البخاري، 9/ 114.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 153 - 155.

4-كرز بْن جَابر الفهري: كرز بن جَابر بْن حسيل. ويقال ابْن حسل بْن لاحب بْن حَبيب بْن عَمْرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مَالَك القرشي الفهري. أَسلم بعد الهجرة وحسن إسلامه، وولاه رَسُول اللَّه ﷺ الجيش الذين بعثهم فِي أثر العرنيين الذينَ قتلوا راعيه، وقتل كرز بْن جَابر يَوْم الْفَتْح، وذلك سنة (8هـ/ 629 م) فِي شهر رمضان وكان قد أخطأ الطريق وسار فِي غير طريق رَسُول اللَّه ﷺ، فلقيه المشركون وقتلوه. ينظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، 3/ 1310.

وطارده إلى سفوان[1] من نواحي بدر فسميت الغزوة ببدر الأولى، لكن كرز استطاع الفرار بسلبه[2].

أراد النبي الرد على المشركين حتى يؤمّن المدينة من خطرهم، وإعلام قريش بإمكانية المسلمين من الرد عليهم، خرج في جمادى الآخر من نفس السنة إلى منطقة تدعى ذي العشيرة[3] ومعه الأصحاب لاعتراض قافلة قريش التجارية، لكن أبا سفيان تمكن من الفرار بالقافلة بتغيير مسارها بطريق بحر قلزم [البحر الأحمر] بدلاً من طريق بدر المعتاد[4].

كان خروج المسلمين لهذه القافلة في بدر شهر رمضان بعد مرور شهر ونصف من أحداث سرية نخلة[5]، ويؤيد على صلابة موقف المسلمين وإيمانهم باستمرار حربهم ضد قريش، ويثبت أنهم ليسوا خائفين من آثار سرية نخلة.

بعد أن تلقي الحرب أوزارها، يُدفن القتلى من الطرفين، ويحسب عدد الأسرى ليتم التبادل بين الطرفين الحر بالحر والعبد بالعبد، والمتبقي منهم يطلق سراحه بالفدية، هذا عُرْف نهاية الحرب عند العرب في الجاهلية، وقد عمل به النبي محمّدﷺ في صدر الإسلام، بدايةً من معركة بدر الكبرى (2هـ/ 623م). إلا أنّ وات تجاهل العرف القبلي الذي ينسجم مع المواقف الإنسانيّة التي يتحلى بها نبي الرحمة محمّدﷺ، ويعتبر موقف النبي محمّدﷺ بإطلاق سراح الفقراء دون أيّ فدية ذا مغزًى سياسيٍّ مستقبليٍّ فقال: ((كانت فدية الأسرى مرتفعةً جداً، كونهم كانوا ينحدرون من عائلات غنية، أما الشخصيات غير النافذة أو غير الغنية، فقد أطلق محمّدﷺ سراحهم دون فدية، لقد كان الكرم أو الشهامة من العادات المحمودة التي تنال إعجاب العرب، لكن النبي محمّدﷺ من المرجح أنه بدأ يدرك بأنه

1-سفوان: وادي يقع أطراف المدينة المنورة، يقال له سفوان من ناحية بدر قرب آبار الماء، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3/ 225.

2- الواقدي، المغازي، 1/ 2؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 601 ؛ ابن خياط، تاريخ خليفة، 57.

3-ذي العشيرة: هي وادي في ينبع تقع بين جبلين الغوريّ والجلسيّ، وهما جبلان متفرّقا الرأسين، أصلهما واحد، بين مكة والمدينة، وسمي بذلك نسبة إلى عشرة أشجار كبيرة فيه، يشتهر بكثرة النخيل والماء لبني عبد الله بن غطفان، ينظر: البكري، عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، 1/ 154؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2/ 408.

4- الواقدي، المغازي، 1/ 12؛ ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 157؛ الحلي، الحسن بن عمر، المقتفى من سيرة المصطفى، 127 - 128.

5- ابن حبان، السيرة النبوية، 1/ 158.

سيكون من المهم في يوم ما كسب المكيين لطرفه)) [1]. وأضاف إلى ذلك فقال: ((تساهل معاملة المسلمين للمكيين مع أحد الأسرى الذين قُبض عليهم، سياسة جديدة في الليونة، كانت تهدف لكسب المكيين لطرفهم))[2]. ثم قال وات: ((قرار محمّدﷺ بحفظ أسرى بدر عامة بانتظار دفع الفدية ليس فقط دليلاً على الرحمة وحاجته إلى تحسين حالة المسلمين، بل هو تحقيق الفكرة القائلة بأنه كي يحقق أهدافه البعيدة التي أخذت تتراءى له فوق الأفق، فإنه سوف يحتاج إلى كفاءات المكيين الإدارية، لهذا فليس مهمته تحطيم هؤلاء القريشيين بل اكتسابهم إلى جانبه))[3].

لقد حاول وات إخراج صورة للنبي محمّدﷺ بأنه رجلٌ سياسيٌّ يتقمص فعل عمل الخير والكرم لتحقيق أهدافٍ مستقبليةٍ، وهو لا تحركه عادات العرب المحمودة كالكرم والشهامة والغيرة، بل تحركه مصلحة كسب المكيين لجانبه والاستفادة منهم. وهذه الشبهة نرد عليها من كتاب الله العزيز إذ يصرح أنّ بعد قتال الكافرين والغلبة عليهم يُفضل أخذهم أسارى وتوثيق رباطهم، وبعد أن تلقي الحرب أوزارها، فالفقراء تمنون عليهم بإطلاق سراحهم، والآخرون تفادونهم رجل برجل أو بالمال، كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾[4].

ولما نصر الله ﷻ المسلمين في بدر استشار النبي محمّدﷺ أصحابه عن مصير الأسرى، فجعل فداء بعض الأسرى تعليم أولاد المسلمين القراءة والكتابة[5]، فأمر الوحي إطلاق سراحهم فنزل قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[6]. ولأن النبي محمّدﷺ ينظر بعين الرحمة

1- محمّد النبي ورجل الدولة، 157.

2- محمّد النبي ورجل الدولة، 234.

3- محمّد في المدينة، 28.

4- سورة محمد: آية 4؛ ينظر: البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 4/ 209؛ البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 18/ 201 - 203.

5- ابن حنبل، مسند أحمد، 3/ 20.

6- سورة الأنفال: آية 67؛ ينظر ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 5/ 1730 – 1731؛ البغوي، معالم التنزيل، 3/ 375 – 376.

إلى المجتمع ويحرص على انتشاله من الجهل والتخلف، لذلك جعل فداء من يعرف القراءة والكتابة أن يعلم عشرة من المسلمين، وبذلك حتى يهيئ لمرحلة جديدةٍ في تأسيس الدولة، تكون أكثر تطوراً وذلك بتحميل الأجيال الجديدة المسؤولية في نشر تعاليم الإسلام وتعليم الناس القرآن الكريم الذي أصبح من الواجب تعلمه وتعليمه.

لقد حاول وات أن يظلل أعمال النبي محمّدﷺ كونه شديد الحرص على تنفيذ ما يوحي الله ﷻ إليه، إضافة إلى قلبه المليء بالحب والرأفة للإنسان بل أكثر من ذلك حتى الحيوان والنبات. فصار وات يلمّح أنّ النبي محمّدﷺ يستعمل سياسة الاغتيال في بعض الأوقات، وكان يستخدمها كوسيلةٍ للقضاء على خصومه فقال: ((وبعد انتصار محمّد في معركة بدر تعامل بلطفٍ مع المتغيبين عن المعركة، وذلك لكي يخفّف من وطأة المعارضة ضده. وعلى الرغم من ذلك اللطف الذي أبداه محمّدﷺ فقد امتلك بالمقابل قسوة وصرامة. ففي غمرة الانتصار الذي خلفه نصر بدر، قُتل رجل يدعى أبو عفك[1] وامرأة تدعى عصماء[2] كانا يكتبان أشعاراً ضده، وذلك من قبل أشخاص على قرابة معهم، تنتمي تلك المرأة إلى إحدى العشائر الصغيرة التي لم تدخل الإسلام، بينما الرجل كان ينتمي إلى قبيلة لم يعتنق كل أهلها الإسلام))[3]. ثم يستنتج وات نتائج الحادثتين فقال: ((فقد دخل عددٌ ممن كانوا مترددين إلى الإسلام. وربما أيضاً أنه من إحدى نتائج هذه الأحداث، اعتناق كل عشائر المدينة العربية الإسلام رسمياً))[4].

من ترجمة المرأة عصماء تظهر أنها ليست من العشائر الصغيرة كما يتصورها وات فهي من أهل قباء ومن قبيلة الأوس، أما أبو عفك فهو من عشائر يهود المدينة التي لعبت دوراً كبيراً لتقويض الإسلام في مهده، واتخذ الرسول محمّدﷺ الرد الحازم على بعض التجاوزات

1-أبي عفك من بني عمرو بن عوف اليهودي، أرسلت له سرية سالم بْن عمير العمري، قتل سنة (2هـ/ 623م) قد بلغ عشرين ومائة سنة. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 21.

2-عصماء: هي اليهودية عصماء بنْت مروان بن عمير بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري، وقيل هي من بني أُمَيَّةَ بن زيد بطن من عوف بن مالك، كَانَت زوجة يزيد بْن زيد بْن حصن الخطمي. وكانت تعيب الإسلام وتؤذي النَّبيّ (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) وتحرض عَلَيْهِ وتقول الشعر. فجاءها عمير بْن عدي بن خرشه الخطمي بسرية وقتلها وهي مشركة سنة (2هـ/ 623م). ينظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 20 - 21؛ العسكري، جمهرة الأمثال، 2/ 403؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 1/ 1218؛ الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 2/ 219.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 165 – 166.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 166.

من قبل أشخاصٍ غايتهم تشويه تعاليم الإسلام والطعن في عرض النبي الطاهر وشخصه الكريم، فضلاً عن التحريض على مقاتلة المسلمين، ما دفع النبي محمّد ﷺ إلى اتخاذ قرار التخلص من أولئك الفجار لكي يُلجم الفتن في مهدها.

لعلّ استنتاج وات بأنّ نتائج حادثة قتل عصماء وأبي عفك تمثّلت في اعتناق كلّ القبائل العربية الموجودة في المدينة الإسلام، يُراد به أن انتشار الإسلام كان بالسيف والغيلة، ودخول القبائل في الدين الجديد خوفاً ورهبة، وحقناً لدمائهم، لا حباً بالدين الجديد ومبادئه التي انتشلهم من الشرك والظلم. وليس من المنطق أن حادثة قتل رجل وامرأة مشركين أثمرت دخول جميع قبائل المدينة في الإسلام، علماً أنّ العرب معروفون بجلادتهم وعنادهم فكيف دخلوا الإسلام لمجرد قتل شخصين؟

ويلمح وات في طرحه لسلوك اللطف الذي اتصف به النبي محمّد ﷺ أثناء تعامله مع القاعدين عن نصرته، أنّه محاولةٌ لكسبهم في المستقبل إلى جانبه، وفي الضد هناك صورةٌ أخرى ملامحها القسوة والصرامة مع أعدائه الذين يُحرّضون عليه الناس بأشعارهم.

لقد اتصف الإنسان العربي في الجاهلية وصدر الإسلام بتذوق الأدب وإنشاد الشعر وحفظه، وهو أفضل وأسرع وسيلة في الإعلام، فاتخذ هؤلاء المنافقون بإنشاد شعر الهجاء ضد شخص النبي محمّد ﷺ خصوصاً والإسلام عموماً، وتأليب الناس ضدهم؛ لذا كان يلزم على النبي محمّد ﷺ إخراس ألسن المنافقين، والقصاص منهم لكي يقطع الطريق أمام ضعفاء النفوس والمصطادين بالماء العكر، فجاء أمر اغتيالهم تماشياً مع مصلحة الدين والدولة على حدٍّ سواء. إذ كان للنبي محمّد ﷺ موقفٌ من الشعراء، عن عائشة قالت: ((قال رسول الله ﷺ إن أعظم الناس فرية اثنان: شاعرٌ يهجو القبيلة بأسرها، ورجلٌ انتفى مِنْ أبيه))[1]، فما بالك بشعراء يهجون نبي الله محمّد ﷺ وخاتم المرسلين وهو الزعيم الروحي والديني للإنسانية جمعاء. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله محمّد ﷺ: ((امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار))[2]، وفي السياق نفسه جاء شاعرٌ من بني ليث وطلب الإذن أن يمدح رسول الله محمّد ﷺ فرفض طلبه، وفي المرة الرابعة امتدح رسول الله فردّ عليه: ((إن كان أحَدٌ مِنَ الشعراء يحسن فقد أحسنت))[3]، وفي حديث آخر قال ﷺ: ((إذا رأيتم المداحين

1- الهيثمي، موارد الضمآن إلى زوائد أبن حبان، 6/ 330.

2- ابن حنبل، مسند أحمد، 6/ 531

3- ابن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، 5/ 280؛ الطبراني، المعجم الكبير، 5/ 64.

فاحثوا في وجوههم التراب))[1]، وكل هذا يؤكد رفض رسول اللهﷺ حتى شعر المديح لما فيه من أسلوب المبالغة والخيال، فرسول الله لا يُجوّز لمن يمدحه، فكيف يُجوّز من يهجوه.

ولما جاء الشاعر ابن الحمامة[2] إلى مجلس الخليفة عمر بن الخطاب وأنشد شعراً سأله الخليفة عن حاجته؟ قال في ذمتي دين، فقضى له دينه وأوصى ابنه عبد الله بن عمر فقال: ((يا بني اتق ألسن الشعراء))[3].

وحذر الله ﷻ من اتباع الشعراء لأنهم يُضلّون الناس كما في قوله تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**﴾[4]، يعني: شعراء الكفّار كانوا يهجون رسول اللهﷺ فيتّبعهم الكفّار والسفهاء[5].

وفي أيلول سنة 624م، حادثة اغتيال سياسيّة أخرى، كان ضحيتها كعب بن الأشرف وهو عربيٌّ ينتسب لطيء، وينتمي إلى يهود بني النضير من ناحية أمّه، وقد ذهب بعد بدر إلى مكة ونظم أشعاراً ضد المسلمين يثير فيها الحزن والعنف والثأر في نفوس المكيين، فانتشرت في كل مكان، ولما رجع إلى المدينة استمر في نشر دعايته ضد الإسلام، وقد أعلن النبي محمّدﷺ أنه سيكون سعيداً لو تم التخلص من كعب، حتى إذا ما استعد خمسة لقتله سمح لهم بأن يقولوا ما يشاؤون على لسانه، ثم رجعوا إلى مكان يستطيع النبي محمّدﷺ منه أن يسمعهما، وكان يترقب عودتهما فأخبروه بنجاحهم صائحين: الله أكبر[6]، ويدلي وات باستنتاجه فقال: ((تدل هذه الواقعة على أنّه لا يستهان بمحمدﷺ، وقد استفاد الذين رضوا به زعيماً لهم فوائد مادية، وأما الذين عارضوه فقد خسروا خسارةً جسيمة))[7].

1- ابن الجعد، مسند الجعد، 41/ 146؛ أبو داود، مسند أبي داود، 7/ 183.

2-ابن الحمامة: اسمه هوذة بن الحارث بن عجرة السلمي، واشتهر ابن حمامة اسم أمه، شاعر وصحابي زار رسول الله (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم)، كان من سكان البصرة، توفي سنة (20هـ/ 640م). ينظر: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصَحابَة، 5/ 188؛ الزركلي، الاعلام، 8/ 108.

3- ابن شبة، تاريخ المدينة، 3/ 788.

4- سورة الشعراء: آية 224.

5- الواحدي، الوجيز تفسير الكتاب العزيز، 798؛ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 588.

6- محمّد في المدينة، 28 - 29 و 321 ومحمد النبي ورجل الدولة 167.

7- محمّد في المدينة، 29.

ولحادثة مقتل كعب بن الأشرف وهو شاعرٌ هجا النبي محمّد ﷺ وحرّض مشركي مكة على الثأر لقتلاهم، وتشبب ببعض نساء المسلمين[1]. بينا أعلاه حكم الله ﷻ فيهم، وموقف النبي محمّد ﷺ منهم، ولم يكتف كعب بن الأشرف بذلك، بل جرب حظه ثانيةً في مؤامرة اغتيال رسول الله ﷺ، عندما صنع طعاماً وتواطأ مع جماعة من اليهود، ودعوا الرسول ﷺ إلى تلك الوليمة التي أقاموها، لكي يسمّموه، فلما حضر ﷺ ومعه بعض أصحابه، أعلمه جبريل عليه السلام بما خططوا وأضمروا القيام به، فقام عنهم بعدما جلس فلم يشعروا به، فقد ستره جبريل بجناحه، حتى خرج من مجلسهم، فبعدما فقدوه تفرقوا خوفاً من المسلمين[2].

إذاً قام كعب بجرائمَ عديدةٍ وخياناتٍ وإساءاتٍ لا تُغتفر ضدّ رسول الله ﷺ والمسلمين، وكل هذه التصرفات تؤدي بصاحبها إلى الهاوية، وهو ما يظهر من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا**﴾[3]، ولما كان لهم مع رسول الله ﷺ معاهدة لم يشأ قتل كعب بن الأشرف، إلى أن تمادى أكثر في جهالته وطغيانه فاستحق القتل ونقض العهد، فصار محارباً مهدور الدم، فأمر النبي ﷺ بقتله[4].

أما عن استنتاج وات حول قتل كعب بن الأشرف، فإنه يرى بأنّ النبي محمّد ﷺ صار قوةً لا يستهان بها، فمن انظم إليه كسب فوائد مادية من الغنائم، أما المعارضون له فقد خسروا أموالهم وحتى أنفسهم. إنّما الواقع على العكس من ذلك تماماً حيث إنّ النبي لا ينتقم لنفسه، بل المسألة أكبر من ذلك بكثير، لأن هؤلاء يسببون الضلالة والجهالة للناس وبالتالي النبي ﷺ أحرص الخلق على الخلق إذ هو المسؤول الأول عن هداية الناس وإخراجهم من الضلال.

لم يكن النبي محمّد ﷺ بهذه القسوة كما يصورها وات بل كان لين الجانب مع المؤمنين، وقوي العريكة مع المشركين، والله ﷻ يوصيه باللين في قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ**

1-ابن اسحاق، السيرة النبوية، 317 – 318.

2- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 3/ 338؛ الصالحي، سبل الهدى والرشاد، 6/ 26؛ الديار بكري، تاريخ الخميس، 1/ 413؛ الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 2/ 271.

3- سورة الاحزاب: آية 57.

4- التميمي، حقوق النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ، 52 - 53.

في الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]، أما عن أسلوب الدعوة الإسلاميّة كانت بالسلم والحكمة لا بالقسوة وحد السيف كما يصورها وات، وجاء في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[2].

وبعد معركة أحد قال وات: ((وقد استخدم محمّدﷺ وسيلةً أخرى يستعملها متى ما أتيحت له الفرصة وهي الاغتيال، فقد قتل سفيان بن خالد بن نبيه سيد بني لحيان، على يد عبد الله بن أنيس[3]. كما قتل أحد زعماء بني النضير أبو رفيع سلام بن أبي الحقيق بعد طردهم من المدينة وإقامتهم في خيبر بعد قيامه بمؤامرات ضد المسلمين مع بني غطفان))[4].

وورد في المصادر الإسلاميّة بخصوص سفيان بن خالد بن نبيح اللحياني الهذلي [5] أنّه لم يكن إرسال رسول اللهﷺ لسرية عبد الله بن أنيس لاغتياله إلا بعد أن اجتهد سفيان بن خالد في تأليب القبائل وجمعها حوله للهجوم على المدينة[6]، حتى إنّ قبيلة هذيل بعد قتل خالد بن سفيان ثأرت وأعانت على تسليم أسرى مسلمين إلى أهل مكة في حادثة الرجيع وغدر قبيلتي عضل والقارة، وكذلك بني لحيان الهذليين[7]، وكان قتل خالد بن سفيان لمنع الأعراب من غزو المدينة قبل استكمال تجمعهم وقيامهم بالغزو، وكذلك خالد لما سأله عبد الله لم يخف نيّته بذلك، فقال: ((لم يلقَ محمّد أحداً يشبهني، وبعد أن قتل خالد تفرقت تلك الجموع والحشود من الأعراب التي حشدت لغزو المدينة، وذلك لفقدان قائدها الذي ماتت العدوانية معه))[8].

1- سورة آل عمران: آية 159.

2- سورة النحل: آية 125.

3-عبد الله بن أنيس: الصحابي أبو خالد عبد الله بن أنس بن حرام... بن يربوع أنصاري، وسميّت باسمه سرية عبدالله بن أنس، زوجته هزيلة بنت مسعود أسلمت وبايعت الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، له رواية في الحديث، ينظر ابن خياط، الطبقات، 198؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 248 و 2/ 39 و 143 و8 /300.

4- محمّد في المدينة، 46.

5- الواقدي، المغازي، 2/ 431؛ ابن سعد، الطبقات، 2/ 39؛ ابن حبيب، المحبر، 119.

6- الواقدي، المغازي، 2/ 531؛ ابن سعد، الطبقات، 2/ 47؛ ابن شبه، تاريخ المدينة، 2/ 467 – 468.

7- الغزالي، فقه السيرة، 277.

8- خطاب، الرسول القائد، 204 - 205.

وقد تبين الحادثة دقة الرصد الحربي والحزم لمواجهة الفتن، فقوة الإدراك لدى رسول الله ﷺ وسياسة الأمور وإعداد الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها الملائم، فوتت الفرصة على الأعداء، فرسول الله ﷺ تنبه لتحركات عدوٍّ خطيرٍ أخذ يجمع الناس حوله، فلم يمهله حتى يكثر جمعه، وأراد القضاء على الفتنة بالقضاء على مصدرها وأساسها، فلو قدر لسفيان بن خالد أن يغزو المدينة فماذا ستكون النتائج، وما هو المضمون منها، وغير المضمون[1]، فهي تمثل عمليّةً استباقيّةً للتخلص من أعداء الإسلام الذين يدبرون المكائد.

بعد أن أجلى النبي محمّد ﷺ بني النضير من المدينة إلى خيبر ومنهم أبو رفيع سلام اليهودي[2]، الذي ترأس وفد اليهود إلى مكة وحرض الأحزاب على غزو المدينة وذكرهم بمواجعهم ببدر وحثهم على أخذ الثأر من المسلمين[3].

وبسبب الدور التحريضي الذي لعبه أبو رفيع سلام اليهودي في دعوته لقتل النبي محمّد ﷺ، فقد استأذنت بعض رجال الخزرج من النبي محمّد ﷺ بقتله، كما أنّ الفقه يُجوّز القصاص من مشعل الفتنة لعظم بلائها كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**﴾[4]. إذ اضطر المسلمون لقتال الظالمين المعتدين لدفع شرهم وأذاهم ولرد فتنتهم ومن أغووهم، وحققت نتائج إيجابية متمثلة بحقن دماء المسلمين أولاً ودماء عامة الناس المغرر بهم من قادة المشركين ثانياً. فهو ليس اغتيالاً سياسيّاً كما يصوره وات بل هو قضاء على خصومة.

الجدير بالذكر أن من أبرز وأهم الأعمال التي قام بها النبي محمّد ﷺ في الجانب العسكري كان فتح مكة سنة (8هـ/ 629م) التي كان يراوده الأمل بفتحها؛ لكي يطهر بيت الله الحرام من دنس الشرك ويحطم الأصنام، فضلاً عن مكانتها في نفس الرسول ﷺ فهي موطن جده النبي إسماعيل عليه السلام ومهد ولادته وشبابه، وهي أول بيت آمن وضع للناس فقال تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾[5].

ولهذا حاول وات تضعيف هذا النصر وإهفات هيبته فقال: ((لعب أبو سفيان دوراً في

1- الحميدي، التاريخ الإسلامي، 6/ 26.

2- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 565؛ المسعودي، التنبيه والاشراف، 1/ 220.

3- مسكوية، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 1/ 257.

4- سورة البقرة: آية 191.

5-سورة آل عمران: آية 96.

غاية الأهمية في استيلاء المسلمين على مكة أكثر مما يدرك ويتصور على العموم. يحجب المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة، وذلك تجنباً لظهوره في مظهر أكثر تمجيداً مما هو عند العباس))[1].

بعد أن هيّأ النبي محمّدﷺ الأسباب الطبيعية للنصر المتمثلة بإعداد العدد الكبير من الرجال البالغ قوامة عشرة آلاف مقاتل، والذي لم يُجمع طيلة مراحل الدعوة الإسلامية، وإضافة إلى التسليح الجيد، والتنظيم العالي في صفوف الجيش، وإيقاد النار ليلاً وهم على مشارف مكة؛ لكي يستعرضوا حجم قوات المسلمين ويزرعوا الرعب في صفوف المشركين، والقيادة الفذة بيد الرسول والقدوة محمّدﷺ [2]. تدخلت العناية الإلهية بنصر المسلمين ورفع راية الإسلام بعد أن ضاق صدر النبي محمّدﷺ بالشوق إلى موطنه الأول مكة، وتطهيرها من دنس الشرك وبراثم الأصنام فقال تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾. ويرى الفخر الرازي أن هذه الآية نزلت بعد خطاب النبي محمّدﷺ للكافرين وخاف من تهديدهم لهﷺ في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[3]. لذا رفع الله ﷻ الخوف عن قلب النبي محمّدﷺ ووعده بالنصر المؤزر والفتح المبين في قوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾[4] ويراد بتفسيرها: ((يا محمّد لا تخف فإني لا أذهب بك إلى النصر بل أجيءُ بالنصر إليك))[5].

ما تيسر لنا من نصوصٍ قرآنيةٍ والتي قدمناها يتضح أن النصر الذي حضيَ به المسلمون بفتح مكّة؛ تحقق بإرادة الله ﷻ وتنفيذ وعده بالنصر للنبي محمّدﷺ لتطهير بيت الله الحرام الذي جعله حرماً آمناً. وتم النصر بما قدمه النبي محمّدﷺ من أسبابٍ طبيعيةٍ ومقدمات للنصر وإدارة حازمة بتوزيع المناصب واختيار القادة وبوضع الخطط العسكرية الناجحة. ولقد استطاع النبي محمّدﷺ بحنكته الفائقة أن يحيّد دور أكبر زعيم للمشركين وأعتى عدوٍّ للإسلام، فأعطى الأمان لمن دخل داره، وبهذا القرار تمكن من تفريق الناس ومنعهم من

1-محمّد النبي ورجل الدولة، 261.

2-الواقدي، المغازي، 2/ 815 – 822

3-سورة الكافرون: الآيات 1 - 6.

4-سورة النصر: آية 1.

5-الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 32/ 334.

الالتفاف حول أبي سفيان، بل قرنه أسوةً بالناس العاديين فقال: ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن))[1] وبهذا انصهرت مكانة أبا سفيان وتحقق النصر العظيم. وهذا يعد من عبقرية النبيﷺ لأنه قتل الروح القتالية لدى الخصم.

ولو كان هنالك دورٌ بسيطٌ لأبي سفيان في مساعدة النبي محمّدﷺ في فتح مكة لكان أجدر على الله ﷻ أن يذكره في القرآن الكريم، لأن الله ﷻ لا يضيع أجر من عمل لمرضاته ولا يبخس حق عباده كما في قوله تعالى: ﴿... **وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**...﴾[2]. البخس يشمل النقص والعيب، وتشمل الآية الأشياء المادية والمعنوية وليست مقصورة على البيع والشراء فقط، بل تدخل فيها الأعمال والتصرفات، وكذلك تقييم مجهودات الناس، ومعرفة منازلهم.

إضافة إلى ذلك لم نجد أي إشارةٍ في حديثٍ نبويٍّ يُبين دور أبي سفيان في فتح مكة، علماً أن النبي محمّدﷺ قال الكثير من الأحاديث بحق الصحابة بل حتى الصحابيات.

لكن وات وضع الشبهة ورمى بأسباب القصور على المؤرخين بعدم ذكر دور أبي سفيان خوفاً من مشاركته مع العباس بن عبد المطلب جدّ الأسرة العباسية التي كُتب التاريخ في زمنها. لو كانت بها شيء من الصحة لمَ يذكرها ابن شهاب الزهري مؤرخ البلاط الأموي ومشايعهم.

ومن ثم يشكك وات بالرواية الإسلاميّة التي تذكر ذهاب أبي سفيان إلى المدينة وعدم استقباله من قبل النبي محمّدﷺ والقادة المهاجرين من الصحابة وحتى أم المؤمنين أم حبيبة ابنته رفضت جلوسه على فراش النبي كونه كافراً، ويعتبرها لونت بألوانٍ خيالية، بل يؤكد أنّ هناك تفاهماً حصل بين النبي محمّدﷺ وأبي سفيان الذي كان يسعى من أجل تسليم مكة بدون قتال[3].

تُجمع المصادر الإسلاميّة بعدم استقبال أبي سفيان من قبل النبيﷺ والصحابة وبنته أم

1-أبو داود، سنن أبي داود، 4/ 634؛ الطبراني، المعجم الكبير، 8/ 9.

2-سورة الأعراف: آية 85؛ ينظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 1/ 585؛ الزحلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، 8/ 289.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 261 – 262.

حبيبة عند قدومه المدينة[1]؛ فهو ما زال مصرّاً على كفره وقلبه مليء بالشرك، وهناك تحذيرٌ من قبل الله ﷻ بعدم الركون للظالمين ومحاربة المشركين إلاَّ أن يدخلوا في طاعة الله ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**﴾[2]. وليلة فتح مكة حضر أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب عند رسول الله ﷺ وشاهدا بأم أعينهم عظمة النبي محمّد ﷺ وهيبة المسلمين، فرجع أبو سفيان إلى مكة خائفاً ومذعوراً يركض ويصيح: ((يا معشر قريش، ويحكم! إنه قد جاء ما لا قبل لكم به! هذا محمّد في عشرة آلافٍ عليهم الحديد، فأسلموا!... رأيت ما لم تروا! رأيت الرجال والكراع والسلاح، فلا لأحد بهذا طاقة!))[3]. هذا يُبين أن أبا سفيان موفد أهل مكة فشل في مفاوضاته مع النبي محمّد ﷺ ورجع خائفاً مذعورا. فلم يكرمه النبي بشيءٍ بل جعله أسوةً بأبسط الناس من أهل مكة، وأعطى بيان السلم عند دخول المسلمين مكة شرط عدم القتال ورمي السلاح أو من دخل داره أو من دخل دار أبي سفيان أو من دخل المسجد[4].

ومن إسقاطات لسان أبي سفيان التي تكشف عن حقده وبغضه للنبي محمّد ﷺ واعتباره النبوة منصباً سياسيّاً بحت قال: ((يا بني عبد مناف، تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنّة ولا نار))[5]. وفي خلافة عثمان بن عفان ◌ اجتمع مجلس بني أمية وكان كبيرهم أبو سفيان رجلٌ طاعنٌ في السن وكف بصره فقال: ((يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة، والذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار يموت مسلما، والذي يعترف بالبعث والنشور يموت كافرا!))[6]. وكلا النصين يبينان كفر أبي سفيان وطغيانه قبل البعثة وحسده للنبي محمّد ﷺ وفي خلافة عثمان اعتبرها ملكاً عضوض.

ومن نتائج السرايا والمغازي التي حث عليها النبي محمّد ﷺ المسلمين والنهوض بها هي الغنائم التي أصبحت مصدر رزقهم الرئيسي[7]. أما نصيب النبي محمّد ﷺ أصبح خمس

1-الواقدي، المغازي، 2/ 792؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 396؛ البيهقي، دلائل النبوة، 5/ 5.

2-سورة هود: آية 113؛ ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 2/ 173.

3-الواقدي، المغازي، 2/ 823.

4-الواقدي، المغازي، 2/ 822؛ ابن حزم الأندلسي، جوامع السيرة النبوية، 230.

5-الطبري تاريخ الرسل والملوك، 5/ 622؛ أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، 2/ 57.

6-الجوهري، السقيفة وفدك، 87؛ الطبرسي، الاحتجاج، 1/ 341، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 9/ 53؛ الأمين، أعيان الشيعة، 2/ 602.

7-وات، محمّد في المدينة، 219.

الغنيمة، وهذا التغيير يدل على الاعتراف بأن محمداً ﷺ قائد الأمة، بعد أن كان زعيم القبيلة له ربع الغنيمة، واستبدال الربع بالخمس يدل على الفرق بين زعيم أمة وزعيم قبيلة[1].

يبدو أن وات فسر سير الأحداث التاريخية للسرايا والمغازي وفق نظريته المادية التي ترى أنّ الهدف من الجهاد هو الغنائم. هذا المفهوم لم يكن سائداً في عصر الرسالة المحمدية ولا العصر الراشدي؛ لأن الصحابة باعوا أنفسهم إلى الله جل جلاله لتحقيق مرضاته، ولم يكن سعيهم للمال كما في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[2]، وأن سبب نزول الآية بحق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[3]، وقيل بحق أصحاب سرية الرجيع[4]، ويتفق الجميع نزولها بحق الإمام علي عليه السلام وتشمل جميع الصحابة لأنهم تأسوا بأخلاق وسيرة الإمام عليه السلام. بل فكرة الغنائم سادت عند بِدْء التوسع في العصر الأموي، وقيام الخلفاء بالتصرف في بيت المال لمصالحهم الشخصية والسياسية في كسب الولاء وشراء الذمم وتأسيس ملك عضوض.

وبخصوص الغنائم نزل قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...**﴾[5] وضّحت الآية الكريمة طريقة توزيع الغنيمة التي تأخذ من الكفار وتوزّع إلى ست أقسام: حصة الله جل جلاله والرسول ﷺ وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[6]. وفيها اعترافٌ صريحٌ بالنبي محمّد ﷺ وهو الرسول. لكن وات أسقط التفسير بحدثٍ سياسيٍّ على حكمٍ شرعي وسحب المعني وهو النبي المنصوص عليه في القرآن واستعاض عنه بزعيم الأمة من صحيفة المدينة، وهي مادةٌ متعلقةٌ بموضوعٍ سياسيٍّ هو من فعل النبي ﷺ الخالص باستخدامه لفظة الأمة أي مجتمع المدينة فقط. أما تفسير القرآن يتحدث بالنبوة لأن النبي يخص المسلمين كافة.

ويظهر ذلك لنا بوضوح من تحفظ وات بعدم التصريح بمنصب النبوة إلى النبـــــي

1-وات، محمّد في المدينة، 353.

2-سورة البقرة: آية 207.

3-الخوارزمي، المناقب، 127؛ الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، 1/ 96.

4-النعماني، عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، 3/ 467؛ المقدسي، مجير الدين بن محمد، فتح الرحمن في تفسير القرآن، 1/ 96.

5-سورة الأنفال: آية 41.

6-البيضاوي، أنوار التنزيل، 3/ 60.

محمّدﷺ؛ لأنه يتعارض مع معتقده الكاثوليكي، فالتصريح يعني الاعتراف بنبوة محمّد ﷺ وهذا ما يخشاه وات كونه رمزاً ثقافيّاً في أوروبا ويسبب له أزمة في أوساط عمله. ولعل وات يعد الحد الفاصل لما سبقه من مستشرقين الذين أنكروا نبوة محمّدﷺ، وهو الذي قال عنه زعيم أمة ورجل دولة حكيم ورجل إدارة بارع[1] ومصلح للشؤون الاجتماعية والقيم الأخلاقية[2]، ولم يقل نبياً مطلقاً، وهذا الإنكار والرفض متعمّدٌ، لأن كبار رجال الدين النصارى وأساقفة الكنيسة لا يعدون محمداًﷺ نبيَّ آخر الزمان والمنصوص عليه في الإنجيل وأنهم عليهم مسؤولية إتباعه، وتصديقه والدخول في دينه لأنها بشارة عيسى ودعوة إبراهيمعليه السلام، بل زيفوا الحقائق وأنكروا الوقائع وأشاعوا الكذب والافتراءات حول الديانة الإسلاميّة ونبيها محمّدﷺ وهذا هو ديدن المستشرقين.

1-وات، محمّد في المدينة، 511.

2-وات، محمّد في المدينة، 506.

الفصل الخامس

دعوة
النبي محمّد ﷺ
في المدينة
بجوانبها
التشريعيّة
والاجتماعيّة

الفصل الخامس:

دعوة النبي محمّدﷺ في المدينة بجوانبها التشريعيّة والاجتماعيّة

المبحث الأول: تنظيمات النبي محمّدﷺ الاجتماعيّة في المدينة (المؤاخاة)

المبحث الثاني: الزعم (أو الشبهات) بما أخذهُ النبي محمدﷺ من اليهود

1 – الصلاة

2 – تحويل القبلة

3 - الصيام

المبحث الثالث: موقف وات من زيجات النبي محمّدﷺ المتعددة

المبحث الرابع: حجة الوداع وختام عصر الرسالة

المبحث الخامس: الصفات الخَلقية والخُلقية للنبي محمّدﷺ

المبحث السادس: موقف وات من القرآن الكريم

1 المبحث الأول

تنظيمات النبي محمّد ﷺ الاجتماعيّة في المدينة (المؤاخاة)

تعد المؤاخاة من أهم تنظيمات الرسول محمّدﷺ في المدينة، إذ نظم أمور المجتمع فيها على ضوء إجرائين اثنين: الأول عامٌ لكلّ سكان المدينة، ضمنَ به وحدة المجتمع ككلّ (عربي ويهودي)، وإجراءٌ آخر تمثل بالمؤاخاة، وهو خاصٌ بالمسلمين من المهاجرين الذين هاجروا بأنفسهم ابتغاء مرضاة الله ورسولهﷺ إذ نزلوا ضيوفاً كراماً على المدينة وسكانها الأنصار الذين استقبلوهم بالفرح والسرور، فآخى رسول الله بينهم.

لقد ذهب المستشرق وات إلى أن الهدف من المؤاخاة هو تقوية الجبهة واللحمة بين المقاتلين، وتمثّل رأيه في قوله: ((لا تساعدنا المؤاخاة أيضاً على إدراك طبيعة الأمة الحقيقية، المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين في المدينة كانت تهدف إلى تقوية اللحمة بين المقاتلين، ويمكن أن ينظر لهذه العملية على أنها اقتباسٌ للتحالف في الجاهلية))[1]. ثم أعطى وات سبباً آخر للمؤاخاة في حالة الحرب فقال: ((وكان على الأخوين الجديدين ألّا يترك أحدهما الآخر أثناء المعركة، فإذا قتل أحد الأخوين ورثهُ الآخر))[2]. ويقدم وات وجهة نظره حول سبب العمل بالمؤاخاة بأنها كانت بدافعين هما العسكري والسياسي لا الاجتماعي والاقتصادي. وأما عن إلغاء المؤاخاة فوضع وات سبباً لها قائلاً: ((وربما ألغيت المؤاخاة بسبب صعوبة الميراث))[3].

خرج المهاجرون من مكة تحت جنح الليل تاركين خلفهم المال والعيال، لا يمتلكون سوى قلوبٍ عامرةٍ بالإيمان، ونفوسٍ زكيّةٍ راضيةٍ بعقيدة الإسلام، وألسنٍ ناطقةٍ بالشهادتين، واستقبلهم الأنصار بخلقٍ عظيمٍ، وهم يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، وقد تجردوا من شح النفس، وملأوا قلوبهم بحب الله ﷻ ورسولهﷺ، فكانوا قدوةً مثاليةً في عالم الإيثار الرائع، والإنسانيّة النبيلة، ونلتمس صورة هؤلاء المؤمنين من القرآن الكريم في

1-محمّد في المدينة، 380.

2-محمّد في المدينة، 378.

3-محمّد في المدينة، 378.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1].

وأوردت كتب التاريخ نماذج لهؤلاء الصفوة من أنصار رسول اللهﷺ عندما قدم المهاجرون إلى المدينة وهم لا يملكون شيئاً، بينما كان الأنصار أهل أرض وزرع وثمار فجاءوا إلى النبي محمّدﷺ وعرضوا عليه أن يتقاسموا الثمار مع المهاجرين، حيث نقرأ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَتِ الْأَنْصَارُ: ((يا رسول الله، يا رسول الله، اقسم النخيل بيننا وبين إخواننا، فقال: نعم، قال: تكفونا المؤنة، ونشرككم في الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا))[2].

لكن النبي محمّدﷺ قد جعل المهاجرين يعملون ليستفيد الأنصار منهم كما آووهم ونصروهم، فيذكر أنه قال مخاطباً الأنصار: ((إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد، وخرجوا إليكم، فقال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول اللهﷺ: أو غير ذلك، قالوا: وما زال رسول الله يثني عليهم حتى قال هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم، وتقاسمونهم الثمر))[3]، فالنبي محمّدﷺ أبى إلاّ أن يعمل المهاجرون مع الأنصار، ويكون الثمر بينهم قسمةً عادلةً للأرض حصتها، وللعمل حصته.

لقد سجل التاريخ أروع القصص في المؤاخاة التي حصلت بين سعد بن الربيع الأنصاري[4] مع عبد الرحمن بن عوف[5]، فكان الأول صاحب مال كثيرٍ عرض نصفه على أخيه المهاجر، ولم يقف عند هذا الإيثار بل عرض عليه أن يتزوج إحدى نسائه بعد انقضاء

1-سورة الحشر: آية 8.

2-النسائي، السنن الكبرى، 7/ 367.

3-ابن كثير، السيرة النبوية، 2/ 328 – 329؛ أبو زهرة، محمد، خاتم النبيين 494 /2 ،ﷺ.

4- سعد بن الربيع الأنصاري: الصحابي سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، وشهد العقبة وهو أحد النقباء الاثني عشر، وكان سعد يكتب في الجاهلية، أمه هزيلة بنت عمرو بن عنبة بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج ممن بايع رسول الله (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم)، استشهد في معركة أحد سنة (3هـ/ 642م) متأثراً بجراحه. ينظر بن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 395 – 396، ابن ماكولا، الإكمال في رفع الارتياب، 7/ 320.

5- عبد الرحمن بن عوف: الصحابي أبو محمّد عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي، أحد الستة أصحاب الشورى أسلم قديمًا قبل دخول دار الأرقم وهاجر الهجرتين وشهد بدرًا وسائر المشاهد سماه الرسول ﷺ عبد الرحمن وكان اسمه عبد عمرو، وتوفي سنة (32هـ/ 652م) وعمره اثنتان وسبعون سنة: ينظر: المقدمي، التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم، 26؛ ابن عبد البر، الاستيعاب 1447؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 5/ 71.

عدتها[1]. إلاّ أن إباء عبد الرحمن بن عوف وكرم خلقه، لم يسمح له باستغلال كرم أخيه سعد بن الربيع، وشكر لهُ سعيه وطلب منه أن يدله على السوق كي يعمل، وأجاد عمل التجارة وأصبح من كبار أغنياء المسلمين[2]. فأيّ إيثارٍ هذا! وأيّ أخوّةٍ هذه! التي جعلت حبّ العقيدة أعلى وأعظم من حب الذات التي ذابت في بوتقة الإسلام.

وقد سجّل الأنصاريّ موقفاً بلغ في الإيثار مبلغًا يستجلب تمام رضى الله، إذ بات الرجل طاويًا وزوجته كذلك، وفوق ذلك نام أولادهم دون عشاء، وآثرا ضيف رسول الله ﷺ من المهاجرين بما كان عندهم من طعام[3]، فخاطبهم الله ﷻ وأوعدهم الحسنى بقوله تعالى: ﴿**... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[4].

ولقد صهرت هذه الأخوة المسلمين في بوتقةٍ واحدة، وربطتهم بحبل الله المتين، وخلصت نفوسهم من شهوات النفس، وأزاحت من حياتهم وساوس الهوى والشيطان، وشعر كلّ مسلم بأخوّته للآخرين بلا فرقٍ بين حرٍّ ومولى، أو غنيٍّ وفقيرٍ، أو كبيرٍ وصغيرٍ، أو مهاجرٍ وأنصاريٍّ وصار الجميع جنودًا لله، يضحون بكلّ ما يملكون في صدقٍ وإخلاص.

ويمكن القول بأن المؤاخاة كانت في وقتها حلاً آنياً وسريعاً لمشاكل اجتماعيّةٍ واقتصاديةٍ صعبة، وهو أمثل حلٍّ وأسرع لمشاكل لا تحتمل التأجيل أو التأخير.

وفي المؤاخاة إشارةٌ مهمّةٌ لمكانة الإمام علي عليه السلام من رسول الله، وقضية الولاية واعتبرها الشيعة من الدلائل التاريخية على إمامة علي عليه السلام.

لقد أقام المهاجرون والأنصار بجهدهم وجهادهم دولة الإسلام الأولى، وساهموا في سموها ورفعتها، وربانيتها، وأصبحوا مثالاً يفتخر به المسلمون في كل مكان، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿**محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ**

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 88؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 396.

2- البيهقي، دلائل النبوة، 6/ 219؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 223.

3- غلوش، أحمد، السيرة النبوية والدعوة بالعهد المدني، 113.

4-سورة الحشر: آية 9. ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 29/ 508.

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]. والآية تقدم صورة كريمة، رائعة لهذا الجيل المتفرد في حياة الأمة الإسلاميّة.

وواضحٌ أن وات قد ركز هنا على الجانب السياسي والعسكري وتقوية اللحمة العسكرية بين المقاتلين وهذا الجانب قد لا يكون الأساس والدافع الرئيس للمؤآخاة ولكن بالتأكيد يمثل تحصيل الحاصل، فالقوّة العسكريّة لا بد أن تقوى لتساهم في بناء مجتمعٍ قويٍّ خالٍ من المشاكل، ومجتمع آمنٍ تتوفر فيه مستلزمات الأمان المعيشي (العمال أو الاكتفاء المالي والمعاشي ـ العمل ـ والأمان الاجتماعي). في مجتمعٍ جديدٍ تحكمه متغيراتٌ جديدةٌ، فيه المسلمون متباينون في أنسابهم وأجناسهم، ومستواهم المادي، ولإيجاد تعايشٍ سلميٍّ بينهم وبعيداً عن الشعور بالغربة أو المنة، وضع النبي محمّدﷺ الركائز لبناء مجتمعٍ قويٍّ قادر على مواصلة دوره ومواجهة أعدائه.

لقد ربط وات المؤاخاة بالتحالف في الجاهلية، محاولةً منه إلى بث الضباب حول إلهامات النبي محمّدﷺ، وإخفاء إسهاماته في تكوين الدولة العربية الإسلاميّة بإيجاده المؤاخاة، وهو أول نظامٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ وحد الجماعة المؤمنة وحقق الائتلاف الاجتماعي بين المهاجرين والأنصار، وبين المهاجرين في ما بينهم، والأنصار بعضهم مع بعض، وآخى بينهم على الحق والمواساة، فجعل رابطة العقيدة تحل محل رابطة القبيلة والدم في الإرث.

أما عن الفرق اللغوي بين التحالف في الجاهلية والمؤاخاة، فالحلف جاء من الفعل «حلف» أي القسم واليمين، ويراد بها العهد[2]. والمؤاخاة اشتقت من الإخَاءُ: المؤاخاة والتّآخِي والأخُوَّةُ: قَرَابَة الأخ، والتّآخِي: اتِّخاذُ الإخْوَان، وَيُقَال: بَينهمَا إخَاءٌ وأُخُوَّةٌ[3]. كما جاء في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**[4]. فالله قدم رابطة الإيمان على النسب فاتخذها النبي محمّدﷺ نظاماً للمؤاخاة.

1-سورة الفتح: آية 29.

2-ابن دريد، جمهرة اللغة، 1/ 554.

3-الأزهري، تهذيب اللغة، 7/ 254.

4-سورة الحجرات: آية 10.

والقول بأن المؤاخاة اقتباسٌ للتحالف في الجاهلية أمرٌ لا يمكن تصديقه، فالنظام الجاهلي من أصله هو نظامٌ قبليٌّ عنصريٌّ تحكمه بالأساس رابطة الدم أو النسب، والتحالف ثمرةٌ طبيعيةٌ فرضتها ظروف العرب قبل الإسلام نتيجة ما وقع بينهم من الاختلاف والفرقة والتنافس للحصول على الماء والكلأ، وغلبة بعضهم البعض على البلاد والمعاش، واستضعاف القوي للضعيف؛ فلذا انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير[1]، وبذلك ينسلخون من عشائرهم التي يرتبطون معها برابطة الدم، وينتمون إلى عشائر أخرى برابطة التحالف. وهنالك أسبابٌ تعود للأفراد بعد أن يُخلعوا من عشائرهم إذا ارتكبوا جرائم ضدّ أحد أفراد عشيرتهم، أو إذا أساءوا التصرف بحيث يصبح أمر وجودهم بين أفراد قومهم غير مرغوب فيه، وأحياناً يلجأ الرجل بالانفصال عن عشيرته ويلتجئ إلى عشيرةٍ معيّنةٍ للعمل بها والمتاجرة مع أفرادها، أو للزواج من إحدى نسائها ويعيش بين أفرادها إلى جانب زوجته[2]. فضلاً عن ذلك كان العرب يعقدون تحالفات بين القبائل تأخذ شكلها السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، وأحياناً لأغراض هجوميةٍ أو لأغراضٍ أخرى، منها أخذ الثأر أو صدّ غزو أو هجوم على قبيلة، وهذه الأحلاف تكون مؤقتةً وأحياناً دائمة الأمد[3]، وفي الغالب تسعى القبائل الضعيفة لعقد الأحلاف مع القبائل القوية؛ لأن ليس بمقدورها المحافظة على كيانها من غير حلفٍ قويٍّ يشد أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى، والمحافظة على التوازن بين القبائل المتحالفة زد على ذلك درء أذى قبيلة كبيرة عن أخرى صغيرة[4] وقد اعتمدت بعض القبائل على نفسها ولم تدخل في أحلاف، وسميت ب (جمرات العرب) لاعتمادها على شجاعة أبنائها الفردية الذين يقدر عددهم بين ثلاثمائة إلى ألف مقاتل[5].

ومن بين الأحلاف العربية حلف المطيبين، وحلف الفضول، وحلف الرباب، وحلف قريش، والأحابيش[6]، وعادةً يعقدون الحلف وفق مراسيم متعارف عليها، منها على دم

1- البكري، معجم ما استعجم، 1/ 53.

2- محمد، محمود جمعة، النظام الاجتماعي والسياسي عند قدماء العرب والأمم السابقة، 148 – 149؛ العلي، صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب 134 – 135.

3- السوداني، صلاح عباس حسن، الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل الإسلام، 80.

4- الجبوري، إبراهيم محمد، التحالفات بين القبائل العربية، 178.

5- القلقشندي، نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، 1/ 125؛ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 8/ 102.

6- البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 76.

الذبائح، أو غمس الأيدي في جفان مملوءة بالدم، أو بغمسها في الطيب[1]، وكذلك من عاداتهم إذا أرادوا أن يعقدوا حلفاً أوقدوا ناراً ويحلفون عندها بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد أو يحله، وكانوا يطرحون في النار الملح فإذا استشاط قالوا للحالف هذه النار تهدّدك فإن كان مبطلاً نكل، وإن كان بريئاً حلف، ولهذا سموها نار الهول، وخصوها لأن لا ينتفع من النار سوى الإنسان[2].

ومن هذا لا نجد أيّ تشابهٍ بين التحالفات عند العرب قبل الإسلام ـ خصوصاً في شروطها أو الغاية من عقدها ـ وبين المؤاخاة وهي نظامٌ جديدٌ إسلاميٌّ ليس له سابقة أو مثيل، وهو من صُنع النبي محمّد ﷺ وعبقريته الفذة.

أخذ وات بعض الأسباب التي دعت لعقد التحالف في الجاهلية، ومنها الأمنية والسياسية، نتيجة لحياة الصحراء المترامية الأطراف، بهدف وضع القبائل الضعيفة تحت حماية القبائل القوية، ولاستمرار بقائها من خطر أيام العرب[3]، وطبّقها على المؤاخاة فقال: هي اقتباسٌ للتحالف في الجاهلية، وعلى الأخوين أن لا يترك أحدهما الآخر أثناء الحرب. وهذا على نقيض ما قدمناه أعلاه من أنّ المؤاخاة نظامٌ اجتماعيٌّ واقتصاديٌّ لا عسكري كما يرى وات.

ثم افترض وات أنّ إنتهاء المؤاخاة كان بسبب صعوبة الإرث، لكن في الحقيقة لم تكن المؤاخاة مجرّد أخوةٍ في الإسلام أو مجرّد ملازمةٍ فحسب، وإنما كانت أخوةً بها يتوارثون وبشأنهم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[4] وسبب نزول الآية عن الميراث إذ كانوا في بداية الإسلام يتوارثون بالهجرة والنصرة، فإذا مات أحد المهاجرين في المدينة ولم يكن له ولي مهاجر يرثه يعطي إرثه إلى أخيه الأنصاري، حتى وإن كان له وليٌّ مسلمٌ في مكة ولم يهاجر لا يستحق

1- ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 132؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، 180.

2- الآلوسي، بلوغ الأرب، 2، 162.

3-علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب، 4/ 326.

4-سورة الانفال: آية 72.

إرثه[1]، ويرجح سبب تشريع الميراث برابطة الهجرة إلى قلة عدد المسلمين في تلك الفترة، وأبطل العمل بها بعد فتح مكة لتوقف الهجرة، فتوارثوا بالأرحام[2].

ولقد استمر الأمر على ذلك الحال حتى عزّ الإسلام، واجتمع الشمل واطمأنت النفوس، وذهبت آثار الغربة وما فيها من الوحشة التي عاناها المهاجرون من مفارقة الأهل والعشيرة، وانخرطوا في الحياة، وعرفوا وسائل اكتساب الرزق، فنسخ الله ﷻ حكم التوارث بهذه الأخوة بالحكم الثابت المستقر، وهو التوارث بالقرابة والرحم فقال تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**... وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[4] هذه الآية نسخت آية الميراث بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة وأوجبت أن يرث الرجل قريبه برابطة النسب وإن لم يكن مهاجراً معه[5]، وكان ذلك حين وقعة بدر[6]، وروي أنه كان بعد أحد[7] وذكر ابن عباس[8] كان المهاجرون حين قدومهم إلى المدينة يورثون الأنصار دون ذوي الأرحام؛ للأخوة التي آخى النبي محمّد ﷺ بينهم، وآية الميراث، نسخت بعد نزول قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً**﴾[9]. إنَّ الذي أُلغي من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصر والرفادة[10] والنصيحة فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخين[11]. وبعد أن حققت المؤاخاة غرضها المنشود في الحب والارتقاء بلحمة المسلمين من الأنصار

1- الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 449؛ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2/ 556.

2- الثعلبي، الكشف والبيان في تفسير القرآن، 4/ 374.

3-سورة الاحزاب: آية 6، ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 3/ 45.

4-سورة الانفال: آية 75.

5- ابن عطية، المحرر الوجيز، 2/ 557.

6-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 238.

7-ابن سعد، الطبقات، 1 238؛ السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، 260؛ الشوكاني، فتح القدير، 2/ 330 – 331.

8-أبو داود، سنن أبي داود، 4/ 548؛ النحاس، الناسخ والمنسوخ، 331.

9- سورة النساء: آية 33، ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير، 1/ 400؛ الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 190.

10- الرفادة: رفد تأتي الإعانة والدعم والإعطاء، ويقال أرفدت الرجل أي أعنته، وكانت في الجاهلية الرفادة إطعام الحجاج لبني هاشم. ينظر: الزمخشري، أساس اللغة، 1/ 368.

11- النحاس، الناسخ والمنسوخ، 331.

والمهاجرين، انتهت المؤاخاة. والأجدر أن تبقى سنة النبيﷺ يُعمل بها لحدّ الآن لحلّ مشاكل المسلمين خاصة والناس عامة، ولا سيما ما يشهده المسلمون اليوم من حروبٍ وإرهابٍ وتهجيرٍ وتخريبٍ، فكان من الأجدر أن يبقى هذا النظام، يتكافل فيه الناس، ويعين الغنيُّ الفقيرَ، ويقدم له المسكن والمأوى والطعام ويعينه على نوائب الدهر.

وكما بينا سابقاً أنّ الغرض من المؤاخاة هو لمعالجة مشاكل اقتصادية واجتماعية آنية في ظلّ ظروفٍ جديدة لذا فإن نهايتها مرتبطةٌ بحلّ هاتين المشكلتين. فطالما حصل التآلف من خلال التعايش والعشرة، وتحققت المكاسب المادية من خلال الغنائم والعمل فأغراض المؤاخاة انتفت تلقائياً، وحتى نظام الإرث لم يعد له فائدة. أما الهدف الأسمى من المؤاخاة فهو يرتبط بقضية مؤآخاة الرسول محمّدﷺ والإمام علي عليه السلام ليكون دليلاً على وراثته وولايته والإيحاء بأنه أخو رسول اللهﷺ في الدنيا والآخرة فقال: ((أنت أخي في الدنيا والآخرة))[12].

12- الطبراني، المعجم الكبير، 13/ 198؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 3/ 15.

2 المبحث الثاني

الزعم (أو الشبهات) بما أخذه النبي محمّد ﷺ من اليهود

لا شك أن الشبهات والمطاعن التي يتبناها الفكر الاستشراقي عامة ووات خاصة حول موضوعات السيرة، هو ما له علاقة بالعبادات التي أخذها النبي محمّدﷺ من اليهود على حدّ زعمهم، وصاغ بها دينه الجديد على غرار الطقوس الدينية اليهودية أملاً في استمالتهم إلى هذا الدين كونهم موحدين. ومن آرائه في هذا الخصوص قوله: ((مرت فترةٌ كان فيها الدين الجديد ينقل عن اليهود، ثم جاءت فترةٌ أخرى أخذ فيها يعارضه... وهكذا نجد في الإسلام أوجه شبه مع اليهود، كما توجد أوجه خلاف، وقد أخذ كلّ من أوجه الشبه والخلاف عن عمد))[1].

وهذه الشبهة التي طرحها وات أراد منها أن يوهم القارئ بأن الدين الإسلامي لم يكن جديداً ولم يكن من عند الله ﷻ، بل جاء به النبي محمّدﷺ من باقي الأديان السماوية التي سبقته، فأخذ منها الصلاة والصوم وتحريم بعض الطعام، فضلاً عن المعلومات التي تخصّ أخبار الأنبياء والرسل والأمم السالفة، ثم أخذ يعارض بعض العبادات عن عمد. لو أن وات قرأ القرآن بتدبّر وتمعّن فيه برؤية ثاقبة بعيداً عن التعصب والعنصرية لعلم أن الله ﷻ قال: ﴿**وَمَا محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾[2] وقال أيضاً ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى *عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[3]، ولعلّ سبب ادعاء وات أنّ محمداًﷺ أخذ عن اليهود، هو ما جاء به القرآن الكريم من أخبار الأمم السالفة والأقوام البائدة التي يخبر بها عن أحوال القرى التي بقيت آثارها والأخرى التي محيت آثارها في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ**﴾[4]، وكذلك أنباء الغيب التي يوحى بها إلى النبي محمّدﷺ وهم يجدونها عندهم في التوراة والإنجيل لكنهم يُكذبّون أخبار السماء في قوله

1-محمّد في المدينة، 462.

2- سورة آل عمران: آية 144.

3- سورة النجم: الآيات 3 – 5.

4-سورة هود: آية 100. ينظر الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 533.

تعالى: ﴿**ذلكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[2]، وأشار القرآن إلى بعض قصص الأنبياء منهم نوح وإبراهيم ولوط وموسى وهود وصالح وشعيب وداود وسليمان الذين ذكرتهم التوراة بإسهاب وبأسلوب قصصي، ووجدها اليهود عندهم في العهد القديم، ومنها في قوله تعالى: ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[3]، وقد بين الله ﷻ للمشركين واليهود بأن أمر النبي محمّد ﷺ كان عندهم في كتب الأولين، وأنه لم يأخذ من علماء بني إسرائيل، وأن الله ﷻ أنزل على النبي محمد ﷺ المعلومات وأخبار الأنبياء بإشارة القرآن: ﴿**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[4]، والخطاب هنا موجهٌ إلى النبي محمّد ﷺ وأنّ الله ﷻ أوحى إليه كونه لم يكن حاضراً مع آل يعقوب لما أرادوا السوء بأخيهم نبي الله يوسف عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾[5]، كذلك يقص الله على النبي محمّد ﷺ قصة موسى والسامري ويخبر بنزول القرآن الذي أعطاه ذكراً إذ قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا**﴾[6].

حاول وات أن يُحرّف الحقيقة، ويحصر الدين الإسلامي بالعرب، أي إلغاء عالمية الإسلام وذلك بعد أن رفضت اليهود أن تعترف بالإسلام كدينٍ موازٍ لدينهم، لذا تحول النبي محمّد ﷺ بدعوته إلى العرب خاصة، وهي: إلغاء عالمية الدعوة الإسلاميّة وخصصها للعرب فقط وحصرها في حدود شبه الجزيرة العربية فقال وات: ((فكان هدف محمّد ﷺ أن يقيم ديناً موازياً لليهود، ولكنه مرسلٌ للعرب خاصة. وبعد رفض اليهود الاعتراف بدين محمّد على أنه موازٍ لدينهم، أدى هذا الرفض إلى تخصيص الدين الجديد بالعرب))[7]. وقد أغفل وات متعمداً ما أشار إليه القرآن

1- آل عمران: آية 44. ينظر السمعاني، تفسير القرآن، 1/ 318.

2-سورة هود: آية 49. ينظر ابن الجوزي، زاد المسير، 2/ 379.

3-سورة هود: آية 120. ينظر: الزمخشري، الكشاف، 2/ 438.

4-سورة الشعراء: آيتان 196 - 197. ينظر: التستري، تفسير التستري، 2/ 567.

5-سورة يوسف: آية 102. ينظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 137.

6-سورة طه: آية 99. ينظر: النعماني، اللباب في علوم الكتاب، 13/ 379.

7-محمّد في المدينة، 463.

الكريم من أن النبي محمّدﷺ هو رسول للعالمين جميعاً، وهو خاتم الرسل والأنبياء، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

لقد حاول وات أن يصور النبي محمّدﷺ كما لو كان متطفلاً على فكرة النبوة متجاهلاً بذلك أن النبوة هي اصطفاء من الله ﷻ، ولم يكن النبي هو من اختار ذلك وإن كان مؤهلاً ولم يأت بتعاليم الإسلام من عنده. أضف إلى ذلك أنّ شبهته حول تهويد شبه الجزيرة العربية في تلك المدة من الزمن، لم يلتفت فيها وات أو أنّه تجاهل أن شبه الجزيرة العربية خليطٌ من اليهود والنصارى والأحناف والمشركين. أما ادعاؤه بأنّ الدين الإسلامي والنبي محمّدﷺ كانا خاصين بالعرب فنردّ عليه من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[2].

يتضح بأن النبي محمّدﷺ مرسلٌ من قبل الله ﷻ للناس أجمعين، وكذلك للجن إذ أكدت الآية أعلاه عالميّة الدعوة الإسلاميّة على نطاق أوسع فشملت الإنس والجن، أما دعوة النبي محمّدﷺ للمشركين والموحدين على حدٍّ سواءٍ يؤيد عالمية الدين الإسلامي، وكذلك كتب ورسل النبي محمّدﷺ إلى ملوك عصره هي حجة قويّة سوف نبينها لاحقاً.

ثم يعود وات إلى شبهته أعلاه ويضيف عليها طقوس العبادات اليهودية التي تبناها النبي محمّد حسب مدعاه، وهي محاولةٌ فاشلةٌ لاستمالة اليهود إلى جانبه فقال بهذا الخصوص: ((لم يستطع محمّدﷺ استمالة اليهود إلى جانبه بتبنيه طقوساً يهودية منهم. حيث كان محمّد تواقاً إلى بعض من يعترف به منهم، لأنه كان على وعي تام بأنه بدون دعمهم له، فإن بنية الأفكار التي أقام دينه عليها ستغدو في خطر الانهيار. لذلك فقد تهيأ محمّد للسماح لهم بالاحتفاظ بأشكال العبادة والممارسات الدينية الخاصة بهم لو اعترفوا به نبياً يوازي أنبياءهم، وعلى الرغم من هذا كلّه ازداد عداءً لليهود، فاستخدموا معارفهم في العهد القديم فاعتبروا أن القرآن ليس كلام الله، بالتالي محمد ليس نبينا))[3].

1- سورة سبأ: آية 28.

2-سورة الأنبياء: آية 107.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 126.

وبعد وصول النبي محمّدﷺ إلى المدينة المنورة استحدث نظام التعايش السلمي مع أهل الكتاب، وحرية ممارسة العبادة ضمن بنود دستور المدينة. وكانت دعوة النبي محمّد ﷺ تتسم بالحكمة والمجادلة بما جاء به القرآن الكريم من تسامح في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[1]، كما كان يعول على أهل الكتاب أكثر من المشركين لوجود قاسمٍ مشتركٍ بينهم وهو الوحي من الله، وكان على يقينٍ من موقف اليهود في معارضتهم للدين الجديد وتبنيهم الرفض وحياكة الدسائس والمؤامرات، وهذا ما بينه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾[2].

1 - الصلاة:

حاول وات التشكيك بأحد أركان الإسلام وهي الصلاة التي فرضها الله ﷻ في كتابه العزيز، واعتبرت من أهم الأركان، فقبولها يمثّل قُبول ما سواها من الأعمال وردّها هو ردّ ما سواها. يضع وات شبهته تحديداً في تأثر الصلاة بالطقوس اليهودية ويظهر ذلك في قوله: ((إن صلاة الظهر فرضت على المسلمين في المدينة المنورة وذلك مجاراة للعادات اليهودية، ويبدو أنه لم يوجد في مكة سوى صلاة الصبح والمغرب))[3]. استدل وات على رأيه بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾[4]، إلاَّ أنه وقع في الخطأ بتأويل الآية أعلاه، إذ يجمع المفسرون على أنّ أقم الصلاة أي: إتمام الصلاة في الوقت المحدد لها، وقوله في طرف النهار يراد به: وقت الصبح والظهر والعصر أي على طول النهار، أما زلفاً من الليل فيعني دخولاً من الليل ساعة بعد ساعة يقيم فيها صلاة المغرب والعشاء[5]. ويبدو أن وات أغمض طرف عينه عن تفسير هذه الآية الكريمة كي يلصق شبهةً مفادها أن النبي محمّدﷺ أراد أن

1-سورة النحل: آية 125.

2-سورة المائدة: آية 82.

3-محمّد في المدينة، 304.

4-سورة هود: آية 114.

5-ينظر السمرقندي، بحر العلوم، 2/ 174؛ البغوي، معالم التنزيل، 2/ 469؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 3/ 212.

يصوغ الإسلام على شاكلة أقدم الأديان السماوية أي اليهودية ولم يأتِ بدين جديد، وأن محمداً ﷺ استحدث هذه الأمور العبادية ليضيف القدسية على دينه.

ووقع وات[1] في الخطأ عندما قدم دليلاً آخر من القرآن الكريم ليثبت أن صلاة الظهر فرضت في المدينة، وهذا الدليل هو قوله تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾[2]. واختلف المفسرون في تحديد الصلاة الوسطى، فمنهم من قال هي صلاة الصبح لتوسطها بين الليل والنهار، وذهب بعضهم إلى أنها صلاة الظهر، وقسمٌ قال صلاة العصر، والأمر مُختَلَفٌ فيه فلا يوجد جزمٌ يؤيد ما يدعيه وات، ومن سياق الآية الكريمة أن الله ﷻ يأمر بالمحافظة على الصلوات التي جاءت بصيغة الجمع وهي أكثر من ثلاثة، ثم يضيف عليها الوسطى فيصبح العدد أربعة، ومن الحساب العددي يجب أن يضيف عليها خامسة حتى تصبح الوسطى بين الخمس اثنان سابقة لها واثنان لاحقه بها[3]. وهذا دليل يؤكد أنّ عدد الصلوات المفروضة خمسةٌ لا اثنان كما يدعى وات.

ولو رجعنا إلى الروايات الإسلاميّة في موضوع فرض الصلاة وأوقاتها نجد أنها فرضت في ليلة الإسراء والمعراج على النبي محمّدﷺ وكانت خمسين مرة في اليوم، وبشفقة من النبي على أمته طلب من الجليل الأعلى ﷻ أن يجعلها خمس صلوات في كلّ يوم[4] وأكد ذلك حديث رسول اللهﷺ قال: ((فرجعت، فخفف عني خمساً، فما زلت أختلف بين ربي وبين موسى، يحط عني، ويقول لي مثل مقالته حتى رجعت بخمس صلوات كل يوم))[5]. إلّا أنّ هذه الرواية لا تخلو من الدس الإسرائيلي إذ يحاول فيها بيان مكانة نبي بني إسرائيل موسىعليه السلام ودوره بالنصح والتعليم للنبي محمّدﷺ. وتكاد تتفق الروايات الإسلاميّة[6] على أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء والمعراج التي كانت في الفترة المكية، إذاً كيف يصح إدعاء وات أن صلاة الظهر فرضت في المدينة وكانت تماشياً مع عادات اليهود.

1-محمّد في المدينة، 304.

2-سورة البقرة: آية 238.

3-للمزيد من التفاصيل ينظر البغوي، معالم التنزيل، 8/ 322؛ وينظر الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 6/ 482.

4- الألباني، الإسراء والمعراج، 24.

5-ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، 1/ 153؛ المقدسي، الحجة على تارك المحجة، 2/ 436.

6- البخاري، صحيح البخاري، 5/ 54؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 309؛ البيهقي، دلائل النبوة، 2/ 125؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 121.

وهنالك رأي آخر وهو أن الصلاة فرضت بمكة وصلاها النبي محمّدﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين وكانت ركعتين، فلما هاجر النبيﷺ أُتمت الرباعية إلى أربعة إلا الفجر فإنّها تطول بها القراءة فبقيت ركعتين كما هي، والمغرب فإنها ثلاث من أول ما فرضت لأنها وتر النهار[1].

أما عن صلاة الجمعة فقد أرجع وات أصلها إلى العبريّة فقال: ((وقد طلب مصعب بن عمير[2]، الذي كان يقيم في المدينة بدور مبعوث محمّدﷺ، في السنة السابقة على الهجرة، أن يسمح له بجمع المؤمنين، فأجيب بأنه يمكنه أن يجمعهم شريطة أن يحترم اليوم الذي يقضيه اليهود في إعداد السبت أي يوم الجمعة، وهكذا يكون لإقامة صلاة الجمعة أصلٌ عبريٌّ. ويبدو أن محمداًﷺ نفسه لم يمارس الصلاة هذه حتى الجمعة الأولى التي قضاها في المدينة))[3].

والحقيقة أنّ صلاة الجمعة ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ تعبديّةٌ يجتمع فيها المسلمون ويتعارفون في ما بينهم، وهي عيدٌ للمسلمين، ويشترط قيامها في المصر أي البلد أن يجتمع فيها خمسة أفراد فصاعداً والإمام أحدهم ويشترط عدالته[4]، وتتضمن الخطب والإرشادات الاجتماعيّة والدينيّة، وإقامتها الزاماً في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**﴾[5] وكرّم الله ﷻ بها المؤمنين بالمغفرة لمن أقامها من الجمعة إلى الجمعة[6]، وقد قرنها رسول اللهﷺ بيوم عرفة؛ ففي كليهما يجتمع المسلمون ويتعارفوا في ما بينهم[7]، وفضّل الله ﷻ المسلمين على اليهود والنصارى بصلاة يوم الجمعة في حديث النبي محمّدﷺ قال: ((أضل اللَّهُ عن الجمعة من كان قبلنا، كان لليهود يوم

1- ابن راهويه، مسند بن راهويه، 1/ 76؛ النيسابوري، الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، 4/ 331؛ ابن حزم الأندلسي، المحلى بالآثار، 3/ 186، ابن الخراط، الأحكام الشرعية الكبرى، 1/ 556.

2- هو الصحابي مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي من فتيان قريش شباباً وجمالاً، دخل الإسلام في دار الأرقم بن الأرقم، وهاجر إلى الحبشة في الهجرتين، ثم هاجر إلى المدينة قبل رسول الله (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم)، تآخى مع سعد بن أبي وقاص، ليس له عقب سوى زينب بنت مصعب، كان حامل لواء رسول الله (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) يوم بدر ونال الشهادة في معركة أحد، الزبيري، نسب قريش، 19؛ البلاذري، أنساب الأشراف 9/ 406 – 408.

3-محمّد في المدينة، 302.

4- الشريف المرتضى، رسائل المرتضى، 1/ 41؛ الطوسي، النهاية في مجرد الفقه والفتاوي، 103.

5- سورة الجمعة: آية 9.

6-الجرجاني، المنهاج في شعب الإيمان، 3/ 150 – 156.

7-الشافعي، مسند الشافعي، 1/ 124.

السبت، والأحد للنصارى، فهم لنا تبع إلى يوم القيامة، نحن الآخرون مِنْ أهل الدنيا، والأولون المقضي لهم قبل الخلائق))[1].

إذاً، الخلاف واضحٌ بين صلاة الجمعة عند المسلمين وصلاة السبت عند اليهود فهم يسبتون عشية السبت لا يعملون أيّ عملٍ[2] فقال تعالى: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ**﴾[3]، أما المسلمون فهم يمارسون أعمالهم يوم الجمعة قبل الصلاة ثم يتركون أعمالهم حال المناداة إلى الصلاة، وذلك لما تكتسيه صلاة الجمعة من فضيلةٍ عظيمةٍ تتمثل في تكفير الذنوب واستجابة الدعاء. وبعد صلاة الجمعة أباح الله ﷻ لهم الانتشار في الأرض لمزاولة أعمالهم فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[4].

فكيف يتجنى وات على الإسلام ويقول أنَّ لصلاة الجمعة أصلاً يهوديًّا؟ أما عن عدم إقامة صلاة الجمعة في مكة من قبل النبي محمّد ﷺ وأقامها في المدينة فراجعٌ لعدم توفر شروط إقامتها في مكة، لأنّها كانت دارَ كفرٍ لا أمنَ فيها بعد للمسلمين، وصلاة الجمعة تتضمن خطبةً وإعلانَ موعظة، ولشدة مخالفة المشركين له وايذائهم له ولأصحابه؛ لذا أقيمت الصلاة في المدينة قبل الهجرة النبوية[5]، أما عن أول صلاة جمعة أقامها النبي محمد ﷺ بعد الهجرة وخروجه من قباء يوم الخميس فقد أدركته الجمعة فصلى في دار بني سالم بن عوف[6] الذي بنى فيه مسجد[7].

1-ابن ماجة، سنن ابن ماجة، 2/ 184.

2-الجزائري، مبارك بن محمد، رسالة الشرك ومظاهره، 158.

3- سورة الأعراف: آية 163.

4-سورة الجمعة: آية 9 - 10.

5-ابن كثير، السيرة النبوية، 2 299؛ أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، 2/ 12.

6- سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن خزرج بن حارثة، بطن من الخزرج من الأزد القحطانية ويعرفون بالسالمي نسبتةً إلى سالم بن عوف ومن أحفاده مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف رئيس الخزرج في حرب البعاث قبل الإسلام. الكلبي، نسب معد واليمن، 1/ 414؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، 2/ 93؛ القلقشندي، نهاية الآرب في معرفة أنساب العرب، 1/ 281.

7-البري، الجوهرة في نسب النبي، 2/ 55 - 56؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 2/ 299.

والرواية الإسلاميّة التي اعتمدها وات مفادها طلب مصعب بن عمير لإقامة صلاة الجمعة وهو أول من أمّ المسلمين في المدينة[1]. وهناك روايةٌ أخرى سجلت مبادرة صلاة الجمعة في المدينة قبل الهجرة النبوية إلى الصحابي الأنصاري أسعد بن زرارة الخزرجي[2]، وهو أول من جمع المسلمين في المدينة[3]، وقد أعطى ابن سعد[4] معطيات لقبول هذه الرواية حيث كان أسعد بن زرارة، وأبو الهيثم بن التيهان[5] يتكلمان بالتوحيد بيثرب، ولما بُعث النبي محمّدﷺ وبلغهما خبره سارعا إلى النبيﷺ واعتنقا الإسلام وقالا له: ((دونك هذا دينك))[6]. ولعل هذه الرواية أكثر قبولاً لإثبات أنَّ أسعد بن زرارة هو أول من جمع لصلاة الجمعة؛ فهو موحدٌ بالفطرة وأول الأنصار، وقد اعتنق الإسلام وشهد بيعة العقبة الأولى، وهو من سادة الخزرج فيستبعد معارضته في إقامة الصلاة وهو أعلى مكانةً من مصعب بن عمير.

2 - تحويل القبلة:

لقد لحق تأثير الطقوس اليهوديّة في الشعائر الإسلاميّة ـ بحسب وات ـ التوجّه إلى بيت المقدس أثناء الصلاة، فقال المستشرق وات: ((هناك تعليمٌ آخر سار فيه محمّدﷺ على هدى الطقوس اليهودية، حين كان لا يزال في مكة، وهو التوجه نحو المقدس للصلاة... محمّد نفسه في هذا الوقت، لم يكن له أي قبلة، ولكنه كان يرغب في أن يجعل دينه في هذه الناحية على غرار دين اليهود))[7].

لقد نسي وات أنه مؤرخٌ فجعل نفسه محامياً عن أصالة الطقوس الدينية اليهودية، فبثَّ شبهاته عن صورة النبي محمّدﷺ مدعياً أنهُ ليس لديه رؤيا عن الدين الإسلامي الجديد

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 118 – 119.

2- أسعد بن زرارة: الصحابي أبو أمامة الأنصاري، هو أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار الخزرجي، أحد الستة الذين أسلموا بمكة من الأنصار، قديم الإسلام شهد العقبتين ومات قبل بدر. ينظر، المقدمي، التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم، 28؛ ابن عبد البر، الاستيعاب 30؛ ابن ماكولا، الإكمال، 1/ 89.

3-ابن ماجة، سنن ابن ماجة، 2/ 183 - 184.

4- الطبقات الكبرى، 1/ 218.

5- أبو الهيثم بن التيهان: الصحابي أبو الهيثم بن التيهان اسمه مالك بن بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة حليف لبني عبد الأشهل من الأوس، شهد بيعة العقبة الأولى فبايع على بيعة النساء. آخي النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بينه وبين عثمان بن مضعون، شهد مع النبي (صلى اللهُ عليهِ وآله وسلّم) بدر وأحد والخندق وكل المشاهد، وشهد معركة صفين سنة (37هـ/ 657م) مع الإمام عليؑ واستشهد فيها وصلى عليه الإمامؑ. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 341 - 342؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 239 و 2/ 319.

6- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 218؛ الهيثمي، موارد الضمآن، 5/ 300.

7-محمّد في المدينة، 302 – 303.

بل صاغه على غرار دين اليهود. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الشرائع السماوية أكدت أن بيت المقدس لم يكن خالصاً لليهود فقط، بل هو مكانٌ مقدس يشترك فيه موسى وعيسى عليهما السلام وشاركهم في قداسته النبي محمّد ﷺ الذي أسرى الله به إلى بيت المقدس ومنه أعرج به إلى السماء في قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾[1]. أضف إلى ذلك أن أول من بنى بيت المقدس نبي الله إبراهيم عليه السلام وليس اليهود، ويخبرنا القرآن الكريم عن دين إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء أنّه كان مسلماً ولم يكن يهودياً أو نصرانياً كما في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2]. فمن أين جاء وات بهذه الشبهة؟ لعله يهدف من ورائها إنكار نبوة محمّد ﷺ، وهذا هو الهدف من دراسة السيرة النبوية من قبل المستشرقين، وهو التشكيك والتضليل في النبوة لأجل إثبات أن الدين الإسلامي ليس خير الأديان ورسالته ليست خاتمة الرسالات.

نعم لم يكن للعرب قبلةٌ خاصةٌ بهم، فلم تكن لهم صلاةٌ حتى تكون لهم قبلةٌ ولم يكن لهم نبيٌّ ولا كتاب، بل هم مشركون يتوجهون إلى الأصنام، وبالتالي فالصلاة والقبلة كانتا من معالم ديانة الكتابيين.

كذلك شكك وات في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام فقال: ((إن تحويل القبلة لم يحدث بهذه السرعة وهذه السهولة... بل كان محمدٌ متردّداً قبل إحداث هذا التغيير، وأن تغيير القبلة مرتبطٌ بأحداثٍ، منها خلاف محمّد مع اليهود، والتخلي عن عبد الله بن أُبي[3]، واللجوء إلى أحضان سعد بن معاذ[4]. ويمكن أن يُقرأ تحويل القبلة

1-سورة الأسراء: آية 1.

2-سورة آل عمران: آية 67.

3- عبد الله بن أبي: هو عبد الله بن أبي بن مالك بن حارث الخزرجي، اشتهر بابن سلول وهي جدته أم أبيه أُبي، من شخصيات يثرب قبل هجرة النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) كان مرشح من رؤساء الخزرج أن يكون حاكماً على المدينة وأدت هذه الفكرة بدخول الإسلام إلى المدينة واجتماع الناس حول النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم)، وعرف بكبير المنافقين خاض الصراع مع النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) علنياً وتارةً سرياً. ابنه الكبير حُبَابُ يعني الشيطان وغيره النبي محمد(صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) إلى عبد الله له صحبه حسنه، ولما مات أبوه سنة (10هـ/ 631م) جاء إلى النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) ليستغفر له فصلى عليه ودفن في المدينة. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 382؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 274؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 1/ 30.

4- سعد بن معاذ: هو الصحابي سعد بن معاذ بن النعمان بن أمرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارثة الأنصاري، يكنى أبو عمرو اعتنق الإسلام على يد مصعب بن عمير ودخل معه كل بني الأشهل وأصبح داره مركزاً لنشر الإسلام، تآخى مع سعد بن أبي وقاص، كان حامل لواء الأوس في بدر وشهد أحد والخندق أصيب بجراح استشهد بأثرها سنة (5هـ/ 626م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 320 – 333؛ ابن خياط، الطبقات، 140.

بأنه إشارةٌ إلى القبائل المعادية لليهود لكسب دعمهم، ولإظهار أن محمداً ملتزمٌ تماماً معهم))[1].

إن الرواية الإسلاميّة تفيد بأن تحويل القبلة جاء بأمر من الله ﷻ وذلك عندما نزل الوحي إلى النبي محمّدﷺ أثناء قيامه لصلاة الظهر وأمره أن يصلي ركعتين جماعة نحو بيت المقدس وركعتين باتجاه الكعبة في منزل البراء بن معرور[2] عند قبيلة بني سلمة[3] وسمي المكان مسجد القبلتين، وكان زمان ذلك بعد الهجرة بسبعة عشر شهراً وقبل بدر بشهرين[4].

ويبدو أن وات لم يقتصر في تشكيكه على سبب تحويل القبلة، بل ذهب أبعد من ذلك وشكك في مصدر تحويل القبلة[5]، الذي يؤكد رواية الإمام الصادق عليه السلام: ((نزل عليه جبرائيل فأخذ بعضديه وحوله إلى الكعبة))[6]. ويبدو أن وات يروم تحقيق هدفه الأساسي بنفي الوحي الذي نزل على النبي محمّدﷺ ويصفه كان متردداً باتخاذ القرار بهذه السرعة.

أما عن سبب تحويل القبلة فقد أرجعه وات إلى وجود خلافاتٍ في المدينة مع اليهود حول تجافي النبي محمّدﷺ عن ابن أُبي وميله إلى سعد بن معاذ، ومحاولة لكسب القبائل المعادية لليهود وإظهار التزام النبي محمّدﷺ معهم. فمثل هذه الأسباب الواهية كيف يسمح وات لنفسه بطرحها؟ فموقف عبد الله بن أُبي الذي كشر فيه عن أنيابه بدور المنافق واضحٌ في نظر النبي محمّدﷺ، فمثل النبي محمّدﷺ لا يخالف تعاليم الله ﷻ ويتبنى قبلةً جديدةً كي يستميل القبائل المعادية لليهود، التي تحدّث عنها وات. ومن العجيب أن وات جهل أو تجاهل السبب الرئيسي لتحويل القبلة من المقدس إلى الكعبة على إثر تمادي

1-محمّد النبي ورجل الدولة، 145 – 147.

2- البراء بن معرور: الصحابي البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، وشهد العقبة الثانية وهو أحد النقباء الاثني عشر من الأَنْصَار، وكان أوّل من تكلم من النقباء ليلة العقبة حين لقي رسول اللَّه (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) السبعون من الأنصار فبايعوه وأخذ منهم النقباء، توفي قبل وصول النبي محمد(صلى اَللهُ عليه وآله وسلّم) إلى المدينة بشهر، ولما وصل النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) المدينة صلى على قبره ودعا له بالرحمة، ابنه الصحابي بشر بن البراء شهد العقبة وبدر. ينظر: ابن سعد الطَبقات، 3/ 464 – 465.

3- قبيلة بني سَلَمة: ينسبون إلى سَلَمة بن مالك بن الحارث، الذي كان مرباع أي يأخذ ربع الغنيمة، يسكنون يثرب، وبعد العجرة عرفوا بالأنصار. الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، 1/ 162.

4-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 242؛ الخركوشي، شرف المصطفى، 2/ 400؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 269.

5- محمّد النبي ورجل الدولة، 145 – 147.

6-الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، 1/ 414؛ المجلسي، ملاذ الأخبار في فهم تهذيب الأخبار، 3/ 426.

اليهود بالمعارضة الفكرية للإسلام، منتفعين بمعرفتهم من كتاب العهد القديم، فأشكلوا على النبيﷺ أنَّه ليس لديه قبلة ويشارك اليهود في قبلتهم المتمثلة في بيت المقدس، فاغتم النبي محمّدﷺ كثيراً وأخذ يقلب وجهه الكريم في السماء[1] فنزل عليه قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾[2].

ويوجد رأيٌ آخر في علم الناسخ والمنسوخ أن النبي محمّدﷺ أدى الصلاة في مكة باتجاه الكعبة، وبعد الهجرة أول ما نسخ الله ﷻ من القرآن كانت القبلة وتحولت باتجاه بيت المقدس لأن أكثر أهلها اليهود وفرح اليهود بذلك[3] أمّا بعض المفسرين[4] قالوا حتى ((ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم))، وبعد سبعة عشر شهراً من الهجرة بدأ النبي محمّدﷺ يتمنى التوجه نحو الكعبة قبلة نبي الله إبراهيمعليه السلام، فنسخ الله ﷻ قبلة بيت المقدس وأرجعهُ إلى قبلة الكعبة[5] وهذا الرأي لدى بعض المفسرين ولم يُجمع المفسرون عليه، كذلك لا يوجد نصٌّ قرآنيٌّ يثبت أنَّ القبلة الأولى كانت الكعبة ومن ثم نسخت إلى القدس، بل ذكر أنَّ القبلة كانت باتجاه بيت المقدس ونسخت باتجاه الكعبة. هذا الرأي تبناه وات واتخذ منه شبهة على ما أخذه النبي محمّدﷺ من اليهود؛ لأنه يخدم نهجه وفكره.

أما سند الرواية عن طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت 82هـ/ 701م) مولى عمر بن الخطاب فقد عُدّ من الضعفاء جداً[6]، لذا لا يمكن الأخذ بروايته لتضعيفه.

1-الطبرسي، مجمع البيان، 1/ 414؛ ابن أبي جمهور، عوالي اللألي، 2/ 27..

2-سورة البقرة، آية 144.

3- النحاس، الناسخ والمنسوخ، 71.

4- الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 2/ 10؛ السمعاني، تفسير القرآن، 1/ 510؛ البغوي، معالم التنزيل، 1/ 161.

5-النحاس، الناسخ والمنسوخ، 71؛ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 2/ 10؛ السمعاني، تفسير القرآن، 1/ 510؛ البغوي، معالم التنزيل، 1/ 161.

6- البخاري، الضعفاء، 84؛ النسائي، الضعفاء والمتروكين، 66.

3 – الصيام:

حاول وات المساس بركن الإسلام الثاني، وهو الصيام، بأنّه على شاكلة الطقوس اليهودية فقال: ((صيام عاشوراء الذي يقع في يوم عيد الغفران اليهودي حينما حل العاشر من شهر تشرين اليهودي، أمر محمّد المسلمين بصيام هذا اليوم، وإن كنا لا نعرف على التأكيد في أي شهر هجري يقع هذا الصيام، وربما كان من عادة بعض مسلمي المدينة صيام هذا اليوم لأنه حين فرض صيام شهر رمضان، لم يحرم صيام عاشوراء بل لم يعد واجباً))[1].

وأخذ وات سبب تبني النبي محمّدﷺ صيام عاشوراء من رواية يذكرها الطبري: ((بأن النبيﷺ حينما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم فاخبروه بأنه اليوم الذي أغرق الله فيه جيش فرعون وأنقذ موسى ومن معه، فقال محمّد نحن أحقّ منهم فقام ودعا الناس إلى الصيام حتى إذا ما شرّع صيام رمضان لم يدعهم لصيام يوم عاشوراء ولم يمنعهم عنه))[2]. وردت الرواية عن أبي جعفر[3] الذي كان يضع الحديث[4]، إذ كان يروي الموضوعات ويرسل في الأخبار ما ليس لها أصل على قلة روايته ولا يحتج بخبره[5]، والذهبي جعله متروك[6]. فلذا الحديث مرفوضٌ من ناحية السند.

ومن بعد ذلك أخذ وات يحدّد تشريع صيام شهر رمضان بعد معركة بدر: ((كان انتصار بدر، كما يقول الفرقان، أي مصيبة مقدرة على الكافرين وخلاصاً موعوداً للمؤمنين، يشبه حادثة البحر الأحمر بالنسبة لموسى، وتخليداً لهذا الفرقان شرع صيام رمضان))[7].

وعن زمن تشريع صيام شهر رمضان قال وات: ((لكن من المرجح أكثر أن صيام رمضان

1-محمّد في المدينة، 304.

2-محمّد في المدينة، 310. ورد الحديث باختلاف بسيط ((نحن أحق بموسى منهم)) ينظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 2/ 417.

3- أبو جعفر الهاشمي المدائني، هو عبد الله بن المسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب سكن المدائن وروي عن المدائني عاش زمن المنصور العباسي كان شاعراً من الدهرية قتله أبو مسلم الخرساني سنة (134 هـ/ 751 م). ينظر: السمعاني، الأنساب، 12/ 144؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، 8/ 155.

4- البخاري، الضعفاء، 80.

5- بن حبان، المجروحين، 2/ 24.

6- المغنى في الضعفاء، 1/ 358.

7-محمّد في المدينة، 310.

لم يشرع إلاَّ بعد معركة بدر، ليجعل من صيامه احتفالاً بالنصر للمسلمين في بدر، تقليداً للصوم اليهودي بخلاص بني اسرائيل من فرعون وجنوده في البحر الأحمر))[1]. ويبدو أن وات يريد أن يظهر النبي محمّد ﷺ بأنَّه رجلٌ عاديٌّ يقتبس ويترجم ما هو موجودٌ عند الديانات الأخرى ليضفي القدسيّة على دينه من خلال إثبات تلك الفروض التي عهدها العرب في يثرب والجزيرة العربية، والغاية من ذلك هي سرعة تصديقه والإيمان به.

وللرد على مثل هذه المزاعم والشبهات التي يتعكز عليها وات: لنبدأ أولاً من القرآن الكريم الذي أخذ منه تشريع الصيام، فنجد أنَّه تجاهل حقيقةً يؤكدها القرآن وهي أنّ الصيام من العبادات المُسلّم بها بين جميع الموحدين والأديان السماوية، فهو فرض من الله ﷻ لكل الموحدين كما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[2]. فقد شرع الله ﷻ الصيام للمسلمين ولباقي المؤمنين من اليهود والنصارى، وجاء التشريع بصفةٍ عامةٍ على المسلمين كما شرع على من قبلهم من آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين محمّد ﷺ.

ويبدو أن وات أخذ شبهته من بعض متون الحديث، فينقل الحديث التالي: عن عائشة قالت: ((كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول اللهِ ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامهُ وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان كان هو الفريضةَ، وترك عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه))[3]. إلاَّ أنه لم يبين مبررات الصيام! وما هي ضوابطه! وطريقته!؟.

وبالطبع لا يمكن القبول بمثل هذا الكلام، لأن النبي محمّد ﷺ لم يكن يأخذ دينه من اليهود ولا غير اليهود هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر أن صوم يوم عاشوراء قد نهى عنه من قبل علماء المسلمين وكذلك قول الإمامين الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام: ((لا تصم يوم عاشوراء))[4]، ويرى الشافعي أنَّ هذا ليس فرضاً واجباً ولم يكن واجباً أصلا[5]، والسمرقندي[6]

1-محمّد النبي ورجل الدولة، 147.

2-سورة البقرة: آية 183.

3-ابن أبو داود، سنن أبي داود، 4/ 107؛ ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، 2/ 999؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، 8/ 385.

4-العلامة الحلي، تذكرة الفقهاء، 6/ 193.

5-النووي، المجموع في شرح المهذب، 6/ 383.

6- تحفة الفقهاء، 1/ 343.

يقول: ((صوم يوم السبت مفرداً: مكروه، لأن هذا تشبه باليهود. وكذا صوم يوم عاشوراء مفرداً: مكروه، عند بعض أصحابنا، لأنه تشبه باليهود))، والكاشاني[1] شاطره الرأي في ذلك. ولعله كان سنّةً مستحبّةً في الجاهلية، ولما جاء الإسلام نهى عنهُ النبي محمّدﷺ والأئمة الأطهارعليهم السلام وبعض علماء المذاهب الأخرى، وعلّلوا سبب صيام قريش يوم عاشوراء في الجاهلية؛ أنه أصابهم قحطٌ ثم رفع عنهم فصاموا شكراً[2]. إنّ رواية صيام قريش يوم عاشوراء هو خبرٌ متأخرٌ ولا يوجد له سندٌ يؤيّده، ولا يعقل صيام قريش فيه كونهم قوماً مشركين، وصوم عاشوراء هو صوم اليهود كفارة واستغفاراً عندهم، فلمَ يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم؟ وماذا فعلوا من ذنب، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران؟ وإن كان هناك صومٌ في الجاهلية فالأحرى أن يصومه الأحناف فلم يرد في الأخبار أنهم صاموا عاشوراء ولا في غير عاشوراء، ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار أقحموا اسم قريش في صيام عاشوراء لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة التي ترجع إلى ما قبل الإسلام، وأن قريشاً كانت تصومه قبل الإسلام[3].

إنّ صوم عاشوراء ما هو إلا بدعة من بدع بني أمية، ونحن لا نريد أن نلقي بكل تبعات الوضع على هذه العائلة تعصباً أو بغضاً، ولكن المصنفات التي زخرت ببدعهم هي ذاتها تفصح عما اقترفوه من تشويهٍ للحقائق وإدخال البدع إلى الدين بما تهوى أنفسهم، لنرى ما يرويه مالك بن أنس عن هذه البدعة، ذاكراً بأن معاوية بن أبي سفيان يوم عاشوراء في السنة التي حج بها ارتقى المنبر وقال: ((يا أهل المدينة أين علماؤكم سمعت رسول اللهﷺ يقول هذا يوم عاشوراء ولم يكتب عليكم صيامه وأنا صائم فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر))[4].

فهو يجاهر علناً مخالفته لسُنة النبي محمّدﷺ فلا يستبعد أنه جند الأقلام لوضع مثل تلك الأحاديث وقد سار على نهجه خلفاء أسرته، سيما بعد ثورة الإمام الحسين بن علي عليه السلام الذي استشهد في يوم عاشوراء، لكي يتخذ المسلمون هذا اليوم يوماً مباركاً وإشغالهم عن ذكر تلك الثورة وما فعلته الأسرة الأموية.

1- بدائع الصناع، 2/ 79.

2- علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 6/ 339؛ الفيومي، محمّد إبراهيم، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، 502.

3- علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 11/ 342.

4- موطأ مالك، 1/ 325؛ وينظر: ابن حنبل، مسند أحمد، 28/ 281؛ الشافعي، مسند الشافعي، 1/ 265.

ولو أجرينا مقارنةً بين صيام اليهود وصيام المسلمين لوجدنا الفرق واضحاً في ممارسات اليهود بالصيام على النحو التالي:

أولاً- صوم الأنبياء:

صام نبي الله موسى عليه السلام أربعين يوماً عندما ذهب إلى ميقات ربه فقال تعالى: ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...**﴾[1] ولم يلتزم به اليهود وأصبح خاص بموسى عليه السلام وحده[2]، وكذلك صيام الصمت الذي صامه نبي الله زكريا (عليه السلام) فقال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**﴾[3]، والسيدة مريم العذراء أم نبي الله عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾[4]، وفي هذا الصيام (الصمت) الذي اتخذه اليهود يستغرق الصامت في صمته ضارباً على ما اقترفه اللسان من بذيء الكلام وفاحشه[5].

ثانياً-أنواع الصيام عند اليهود:

1 – فردي (شخصي) وسمي صوم الأسر، ويقع في حالات الحزن الفردي، أو عند التكفير عن خطيئة.

2 – جماعي وهو غير ثابت، يمارسونه عندما يقع حزن عام يقلقهم، كالصوم عند رداءة المحصول أو غارات الجراد أو الهزائم في الحرب[6].

ثالثاً - فلسفة الصوم عند اليهود:

لقد ربط اليهود صيامهم بالأحداث التاريخيّة التي وقعت عليهم، وما أفرزته طبيعتهم

1- سورة الأعراف: آية 142.

2- غنيم، أحمد، فلسفة الصيام بالديانة اليهودية والنصرانية والإسلامية، 12.

3- سورة مريم: آية 10.

4- سورة مريم: آية 26.

5- صلال، عبد الرزاق رحيم، العبادات في الأديان السماوية، 110.

6- صلال، العبادات في الأديان السماوية، 102.

العدائية للأمم التي تعايشوا معها أو عاصروها، والتي غلب عليها طابع الحزن نتيجة تعرضهم للمحن[1]. إذاً، لم يكن صيام اليهود من تشريع سماوي بل من أحداث التاريخ التي مرت بهم.

رابعاً-أيام الصيام عند اليهود:

1 – صيام يوم الغفران (يوم كيبور) في اليوم العاشر من الشهر السابع تشرين، ويعرف عاشوراء اليهود حيث يبدأ به الصائم قبل غروب الشمس بنحو ربع ساعة إلى ما بعد غروب الشمس في اليوم التالي بنحو ربع ساعة[2]. يوم الغفران هو اليوم الذي نزل فيه النبي موسى عليه السلام من سيناء للمرة الثانية ومعه ألواح الشريعة حيث أعلن أن الرب غفر لليهود خطيئتهم في عبادة العجل الذهبي[3]. فكان اليهود من سنتهم صَوْم اليوم العاشر من محرم ويزينون به بيوتهم وأولادهم ونسائهم ويعتبرونه يوم عيد[4].

2 – اليوم العاشر من شهر تيبت العبري يوافق السابع عشر من تموز (التقويم العربي)، ذكرى حصار أورشليم من قبل الملك البابلي نبو خذ نصر [5].

3 – اليوم التاسع من أب، ويسمى يوم تيشعا باف أو تيت بيئاف، يصادف دخول الملك البابلي نبو خذ نصر وحطم سور أورشليم حداداً على خراب الهيكل[6].

4 – اليوم الثالث عشر من الشهر السابع في التقويم العبري شهر تشرين، يوم جيداليا في ذكرى اغتيال جيداليا حاكم مدينة يهوذا وتدمير المدينة عام 586 ق.م[7].

5 – يوم أستير الثالث عشر من أذار (يوم فورم العظيم)، وهو يوم انتصار اليهود على أعدائهم واستراحوا منهم وتحول عندهم الحزن إلى فرح والنواح إلى يوم خير، وذلك عندما صامه أستير مع جماعة من أبناء الشعب اليهودي، قيل طلبت الملكة أستير من الملك الفارسي أحشويروش إلغاء تنفيذ الإبادة الجماعية بحقهم ووافق الأخير على طلبها[8].

1- الكاملي، ناصر الدين، الصوم في القديم والحديث، 21.

2- سفر اللاويين 29: 16.

3- سفر اللاويين الاصحاح 16 الآية 29 – 30.

4- الفوزان، صالح فوزان عبد الله، شرح مسائل الجاهلية، 2003 – 2004.

5- سفر الملوك الأول 2 – 25.

6- سفر النواح 52: 4.

7- سفر دانيال: 2.

8- سفر أستير 4 - 17.

وتوضح هذه الأسفار أن صيام اليهود يستمر أربعاً وعشرين ساعة فقط. وعلى العكس من ذلك يستمر صيام المسلمين شهراً كاملاً، وتكون أيام الصيام متفرقة خلال السنة أما صيام المسلمين فتتحدد البداية والنهاية برؤية الهلال.

خامساً - عادات الصيام عند اليهود:

يمارس اليهود في وقت صيامهم عادات غريبةً، ومنها أنّهم يمزّقون ملابسهم ويلبسون ملابس من الخيش[1]، ويضعون الرماد والطين على رؤوسهم، ويزورون المقابر، كما يحرم عليهم أن ينتقلوا من مكانٍ إلى آخر[2]، وبالإضافة إلى الامتناع عن الطعام والشراب يمتنع اليهودي عن الاستحمام، وعن تنظيف أسنانه، ولا يمشط شعره ولا يتعطر[3]، وكذلك يمتنع عن القيام بأيّ عمل[4]، وجعلوا الصوم واجباً عند الأزمات[5].

ولا يوجد في الصيام الذي فرض على المسلمين أي شيءٍ من هذا، بل على العكس من ذلك فإنّ صيام المسلمين لا يسمح بالعمل فحسب، بل يحثّ عليه بشدّة ليتضاعف الأجر والثواب. ولا ننسى حقيقةً وهي أن الصيام في فلسفته هو طاعة لله والاعتراف لهُ (جل وعلا) بالفضل والإنعام، فالصيام عبادةٌ سريّةٌ رائعةٌ يؤديها الإنسان لخالقه، وهو من أساليب الأنبياء والمعصومين عليهم السلام، وفيها العبد يجوع ويعطش، والغذاء والري متيسرٌ أمامه، وذلك لتحقيق مرضاة الله[6] ولهذا جاء في الحديث القدسي: ((كلّ عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لي، وأَنا أَجزي به، يدع الطّعام والشراب وشهوته من أَجلي))[7]، هذا الحديث يبين تكريم الله جل جلاله للصائم وأجر الصيام الذي فرض على المسلمين عند الله. فضلاً عن ذلك فالصوم يدعو إلى شكر النعمة وذلك بامتناع الصائم عن الطعام والشراب ومباشرة النساء وكل هذه الشهوات المحلّلة التي تعدّ من جلائل نعم الله على خلقه، والامتناع عن هذه النعم يكون من أول اليوم إلى آخره فيعرف الإنسان

1- سفر الملوك الثاني 21: 27.

2- سفر أسحاق 58: 5.

3- سفر المزامير 35: 13.

4- سفر تا آن 1: 6 - 64.

5- مجموعة من علماء اللاهوت، قاموس الكتاب المقدس أنا الألف والياء، 20.

6- شيخون، محمّد السيد، العبادات في الإسلام وأثرها في أصلاح المجتمع، 95 - 96.

7- البزار، مسند البزار، 15/ 32؛ ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، 3/ 197.

قدرهـا، إذ لا يعـرف فضـل النعمـة إلا بعـد فقدها فيعينـه ذلك عـلى القيام بشـكرها[1]، وأن شـكر النعمـة واجـب عـلى المؤمـن، وإلى هذا أشـار جـل وعـلا بقولـه: ﴿**وَلِتُكْمِلُـوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَـبِّرُوا اللَّهَ عَـلَى مَا هَدَاكُـمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ**﴾[2].

ولم يكن الصيام فقط عند اليهود والنصارى والمسلمين بل عند الأمم السابقة، حيث عد الصيام من المناسك العالمية[3] فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[4].

أما عن تبني النبي محمّدﷺ صيام عاشوراء، كونه أحقّ بموسى عليه السلام من اليهود، وتضامناً بالنصر في بدر مع فرح النبي موسى عليه السلام بإنقاذه من الغرق بالبحر الأحمر، فلنجري مقارنة بين الحادثتين: فالنبي موسى عليه السلام هرب ومعه بني إسرائيل من آل فرعون وأنجاه الله بمعجزةٍ وأغرق فرعون وجنوده، أما النبي محمّدﷺ فقد خرج لمواجهة المشركين في معركةٍ غير متكافئةٍ من حيث العدة والعدد، لكن الله جل جلاله ربط على قلوب البدريين بالصبر والسكينة وأنزل الخوف في قلوب الأعداء، وأتباع نبي الله موسى عليه السلام كانوا مترددين فأنزل الله جل جلاله لهم معجزة حتى يزدادوا إيماناً بنبوة موسى عليه السلام، ولما دعاهم موسى عليه السلام إلى الجهاد تقاعسوا وقعدوا وأورد القرآن الكريم قولهم لموسى في قوله تعالى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ**﴾[5]، أما البدريون فقد وصلوا إلى اليقين من نبوة محمّدﷺ فخرجوا مجاهدين في سبيل اللهجل جلاله، والمحادثة التي جرت بين الرسولﷺ والصحابة في النفور إلى بدر للجهاد في سبيل الله دليل على ذلك، فقد قام المقداد بن عمرو[6] وقال: ((يا رسول الله، امض لأمر اللهِ فنحن معك، واللهِ لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: فاذهب أَنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، والذي

1- شيخون، العبادات في الإسلام وأثرها في أصلاح المجتمع، 96.

2- سورة البقرة: آية 185.

3- غنيم، أحمد، فلسفة الصيام، 6.

4- سورة البقرة: آية 183. ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 5/ 239.

5- سورة المائدة: آية 24.

6- المقداد بن عمر: الصحابي المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة من بن قضاعة ويكنى أَبَا معبد. وكان حالف الأسود بن عبد يغوث الزُّهري في الجاهلية فتبناه، فكان يُقَال له المقداد بْن الأسود فَلَمَّا نزل القرآن « ادعوهم لآبائهم « قيل المقداد بن عمرو، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة، شهد بدر على فرسه، وشهد بقية المشاهد مع النبي (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) ويعد من الرماة، توفي في المدينة سنة (33هـ/ 653) وصلى عليه عثمان بن عفان. ينظر: ابن سعد، الطبقات، 3/ 119 – 121.

بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لسرنا معك))[2]. وفي نص أخر ((نقاتل عن يمينك وشمالك ومن بين يديك ومن خلفك ولو خضت بحرا لخضناه معك ولو تسنّمت جبلا لعلوناه معك ولو ذهبت بنا إلى برك الغمار لتابعناك))[3].

إذاً، لا توجد أوجه شبه في المقارنة بين الحادثتين وظروفها، فيكون فرح المسلمين والنبي محمّد ﷺ أبلغ أثراً في نفوسهم، من فرح بني اسرائيل.

أما عن زمن تشريع الصيام فقد شرع في شهر شعبان[4]، قبل معركة بدر التي وقعت في شهر رمضان[5]، فمن أين جاء وات باستنتاجه من أن الصيام شُرّع بعد النصر في معركة بدر وأين الدليل؟ أم أنّه كان يريد إرجاع الصيام إلى مناسبات اليهود.

واتخذ وات من رابطة القرابة التي تحرم الزواج ذريعة ما أخذه النبي محمّد ﷺ من الديانة اليهودية فقال: ((وربما استوحى محمّد ﷺ، من بعض الأفكار المتعلقة بروابط القرابة التي تحرم الزواج، من الديانة اليهودية، ولكن النبي يختلف عن اليهود بتحريم الزواج من بنت الأخ أو الأخت، وكان يرغب حقاً في أن يتفق الوحي الذي ينزل عليه مع الوحي القديم، وكان في نفس الوقت على اطلاعٍ واسعٍ على مشاكل بيئته، فهو لم يتبنّ بصورةٍ عمياء التشريعات اليهودية حباً بالاتفاق، بل لأن التشريعات المأخوذة كانت تلائم الظروف في المدينة، وقد ساعد تشابه حاجات المدينة مع حاجات اليهود الذين كتبت من أجلهم تعاليم سفر الأحبار اللاويين))[6].

وحاول وات جاهداً أن يتجاهل حقيقةً واضحةً كوضوح الشمس في رابعة النهار، ألا وهي الوحي في الديانة اليهودية والنصرانية والإسلامية حيث إن مصدره واحدٌ وهو الله ﷻ، فمن الطبيعي أن يكون هناك تشابهٌ في التشريع والأحكام، كونها رسالات سماوية،

1- برك الغماد: بلد في أقصى اليمن أرضه حجرية قاسية. الهمداني، صفة جزيرة العرب، 1/ 204؛ البكري، معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع، 1/ 244.

2- الواقدي، المغازي، 1/ 48؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 434.

3- أبو الفتوح الرازي، روض الجنان، 318.

4-ابن عبد البر، التمهيد، 7/ 204؛ ابن ادريس الحلي، السرائر، 1/ 125؛ بحرق، حدائق الأنوار، 267؛ المناوي، فيض القدر، 4/ 240.

5-الواقدي، المغازي، 1/ 51؛ ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 263؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 10/ 214.

6-محمّد في المدينة، 432.

فجاء الإسلام متمماً لما سبق ومبيّناً الانحراف الذي لحق بالكتب السماوية السابقة على يد الأحبار والرهبان.

وتعرض وات إلى شبهةٍ أخرى، ألا وهي زواج العصبة من المحرمات، وقد نزلت سورة النساء المدنية تفصل أحكام الزواج وتبين مراتب القرابة وتحريم الزواج بها، كما توضح التشريع بالزواج من باقي النساء كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾[1]. هذا التشريع جاء لتصليح الخطأ الذي جاء به بنو اسرائيل في الزواج من بنت الأخ والأخت، ولقد حرمت الديانة الإسلاميّة الزواج من الأصول والفروع لفوائد صحيّةٍ واجتماعيّةٍ ونفسيّةٍ[2].

ولعلّ وات يروم بهذه الشبهة إظهار صورة النبي محمّدﷺ على أنه لم يأتِ بشيءٍ جديدٍ وإنما أخذ تعاليمه من العهد القديم كي يكون الدين الإسلامي نسخةً محدّثةً من الدين اليهودي، والأهم من ذلك إنكار الوحي الذي نزل على النبي محمّدﷺ، وبالتالي إنكار نبوته.

لقد نهى النبي محمّدﷺ عن التشبّه باليهود والنصارى، بل حرم ذلك على المسلمين واعتبر من يتشبّه بهم فهو خارج عن ملة الإسلام فقال: ((ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تتشبهوا باليهود ولا بالنصارى))[3]، وفي حديث آخر قال: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[4]، كذلك حذر الله ﷻ في محكم كتابه العزيز المؤمنين أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء لهم، ومن يفعل

1-سورة النساء: آية 22 – 23. ينظر: ابن المنذر، تفسير القرآن، 2/ 618 – 626.

2- للمزيد من التفاصيل ينظر: الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، 3/ 170 – 176؛ خليل، عادل إسماعيل، التنشئة الاجتماعية في الإسلام، 118.

3-الطبراني، المعجم الأوسط، 7/ 238.

4-أبو داود، سنن أبي داود، 6/ 144؛ البزار، مسند البزار، 7/ 368.

ذلك يكون منهم فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

وهذا يدل على أن النبي محمّد ﷺ لم يحاول اتخاذ تعاليم دين الإسلام على غرار طقوس اليهود، بل نهى عن التشبه بهم كونهم أمةً ضالةً حرّفت كتاب الله ﷻ، وكفرت بما أنزل على النبي محمّد ﷺ، وحاربت الأنبياء التي أرسلت لهم، فجاء النهي من الله ﷻ على عدم موالاتهم وضرورة اجتنابهم.

1-سورة المائدة: آية 51. ينظر: فخر الرازي، مفاتيح الغيب، 12/ 375.

المبحث الثالث

موقف وات من زيجات النبي محمّد ﷺ المتعدّدة

يعتبر زواج النبي محمّدﷺ من أكثر المواضيع الحساسة التي تناولها المستشرقون بالدراسة والتحليل، لضرب الدين الإسلامي في الصميم من خلال تشويه صورة النبي محمّد ﷺ وإظهاره لأتباعه بصورةٍ لا تلائم شرف الرسالة السماوية وهيبة النبوة، فتناولوه بقلم الدس و الافتراء ومجافاة الموضوعية. أمّا وات فتناول موضوع زوجات النبي محمّدﷺ بطريقة مغايرةٍ عن سابقيه، إذ جعلها بدافعٍ سياسيٍّ محضٍ، وتجاهل دوافع أخرى للزيجات، محاولةً منه إظهار النبي محمّدﷺ في صورة رجلٍ سياسيٍّ محنكٍ يسعى لتحقيق مصالحة لأجل السلطة، ومنها زعمه المتمثل في قوله: ((إن معظم زيجات محمّد الخاصة كما هو الحال في ترتيبه تزويج بناته، ومعاونيه المقربين، كان لها بشكل أو بآخر أسباب سياسية)) [1]. يرى وات أن معظم زوجات النبيﷺ كانت بدافعٍ سياسيٍّ، ولكن في الحقيقة هناك عدة أسبابٍ تقف وراء زيجات النبي محمّدﷺ تلك وستتعرف عليها من خلال استعراض تلك الزيجات وهي حسب الاتي:

1- سودة بنت زمعة (رضي الله عنها)

الخصوص قال: ((زواج محمّد من سودة بعد وفاة خديجة بفترةٍ غير طويلة، هذا يشير إلى حاجته إلى الصحبة الروحية، لأن خديجة قبل المقاطعة شجعته عندما بدأ يتخوف)) [2]، وأعطى وات سبباً آخر فقال: ((إن دافع محمّد لذلك أي الزواج كانت سياسية، وربما اعتبر محمّد أنه يتعين عليه، كرئيس للمجموعة الصغيرة من المسلمين، أن يتزوج حتى لا تتزوج من شخص خارج المجموعة)) [3]، ووصفها وات بأنّها أرملةٌ مسلمةٌ في الثلاثين من عمرها [4].

1-محمّد النبي ورجل الدولة، 132.

2- محمّد في مكة، 272.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 102.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 132.

ولمعرفة نسبها فهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، زوجة السكران بن عمرو[1].

لم يكن وات موفّقاً في تحليله لدوافع زواج النبي محمّد ﷺ من السيدة سودة، وهو حسب زعمه حاجة النبي للصحبة الروحية والسند، ولعلّ السبب في ذلك أن السيدة المذكورة لم تكن بمواصفات السيدة خديجة عليها السلام التي تركت في نفسه ألماً بسبب وفاتها، واتضح لنا ذلك في الكلام الذي حصل بينه ﷺ وبين السيدة عائشة، عندما تحسست من حبه للسيدة خديجة عليها السلام فقال: ((إنها أفضل زوجاتي، وما أبدلني الله بخير منها))[2]. فلا يمكن لسودة بنت زمعة أن تعوض مكانة خديجة عليها السلام الروحية في قلب النبي محمّد ﷺ، فإن دورها كان مميزاً ولم تجده جميع نساء النبي محمّد ﷺ. ويبدو أن النبي محمّد ﷺ يدفع بالمسلمين من خلال سلوكه وتصرّفاته إلى أن يسيروا على سنّته، ومنها أن يتزوّج المرء بعد أن تموت زوجته لما في الزواج من حاجات نفسيّة واجتماعيّة.

أما الدافع السياسي للزواج فلا نعرف كيف استدل عليه وات، فهي أرملة ابن عمها السكران بن عمرو، أسلما وهاجرا إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وقيل رجع زوجها إلى مكة فمات بها مسلماً[3]، وقيل تنصر ومات هناك في الحبشة[4]، فبقيت سودة مع أبيها وأخيها اللذان كانا لا يزالان على الشرك[5]، ولا يستبعد من وجود دافعٍ عقائديٍّ وراء هذا الزواج لكي يتآلف قومها بني عبد شمس أعداء الرسول ﷺ وأعداء بني هاشم حتى يدخلوا في الإسلام[6]. إذاً الدافع الحقيقي لزواج النبي محمّد ﷺ من سودة بنت زمعة في السنة العاشرة للبعثة، أي قبل ثلاث سنين من الهجرة[7] كان اجتماعيًّا محضاً وجبراً لكسرها! ولكي يعوضها فقدان زوجها

1- السكران بن عمرو: هو الصحابي السكران بن عمرو بن عبد شمس العامري، أسلم مع زوجته سودة بنت زمعة وهاجر إلى الحبشة، ورجع إلى مكة ومات فيها قبل الهجرة إلى المدينة. ينظر: الزبيري، نسب قريش، 419؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 219.

2-البخاري، صحيح البخاري، 4/ 223؛ مسلم، صحيح مسلم، 7/ 134.

3- ابن أسحاق، السيرة النبوية، 238؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 2/ 58.

4-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 42؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 411.

5-الطبراني، المعجم الكبير، 24/ 31؛ المقريزي، إمتاع الأسماع، 11/ 237.

6- عبد الغني، عبد الرحمن، زوجات النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، 41؛ أبو ليلى، فرج محمود، الزواج وبناء الأسرة، 235.

7-ابن أسحاق، السير والمغازي، 238؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 42.

المؤمن وتكريماً لها، ورحمة لشيخوختها! وهذا يعتبر قمةً في الإنسانية لمواساة أرملةٍ كبيرة السن لا تملك من الجمال ما يلفت النظر إليها، أسلمتها محنة الاغتراب لمآسي الترمل[1].

فبعد أن أصبحت بدون مأوى، سوى الرجوع إلى أب وأخ مشركين يهزئان بها وربما يحاولان إرغامها على الردة وترك الإسلام[2]، أو تتزوج بغير كفء لها أو كفء لها لا يريدها[3]. فهل زواجٌ مثل هذا تقف وراءه صحبة روحية؟ وهل يحتاج النبي محمّدﷺ لصحبةٍ روحية؟ فهو الأفضل وجميع الناس تحتاج صحبتهﷺ، بل كان هذا الزواج شفقةً ورحمةً إنسانيةً انعدم نظيرها في الدنيا من قبل النبي محمّدﷺ!؟ وزهدت سودة في الحياة الدنيا وطمعاً أن تحشر في الآخرة مع نساء النبيﷺ فتنازلت عن يومها[4]، وقالت ((ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجة لك))[5]، وفي حقها نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[6]. ومن الراجح أن تعلقها بالبقاء مع النبيﷺ يرجع إلى مكانته الدينية والدنيوية واعتزاز كلّ مسلمة أن تكون من زوجاته بما فيه من فخرٍ وشرفٍ لهن. وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّه يدل على أنّ ذلك الزواج لم يكن للغرض الذي أشاعه وات وإنّما لجبر كسر خاطر تلك المرأة وحفاظاً على مشاعرها وثبات عقيدتها حتى لا تتأثر نفسها بأدران الشرك والغربة.

2- عائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنها)

هي الأخرى ساق وات زواجها من النبي محمّد بدافعٍ سياسيٍّ فقال: ((من الواضح أن زواجها من محمّدﷺ كان له سببٌ سياسيٌّ، لتقوية الارتباط الذي كان قائماً بين أبي بكر ومحمد(صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، ولأن أبا بكر كان معاون محمّدﷺ الرئيسي، فمن الطبيعي أن تكون عائشة زوجته الرئيسيّة، حتى ولو كان محمّدﷺ متزوجاً قبلها بعد وفاة خديجة بثلاث سنوات من سودة بنت زمعة))[7].

1-بنت الشاطئ، نساء النبي، 62؛.

2-الصفدي، الوافي بالوفيات، 15/ 18؛ المقريزي، إمتاع الأسماع، 6/ 33.

3-زكريا، المستشرقون و الإسلام، 332.

4-ابن اسحاق، السير والمغازي، 238.

5-ابن سعد، الطبقات، 8/ 43؛ ابن حجر، الاصابة، 8/ 196؛ الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 4/ 380.

6- سورة النساء: آية 128. ينظر الطبري، جامع البيان، 9/ 278؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 2/ 119.

7-محمّد النبي ورجل الدولة، 131 – 132.

وسيرتها: هي عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافةَ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، وأمها أم رومان[1]، أسلمت منذ الطفولة، وهي حفظت الحديث النبوي الشريف وروى عنها أبناء أختها أسماء عبد الله وعروة (ولدى الزبير بن العوام) وأبو هريرة، تكنى أم عبدالله وهو ابن أختها أسماء، توفيت في المدينة المنورة سنة (57هـ/ 676م) وصلى عليها أبو هريرة[2].

يبدو أن ما ذهب إليه وات باستنتاجه أنّ زواج النبي محمّد ﷺ من عائشة كان بدافعٍ سياسيٍّ بعيدٌ عن الواقع؛ فهي من قبيلة بني تيم بن مرة الصغيرة العدد، إذ لا يتجاوز عدد سكانها ثلاث مائة نفر عند البعثة النبويّة، ولم يكن لها موقعٌ بين قبائل مكة، وما يؤكد هذا الكلام عندما بويع أبو بكر بالخلافة تفاجأ أبو سفيان وقال: ((ما بال هذا الأمر في أقلّ حيٍّ من قريش؟! والله لئن شئت لأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً))[3] وبتعبير السيوطي[4]: ((ما بال هذا الأمر في أقل قريش قلة وأذلها ذلاً؟)). هذا دليل على قلة عددهم و ضعف مكانتهم بين القبائل، فلا مبرّر للقول بأنّ الزواج كان بدافعٍ سياسيٍّ بل إنّه دافعٌ اجتماعيٌّ لتقوية أواصر العلاقات مع الصحابة، وفي الحقيقة أنّ أباً بكر هو المستفيد من مصاهرة خاتم الأنبياء محمّد ﷺ، فحصل على حظوة في المجتمع الإسلامي، ومكانة مرموقة بين القبائل العربية، ودرج اسم ابنته عائشة بقائمة أمهات المؤمنين.

كانت السيدة عائشة أصغر زوجات النبي ﷺ سناً، وبسبب غيرتها حدثت الكثير من المشاكل الاجتماعية مع نساء النبي، وصل بها الحدّ إلى الغيرة من السيدة خديجة عليها السلام وهي في ذمة الله، ونزلت بحقها مع حفصة سورة التحريم[5] فقول تعالى: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ إِنْ تَتُوبَا إِلى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**

1- أم رومان: هي الصحابية أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب الكنانية، تزوجت عبد الله بن الحارث بن سخيرة وأنجبت منه الطفيل، تزوجها أبو بكر وأنجبت منه عبد الرحمن وأسماء وعائشة، توفيت سنة (6 هـ/ 627 م). ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 126؛ البلاذري أنساب الأشراف، 2/ 498.

2- ابن خياط، الطبقات، 624؛ ابن أبي خيثمة، تاريخ ابن أبي خيثمة، 2/ 770؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 4/ 1882 – 1885.

3-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3/ 209.

4- تاريخ الخلفاء، 58.

5- البغوي، معالم التنزيل 8/ 165.

وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[1].

لقد عرّج وات في رأيه حول عمر السيدة عائشة حين زواجها من النبي محمّدﷺ فقال: ((تعتبر مثل هذه العلاقة بين رجل له من العمر ثلاث وخمسين سنة، وبين امرأة في العاشرة، علاقة غريبة جداً؛ ذلك أنها أقرب إلى علاقة أب بابنته منها إلى علاقة زوج بزوجته. بالطبع، لا بد أن نتذكر أن الفتيات في شبه الجزيرة العربية، كن في القرن السابع يبلغن في وقت مبكر جداً. ورغم ذلك، لم يكن ثمة أطفال في مثل هذا السن يساقون إلى تشكيل أسرة))[2].

أجمعت المصادر الإسلاميّة على أن رسول اللهﷺ خطب عائشة في سن السادسة من عمرها في مكة، ودخل فيها بسن التاسعة من عمرها، والتحق رسول اللهﷺ بالرفيق الأعلى وهي بنت ثماني عشرة سنة[3].

ويرى الباحث أن هنالك شكًّا حول عمرها بمرحلة الخطوبة الذي حدّد بست سنوات وعند الزواج تسع سنوات كونها طفلةً لا تعرف معنى العلاقة الزوجية، ولعلهُ وُضع كي يكون منقبةً للسيدة عائشة وإساءةً للنبيﷺ إذ كيف يقبل بهذا الزواج؟ لأنّ المصادر الإسلاميّة تتفق أنّ عمر أسماء كان سبع وعشرين سنة عند الهجرة، وكانت عائشة تصغرها بعشر سنوات، وبذلك يكون عمر السيدة عائشة سبع عشرة سنة عند الزواج[4]. وهذا أقرب للواقع.

أضف إلى ذلك أن الأرملة أم رومان تزوجت أبا بكر وولدت له عبد الرحمن وعائشة فقط، وفي معركة بدر (2هـ/ 624م) كان عبد الرحمن مع معسكر المشركين فبرز وطلب أن يبارز أباه أبا بكر فقال له النبي محمّدﷺ ((متعنا بنفسك يا أبا بكر))[5]. فلو خمَنّا عبد

1- سورة التحريم: الآيات 3 - 5.

2-محمّد النبي ورجل الدولة، 131.

3-ابن سعد الطبقات، 8/ 46؛ ابن حبيب، المحبر، 81؛ ابن قتيبة، المعارف، 1/ 134؛ البلاذري، أنساب الاشراف، 1/ 409؛ البري، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، 2/ 62.

4- ابن منده، معرفة الصحابة، 2/ 982؛ البيهقي، السنن الكبرى، 6/ 335؛ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، 2/ 329.؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4/ 408 و تاريخ الإسلام، 5/ 354.

5-الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 3/ 539؛ البيهقي، السنن الكبرى، 8/ 322؛ محب الدين الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، 1/ 46.

الرحمن يكبر عن عائشة بسنتين، وفي وقت معركة بدر كان عمره عشرين عاماً فيفترض عمر السيدة عائشة ثماني عشرة سنة وهو أقرب للواقع أن يكون سنًّا للزواج بدلاً من عمر تسع سنين.

والذي يُسأل عنه ما هي الجدوى السياسية من مصاهرة النبي محمّد ﷺ لأبي بكر وابنه عبد الرحمن مع معسكر المشركين ويطلب مبارزة والده؟! وكذلك أبو قحافة بقي مشركاً حتى فتح مكة، وجاء به ابنه أبو بكر ليعلن إسلامه أمام رسول الله ﷺ؟! من هذا الموقف يتضح لنا أن أبا بكر لم يستطع أن يكسب ابنه ولا أباه إلى الإسلام.

3- حفصة بنت عمر بن الخطاب

اعتبر وات أن زواج النبي محمّد ﷺ من حفصة سنة (4هـ/ 625م) -وهي أرملة خنيس بن حذافة السهمي[1] الذي استشهد متأثراً بجراحٍ أصيب بها في معركة بدر ـ ذو دوافع سياسيّةٍ وقد اِتضح ذلك في قوله: ((له أهداف سياسيّة واضحة، لقد ساهم هذا الزواج بتعزيز شكل العلاقة مع واحد من أهم مساعدي محمّد ﷺ وهو عمر بن الخطاب، وأفاد هذا الزواج حفصة بمكانة هامة حيث كان زوجها من القلة التي ماتت في معركة بدر))[2].

وعن نسبها، فهي حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة الخزاعية، أخت الصحابي عثمان بن مظعون، ولدت قبل البعثة النبوية بخمس سنين[3]، من المسلمات الأوائل في مكة وهاجرت مع زوجها خنيس بن حذافة السهمي إلى المدينة ولم تنجب منه ولد، وتزوجها النبي محمّد ﷺ بعد معركة أحد، ولها رواية في الحديث النبوي الشريف، وتحدث عنها عبد الله بن عمر وعبد الله بن صفوان وعبد الله بن سعيد المدني، توفيت في المدينة سنة (45هـ/ 665م) وصلى عليها مروان بن الحكم[4].

1- خنيس بن حذيفة السهمي: الصحابي خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد السهمي، يكنى بأبي الأخنس، لا عقب له، هاجر إلى الحبشة في المرة الثانية، ورجع إلى مكة ثم هاجر إلى المدينة، من البدريين، توفي سنة (2ه/ 623 م). الزبيري، نسب قريش، 310؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 214.

2-محمّد النبي ورجل الدولة، 172.

3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 65؛ البلاذري أنساب الأشراف، 1/ 422.

4- العجلي، أحمد بن عبد الله، تاريخ الثقات، 364؛ ابن حبان، تاريخ الثقات، 2/ 139؛ ابن منده، معرفة الصحابة، 948.

أما قبيلة حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل (بنو عَدِيّ)، وهي من القبائل الصغيرة في مكة، وأقل من بني تيم في عدد السكان، ولم يكن لها موقع بين قبائل مكة[1]. وفي الجاهلية سرق عامر بن عبد الله[2] ناقة عبد شمس وأراد أن يقطع يده، فمشت بنو عدي وطلبوا العفو من عبد شمس، فأمر بإخراجهم من مكة قال: ((اخرجوا من مكة، فارتحلوا، وتعرض بنو سهم لهم وأنزلوهم بين أظهرهم، وقالوا: والله لا تخرجون! وأم سهم بن عمرو الألوف بنت عدي بن كعب، فأقاموا وهم حلف بني سهم))[3]. وفي السياق نفسه قال المؤرخ ابن حبيب[4] إنهم لقلتهم لم يكن لهم رئيسٌ للقبيلة: ((ولم يكن من قريش قبيلة إلا وفيها سيد يقوم بأمرها ويطلب بثأرها إلا عدي بن كعب)).

ولما ترملت حفصة بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة السهمي على إثر جراح أصابته في معركة بدر[5]، سعى أبوها لتزويجها فعرضها على عثمان بن عفان فقال: سأنظر في أمري، ثم عرضها على أبي بكر فسكت؟ ولم يبد رأياً وهذه علامة رفضٍ، فشكى عمر أسفه وما غمّه من ترمّل ابنته للنبي محمّدﷺ، كعادته لم يبخل على صاحبه وأخوه في الدين بالمصاهرة فتزوجها[6]. والملاحظ أنّ هذه الرواية مضحكةٌ وهزيلةٌ جداً، كونها لا تنسجم مع عزة العرب عامة والخليفة عمر خاصة، بل وضعت من قبل الحزب الأموي كون سندها عن ابن شهاب الزهري الذي عرف بميله الأموي من جهة السند، أما من جهة المتن فهي وضعت لكي يجعلوا بها منقبة لعثمان بن عفان، ووضعوا بها كذلك محادثة جرت بين عمر والنبي ﷺ قال: ((قد زوج الله عثمان خيراً من ابنتك وزوج ابنتك خيراً من عثمان))[7]، وفي المضمون

1-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3/ 209.

2- عامر بن عبد الله: هو عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي، أمه أم سفيان بنت رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح، لم نجد له ترجمة كافية سوى من ذريته الصحابي خارجة بن حذافة بن غانم بن عامر، شارك في فتح مصر وتولى فيها القضاء والشرطة زمن عمرو بن العاص. ينظر: الزبيري، نسب قريش، 368 – 369؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 1/ 156؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، 6/ 425.

3-ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، 81.

4- المنمق، 129.

5-ابن سعد، الطبقات، 10/ 80؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 33.

6-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 65؛ البخاري، صحيح البخاري، 7/ 13؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 423؛ ابو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، 1/ 18.

7- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 66؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 423.

نفسه باختلاف بسيط قال رسول الله ﷺ: ((زوجني حفصة وأزوجه أم كلثوم أختها))[1]، ولم نجد في كتب المساند والصحاح تخريجاً لهذين الحديثين، لذا لا يعتدّ بالحديث لعدم صحته، بل ذكره في كتب الطبقات والأنساب. والحديث وضع ليبين رغبة عثمان بالزواج من أم كلثوم بنت محمّد ﷺ بعد وفاة أختها رقية. ولربما رأي وات يتعلق بالقوة السياسية في الإسلام بالنسبة إلى أبي بكر وعمر نفسيهما لا لقبيلتيهما، فلا يستبعد من وجود سببٍ سياسيٍّ لزواج النبي محمّد ﷺ من عائشة وحفصة.

يرجح أن أبا بكر وعمر كانا يعملان للتقرب السياسي والاجتماعي من النبي محمّد ﷺ أكثر من جميع الصحابة، ولكن الله ﷻ أمره أن لا يصطدم بأصحابه ويترك الأمور تجري بشكلٍ طبيعي، لتجري سنن الله وقوانينه في هداية الأمم وضلالها[2].

ولهذا تزوج النبي محمّد ﷺ عائشة وحفصة لكسب ودّ أبويهما اللذين كانا يتوقان للسلطة، وربما ربطهما بعقد اجتماعي وصلة وطيدة كالزواج تهدئ من رغبتهما في السلطة وتجعلهما يلزمان الصمت لمدة، إلاَّ أنَّ الذي حصل بعد استشهاد الرسول ﷺ، وما جرى في سقيفة بني ساعدة؟. كان على العكس مما يصوره وات من أن النبي محمّد ﷺ كانت دوافعه للزواج من كريمات أبي بكر وعمر سياسية، بل هما اللذان حضيا بشرف مصاهرة النبي وبدعمٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ مكنهم من الوصول إلى منصب الخلافة.

4- زينب بنت خزيمة

وعن زواجها الميمون قال وات: ((في أوائل سنة 626م تزوج النبي محمّد ﷺ من زينب بنت خزيمة، من قبيلة بني عامر، والتي كان محمّد ﷺ حريصاً على تعزيز وتوثيق علاقته معها، أي مع قبيلة بني عامر. قد كانت زينب أرملة أحد المهاجرين الذين قتلوا ببدر، وهو من عشيرةٍ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعشيرة محمّد ﷺ. عمرها يقارب الثلاثين، إلا أنها ماتت بعد أشهرٍ قليلةٍ من زواجها من محمّد ﷺ))[3].

هي زينب بنت خزيمةَ بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن

1- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 66.

2-الكوراني، علي، السيرة النبوية برواية أهل البيت، 1/ 614.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 200.

عامر بن صعصعةَ، ولقبت قبل الإسلام بأم المساكين، وكانت عند الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فطلقها، وتزوجها أخوه عبيد[1] وهاجرا إلى المدينة واستشهد زوجها في بدر، تزوجها النبي محمّدﷺ في شهرِ رمضان سنة (2هـ/ 623م) فمكثت عنده ثمانيةَ أَشهرٍ وتوفيت في آخر شهر ربيع الآخر، ودفنت في البقيع[2].

لقد كان النبي محمّدﷺ حريصاً على مواساة أرامل الشهداء الذين جاهدوا بأنفسهم من أجل نصرة الدين الإسلامي ونشره، وتركوا خلفهم أرامل وثكالى لا يقدرن على عبء الحياة[3]، إن المروؤة والنخوة التي يتحلى بها النبي محمّدﷺ كانت دافعاً اجتماعياً لزواج النبيﷺ من زينب بنت خزيمة، التي ترملت بعد استشهاد زوجها في معركة بدر[4]. هذا يؤكد أن ظاهرة زواج الأرامل كانت محدودةً في المجتمع العربي، ولربما العلة في الزواج هي تشجيع المسلمين على الزواج من زوجات الشهداء أي الأرامل لأن العرب ترغب في الزواج من الأبكار لا الثيّبات.

وخير من صور هذا الزواج المستشرق البريطاني بودلي[5] بدافع الشفقة فقال: ((وتبع زواج محمّدﷺ من حفصة زواج آخر،... زينب بنت خزيمة، وكانت متوسطة العمر طيبة خيرة، وما ضمها محمّدﷺ إلى نسائه إلا بدافع الشفقة)).

من هذا يتضح لنا أن الزواج كان بدافعٍ اجتماعيٍّ وإنسانيٍّ ورأفةً بتلك النساء الأرامل ليطيب خاطرهن وإحساسهن بعظمة الإسلام وشفقة نبيه ﷺ. وكذلك يحمل هذا الزاج جانباً تشريعيًّا، فالنبي محمّدﷺ قدوةٌ للمسلمين، ويُطبق نهج الإسلام بأن على المسلمين الزواج من الأرامل إكراماً لأزواجهن الشهداء ولحضانة ورعاية نسائهم وأولادهم، ولأغراض اجتماعية لضبط المجتمع وتركيبته، وكذلك لأغراض سياسيةٍ لتعزيز الصلات.

1- عبيد: هو الصحابي عبيد بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي، أسن بني عبد مناف، أسلم قديماً في مكة، وهاجر إلى المدينة، وقيل عقد له النبي محمّد (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) أول راية في الإسلام بسرية، من قادة المبارزين في معركة بدر(2هـ/ 623) مع الإمام علي عليه السلام وشهيد الإسلام حمزة عليه السلام، وضرب شيبة وقطع ساقه، استشهد في معركة بدر. ابن عبد البر، الاستيعاب، 4/ 353.

2- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 73 و 91.

3-غريب، زواج النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، 6.

4-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 115.

5- الرسول حياة محمد، 192.

5- أم سلمة هند بنت أمية بن المغيرة المخزومية

اعتبر وات الزواج من الصحابية المهاجرة إلى الحبشة بدافعٍ سياسيٍّ فقال: ((بالرغم من أنها وزوجها السابق كانا مسلمين لفترةٍ طويلةٍ، إلا أنّهما ينتميان إلى قبيلة بني مخزوم، وهي قبيلة أبي جهل، أحد الشخصيّات الرئيسيّة المعارضة لمحمدﷺ في مكة. لقد كان هذا الزواج على أقل تقدير، طريقة لدعم أرملةٍ مهاجرةٍ لها وزنها؛ لكنه قد يكون مصمماً أيضاً لمساعدة محمّد في التقرب من المكيّين))[1].

أم سلمة هي هند وقيل رملة بنت أمية وقيل حذيفة وقيل سهيل بن المغيرة المخزومية القرشية، أسلمت قديمًا مع زوجها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي[2] وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما إلى مكة وهاجرا إلى المدينة، وكنيتها بابنها سلمة الذي ولدته بالحبشة وبنت اسمها برة، ربيبة رسول اللهﷺ اسمها زينب، توفي عنها زوجها أبو سلمة على أثر جرحٍ أصابه في معركة أُحد فتزوجها الرسولﷺسنة (4هـ/ 625 م)، توفيت سنة (59هـ /678م)[3].

الصحابية أم سلمة وزوجها عبد الله بن عبد الأسد المخزومي من السابقين في الإسلام هاجرا إلى الحبشة، ثم رجعا بعد إنهاء المقاطعة[4]، وأرادت الهجرة إلى المدينة مع زوجها فمنعها أهلها وفرقوا بينهما، فهاجر زوجها وابنه سلمة إلى المدينة، فبقيت أم سلمة تعاني مرارة فراق زوجها وابنها من جهة ومن ضنك العيش مع المشركين من جهة ثانية، وظلت تبكي على فراقهم قرابة حولٍ كاملٍ! ولعظم بلائها رقّ قلب أحد أبناء عمومتها، وجاء إلى أهلها ولامهم على تفريق الزوجة المسكينة عن زوجها وضناها، فأذنوا لها بالهجرة ولحقت بهم إلى المدينة[5].

وبعد سنتين من لمِّ شمل العائلة كان لزوجها دورٌ جهاديٌّ في معركة أحد (3هـ/ 624م)

1-محمّد النبي ورحل الدولة، 200.

2- عبد الله بن عبد الأسد المخزومي من السابقين إلى الإسلام وابن عمه رسول الله (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) برة بنت عبد المطلب، وهو أخو الرسول من الرضاعة، مشهور بكنيته وهو زوج أم سلمة مات بالمدينةَ بعدَ مرجعه من أحد سنة (3هـ/ 624 م)، وكان هاجر الهجرتين. ينظر: ابن عبد البر، الإستيعاب، 1589؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 4774.

3- ابن عبد البر، الاستيعاب، 356.

4-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 220.

5-ابن الأثير، أسد الغابة، 5/ 588؛ ابن كثير، البداية و النهاية، 3/ 208.

وتوفي على أثر جراحة فنال الشهادة في سبيل الإسلام[1]. فلم يبقَ معينٌ لهذه الكهلة المؤمنة التي هاجرت الهجرتين وفقدت معينها، فوجدت رسول الله ﷺ مواسياً لهمومها، فتزوجها جبراً لخاطرها[2]، وفي حسبانه العناية بأولادها وتربيتهم والحدب عليهم، وفي مقدوره عليه الصلاة والسلام أن يتزوج منهن، لكنه آثر الزواج من هذه المفتقرة المبتلات بقسوة الترمل[3]. فهل يصح أنْ يكون وراء الزواج من هذه المرأة المحزونة، التي بقي أهلها مشركين في مكة دافعاً سياسياً؟ إنما هي الرحمة والرأفة والإنسانية. وللباحث رأيٌ أن الزواج ليس جبراً لخاطرها كما يرى العقاد بل أجده مكافأة لها على صبرها وإيمانها، ولإعالتها وإعالة ابنائها، وهذه سنّة نبينا محمّد ﷺ نبي الرحمة، وكان الرسول ﷺ يبغي بهذا الزواج وجه الله وإعفاف المسلمات.

6- زينب بنت جحش

ركز وات على زواج النبي محمّد ﷺ من زينب بنت جحش وقال: ((إن الزواج الأكثر جدلاً من بين جميع زيجات محمّد ﷺ كان من زينب بنت جحش، حدث نهاية مارس سنة 627م، لقد كان هذا الزواج محل نقد من قبل المعاصرين لمحمد ﷺ، وغدا أيضاً هدفاً للهجمات القاسية عليه من قبل علماء أوربيين))[4].

وعن نسبها هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن ضيرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، هذا نسبها من أبيها، أما من جهة أمها فهي أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، تزوجها النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لتشريع حكمٍ وهي كانت أَول نساء رسول اللهِ (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لحوقاً به، وتوفيت في المدينة المنورة سنة (21هـ/ 641م) وصلى عليها الخليفة عمر بن الخطاب[5].

كثر الجدل عن هذا الزواج من قبل المعاصرين للنبي محمّد ﷺ وذلك بسبب كسر تقاليد الجاهلية والعرف السائد آنذاك بتحريم الزواج من حليلة ابنه بالتبنّي، واعتبارهم التبني يحقّق البنوّة، فزوجته بذلك كأنما هي زوجةٌ لابنه، وليس للمتبني بذلك أن ينكح زوجة متبناه، وإن

1-ابن إسحاق، السيرة النبوية، 2/ 281؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3/ 165.

2-العقاد، عبقرية محمد، 146.

3-عبد العزيز، أمير، افتراءات على الإسلام والمسلمين، 77.

4-محمّد النبي ورجل الدولة، 200.

5- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 31 و 8/ 44؛ ابن عبد البر، الاستيعاب،960.

حصل شيء من ذلك فهو في غاية الاستهجان[1]، وأمر الله ﷻ بإلغاء نظام التبني، ودعوة الأبناء إلى إبائهم في قوله تعالى: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾[2]. فهذه العادة لا مناص من إبطالها استجابةً لما جاء به الوحي القرآني، ودحضها بالسنة التطبيقية العملية، كما في قوله تعالى: ﴿**... فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**﴾[3]. ويتعين على النبي محمّد ﷺ التصدي لهذا الأمر بنفسه للقضاء على تلك الظاهرة الراسخة في عقول العرب من الماضي، فكان النبي ﷺ من سنته إذا أمر بشيءٍ ودعا إليه يحاول تطبيقه على نفسه الشريفة وأهله وخاصته، فهو قائد هذه الأمة ومنفذ تعاليم السماء.

وحاول نفر من المسلمين المنافقين الناعقين إثارة اللغط لتشويه صورة النبي محمّد ﷺ والطعن عليه، وقالوا: ((مُحَمَّد يحرم نساء الولد وقد تزوج امْرَأَة ابنه زَيْد))[4]، ولكمِّ هذه الأفواه عن الافتراء والطعن والكذب نزل الوحي يبين إبطال هذه الرابطة في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾[5] وقوله عز وجل: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾[6].

شكك وات في السبب الذي دعا زينب لرفض الزواج من زيد في البداية فقال: ((من المستحيل أنها كانت تعتقد بدنو مكانة زيد؛ هذا أنها إلى جانب ذلك، كانت امرأة طموحة وكانت على أمل بالزواج من محمّد ﷺ نفسه... أن زينب كانت تتهيأ للزواج من محمّد قبل نهاية سنة 626م))[7].

1-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 31.

2- سورة الأحزاب: آية 5.

3-سورة الأحزاب، آية 37.

4- ابن سعد، الطبقات، 3/ 31؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 11/ 498؛ ابن الجوزي، المنتظم،3/ 348.

5-سورة الأحزاب: آية 40.

6-سورة الأحزاب: آية 5.

7-محمّد النبي و رجل الدولة، 202 – 203.

وللرد على هكذا قول فهي حرةٌ من نسب الأب، وأعظم شرف من نسب الأم عمة النبي محمّدﷺ. أما الزوج: هو زيد بن حارثة(1). ولما بلغ زيد مبلغ الرجال خطب له رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، لكنها رفضت منذ أن طرق اسمه على مسامعها؛ كونه من الموالي، وسمة عصرهم تقيم للفوارق الاجتماعية وزناً كبيراً(2) فأنزل الله قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا**﴾(3).

لقد اِفترض وات أن زينب كانت تتهيأ للزواج من محمّدﷺ قبل سنة 626م؟! وهذا افتراض قابلٌ للطرح المناقشة، لأن المرأة يحق لها اختيار الزوج المناسب حتى تكون أسرة نموذجية، فما بالك برسول الله محمّدﷺ وهو خاتم الأنبياء، قد عرف قبل الإسلام بالعفة والشرف، ولقب بالصادق الأمين، فمن الطبيعي أن كلّ مؤمنةٍ تتمنى الارتباط بحبال الزوجية مع شخص النبي محمّدﷺ، لكن هذا مجرد حدسٍ ولم يرد ذكره في المصادر الإسلاميّة التي اِطلعنا عليها.

ومن ثم أعطى وات سبباً لتزويج النبي محمّدﷺ زينب من زيد فقال: ((كان لهذا الزواج أيضاً استحقاقات سياسية كما هو الأمر في تلك الزيجات، وكانت زينب على قرابة من محمّد من جهة أمها؛ لذا من المحتمل أنه شعر بالمسؤولية تجاهها. أما عائلة أبيها فكانت تحت حماية أبي سفيان))(4).

لم يكن هناك دافعٌ سياسيٌّ لزواج زينب من زيد أولاً، بل كان النبي محمّدﷺ يسمو إلى تحقيق أهدافٍ منها: محاولة إلغاء الفوارق الطبقية بين أفراد المجتمع الإسلامي، فهم على حدٍّ سواء أخوة متحابين، لا يميزهم فارق إلا درجات الإيمان ومرتبة التقوى، فأراد رسول اللهﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية بنفسه التي تغلغلت في عقول الناس، ولا يمكن ذلك إلا

1- زيد بن حارثة: هو الصحابي أبو أسامة، زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزي بن امرئ الكلبي، أما من جهة أمه سعدى بنت ثعلبة من بني معن بن طي، فهو حر من صلب العرب لكن سبي وبيع بالسوق، أشتراه حكيم بن حزام ولما جاءت السيدة خديجة عليها السلام تزور ابن أخيها، أهدى إليها الغلام زيد ولما رجعت وهبته إلى النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) فتبناه، فهو من الموالي، استشهد في معركة مؤته سنة (8هـ/ 629م) ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3 34؛ ابن حبيب، المحبر، 128؛ ابن قتيبة، المعارف،1/ 144؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، 1/ 367.

2-ابن قتيبة، المعارف، 1/ 144.

3-سورة الأحزاب: آية 36؛ ينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/ 421.

4-وات، محمّد النبي ورجل الدولة، 202.

بتطبيق واقعيٍّ لما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

إن الزواج كان مقدمةً لتشريعٍ آخر يقوم عليه وإن لم تُعلم الحكمة في بداية الأمر للزوجين.

أراد النبي محمّد ﷺ مكافأة زيد لحسن صحبته معه ﷺ ومع السيدة خديجة عليها السلام، لما قدّمه من تضحيات، وما تعرض له من متاعب في حياته وطمس ما علق في ذهنه من السبي وألم الرق فزوجه بزينة الهاشميات زينب بنت جحش بنت عمته[2].

أما هدف زواج النبي محمّد ﷺ بزينب بنت جحش فهو لبيان تشريع التبني، فصدر حكم تحريم الزواج من حلائل الأبناء الشرعيين من النسب لا من التبني. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[3]. ولم يقدم النبي محمد(صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) على الزواج بزينب بنت جحش؛ لأنها كانت محرماً بصفتها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وقد رفع الله جل جلاله هذا المانع بالنسبة له ولكلّ المؤمنين[4] في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[5].

ومكافأة زينب على طاعتها الأولى لله جل جلاله و لرسوله ﷺ وامتثالها للأمر بالزواج من زيد، رغم ما تواجه من ظروفٍ اجتماعيةٍ صعبةٍ، ولكنها في النهاية رضيت بما رضي لها رسول الله

1-سورة الحجرات: آية 13. ينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 28/ 112 – 113.

2-الألمعي، زاهر عوض، مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بزينب بنت جحش، 61.

3-سورة النساء: آية 23.

4-جعيط، هشام، في السيرة النبوية: تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، 67.

5-سورة الأحزاب: آية 50.

ﷺ تاركة نبزات الناس وهمساتهم جانباً، فجنت ثمار التقوى والطاعة، وفازت بشرف الدنيا والآخرة، إذ تزوجت رسول الله ﷺ وأصبحت في تعداد أمهات المؤمنين[1].

لا شك بعد أن ساءت العلاقة الزوجية بين زيد و زينب للفارق الاجتماعي الكبير بينهما حصل الطلاق وأصبحت مطلقة، فلا يوجد زوج كفء يتقدم لها؛ والكفء للمرأة يكثر إذا كانت بكراً، ويندر إذا كانت مطلقة، فلم يكن لجبر خاطرها وسيلة إلا زواج النبي محمّد ﷺ بها[2].

وقد اِنساق وات مع المشككين بهذه الشبهة فقال: وقد ذهب محمّد في ما بعد حوالي (4ه/ 626م) إلى بيت زيد للتحدث إليه وكان زيد غائباً فشاهد زينب وهي عارية فأحبها، كما يقولون، لتوه. وهو يقول «سبحان الله مقلب القلوب»))[3].

إلاّ أن وات صحح رأيه بدفع شبهة الشهوة الجنسية التي ألصقت جزافاً بالنبي محمّد ﷺ بقوله: ((أنه ليس من المرجح على الإطلاق أن رجلاً له من العمر ست وخمسون سنة، أن ينجر ويؤخذ بالعاطفة الجنسية تجاه امرأة في الخامسة والثلاثين أو أكثر من عمرها... ويجب ألا تُؤخذ بجديّةٍ قصة اجتماع محمّد ﷺ مع زينب، فهي لم ترد في المصادر المبكرة))[4].

أخذ المستشرقون هذه الشبهة من رواية الطبري[5] ملخصها عن رؤية النبي محمّد ﷺ لزينب من وراء الستار ورفعت الريح هذا الستار ومن ثم بانت مفاتن زينب لمحمد ﷺ فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، وذهب وهو يهمهم بكلمات غامضةٍ وكأنه أحس بذنبٍ اقترفه: ((سبحان الله العظيم سبحان الله مصرف القلوب))[6]. إذاً تكمن المشكلة في مصادر التاريخ الإسلامي التي بين سطورها الغث والسمين، لكن على الباحث أن ينتقي الروايات التي لا تخدش الحياء العام ولا تسيء للحرمات.

ومثل هكذا قول عارٍ من الصحة حتماً؛ كون زينب لم تكن غريبةً عن النبي محمّد ﷺ

1-الألمعي، مع المفسرين والمستشرقين، 68.

2-الجبري، عبد المتعالي محمد، السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون، 145.

3- محمّد في المدينة، 502.

4-محمّد النبي ورجل الدولة، 203.

5-تاريخ الرسل والملوك، 2/ 563.

6- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 563.

فهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وتربت بجوار الرسولﷺ، وإذا كان جمال زينب أدهش محمّدﷺ؟ فمن المؤكد أن جمالها ما كان خفياً على النبي محمّدﷺ قبل أن يزوجها مولاه زيداً لأنها ابنة عمته ومتاحٌ له رؤيتها منذ طفولتها، فضلاً عن ذلك أن النبيﷺ كان يمتاز بالحياء، لذا قال عنه ابن سعيد الخدري: ((كان رسول اللهﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها وكان إذا أكره شيئاً عرفناه في وجهه))[1].

7- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان

ذهبَ وات إلى أنّ زواج النبي محمّدﷺ من أم حبيبة ساعده على كسب أبي سفيان لجانبه[2]. كما أن أبا سفيان استطاع أن يعرف بأن محمداًﷺ كان ينوي الزواج من ابنته أم حبيبه، وبالرغم من أنها أسلمت منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة، فإن ذلك لا بد أن يكون قد أثر فيه[3].

هي رملة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، كانت قبل النبي محمّدﷺ تحت زوجها عبيد الله بن جحش[4]، من السابقين في الإسلام، وهاجرا إلى الحبشة، وولدت بها حبيبة التي تكنى بها، ومات زوجها هناك، وذُكر أنه اِرتد عن الإسلام، وذُكر أنّه تنصر وبقيت على إسلامها، فلما انقضت عدتها أرسل النبي محمّدﷺ عمرو بن أمية الضمري[5] إلى النجاشي أن يتولى له العقد عليها، وأمهرها عن رسول اللهﷺ أربعمائة دينار[6] توفيت سنة (44هـ/ 664م)[7].

وبقيت أم حبيبة في الحبشة معززةً مكرمةً حتى قدمت إلى المدينة مع مهاجرين من

1- مسلم، صحيح مسلم، 4/ 1809؛ أبو داود، مسند ألي داود، 3/ 670.

2-محمّد في المدينة، 104.

3-وات، محمّد في المدينة، 88.

4- عبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي، حليف بني عبد شمس، أخوه عبد الله بن جحش استشهد في أحد مسلماً وأخته زينب بنت جحش أم المؤمنين، مات في الحبشة، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 76؛ ابن ماكولا، الإكمال، 7/ 125.

5- عمرو بن أمية الضمري حجازي الآصل، صحابي، روى عنه ابناه جعفر وعبد الله وابن أخيه الزرقان، ينظر: البخاري، التاريخ الكبير، 6/ 307.

6-ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 223 – 223 و 2/ 645؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 76؛ ابن حبيب، المحبر، 76.

7- ابن الجوزي، المنتظم، 5/ 210.

الحبشة سنة (7هـ/ 629م)، ولما بلغ أباها أبا سفيان تزوج النبي محمّدﷺ بابنته أم حبيبة قال: ((هو الفحل لا يُقْدع[1] أنفه))[2]، وهذا يدل على اعترافه بشرف النبي محمّدﷺ وعلو مكانته، وهذه شهادة يعتد بها إذا كانت من الأعداء. كما قال الشاعر[3]:

وشمائلٌ شهدَ العدوُّ بفضلها والفضلُ ما شهدت به الأعداء

وتبين سرور أبي سفيان من زواج ابنته من النبي محمّدﷺ لأنه يعرف حق المعرفة أنه أكرم العرب نسباً، وأفضلهم خصالاً وخلقاً، وأجلّهم شرفاً وحسباً.

لقد فسر وات هذا الزواج بأنّه ذو دافعٍ سياسيٍّ لكسب أبا سفيان إلى جانبهﷺ؟ فهي مسلمةٌ مهاجرةٌ في الحبشة وأرملة ثكلى! وأبوها زعيم المشركين في مكة! وقائد لجميع الحروب ضد النبي محمّدﷺ باستثناء معركة بدر لأنّه حينها كان قائد القافلة التجارية! فمن أين جاء وات بهذا الاستنتاج؟

نعم كان النبي محمّدﷺ حريصاً على كسب جميع الناس لإنقاذهم من الشرك والضلالة، حتى مع أعتى أعدائه؛ كونه نبي الرحمة ورسالته رسالةً سماويّةً أمميّةً لا فئويّة قبليّة ضيقة.

ويبدو أن الحكمة من زواج النبي من أم حبيبة والتي عقد عليها وهي في الحبشة ولم يدخل بها إلا بعد فتح خيبر، كان بدافع المواساة بالنفس بعد أن تنّصر زوجها وثبتت هي على إيمانها، ثم مات وأصبحت أرملة، فهي وقعت بين نارين: الغربة والترمل من جهة، وشماتة الأهل المشركين والأعداء من جهة أخرى، فحظيت بهذا الشرف الرفيع وأصبحت أم المؤمنين جزاء هجرتها وصبرها وتحملها وثباتها على عقيدتها، وكذلك فيه تخفيفٌ من غلواء عداوة قومها بني أمية للإسلام ونبي الإسلام[4].

ولعل النبي محمّدﷺ أراد أن يرفع عنها الأسى والحرمان، وكي يزيد من رباطة جأشها بالثبات على العقيدة، ويضع لنا سنةً نبويةً وهي أنّ القائد هو المسؤول عن رعيّته، لتطبيق حديثة الشريف: ((كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، يُسأل الرجل منكم عن زوجته وعن ولده وعن

1-لا يُقْدع: أي لا يضرب لكرامته، ينظر الفارابي، معجم ديوان الأدب، 2/ 212.

2-الدمياطي، شرف الدين، نساء رسول الله (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) وأولاده، 1/ 72؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 2/ 373؛ مثل يضرب للكفء الكريم. والفحل: ذكر الإبل، وكانَ من عادة العرب إذا كان الفحل غير كريم ضربوا أنفه ليبعد عن الناقة، وإذا كان كريماً تركوه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 8/ 261؛ الزبيدي، تاج العروس، 21/ 523.

3- أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، 1/ 72.

4-أحمد، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، 707.

خادمه وعمن استرعى))[1]. فضلاً عن ذلك قد يكون بزواج النبي محمّدﷺ من ابنة أبي سفيان سبباً لهدايته وكسبه إلى الإسلام، وهذا هو هم النبيﷺ، المتمثّل في السعي لهداية قومه إلى الإيمان وترك عبادة الأصنام، وهذا جانبٌ عقائديٌّ أكثر من كونه جانباً سياسيًّا.

8- جويرية بنت الحارث

اعتبر وات زواج النبي محمّدﷺ بجويرية ابنة شيخ قبيلة بني المصطلق التي كانت بينها وبين النبي محمّدﷺ مشاكل خاصة بدافعٍ سياسيٍّ[2].

وجويريّة هي برة بنت الحارث بن أبي ضرار [حبيب] بن الحارث بن عائذ بن مالك بن جذيمة ـ وهو المصطلق ـ بن سعد بن عمرو بن ربيعة، الخزاعية المصطلقية أم المؤمنين، يسكنون عند بئر ماءٍ يقال له المريسع، تزوجها مسافع بن صفوان ذي الشفر ابن سرح بن مالك بن جذيمة فقتل يوم المريسيع[3]، أعتقها رسول اللهﷺ وسماها جويرية[4].

هي واحدة من سبايا بني المصطلق اللاتي وقعت بأيدي المسلمين في غزوة بني المريسيع (5هـ/ 627م)؛ بسبب تعاونهم بقيادة أبوها زعيمهم الحارث بن أبي ضرار مع مشركي قريش في معركة أحد ضد المسلمين[5].

وبنو المصطلق هم بطنٌ من خزاعة، كانوا من أعز العرب داراً وأشرفهم نسباً[6]، والرجل العربي الحر يهون عليه القتل وضياع المال مهما غلا، ولكن يعز عليه الأسر وسبي النساء، وكانت جويرية بنت الحارث من سهم ثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته[7]

1-أبو داود، سنن أبي داود، 4/ 553؛ الجرجاني، المنهاج في شعب الأيمان، 3/ 307.

2-وات، محمّد في المدينة، 439.

3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 48 و 8/ 92؛ بن ماكولا، الإكمال، 2/ 568

4- البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 341؛ البري، الجوهرة في نسب النبي، 2/ 72

5-البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 341؛ البري، الجوهرة في نسب النبي، 2/ 72.

6-السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب، 246.

7-المكاتبة: هي إبرام عقد بين العبد وسيده إذ يلتزم بموجبه الأخير أن يعتق عبده بعد أن يؤدي إليه مبلغاً من المال يتفقان عليه، يحضّ الله على مثل هذا العقد كي يبادر المسلمون بتحرير الرقيق فقال تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...﴾ سورة النور: آية 33؛ ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 238.

على نفسها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: ((يا رسول اللهِ، أنا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرارٍ سيِّد قومه، وقد أَصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن الشماس ـ أَو لابن عم له ـ فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، فقال لها: فهل لك في خيرٍ من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أَقضي كتابتك وأَتزوجك، قالت: نعم يا رسول الله))[1].

فتزوجها رسول الله ﷺ سنة (5هـ/ 626م) بحكمة تكريم هذه المرأة المهمومة، وتحريرها من إسار الرق؛ كرماً منه ﷺ بالحدب على المستضعفات وتطييب قلوبهن بشرف التزوج[2]. ويبدو أن البعد من ذلك الزواج كان اجتماعيًّا.

وحال انتشار الخبر بين الناس بأن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث قالوا: ((أصهار رسول اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم يسترقون، فأعتقوا ما كان في أيديهم مِنْ نساء المصطلق))[3]، ونتج عن هذه الزيجة إعتاق مائة امرأة من أهل بيتها، فما أعظم بركة هذه المرأة على قومها؟! وبفضل هذا التصرف النبوي الحكيم أسلم بنو المصطلق عن طواعية جميعاً، وصاروا أعوانا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم[4]. وهذه هي الحكمة من هذا الزواج الميمون، فهو بعيدٌ كلّ البعد عمّا صورهُ وات، لأن إسلام هؤلاء القوم أسمى من أيّ أهدافٍ أخرى.

9- صفية بنت حييّ بن أخطب

اعتبر وات زواج النبي محمّد ﷺ بصفية أنّه كان بدافعٍ سياسيٍّ فقال: ((وربما كانت هناك أسبابٌ سياسيةٌ لزواجه من اليهودية صفية))[5].

وهي صفية بنت حيي بن أَخطب بن سعيةَ بن عامر بن عبيد بن كعب بن الخزرج، وأمها برة بنت سموال من بني قريظة إخوة النضير، وكانت صفية زوجة سلام بن مشكم القرظي، ثم فارقها فتزوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري فقتل عنها يوم خيبر[6] وهي بنت

1-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 610؛ ابن مندة، المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف، 1/ 397.

2-عبد العزيز، أمير، افتراءات على الإسلام والمسلمين، 77.

3-الكوفي، الغارات، 2/ 817؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 11/ 609؛ ابن الجوزي، المنتظم، 3/220.

4-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 610؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 4/ 182.

5-محمّد في المدينة، 439.

6- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 95؛ ابن قتيبة، المعارف، 138؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 4/ 1871.

زعيم يهود بني النضير الذين أجلاهم النبي محمّد ﷺ من المدينة إلى خيبر[1]، لما فتح المسلمون القموص[2]، وقعت السيدة صفية في السبي وكانت من سهم دحية الكلبي[3]، أشار أحد الصحابة إلى أن النبي محمّد ﷺ أحق بصفية من دحية؛ كونها بنت سيد قومها، ورسول الله ﷺ كرم الأعزاء بعد ذلهم. أرسل النبي محمّد ﷺ إلى صفية وخيّرها بين الإسلام واليهود؟ فإن اختارت الإسلام أمسكها لنفسه! وإن اختارت اليهود يعتقها ويردها إلى أهلها! فدخل الإيمان في قلب صفية واختارت البقاء مع المسلمين والبقاء مع رسول الله ﷺ فتزوجها سنة (7هـ/ 628م)، وروى عنها عبد الله بن عمر وأنس بن مالك، وتوفيت سنة (36هـ/ 65م)[4].

وبهذا الزواج رد لها رسول الله ﷺ شرفها وسيادتها، بعد قتل أبوها وزوجها وكثير من قومها في غزوة خيبر بدافع تطييب خاطرها وتخفيف الحزن عليها، وتعويضها عن المكانة الاجتماعية الرفيعة التي كانت تحظى بها بزواجها من نبي المسلمين[5].

وأراد النبي محمّد ﷺ برابطة المصاهرة من بنت سيد قوم اليهود أن يخفف من عدائهم للإسلام وأن يجذبهم تحت مظلة الإسلام؛ كي يأمن مكرهم وغدرهم. ولربما كان وراء الزواج من بعض النساء سببٌ آخر وهو عدم استفزاز قبائلهن لرفعة مكانتهم، فيتزوجها النبي صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) صاحب المكانة السامقة. فضلاً عن ذلك عبّر النبي ﷺ عن مدى التسامح الذي يحظى به أهل الذمة من قبل نبي المسلمين لتكون هذه سنّة يتبعها خلفاؤه من بعده.

من نافلة القول اتخذ النبي محمّد ﷺ مبدأ التسامح والانفتاح مع الآخرين لكي يوسع قاعدة الإسلام، فمن نبله لا يردّ امرأةً كتابيةً فضّلت الإيمان على الكفر، فهي إمرأةٌ صالحةٌ أحسنت إسلامها فباتت واحدة من أمهات المسلمين.

1-ابن قتيبة، المعارف، 138؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 4/ 1871.

2-القموص: هو من أعظم حصون اليهود لبني الحقيق يقع على جبل القموص في خيبر، فتحة الإمام علي عليه السلام، ينظر البكري، ابو عبيد عبد الله، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، 2/ 522؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4/ 398.

3- دحية الكلبي: هو الصحابي دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، من أجمل أهل زمانه، أحياناً كان يأتي الوحي بصورة دحية، شهد مع النبي محمّد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بدر وجميع المشاهد، بعثه الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بكتاب إلعظيم بصرى ليوصله إلى هرقلَ عظيم الروم، روى عنه عامر الشعبي، وعبد الله بن شداد وخالد بن يزيد بن معاوية، توفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 189؛ ابن مندة، معرفة الصحابة، 549؛ ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، غوامض الأسماء، 2/ 852.

4-ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 97، ابن حبان، الثقات، 3/ 197.

5- أبو زهرة، خاتم النبيين، 3/ 1103؛ مرتضى، مالك، الدعوة وأحوال المسلمين، 170.

10- ميمونة بنت الحارث الهلالية

اِعتبر وات زواج النبي محمّدﷺ من ميمونة كان وفق مبدأ التماس المصالح حيثما تسنح له الفرصة، وأنْ ليس على العباس بن عبد المطلب الشعور بالذنب عن موقفه السابق، ثم قام محمّدﷺ مبادرةٍ ممتازة وذلك بالزواج من ميمونة، أخت زوجة العباس أم الفضل وهذا ما شكل رابطةً قويةً بين الرجلين، وأكمل النبي محمّدﷺ ترتيباته للزواج من ميمونة حينما غادر مكة، حيث احتفل بزواجه وأتمه في طريقه إلى المدينة[1]. وقد ساعد زواج محمّد بميمونة على كسب العباس لجانبه[2]، ومحاولة لاستمالة العباس إلى قضيته وتوطيد ولائه له[3].

ملخص الزواج بعد فتح مكة (8هـ/ 629 م) أدّى النبي محمّدﷺ فريضة العمرة، وفي حينها أصبح العباس بن عبد المطلب زعيم بني هاشم في مكة عقب وفاة أبي لهب سنة (3ه/ 624 م)؛ لذا ربط وات زواج النبي محمّدﷺ بميمونة أخت أم الفضل لبابة الكبرى زوجة العباس بن عبد المطلب، محاولةً لكسب العباس واستمالته إلى الإسلام وتوطيد ولائه لصالح النبي محمّدﷺ.

وهي ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن عبد الله بن هلال، كانت متزوجةً من عمير بن عمرو بن عقدة[4]، وقيل كانت قبله متزوجة من رجلين أبي رهم بن عبد العزّى وقيل حويطب بن عبد العزّى[5].

وهي التي وهبت نفسها للنبي محمّدﷺ، حين خطبها وهي راكبة بعيرها فقالت: ((البعير وما عليه لله ﷻ ورسوله ﷺ))[6]. فنزلت في شأنها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**

1-محمّد النبي ورجل الدولة، 259.

2- وات، محمّد في المدينة، 104.

3-وات، محمّد في المدينة، 90.

4-الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3/ 166؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 4/ 585.

5-ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 646، ابن سعد، الطبقات، 8/ 104.

6-سورة الأحزاب: آية 5؛ ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 3 67.

قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1].

لقد جعلت ميمونة أمرها إلى أختها أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس، فعرضها على النبي محمّدﷺ فقبل، ولما بلغها خطبة النبي محمّدﷺ قالت: ((الجمل وما عليه لرسول الله))[2]، وهي آخر امرأة تزوجها رسول اللهﷺ ممن دخل بهن[3].

عرف عن النبي محمّدﷺ حسن الخلق والأدب الرفيع مع عامة الناس، فكيف يكون مع عمه العباس زعيم بني هاشم!؟ الذي عرض عليه الزواج، لا سيما أنّ في هذا الأمر توثيق الصلة مع العباس وهو من المؤلفة قلوبهم والطلقاء في الإسلام.

إضافةً إلى ذلك فيرتبط بالمصاهرة مع ابن عمه جعفر بن أبي طالب الطيار زوج أسماء بنت عميس أخت ميمونة من أمها، كما كانت أختها من أمها سلمى بنت عميس زوجة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم النبي محمّدﷺ [4].

وهناك سببٌ آخر للزواج، وهو أنّ النبي محمّدﷺ كان يسعى إلى وثيق الصلة مع قبيلةٍ من أشرف القبائل العربية، وهم بنو هلال. ولقد كان لميمونة ثلاث أخوات شقيقات، وأربع أخوات من أمها ولأولادهن منازل عالية في الإسلام، منهم خالد بن الوليد أمه لبابة الصغرى أخت ميمونة، وكان النبي محمّدﷺ يطلق على لبابة الكبرى وميمونة وأسماء وسلمى ((الأخوات المؤمنات))[5]. وذلك يُحسب شرفاً عظيماً لهذه الأسرة التي تشرفت بمصاهرة النبي محمّدﷺ، وأصبحت أختهن ميمونة أم المؤمنين.

من خلال ما تمّ الإشارة إليه أعلاه يتضح أن زوجات النبي محمّدﷺ كنّ في الغالب ثكالى أرامل، أحزنهن فراق الأزواج وبُعد الأهل وشظف العيش، فلم يجدن أنيساً سوى رسول اللهﷺ يلملم جراحهن، ويهديهن للإسلام؛ كي يُصبحن مرشدات للهداية ومعلمات لتعاليم الدين

1-سورة الأحزاب: آية 50؛ ينظر: الماوردي، النكت والعيون، 4/ 414؛ النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن، 2/ 674؛ الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 11/ 236.

2-ابن كثير، السيرة النبوية، 3/ 439؛ ابن حجر العسقلاني، الاصابة 4/ 411.

3-ابن سعد، الطبقات، 8/ 104؛ الطبري، المنتخب من ذيل المذيل، 102.

4-الطحاوي، أبو جعفر أحمد، شرح مشكل الآثار، 12/ 370.

5-الطبراني، المعجم الكبير، 24/ 131؛ الشيباني، الآحاد والمثاني، 5/ 456.

وأصول الفقه النسوي ونشره بين النساء اللواتي يجدن حرجاً في الاستفتاء من رجال الفقه، فضلاً عن ذلك لقد بلغت النسوة المكانة الرفيعة والمرموقة وهن يقتدين بسيد الخلق ونبي الرحمة والإنسانيّة.

وأشكل وات على زوجات النبي محمّدﷺ أنّهنّ من قبائل بدويةٍ أو من مواطن بعيدة، ولم يتزوج من نساء المدينة؛ ومن ثم أجاب على طرحه أن النبي محمّدﷺ أدرك أنه لا يستطيع النجاح في المدينة ما لم يكن حيادياً، وأنّ مثل هذه الزيجات تؤثر على حياده بشكل خطير، وبعد ذلك يناقض وات نفسه ويقول: وكان عدد الزوجات قليلاً بين أهل مكة وأهل المدينة؛ ويعطي السبب الذي يسعى وراء تحقيقه فيقول: ((وربما سبب ذلك الاختلاف القائم بين التنظيم الاجتماعي))[1].

لم يتبع وات منهجيّةً ثابتةً في طرح الحقائق حتى في الصفحة الواحدة من كتبه، فيقول بأن جميع النسوة من قبائل بدوية، ويتداركها بقول عدد الزوجات قليل بين أهل مكة والمدينة، فهو يتجاهل نسبة الزوجات من مكة في حين أنّ خديجة وسودة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وزينب بنت جحش جميعهن من مكة أي (7 من أصل 10) وهذا خلاف ما يدعيه وات، ولعل سبب ادعائه أن جميع النسوة من قبائل بدوية أو مواطن بعيدة بسبب اختلاف التنظيم الاجتماعي، ويريد منها أن النبي محمّدﷺ ليس من أهل المدن ولا يستسيغ العيش مع أهلها، بل فضل البدو لانسجامهم مع فكره، وهم أقل ثقافةً وتحضراً، وهم همج هائمون في البوادي، وهذا الرأي فيه تهجمٌ وتهكمٌ على شخصية النبيﷺ الذي يتعامل مع الناس كلهم بالسوية والعدل والإنصاف.

أما عن عدم الزواج من نساء المدينة فقد أجاد وات بتعليلها لكي يقف على الحياد، وحتى لا يتجدد التنافس بين أهل المدينة من الأوس والخزرج إذا تزوج من أحد منهم.

إن تعدد الزوجات في حياة النبيﷺ لم يكن في فترة عنفوان شبابه بل كان ذا زوجةٍ واحدةٍ حتى الرابعة والخمسين من عمره، ثم أخذ يعدد الزوجات في الفترة ما بين السنة الثالثة للهجرة والثامنة؛ وهي الفترة التي تواصلت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين، وفيها اِختل التوازن العددي بين الذكور والإناث في مجتمع المسلمين بالمدينة، فأصبح

1-محمّد في المدينة، 440.

من الواجب رعاية الأرامل واليتامى الذين فقدوا عائليهم. فالتعدد إذاً واجب اجتماعي على الرجل يقابله واجب على المجتمع نحو الأفراد بتيسير الزواج لمن لا تجدنه كالأرامل والمطلقات[1].

إنَّ إباحة التعدد للزواج ضرورة العدالة الاجتماعية حتى لا تُحرم المرأة من حقها في الاستمتاع بالحياة، ولا يتوقف دورها في رفد الحياة الأسرية بالذرية الصالحة التي تحتاجها الأمة الإسلاميّة في ماضيها وحاضرها لذلك قال النبي محمّدﷺ ((النكاح مِنْ سنتي، فمن لَمْ يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا، فإني مكاثرٌ بكم الأمم))[2].

إنّ تعدد الزوجات أكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة وتقل فيها موارد الرزق، فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن في تحصيل الرزق والأخذ بأسباب العيش. فضلاً عن ذلك صارت مسألة تعدد الزوجات حاجةً ماسةً في مجتمعاتنا اليوم لا سيما ما تتعرض له البلاد العربية من كثرة الحروب وتفشي الأمراض الخطيرة والفتاكة التي تستوجب على المسلمين الإكثار من النسل وإعمار الأرض لذلك قال النبيﷺ: ((النكاح مِنْ سُنتي، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا، فإني مكاثرٌ بكم الأُمم))[3]، وفي حديث آخر حدد لنا اختيار المرأة فقال: ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثرٌ بكم الأمم))[4].

ولقد أجاد وات وأنصف النبي محمّدﷺ بإسقاطه شبهة بعض الروايات الإسلاميّة ذات الطابع الإسرائيلي التي اِتهمت النبيﷺ بالشهوانية وتلقفها بعض المستشرقين بالمزامير. لكن وات وقع في خطأ منهجيٍّ جسيمٍ إذ نحى في تفسيره لتعدّد زوجات النبيﷺ منحًى خاطئاً حيث اِعتبر جميع تلك الزيجات ذات طابعٍ سياسيٍّ محض وهو بذلك خالف الواقع الذي عكس لنا من خلال الاطلاع على النصوص التاريخيّة، وما قدمناه يوضح لنا بشكلٍ واضحٍ بأن الزيجات كانت لعدّة أغراض سامية.

1-الجبري، عبد المتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 155.

2- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، 3/ 54.

3- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، 1/ 592.

4- أبو داود، سنن أبي داود، 3/ 395.

4 المبحث الرابع

حجة الوداع وختام عصر الرسالة

خص الله نبينا محمّدﷺ بمنصب النبوة التشريعية[1]، وختم به الأنبياء والمرسلين، وهذا يدل على انتهاء ظهور الشرائع الجديدة بمجيء الشريعة الإسلاميّة المتكاملة، وعرض الإسلام على أنه دين خالد.

اشتقت النبوة من النبأ وهو الإخبار، وأيضاً هي بمعنى العلو والارتفاع[2].

وقد عُرّفت النبوة بأنّها تشريفٌ وتكليفٌ شاقٌّ ومرموقٌ من قبل الله، ومنزلةٌ كبرى، وفضلٌ عظيمٌ يهبه الله لمن ارتضاهم من عباده[3]، وهو ما ظهر في قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ...**﴾[4]، وفي اختيار الأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿**... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...**﴾[5].

أما النبي فقد عُرّف: ((وهو الذي يكرم اللهُ عز وجل به أَحدًا مِن عبادهِ فيميزهُ عن غيره بإِلقائه إِليه، ويوقفهُ به على شريعته بما فيها من أَمرٍ ونهيٍ ووعظٍ وإِرشادٍ، ووعدٍ ووعيدٍ، فتكون النبوةُ على هذا الخبر والمعرفة بالمخبرات الموصوفة، والنَّبيُّﷺ هو المُخبرُ بها، فإِن انضاف إلى هذا التوقيف أَمرٌ بتبليغه الناس ودعائهم إِليه كان نبياً رَسُولاً، وإِن أُلقي إِليه ليعمل به في خاصته، ولم يؤمر بتبليغه، والدعاء إِليه كان نَبِيًّا، ولم يكن رَسُولاً، فكل رَسُولٍ نبي، وليس كل نبيٍّ رسولاً))[6].

1- النبوة التشريعية: هي أوسع من النبوة المقيدة التي تختص بإخبار عن الحقائق الإلهيّة، أي معرفة ذات الحق تعالى وأسمائه وصفاته وكماله وأحكامه، أما النبوة التشريعية ضم إليه تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق والتعليم بالحكمة والقيام بالسياسة فهو النبوة التشريعية ويختص بالرسالة. ينظر: الموسوي، فاخر، التجلي الأعظم، 81.

2- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 5/ 384؛ ابن منظور، لسان العرب، 1/ 162

3- الجرجاني، المنهاج في شعب الإيمان،1/ 239.

4- سورة مريم: آية 58.

5- سورة الأنعام: آية 124.

6- الجرجاني؛ شعب الإيمان، 1/ 149.

وكذلك يُعرّف بأنّه المخبر من الله ﷻ من غير واسطة أحدٍ من البشر، وإنما الواسطة ملك من الملائكة وهو جبريل، سواءً أُأمر بالتبليغ أم لم يُؤمر[1].

أمّا النبوة عند المستشرقين فلها مفهومٌ آخر على عكس ما تمّ ذكره، فنجدهم مضطربين وغير واضحين، فعند اليهود لا يجد مفهوم النبوة له سنداً في اللغة العبرية، ما أدى إلى الخلط والاضطراب في ظاهرة النبوة وعدم التمييز بين ظواهر أخرى كالكهنوت والعرافة. وكذلك النصارى عندهم عدم الوضوح في تحديد مفهوم النبوة؛ وسبب هذا الاضطراب لأنهم ألبسوا عيسى عليه السلام ثوب الألوهية وخلعوا عنه رداء النبوة[2].

ولهذا ذهب وات باتهام النبي محمّد ﷺ أنهُ كاهن؛ كي يبعد عنهُ منصب الرسول وخاتم الأنبياء فقال: ((في الحقيقة التي مؤداها أن محمّداً ﷺ لم يكن شخصاً مرغوباً فيه في مكة... وأن أهل المدينة قد قبلوا محمداً ككاهنٍ أعلى لمجرد أنهم كانوا راغبين في استتباب سلامٍ داخليٍّ في المدينة، وليس لقبولهم كل تعاليم القرآن))[3].

لم يكن النبي محمّد ﷺ شخصاً غير مرغوبٍ فيه من قبل أهل مكة كما يصوره وات! بل عرف عنه عند خصومه المشركين قبل أتباعه المسلمين بالخُلق الرفيع والمكانة السامية بالحسب والنسب، وهذا ما بينه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[4] فضلاً عن ذلك كانوا يسمونه بالصادق الأمين، ولما عجزوا عن حلّ مشكلة رفع الحجر الأسود تقبلوا أن يكون النبي محمّد ﷺ حكماً[5] وقالوا: ((... هذا الأمين رضينا، هذا محمد...))[6]، هذا دليلٌ على سمو المكانة السامقة للنبي محمّد ﷺ في مجتمع مكة قبل الإسلام فهم سادات العرب وبلغائهم، رضوا بالنبي محمّد حكماً واعترفوا بحلمه وعلمه، إلاّ أن عدم الرغبة في النبي محمّد ﷺ من قبل المشركين راجعةٌ في جوهرها إلى خلافاتٍ عقائدية؛ لنبذه الشرك والدعوة إلى دين الإسلام، ومن أصدق من الله ﷻ قيلاً لما وصفه بأعلى مراتب الخُلقِ العظيم.

1- ابن أبي جمهور، عوالي اللألي، 1/ 92؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، 2/ 139.

2- عبد المحسن، عبد الراضي محمد، المعتقدات الدينية لدى الغرب، 400 - 401.

3- محمّد في مكة، 288 – 289.

4- سورة القلم: آية 4.

5- الفاكهي، أخبار مكة، 5/ 211؛ بحرق، حدائق الأنوار، 119.

6- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 197.

وثمة فرق بين النبوة والكهانة، والنبوة التي أشرنا لها هي أمرٌ إلهيٌّ وخبرٌ خاصٌ يُلزم به الله ﷻ أحداً من عباده فيميزه عن غيره ويخبره عن شريعة فيها أمرٌ ونهيٌ ووعظٌ ووعدٌ ووعيدٌ ويكون النبي في دور المُخبر والمبلغ بشرائع الله، وكلّ رسولٍ نبي والعكس غير صحيح[1]، أما الكهانة فهي من كهن كهانةً فهو كاهن، والأصل هو تكهن الرجل تكهناً[2]، والكاهن يراد به الرجل الذي قضى له بالغيب، فتكون حرفته الكهانة[3]، ويتتبع حركة النجوم التي تساعده على الكهانة[4]. ومثل هذه الفرية عارية عن الصحة كون النبي محمّدﷺ كان معروفاً قبل بعثته بالصادق الأمين، وكان معروفاً من قِبل جمهور العرب، ولم يتهم بالكهانة إلاّ بعد البعثة.

لم تكن الكهانة فريّةً حديثةً بل ترجع جذورها إلى المشركين في بداية الدعوة الإسلاميّة، وجدّد استنساخها وات للنبي محمّدﷺ. لقد استخدمها المشركون لما وجدوا أن النبي محمّدﷺ كان مزوداً بقوةٍ روحيةٍ لا يتمتع بها سائر الناس، وهي القوة التي تبلورت وظهرت بمظهرها الكامل بعد إعلان النبوة ونفذ بها إلى عقول عامة الناس وجعلهم أصحابه عليه السلام وتسلط عليهم[5]. ويبدو أنّ هذه القوة الروحية اعتبرها المشركون كهانة، وألصقوها بالنبيﷺ وهو براء منها.

ولقد عاش النبي محمّدﷺ في مجتمع قبل الإسلام الذي سادت به العرافة والكهانة وكره ذلك لما فيه سخط من الله، وإضافةً إلى ذلك فقد حرّم رسول اللهﷺ الإتيان إلى الكهنة والتصديق بقولهم بل قرنه بالكفر فقال: ((من أَتى كاهنًا، فصدقهُ بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمّد))[6].

ولما تفوه المشركون بالكذب على النبي محمّدﷺ بتهمة الكهانة رد عليهم الله بقوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ**﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿**وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ**

1- الجرجاني، المنهاج في شعب الإيمان، 1/ 239.

2- ابن دريد، جمهرة اللغة، 2/ 985.

3- ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 4/ 143.

4- الزمخشري، اساس البلاغة، 2/ 149.

5- بيهم، محمّد جميل، فلسفة تاريخ محمد، 192 – 193.

6- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، 1/ 406.

7- سورة الطور: آية 29.

قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾[1]. فما كان النبي محمّدﷺ إلا بشيراً ونذيراً، وما كان الوحي إلاَّ ذكراً للعالمين. فأين هو من الكهانة؟ التي يتصورها وات وأبطلها القرآن قبل أربعة عشر قرناً. كذلك فإن الكهانة هي تنبؤٌ بالغيب وادعاءٌ بمعرفة المستقبل والتحكم بمصائر الناس وأحوالهم وأرزاقهم. والقرآن الكريم نفى ذلك عن النبي محمّدﷺ فقال: ﴿**... وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...**﴾[2].

وعن احتضار رسول اللهﷺ والأحداث التي سبقت وفاته، فقد تأثر وات برأي بعض المصادر الإسلاميّة التي ظلمتهُ في تركه الأمة الإسلاميّة التي بذل جهوداً جبارة لتأسيسها، وقدم كوكبةً من الشهداء لديمومتها من بعده بدون أن يوصي بمصير الدولة الإسلاميّة، فقال: ((لم يحضر محمّد قبل موته أي تحضيرات للاستمرار في إدارة أمور الدولة الإسلاميّة، ما عدا تعيينه أبا بكر لقيادة المسلمين في الصلوات))[3].

إنّ مثل هذه الافتراءات على النبي محمّدﷺ، تبدو استنقاصاً لجهود النبي محمّدﷺ في استكماله تأسيس الدولة، فيُستبعد من نبي بكامل قواه العقلية أن يترك الأمة من بعده بدون أن يوصي بمن يخلفه من بعده، ومن الثابت في السيرة النبوية أنّه يخلف من ينوب عنه لبضعة أيام على المدينة حال خروجه للمغازي! إذاً، ما بالك في سفرهِ الطويل إلى جوار ربه، وغيابه عن الأمة نهائياً وانقطاع الوحي، ألا يوصي من ينوب عنه؟

ولو أجهد وات نفسه قليلاً وراجع مصدراً يتحدّث عن بيعة الغدير التي بُرمت في نهاية حجة الوداع ـ التي مرّ بها وتجاهل ذكر أهم أحداثها في البيعة ـ لما وقع في هذه الشبهة.

فبعد اتمام المسلمين حجة الوداع وتفرقهم، بعث النبي محمّدﷺ لتجمعهم في غدير خُم[4]، فأخبرهم أن جبرائيلعليه السلام أمره أن يفسر فريضة الولاية ويقيم علياً إماماً بعده للناس

1- سورة الحاقة: آية 42.

2- سورة الأعراف: آية 188. ينظر: الباقلاني، الانتصار للقرآن، 2/ 751.

3-محمّد النبي ورجل الدولة، 296.

4- غدير خُم: هي منطقة تسمى الخرّار تقع بعد ثلاث أميال عن الجحفة، وهي على الجهة اليسرى للطريق الرابط بين مكة والمدينة، وسميت خم لنقائها، خصبة تكثر فيها عيون الماء وحولها أشجار كثيرة، وهي ميقات أهل مصر والشام إنْ لم يمروا على المدينة، وفيها بئر ماء حفره عبد شمس فقال بحقه: (حفرت خمّا وحفرت زمّا حتى ترى المجد لنا قد تما). ينظر: البكري، عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، 2/ 386 و 2/ 510؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2/ 111 و2/ 389.

فقال لهم: ((إن الله ﷻ بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً، وخفت الناس أن يكذبوني، فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني: أمتي حديثوا عهد بالجاهليّة ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي، يقول قائل ويقول قائل! فأتتني عزيمة من الله بتلة (قاطعة) في هذا المكان وتوعدني إن لم أبلغها ليعذبني! وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة من الناس وهو الكافي، فأوحى إلي))[1] وتلى عليهم قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[2].

وبعد أن خطب بالناس قالﷺ يا أيها الناس: ألستم تعلمون أن الله ﷻ مولاي وأنا مولى المؤمنين وأني أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: قم يا علي عليه السلام، فقام علي عليه السلام عن يمين النبيﷺ فأخذ بيده ورفعها حتى بان بياض إبطهما، وقال: ((من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه، وعادي من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار))[3]. وتلبية لطاعة النبيﷺ سارع الصحابة بالبيعة وأولهم عُمَرُ بن الخطاب قال: ((بَخ بَخ[4] لك يا بن أَبي طالب، أَصبحت مولاي ومولى كل مُؤمن))[5]. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىَ: ﴿... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلام دِينًا...**﴾[6]. إكمال الدين وتمام النعمة هي آخر فريضة أنزلها الله بعد حجة الوداع في غدير خم وتمثّلت في إتمام الرسالة بتنصيب الإمام علي عليه السلام بالولاية[7]، وبهذه البيعة بالولاية يكون الإمام علي عليه السلام قد نصّبه الله ورسولهﷺ في خلافة الدولة الإسلاميّة من بعد النبي محمّدﷺ إلا أن التجاذبات السياسية والقبلية غيرت ذلك، ما جعل بالإمام علي عليه السلام يدفع عجلة الدولة بالسير إلى الأمام بتنازله عن حقه في الخلافة، حفاضاً على الإسلام الطري، وحقناً لدماء المسلمين.

1- القاضي النعمان، شرح الأخبار، 2/ 275 – 276؛ الأميني، الغدير، 1/ 221؛ الكوراني، آيات الغدير، 294.

2-سورة المائدة: آية 67؛ ينظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، 3/ 278 – 279؛ السيوطي، لباب النقول، 82.

3-ابن حنبل، مسند أحمد، 2/ 18؛ ابن ماجه، سنن ابن ماجة، 1/ 84؛ الكحلاني، محمّد بن إسماعيل، التنوير شرح الجامع الصغير، 7/ 332؛ الكوراني، السيرة النبوية في رواية أهل البيت، 253 – 256.

4- بخ بخ: كلمة تقال عند التعجب بالشيء، ويراد بها الفخر والرضا بالشيء العظيم. ينظر: ابن السكيت، الكنز اللغويّ فِي اللسن العربي، 32؛ ابن دريد، جمهرة اللغة، 1/ 65؛ الفارابي، معجم ديوان الأدب، 3/ 3.

5-ابن المغازلي، مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، 46/ 24؛ الشجري، ترتيب الأمالي الخميسية،1/ 192.

6-سورة المائدة: آية 3.

7- الطبرسي، مجمع البيان، 3/ 200.

انتهاء مهام النبوة يعني انقطاع العلاقة بين الله ﷻ والناس جميعاً بتوقف نزول الوحي لاكتمال التشريع؛ كون النبي يعتبر حلقة الوصل بين الخالق ﷻ والمخلوق. لكن وات لم يسلط الضوء على هذه المرحلة المهمة في حياة النبي محمّد ﷺ خصوصاً والمسلمين عموماً، ويكتفي بذكر حجة الوداع كحدثٍ عابر، ولم يناقش بيعة الغدير الذي يعدّ يومه من أعياد الله ﷻ، ويكتفي بذكر وفاة النبي محمّد ﷺ بدون أن يوصي بمصير الدولة الإسلاميّة الفتية، ويشير إلى إمامة أبي بكر بالصلاة فقط.

ولعل هذا التحاشي وعدم التطرق للموضوعات المفصلية في السيرة النبوية، يرجع لعدم توفر المصادر المهمة عند وات التي تناولت في صفحاتها هذه القضايا، وهذا سببٌ ضعيفٌ كون وات مؤرخاً ضليعاً في التاريخ والسيرة والعقائد الإسلامية، ويجيد التحدث باللغة العربية الفصيحة. بل إن وات في حقده على النبوة لا يريد أن تستمر بالوصاية الإلهية للإمام علي عليه السلام ومن بعده أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وللباحث رأي آخر، مفاده أن وات كان لديه موقفٌ سلبيٌّ من ولاية أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام فقد ذكر أنَّ النبي ﷺ لم يوصِ من بعده بالحكم للإمام علي عليه السلام لسبب يفترضه وات فيقول: ((كان محمد ﷺ مولعاً بحب ابن عمه الأصغر علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي كان لبعض الوقت فرداً من أفراد بيته، إلا أن محمداً ﷺ قد أدرك بدون شك أن علياً عليه السلام لم يكن مؤهلاً لأن يغدو رجل دولة ناجحاً))[1].

ومثل هذه الشبهة عارية عن الصحة، فهي من أراء وات حيث لم يعززها بمصادر إسلامية. فعلى الصعيد العسكري فقد عُرف الإمام علي عليه السلام بشجاعة فائقة في القتال الفردي وخوض الحروب، التي توحي بقوة القلب ورباطة الجأش ولياقةً الحركة مع إتقان فنون القتال وأساليب الحرب، وفي هذا المقام نعطي شاهداً واحداً كي نبين اعتماد النبي محمّد ﷺ على شجاعة الإمام علي عليه السلام بتثبيت الدين الإسلامي ومحاربة أعداء الله ﷻ، متمثلاً في معركة خيبر سنة (7هـ/ 628م) لما تقاربت الخنادق وبلغت القلوب الحناجر قال رسول الله ﷺ: ((لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله))[2]، فجيء بالإمام علي عليه السلام وهو أرمد العينين فمسح رسول الله ﷺ بريقه عيني الإمام عليه السلام فبرئ ثم

1- محمّد في المدينة، 491 و محمّد النبي ورجل الدولة، 300.

2- ابن المغازلي، مناقب علي بن ابي طالب عليه السلام، 149.

أعطاه الراية[1]. وبعد أن خرج من معسكر الأعداء مرحب اليهودي وهو فارسٌ شجاعٌ خاض غمار الحرب وارتجز يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب

شاكي السلاح بطل محرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

خرج لهُ الإمام علي عليه السلام وارتجز يقول:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة

كليث غاب كريه المنظرة،

أكيلكم بالسيف كيف السندرة[1].

فضربه الإمام ضربةً ففلق رأسه وكان نصر المسلمين وفتح خيبر على يديه[2].

وحديث الراية للنبي محمّد ﷺ يبين أن الله جلّ جلاله ورسوله ﷺ يحبان الإمام علي عليه السلام والله يبادرهم الحب، وهي أعلى المراتب التي وصل إليها النبي محمّد حبيب الله، وأشرك معه ابن عمه الإمام علي عليه السلام فهو أهلاً لتحمل المسؤولية، ومعزز بحب الله ورسوله ﷺ.

ولقد حضي الإمام علي عليه السلام بمكانةٍ ساميةٍ في قلب النبي محمّد ﷺ فاستخلفهُ على ما كان عنده من ودائع لما هاجر من مكة إلى المدينة[3]، وعندما آخى بين الأنصار والمهاجرين، ارتبط معه بأخوة الإيمان[4].

أما عن الجانب الإداري عند الإمام علي عليه السلام الذي يشكك به وات، فيذكر أنّ النبي محمّد ﷺ لما خرج إلى غزوة تبوك، خلف الإمام علي عليه السلام ينوب عنه في إدارة المدينة، ويقول المنافقون ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه، ولِكمّ أفواه المنافقين أخذ الإمام علي عليه السلام سيفه وخرج للحاق بالنبي محمّد ﷺ، ولما لحق بجيشهم قال: ((يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك

1- الكوفي، محمّد بن سليمان، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، 2/ 500.

2- الكوفي، محمّد بن سليمان، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، 2/ 500.

3- ابن البراج، المهذب، 1/ 422.

4- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 505؛ السهيلي، الروض الانف، 4/ 296.

استثقلتني وتخففت مني!. قال له ﷺ كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي عليه السلام أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))[1]. ولحديث المنزلة تصريحٌ على الحب وشدّ الأزر به والمعاضدة، إضافةً إلى ذلك ينطوي عليها بعدٌ إداريٌّ يبين الخلافة في قومه، واختار رسول الله ﷺ هذا الوصف بالمنزلة من قوله تعالى: ﴿... **وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي...**﴾[2].

وفي هذه الغزوة خَيرُ من خلف رسول الله ﷺ لينوب عنه في إدارة المدينة هو الإمام علي عليه السلام، وخلفه على أهله ويراد بها جميع الناس لأنّ الرسول ﷺ أبٌ روحيٌّ لهذه الأمة، وفي ذلك حديث نبوي شريف قال: ((يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة))[3].

وبعد فتح رسول الله ﷺ مكة سنة (8هـ/ 629 م)، وانتصر على القبائل المحيطة حولها في حُنين، كان من الطبيعي أن يوسع دولته إلى أطراف الجزيرة العربية، فأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليدعوهم إلى الإسلام وعززه بإرسال خالد بن الوليد الذي مكث في اليمن ستة أشهر وأخفق بمهامه. فانتدب رسول الله ﷺ الإمام علي عليه السلام وعقد له لواءً وقال له: ((امضِ ولا تلتفت، فإذا نزلتَ بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك))، تصدت قبيلة مذحج[4] لدخول طلائع المسلمين، فقاتلهم الإمام فأعلنوا إسلامهم طائعين[5]، أما همدان[6] فدخلها وبعد أن فرغ من صلاة الصبح جمع الناس صفاً وخطب بهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت جميعها بدون قتال، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ الذي غمر قلبه بانتشار الإسلام وخر ساجداً لله جل جلاله وقال: ((السلام على هَمْدان، السلام على هَمْدان!))[7].

1-الكلاعي، الاكتفاء، 379.

2- سورة الأعراف: آية 142.

3- الصدوق، علل الشرائع، 1/ 127؛ الفيض الكاشاني، الوافي، 10/ 363.

4- قبيلة مذحج: قبيلة من اليمن السبئيون، وهم كل من طيء ومالك ابنا أدد بن زيد، أمهم دلة لقبت بمذحج وعرفوا بنسب مذحج من أمهم. ينظر: المبرد، محمّد بن يزيد، نسب عدنان وقحطان، 18 – 19؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، 1/ 397.

5- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 169.

6- همدان: من قبائل اليمن تنتسب إلى همدان بن مالك بن زيد بن اوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهم بطن عظيم في اليمن والشام، ينظر: الكلبي، نسب ومعد واليمن الكبير، 1/ 123 و 2/ 532.

7- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3/ 131؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، 2/ 196.

أما عن منصب القضاء فكان للإمام علي عليه السلام نصيبٌ وافرٌ زمن الرسول ﷺ إذ فوضه القضاء في اليمن، ودعا له النبي ﷺ بالثبات في القضاء[1] وقال: ((اللهم ثبت لسانه واهد قلبه))[2]، وهناك شهادةٌ من رسول الله ﷺ أشاد بها على بلوغ الإمام علي عليه السلام أعلى مراتب القضاء فقال ((أقضاكم علي عليه السلام))[3]. والقضاء هو الفقه، لذا يشير الحديث إلى تفقه الإمام علي عليه السلام بأمور الدين والدنيا، وبصيرة بأحكام القرآن. ويعد القضاء من أولى المناصب في الدولة الإسلاميّة لأن قاضي الأرض لا يسخط قاضي السماء.

أما في زمن الخلافة الراشدية فقد كان الإمام علي عليه السلام المستشار والناصح لجميع الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، وبالأخص في زمن خلافة عمر بن الخطاب الذي قال بحق الإمام: ((لولا علي لهلك عمر))[4]، وفي السياق نفسه قال: ((علي أقضانا))[5]. وقول الخليفة بحق مستشارِه القضائي، يدل على العدالة التي كان يتحراها الخليفة عمر بن الخطاب، وتبين قوة رابطة الأخوة بين أصحاب رسول الله ﷺ، فما أبعدنا نحن المسلمون في هذه الأيام عن هذه الرابطة.

وعندما سئِل الصحابي عبد الله بن مسعود (ت36ه/ 656م) عن أشهر القضاة قال: ((أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب))[6].

هذا فيضٌ من غيضٍ من الحقائق التاريخية التي قدمناها، لكن وات تجاهلها وأسدل عليها الستار لكي يضربَ المسلمين بشبهته.

وعن وفاة النبي محمّد ﷺ يكتفي وات بتحديد الوقت فيقول: ((وفاة النبي محمّد ﷺ يوم الإثنين 8 يوليو [حزيران] سنة 632م في حجرة السيدة عائشة))[7]. وفي التقويم الهجري الموافق 12 ربيع الأول 11ه، أما ولادته يوم الإثنين 20 أبريل [نيسان] 571م الموافق 12 ربيع

1- وكيع، أخبار القضاة، 1/ 84 – 85.

2- ابن حنبل، مسند احمد، 1/ 111؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 3/ 135.

3- ابن شاذان، الفضل، الإيضاح، 192؛ الطبري الشيعي، دلائل الإمامة، 236؛ ابن الملقن، البدر المنير، 7/ 191؛ أبو الفداء، كشف الخفاء، 1/ 183.

4- ابن طاووس، الأمان من أخطار الأسفار والأزمان، 69؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 21/ 179.

5- وكيع، أخبار القضاة، 1/ 89.

6- وكيع، أخبار القضاة، 1/ 89.

7- محمّد النبي ورجل الدولة، 296.

الأول، وهو ابن ثلاث وستين سنة[1]. وتجلت عظمة الله وقدرته أنّ يتوفى النبي محمّد ﷺ وهو في سن الكهولة التي فيها الأبدان الصحيحة والأمزجة المعتدلة، ولو أراد الله أن يمدّ بعمره ما شاء فسوف يدخل في سنّ الشيخوخة التي يظهر فيها الخرف ونقصان الرأي، وهذا لا يليق بمقام النبي محمّد ﷺ إذ توفي في كامل قواه العقلية والبدنية[2].

وفي الأيام الأخيرة من حياة النبي محمّد ﷺ وهو مسجّى يحتضر ساد الحزن في قلوب المسلمين، وخيم الظلام على أجواء المدينة فتخوف رسول الله ﷺ على مصير الأمة الإسلاميّة من بعده فعهد عهده بوصية التمسك بالقرآن الكريم والاعتصام به فهو معجزة الله ﷻ الخالدة، والبرهان على صدق ما جاء به النبي محمّد ﷺ، ولكي لا يختلط عليهم فهمه قال: ((يا أيها الناس إنيّ تارك فيكم أمرين إن أخذتم بهما لن تظلوا بعدي أبداً، وأحدهما أفضل من الآخر: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض، وأهل بيتي عترتي، ألا وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض))[3]، وفي اختلاف بسيط في نص الحديث قال: ((وإني تارك فيكم الثقلين، أولهما كتاب اللهِ عز وجل فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب اللهِ تعالى، واستمسكوا به فحث على كتاب اللهِ، ورغب فيه. قال: وأهل بيتي، أذكركم اللهَ في أهل بيتي، أذكركم اللهَ في أهل بيتي، أذكركم اللهَ في أهل بيتي))[4] وفي اختلاف بسيط في الحديث قال: ((الله سائلكم عن اثنتين: عن القرآن، وعن عترتي))[5].

بدأ النبي ﷺ حديثه «يا أيها الناس» واضح أنَّ الخطاب موجه إلى مجموعةٍ كبيرةٍ وحشد غفير من المسلمين، وهو موجهٌ لكلّ المسلمين على مدى العصور إلى يوم قيام الساعة لا على الصحابة الأوائل فقط. أما الوصية فكانت باثنين: الأول كتاب الله والثاني أهل بيت الرسالة، وهم القرآن الناطق، وهم في منصب الإمامة التي تمثل امتداداً للنبوة. هذا أهم ما أوصى به رسول الله ﷺ إلاَّ أن وات يتجاهلها لكي يصور للقارئ أنَّ فراق النبي ﷺ حدثٌ عابرٌ، ولم يكن منشغلاً بمصير الأمة الإسلاميّة والدولة التي أسسها.

1- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 158؛ السهيلي، الروض الأنف، 2/ 93؛ الصالحي، سبل الهدى والرشاد، 6.

2- ابن النفيس، الرسالة الكاملية في سيرة النبي، 184.

3- ابن إدريس الحلي، إكمال النقصان من تفسير منتخب البيان (موسوعة ابن إدريس الحلي)، 7.

4- ابن أبي شيبة، مسند ابن أبي شيبة، 1/ 351؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 32/ 11؛ ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، 2/ 1133.

5- ابن أبي عاصم، السنة، 2/ 627؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 3/ 118.

ومن كرامات النبي محمّدﷺ المكاشفة قبل وفاته ونطق وصيته فقال: ((ابيضت وجوه واسودت وجوه، وسعد أقوام وشقي آخرون، سعد أصحاب الكساء الخمسة، وأنا سيدهم ولا فخر، عترتي عترة أهل بيتي السابقون أولئك المقربون، سعد من تبعهم وشايعهم، على ديني ودين آبائي...))[1]. هذا الحديث يبين انتهاء مهام النبوة بانقطاع الوحي بعد وفاة رسول اللهﷺ، ويوصي المسلمين ويحثهم على التمسك بأهل العترة الطاهرة، ومشايعتهم لتبليغ رسالة الدين الإسلامي ونشر التوحيد. ومن المؤكد بعد وفاة النبيﷺ لا بد من القيام بتبليغ رسالته وهنا يبدأ دور الإمامة في الأمة الإسلامية.

وتتضح لنا صورة الحزن على فراق رسول اللهﷺ بقول السيدة فاطمة الزهراءعليها السلام[2] :

اغبر آفاق السماء وكورت	**شمس النهار وأظلم العصران**
فالأرض من بعد النبي كئيبة	**أسفا عليه كثيرة الرجفان**
فليبكه شرق البلاد وغربها	**ولتبكه مضر وكل يمان**
وليبكه الطود المعظم جوه	**والبيت ذو الأستار والأركان**
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه	**صلى عليك منزل الفرقان**

وفي ليلة دفن جثمان النبي محمّدﷺ خيم الحزن في بيت فاطمةعليها السلام ونصب الإمام عليعليه السلام العزاء فجاء آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال: ((السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللَّهِ إن في اللَّهِ عزاءً مِنْ كل مصيبة، وخلفاً مِنْ كل هالك، ودركاً مِنْ كلّ ما فات، فَبِاللَّهِ فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم مَنْ حرم الثواب، والمصاب مَنْ حرم الثواب، والسلام عليكم. فقال [الإمام عليعليه السلام]: هل تدرون مَنْ هذا؟ هذا الخضر صلوات اللَّه عليه وعلى جميع الأنبياء والأولياء))[3]. هذا يبين لنا أنّ بفقد الرسولﷺ لم يفجع به أهل الأرض وينصبون له العزاء فحسب بل نُصِب له العزاء في السماء وجاء المعزي الخضر، وكل هذا التعظيم ويغض النظر عنه وات.

أما عن حجة الوداع في سنة (11ه/ 632م) فقد اِعتبرها وات طقساً إسلامياً خالصاً وبأنها الشكل التأسيسي لطقوس الحج بعده[4].

1- البرسي، الحافظ رجب، مشارق أنوار اليقين، 113.

2- القيرواني، زهرة الآداب وثمر الألباب، 1/ 70؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، 2/ 434.

3- أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 7/ 268؛ البغوي، الأنوار في شمائل النبي المختار، 762؛ الصالحي، سبل الهداية والرشاد، 12/ 340.

4-محمّد النبي ورجل الدولة، 295.

وهذه الحجة آخر حجة أداها النبي محمّدﷺ مع أصحابه في أجواءٍ إيمانيّة، تميزها عدم حضور المشركين في الحج مع المسلمين، فكان طقسٌ إسلاميٌّ خالصٌ. وأخذ المسلمون مناسك الحج مباشرة من النبي محمّدﷺ قال: ((خذوا عني مناسك حجكم))[1]. هذا هدف عام. وهناك أهدافٌ خاصةٌ منها:

1 - أن يفهم هرقل والفرس رسالة بأن العرب قد اختاروا دينهم واتحدوا، وصاروا قوة مهابة[2].

2 – إضافة أسلوبٍ علميٍّ إلى طقوسها الدينيّة لقيام الأمة الإسلاميّة على أكتاف النبي محمدﷺ وأصحابه، وحمّل من بعده مسؤولية نشر الدين إلى جميع الناس في أصقاع الأرض.

اِعتبر وات طقوس الحج ممارسات وثنيةً استطاع الإسلام دمجها وإعطائها بعداً وأهمية، وأن فكرة التوحيد والاعتقاد ب «لا إله إلا الله» دمرت الأصنام بشدة وحوفظ من بعض الطقوس القديمة رمي الجمرات أثناء الحج[3].

لم يكن الحج من طقوس عبادة الوثنيين وممارساتهم الدينية، بل ترجع جذوره إلى زمن نبي الله إبراهيمعليه السلام، عندما قام ببناء الكعبة الشريفة ورفع قواعد البيت الحرام كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[4]. ثم أمر الله ﷻ النبي إبراهيمعليه السلام بتبليغ الشريعة والايذان للناس بالحج وتعليمهم طقوسها العبادية فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[5]، وفرض الله الحج على من استطاع إليه سبيلا من عباده وجعله من فروعٍ العبادة في الدين الإسلامي في قوله تعالى: ﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...**﴾[6]،

1-الشافعي، مسند الشافعي، 1/ 350. وللمزيد من معرفة أهداف حجة الوداع ينظر، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد،2/ 101 – 324.

2-الكوراني، السيرة النبوية برواية أهل البيت، 211.

3- محمّد النبي ورجل الدولة، 295.

4- سورة البقرة: آية 127.

5- سورة الحج: آيتان 26 – 27.

6- سورة البقرة: آية 196.

وكذلـك حـددت فريضـة الحـج في مواقيـت معلومـة بشـهر ذي الحجـة فقـال تعـالى: ﴿**الْحَـجُّ أَشْـهُرٌ مَعْلُومَـاتٌ...**﴾[1].

كل هذه التشريعات سماوية، مصدرها من الله عن طريق النبي إبراهيم عليه السلام ولم تكن من قبل المشركين. فلما جاء الإسلام أقرّ هذه العبادة وتلك المشاعر والمواقف وجعل لها أحكاماً خاصة وشدّد النكير على من تركها بغير عذر يعذره الله جل جلاله به.

أما عن شعيرة رمي الجمرات [رمي الشياطين] التي شكك بها وات ويعتبرها من بقايا الممارسات الوثنية. والرمي من واجبات الحجّ، فإنّه يجب يوم النحر رمي جمرة العقبة فقط وفي اليوم الحادي عشر والثاني عشر من أيّام التشريق يجب رمي الجمرات الثلاثة كلّها[2]. فهنالك حِكمَةٌ من الرَّمي. عن الإمام عليّ عليه السلام قال: ((إن الجمار إنما رميت لأن جبرائيل عليه السلام حين أرى إبراهيم عليه السلام المشاعر برز لهُ إبليس، فأمرهُ جبرائيل أن يرميه، فرماهُ بسبع حصيات، فدخل عند الجمرة الأولى تحت الأرض، فأمسك. ثم برز لهُ عند الثانية فرماهُ بسبع حصيات أخر، فدخل تحت الأرض في موضع الثانية. ثُم برز لهُ في موضع الثالِثة فرماهُ بسبع حصيات، فدخل في موضعها))[3]. إذاً، هي من وحي جبرائيل عليه السلام ومن ملة النبي إبراهيم عليه السلام التي جدّدت بشريعة النبي محمّد صلى الله عليه وآله بعد أن طرأ على الحج تغيرّاً من قبل المشركين في عصر الجاهلية.

1- سور البقرة آية: 197.

2- الطوسي، النهاية في مجرد الفقه والفتاوي، 276؛ ابن إدريس الحلي، السرائر، 1/ 591 ؛ الإمام الخميني، تحرير الوسيلة، 1/ 455.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، 14/ 264؛ المجلسي، بحار الأنوار، 12/ 102؛ القحطاني، سعيد علي، مناسك الحج والعمرة، 230.

5 المبحث الخامس

الصفات الخَلقيّة والخُلقيّة للنبي محمّد ﷺ

تناولت المصادر الإسلاميّة صفاة خلق وأخلاق النبي محمّدﷺ، فأخذ وات منها ما ينسجم مع رغبته فقال: ((إن الروايات التي وصلتنا عن خَلق محمّدﷺ تتفق عموماً وهي قريبة من الحقيقة وإن كان بعضها يعبر عن نزعة لرسم صورة لمحمد الرجل الكامل أو المثالي، فمحمدﷺ كان متوسط القامة أو فوق المتوسط بقليل، عريض المنكبين واسع الصدر قوي البنية على العموم. وكان طويل الذراعين ضخم اليدين والرجلين. وكان مرتفع الجبين أقنى الأنف، له عينان واسعتان سوداوان، وكان شعره طويلا كثاً سبطاً أو جعداً، وكان كث اللحية أيضاً وكان خطٌّ من الشعر الخفيف يحيط بعنقه وصدره، وكان ناحل الخدين، واسع الفم، حلو الابتسامة، شاحب اللون، ويمشي يسرع من منحدر حتى ليصعب اللحاق به، وكان إذا غير اتجاهه يدور بكل جسمه في الاتجاه الذي يسير فيه))[1]. أما عن صفات خُلق النبي محمّدﷺ قال وات: ((وكان محمّدﷺ ميالاً للكآبة، يستطيع البقاء وقتاً طويلاً لا ينبس ببنت شفة إذا استغرق في تأملاته، وكان لا يستريح قط دائم المشاغل بطرقٍ مختلفةٍ، ولم يكن يتفوه بكلمات لا طائل منها: وكان ما يقوله دقيقاً واضحاً سهل الفهمٍ خالياً من البلاغة. وكان كلامه دائماً سريعاً، يعرف كيف يسيطر على عواطفه، وإذا رأى معارضة ما أدار وجهه للناحية الأخرى فإذا رضا غض بصره. وكان يعرف كيف يقسم وقته بدقة بين مشاغله الكثيرة، وكان يُظهر في علاقاته مع أقرانه كثيراً من اللباقة. وكان يستطيع أن يكون قاسياً في بعض الأحيان، ولكنه كان على العموم لطيفاً، وكان ضحكه في معظم الأحيان ابتسامة))[2]. لقد أشار وات إلى مورده الذي أخذ منه صفات خَلق وخُلق النبي محمّدﷺ[3]. وفي واقع الأمر أنّ هذه الملامح ضروريةٌ لإتمام الصورة التي وصفها وات، لكنه استبدل لون البشرة البيضاء المشربة بالحمرة بوصفه كان شاحب اللون، وكذلك ألصق شبهته بأن النبيﷺ كان ميالاً للكآبة. وقد تغافل وات أو

1- محمّد في المدينة، 489.

2-محمّد في المدينة، 489 - 490.

3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 385.

تجاهل ما أثنى به الله ﷻ في القرآن الكريم عن أخلاق النبيﷺ، وما فاضت به كتب الحديث والتاريخ والسيرة من حسن أخلاق وطيب معشرهِ ولطف تعامله وجمال سيرته وكمال خصاله، وكان لعمه ومربيه أبو طالب أبيات من الشعر وصف بها ابن أخيه النبي محمّد ﷺ يقول:

وأبيـض يستسـقى الغـمام بوجهـه ثمـال اليتامـى عصمـة للأرامـل[2]

وأفضل من ذلك الوصف ما قاله الإمام علي عليه السلام عندما كان في مسجد الكوفة إذ سأله رجل من الأنصار فَقَالَ: ((انعت لي نعت رسول اللهﷺ، فقال لهُ عَلِيٌّ: كان رَسُولُ الله أَبيض اللّون مشربًا حمرةً،...))[1]. وفي رواية أخرى باختلاف بسيط قال: ((كان رَسُولُ الله ﷺ... أَزْهَرَ اللون))[2].

حتى حار الشعراء في وصفه. فقد قال حسان بن ثابت[3]:

وأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ
خلقتَ مبرأً منْ كلّ عيب كأنكَ قدْ خلقتَ كما تشاءُ

وكذلك في قصيدة شعرية يمتدح فيها النبي محمّد فقال[4]:

نَبيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ منَ الرسلِ، والأوثـانِ في الأرضِ تعبدُ
فَأَمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنيراً وَهَادِياً يَلُوحُ كما لاحَ الصّقِيلُ المُهَنَّدُ

وكذلك قال الصحابي الجليل الشاعر عبد الله بن رواحة[5]:

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كانت بداهته تنبيك بالخبر

هذا ما وصف به لون بشرة النبي محمّدﷺ، ولم نقف على رواية تقول بأن لون البشرة كان شاحباً، كما ادعى وات، لعله يريد بها إخفاء جمال النبي محمّدﷺ وشمائل النبوة، كون

1-ابن سعد، الطبقات، 1/ 410؛ الطبري، تاريخ، 3/ 179؛ ابن كثير، البداية والنهاية 6/ 21.

2-ابن سعد الطبقات، 1/315.

3- ديوان حسان بن ثابت، 2.

4- ابن ثابت، ديوان حسان بن ثابت،42.

5- الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 37؛ الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، 5/ 98.

اللون الشاحب يرمز عادةً إلى حالة السقم والعلل التي يبتلى بها الإنسان، وهذا مدخلاً للطعن في أقواله وأفعاله.

ومن الصفات والشمائل للنبي محمّد ﷺ المشي مسرعاً، وإذا التفت يدير بكل جسمه وعدّها وات عيباً دون أن يُفسر هذه الصفات أو يعطي لها أي تعليل، ومن ثم يفتري على شخص النبي محمّد ﷺ بشبهة الكآبة، التي لم نجد لها صحة في الروايات الإسلاميّة التي تحدثت عن شمائل النبوة. لعلّه استشف ذلك من الروايات في القرآن الكريم على لسان لقمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ...﴾[1] ويراد بها أن لا يكون المشي دبيب المتماوتين ولا وثيب الشطار، أي لا يكون تخيلاً ولا سراعاً[2]، فالمشي سراعاً ليس من صفات النبي محمّد ﷺ فهو خُلقه القرآن فكان مشيه بقوة واعتدال.

وأفضل من وصف مشيه كان مشياً قوياً يسرع فيه إسراعاً لا يذهب الوقار بل كان قوياً يرفع رجليه من الأرض رفعاً بائناً، فكان يمشي على هوان أي يقطع ما يقطع بالجهد بغير جهد، لا كمن يمشي اختبالاً ويقارب الخطوات فإن ذلك من مشي النساء، فلم يكن متماوتاً ولا مهرولاً مضطرباً[3]. إلاَّ أن صفات المشي مسرعاً ترجع إلى علو الهمة وعزمه في المشي للجدية في عمله اليومي، وتمتعه بالصحة الجسدية العالية وهي من نعم الله وفضله، ولا يمشي مشي التبختر، ولا مشي العاجز والكسلان. ويدل على ما ورائه من أشغالٍ كثيرةٍ من طاعات وواجبات، ويتحمل هموم أمته. وهنالك سبب آخر يرجع إلى البيئة الصحراوية الواسعة التي عاش بها النبي محمّد ﷺ تحث الإنسان على المشي مسرعاً لبعد أفق النظر، كذلك يسرع لينجز عمله كي يتخلص من حرارة الشمس الحارقة.

وكان النبي ﷺ إذا التفت يلتفت بجميع أجزائه فلا يلوي عنقه يمنةً أو يسرى لما في ذلك من الخفة وعدم الكسل، وإنما كان يقبل جميعاً ويدبر جميعاً لأن ذلك أليق بجلالته ومهابته. هذا بالنسبة للالتفات وراءه، أما لو اِلتفت إلى اليمين أو اليسار فالظاهر أنه يلتفت

1- سورة لقمان: آية 19.

2- البغوي، معالم التنزيل، 3/ 589؛ الزمخشري، الكشاف، 3/ 479.

3- المقريزي، إمتاع الأسماع، 2/ 183؛ الحرضي، بهجة المحافل، 2/ 185؛ السيوطي، الشمائل، 201؛ الصالحي، سبل الهداية والرشاد، 7/ 163.

بعنقه الشريف بكلّ جسمه وفي ذلك إشارة إلى تواضعه وتقديره لمن يريد أن يتوجه إليه، وفيها معاني الاحترام للآخرين.

لقد ربط وات الكآبة بالنبي محمّدﷺ بقلة الكلام والبقاء لوقت طويل صامتاً، وكانت صفته وجعلها سُنة لمن يقتدي به؛ لأن كثرة الكلام يوقع المتكلم في الزلل والخطأ، وكان إذا جلس مع الناس تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في الطعام والشراب تحدث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم، وكانوا ينشدون بين يديه الشعر من أمور الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام[1]، وكان من عظيم خلقه إذا صافح أحداً لا ينزع يده حتى ينزعها صاحبه، ومن تواضعه وحبه للناس يجلس بين أصحابه ولا يعرفه الداخل إلى المجلس من بين أصحابه، فهو لا يمُيز نفسه عنهم بالملبس ومكان الجلوس[2]. وهذه من شمائل خُلقه حيث كان يسكت لكي يسمع ما يدور في أذهان الناس ليتسنى له معرفة سلوكهم وثقافتهم حتى يهذب شوائبها ويقوّم أخطاءهم، فهو المعلم الأول للإنسانية فمن أين جاءت له الكآبة يا ترى؟

أما عن شمائلهﷺ التي يطيل الصمت؟ فهي ترجع لكونه متأملاً ويمتلك انضباطاً نفسيّاً عالياً، أي إنه قادرٌ على إدارة انفعالاته بدقة، وهي لا تشير إلى مرض الكآبة كما يزعم وات، الذي اعتبر التأمل والتأني في الحديث للنبي محمّدﷺ علامات للكآبة.

فالمصاب بالكآبة تكون صفاته خاليةً من التعبيرات الوجدانية، ويشعر بالملل والفراغ، ولسانه ثقيلٌ عند الحديث. أما من الناحية السلوكية تكون حركاته بطيئة، وكسول جداً وغير مكترث للقيام بأي نشاط. أما من الناحية الفكرية تسيطر عليه أفكار أن الحياة عديمة الجدوى ولا معنى ولا ضرورة لها. ومن الناحية العقلية يكون ضعيف الذاكرة قليل الحفظ، ويقطع الأفكار ولا يكملها باسترسال فبعد الصمت يتحدث بكلمات متقاطعة وأفكاره غير مترابطة، ولا تدل على فكرةٍ محوريةٍ أي لا يمتلك وحدةً في الموضوع. ويصاحب المريض فقد الشهية للطعام ولا يتلذذ به، والقلق واليأس والأرق ومشاعر الذنب المبالغ فيه وانعدام الثقة بالنفس[3].

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، 2/ 380 – 381.

2- البيهقي، دلائل النبوة، 7/ 71؛ النبهاني، وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، 242.

3- إبراهيم، عبد الستار، العلاج النفسي الحديث، 36 – 38.

وهذه الصفات والأعراض المصاحبة للمريض بالكآبة لم نجد واحدةً منها في شمائل النبي محمّد ﷺ فكان عالي الهمة، صحيح البدن، قوي الذاكرة، يتلو القرآن ويفسره للصحابة، وينطق الأحاديث التي يُبيّن فيها أحكاماً عامةً وخاصة، ويستقبل الوفود ويستأنس الجميع بحديثة. وكان النبي محمّد ﷺ في دعاء السفر يستعيذ بالله أن يرجع إلى أهله بأمر يكتئب منه مثل إصابته بمرض أو ينال خسران أو يقدم على أهله فيجدهم مرضى[1] فقال: ((**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا الْبِرَّ والتقوى ومِنَ العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا واطوِ عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ مِنْ وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال**))[2]. كآبة المنقلب: أي أن يرجع المسافر إلى أهله عابس الوجه، وهذا ناتج عن حزن لسبب ما، أدى إلى اضطراب في النفس، وهي على العكس من البشاشة التي يتحلى بها النبي محمّد ﷺ[3]، ونهى رسول الله عن التشائم الذي يجعل من الحياة ظلاماً قاتماً، بل دعا إلى التفاؤل والبشاشة فقال: ((لا طيرة وخيرها الفأل))[4] فيصبح قول وات مجرد اتهام بلا دليل وعدم صحة الادعاء.

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، ونصاعة اللفظ وجزالة القول، وصحة المعاني، وقلة التكلف، أوتي جوامع الكلم، وخُصّ ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها[5]، وكلامه بتأييدٍ إلهيٍّ مدده الوحي في قوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[6]. وعن عبد الله بن عمرو يقول قال لي رسول الله ﷺ: ((اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق))[7]. وهذا دليلٌ على أنَّ كلام النبي محمّد ﷺ لم يكن لغطاً أو لغواً فضفاضاً، بل كلام الحق وفيه مرضاة الله، بعيداً عن التكلف والتقعر بالكلام

1- البستي، شأن الدعاء، 1/ 180.

2- ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، 2/ 1213؛ البستي، شأن الدعاء، 1/ 180.

3- الأشعري، محمّد بن علان، الفتوحات الربانية، 5/ 134؛ أحمد، محمّد إبراهيم، سوء الخلق، 15.

4- ابو داود، مسند أبي داود، 4/ 247؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 10/ 403.

5- البزار، مسند البزار، 14/ 214؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، 444.

6-سورة النجم: آيات 1 – 4. ينظر: الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 1038؛ ابن عطيه، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 5/ 195 – 196.

7-ابن حنبل، مسند أحمد، 11/ 58؛ الدارمي، سنن الدارمي، 1/ 125؛ البيهقي، المدخل إلى السنن الكبرى، 414؛ القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، 1/ 100.

وتجشم البلاغة، ويسمى سهل ممتنع بمعنى أنَّه يستطيع أي إنسان فهمه لكن يعجز عليه بأن يأتي بمثله، وهذه هي البلاغة في كلام النبي محمّدﷺ، لكنه نهى عن كثرة الكلام والتشدق به فقال: ((إنّ أحبكم إلي، وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإنّ أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقاً، الثرثارون[1]، المتفيهقون[2] المتشدقون[3][4].

أما عن دور النبي محمّدﷺ في الرسالة السماوية، وما أعطاه الله من علم قالﷺ: ((إنما بعثتُ فاتحاً وخاتماً، وأعطيت جوامع الكلام وفواتحه، فلا يهلكنكم المشركون))[5]. وما يتعلق بقيمة كلام النبي محمّدﷺ وأهميته قالت عائشة: ((إن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم إنما كان يحدث حديثاً لو عده العاد أحصاه))[6]. أما طريقة النبي محمّدﷺ في الكلام يقول أنس بن مالك في حديث حسن: ((كان رسول اللهﷺ يعيد الكلمةَ ثلاثاً لتعقل عنه))[7]. وفي اختلاف بسيط ورد عند ابن حنبل قال: ((إن رسول اللهﷺ كان إذا تكلم بكلمة رددها ثلاثاً، وإذا أتى قوماً فسلم عليهم سلم ثلاثاً))[8].

وبخصوص الجانب الأخلاقي للنبي محمّدﷺ قال: ((فقد كسب احترام الناس وثقتهم بواسطة الأسس الدينية لنشاطه وبواسطة صفات مثل: الشجاعة والحزم والنزاهة، إضافة إلى الشدة التي تميل إلى القسوة، إلا أنها ملطفة بالكرم. وإلى جانب كل ذلك، كان له سحر الأسلوب الذي كسب من خلاله مودة الناس وضمن به ولاءهم))[9]. وعن الصفات الخلقية للنبي محمّدﷺ التي أجاد وات بذكرها إلاّ أنّه يدسّ بالقول ((الشدة التي تميل إلى القسوة)) لم نجد في السيرة النبوية ما يؤكد قوله، بل على العكس من ذلك فشمائل النبي محمّدﷺ

1- الثرثارون: جمع مفردها ثرثار بمعنى كثير الكلام بدون فائدة منه. ابن دريد، جمهرة اللغة، 1/ 82.

2- المتفيهقون: جمع مفردها متفيهق بمعنى الواسع ويقال للشخص إذا توسع في الكلام، وأصل الفهق هو الامتلاء كأنه ملاء به فمه. الجوهري، الصحاح، 4/ 1545.

3- المتشدقون: جمع مفردها متشدق أي المتوسع في الكلام وكثير الكلام، وهو الذي يلوي جانبي فمه تفاصحاً. ابن منظور، لسان العرب، 4/ 102.

4- ابن حنبل، مسند أحمد، 29/ 267؛ ابن حبان، صحيح ابن حبان، 12/ 368.

5-معمر بن راشد، جامع معمر، 11/ 111؛ ابن حنبل، مسند أحمد، 7/ 369.

6-الحميدي، مسند الحميدي، 1/ 281؛ مسلم، صحيح مسلم، 4/ 2298.

7-الترمذي، سنن الترمذي، 6/ 37.

8-ينظر: مسند أحمد، 20/ 438

9-وات، محمّد النبي ورجل الدولة، 301.

شملت اللين والرفق والحلم والصبر والتسامح مع الآخرين هي أعلى درجات الشجاعة، لأن ذلك أكمل في نفع الدعوة إلى الإسلام والتأثير بها كما أمره الله ﷻ ولا ينبغي للداعية أن يلجأ إلى الشدة والغلظة[1] فقال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ...**﴾[2]. وكذلك في سيرة النبي موسى عليه السلام الذي أشتهر بالغلظة فلما بعث مع أخيه هارون عليه السلام إلى فرعون مصر أمرهما الله بالرفق واللين في تبليغ الدعوة[3] فقال تعالى: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[4]، فلم يكن الأمر بالغلظة والقسوة فهي لا تجدي بالنفع مثل اللين والرفق لأن الله اشتق اسمه من صفته الرحمن الرحيم. فضلاً عن ذلك جاء النبي ﷺ بشريعة حكيمة كاملة لكلّ زمان ومكان ولإصلاح جميع الأمة، لذا كان يوصي بالرفق واللين مع الآخرين فقال: ((الرفق لا يكون في شيءٍ إلاّ زانه))[5] وفي حديث آخر قال: ((من يحرم الرفق يحرم الخير كله))[6].

إلا أنَّ وات يطلق شبهته عن أخلاق النبي محمّد ﷺ ويضعه في صورة قائد بدوي، ويخفي صور أخلاق النبوة لمحمد ﷺ لذا يقول: ((وقد عامل محمّد ﷺ أتباعه بكلّ لباقةٍ واحترامٍ، كما يجدر بقائدٍ بدويٍّ أن يعامل أبناء قبيلته)) [7].

ومعروف أنَّ رئيس القبيلة يحضى بمكانةٍ مميزةٍ بين أفراد قبيلته، ويجب أن تتوفر لديه صفاةٌ خاصةٌ تميزه عن العامة، منها الشجاعةً والحلم والكرم والمروءة... وإلخ[8]، ويحكم أبناء قبيلته بموجب الأنظمة والقوانين العرفية العشائرية[9]. فيكون رئيس القبيلة رئيساً على أفراد قبيلته حصراً.

1- الجصاص، أحكام القرآن، 2/ 329.

2- سورة آل عمران: آية 159. ينظر: الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 240، البغوي، معالم التنزيل، 2/ 124.

3- الجصاص، أحكام القرآن، 2/ 329.

4- سورة طه: الآيتان 43 – 44. ينظر: القشيري، لطائف الإشارات، 2/ 459.

5- ابن حنبل، مسند أحمد، 41/ 415؛ مسلم، صحيح مسلم، 4/ 2004.

6- أبو داود، مسند أبي داود، 2/ 53؛ ابن ماجه، سنن ابن ماجه، 2/ 1216.

7-محمّد النبي ورجل الدولة، 292.

8-الآلوسي، محمود، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 187؛ ملاح، هاشم، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، 37؛ خالد، حسن، مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، 70.

9-علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 10/ 249.

أما عن النبوة فهي منصبٌ في الدنيا والآخرة، ويقع الاختيار من قبل الله ﷻ، ويتمتع النبي محمّد ﷺ بسلطة مطلقة في جميع الميادين، فهو أعلى مكانةً من رئيس القبيلة، ونبينا محمّد ﷺ لم يكن سلطانه على قبيلته قريش فحسب، بل أصبح قائداً للأمة الإسلاميّة الممتدة كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**﴾[1].

ولعلّ وات يهدف من إعطاء النبي محمّد ﷺ صورة رئيس قبيلة، الإجحاف بحق النبي ﷺ، وبخس حقه في النبوة، بل أكثر من ذلك فهو يريد إنكار نبوة محمّد ﷺ، حتى يشعر الآخر بمحدودية الرسالة.

فقد وصف القرآن الكريم النبي محمّد ﷺ بالخلق العظيم ولم يصف باقي الأنبياء عليهم السلام بهذا الوصف، وهذا يعني أن عظمة الأخلاق لم يقر القرآن الكريم بها لأحد من المخلوقات بما فيها الأنبياء والرسل ما خلا النبي محمّد ﷺ حيث قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[2]، ولما جعله الله بهذه الصفة أرسله ليتمم مكارم الأخلاق كما قال ﷺ: ((إنمّا بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق))[3]، فلما كان الله مؤدباً للرسول محمّد ﷺ في قوله: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))[4]، فنِعْمَ المؤدب الله، ونعم المُؤَدَّب محمّد ﷺ، لذا كان النبي محمّد ﷺ قمة في الإنسانية وأفضل المتكلمين بلاغة وحكمة. ولذلك قال البوصيري[5]:

فـاقَ النبيـينَ في خَلْـقٍ وفي خُلُـقٍ ولمْ يدانـوهُ في علـمٍ ولا كَـرَمِ

فالنبي محمّد ﷺ أب لجميع المؤمنين ولذلك قال ﷺ: ((إِنما أَنا لَكم مِثل الوالد لولده، أُعلمكم...))[6].

والأبوة عند العرب تمثل العلاقة الأسرية بين الأب وأولاده ضمن محيط الأسرة الضيق وهي نواة المجتمع. بينما تبوء النبي محمّد ﷺ المكانة الروحية وهي أبوة جميع المؤمنين! لكن وات غيب هذه الصورة الروحية، وصوّر حبه ﷺ للأطفال كان

1-سورة الفتح: آية 8.

2-سورة القلم: آية 4؛ ينظر السمعاني، تفسير القرآن، 6/ 18.

3-مالك، بن أنس، الموطأ، 2/ 75؛ البزار، مسند البزار، 15/ 364.

4-الزركشي، محمّد عبد الله، اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة، 43.

5- ديوان البوصيري، 240.

6- ابن حنبل، مسند أحمد، 7/ 212؛ ابن ماجه، سنن ابن ماجة، 1/ 208.

بسـبب حرمانـه ومـوت كلّ أطفالـه يقول: ((ويبـدو أن محمداً ﷺ كان يشـعر بحنان خاص نحـو الأطفـال وكانـوا دائمـاً يحبونه وربمـا كان ذلك عنده تعبيراً عن أسـف رجـل مات كل أطفالـه في سـن مبكـر. وقـد أضفـى كثـيراً مـن عطفـه الأبوي عـلى ربيبـه زيد. كان شـديد التعلـق بابـن عمـه علي بـن أبي طالـب الذي عـاش بعض الوقـت في عائلتـه))[1].

هذا النص «رجل مات كل أطفاله في سن مبكر» فيه تصريح من وات أن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وحيدة أبيها، لا كما شاع في المصادر عن أنّ الربائب هنّ بنات النبي ﷺ.

واِستدل وات على حب النبي محمّد ﷺ لأطفال من قصة حفيدته أمامة بنت أبي العاص[2] ابنة زينب بنت النبي محمّد ﷺ، عندما كان يحملها في بعض الأحيان على كتفيه أثناء الصلاة ويضعها على الأرض متى سجد ثم يعود فيرفعها، وكان يحب أيضاً ابن زيد، أسامة، وقد أخذه معه على جمله حين عودته من معركة بدر، ويقال بأنه كان يلعب لعبة البصق[3] مع أحد الأطفال[4].

ولم نجد ما أشار إليه وات من شبهة لعبة البصق مع حفيدة النبي محمّد ﷺ أمامة في المصدر الذي أخذ منه الرواية «أسد الغابة في معرفة الصحابة لأبن الأثير». ولعل هذه الشبهة عارية من الصحة لعدم ذكرها في أي مصدر أطلعنا عليه. ولعل وات يروم تصوير النبي محمّد ﷺ بصورة سيئة وبمزاح يذهب الهيبة والوقار ويحط من كرامة النبي ﷺ. ومن خلق النبي محمّد ﷺ الفاضل فقد نهى عن البصق، وذلك لما دخل المسجد وجد نخامة في قبلة المسجد فحكها بيده الكريمة فقال: ((فإذا بصق أحدكم فليبصق عن يساره أو تحت قدمه))[5]، وقال أيضاً: ((إذا بصق أحدكم، فلا يبصق عن يمينه، ولا بين يديه، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه))[6].

1-محمّد في المدينة، 491.

2- ابن أبي شيبة، مصنف ابن ابي شيبة، 6/ 380.

3- البصق: هي ترادف بزق وبسق، وتعني تفل أو تفال، جاءت من تفل الشيء تفلاً أي تغيرت رائحته، وتستعمل للاستخفاف ويقال بصق في وجهه أي استخف به. ينظر: الفراهيدي، العين، 5/ 69؛ ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، 6/ 246 و 9/ 490؛ الزمخشري، أساس البلاغة، 1/ 63.

4-محمّد في المدينة، 491 - 492؛ محمّد النبي ورجل الدولة، 300 – 301.

5- ابن عساكر، تاريخ دمشق، 72/ 100.

6- ابن حنبل، مسند أحمد،22/ 464؛ البزار، مسند البزار،7/ 307.

ومن شمائل الرسول محمّدﷺ كان بشوشاً إذا أقبل على أصحابه، وكان يتسامر معهم، وكان يجري سباق الخيل والإبل ويشجع الصحابة ويحفزهم. وكان يلاعب الأطفال[1]. وهذا دليلٌ على أنهﷺ كان يشارك أطفاله المزاح ويروضهم.

أفاضت الرحمة الإلهية في قلب النبي محمّدﷺ على ولده إبراهيم فأخذه فقبله وشمه، ولما سُئل عن حبه إياه أجابهم هذه رحمة من الله . عن أبي هريرة، عن النبيﷺ قال: ((مَنْ كان له ثلاث بنات، فصبر على إوائهن، وضرائهن، وسرائهن، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن،...))[2]، وفي حديث آخر عن أبي ذر قال سمعت رسول اللهﷺ يقول: ((ما مِنْ مسلمين يموت بينهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث، إلاَّ أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته إياهم))[3]. وجعل هذه الرحمة سبباً في دخول الأباء الجنة كي يرعوا أبنائهم ويعطفوا عليهم.

وعندما مات ولده إبراهيم خيم الحزن على قلبه الشريف فكانت تفيض عيناه من الدموع، فقال له عبادة بن الصامت[4]: ما هذا يا رسول اللهِ؟ قال: ((الرحمة التي جعلها اللهُ في بني آدم، وإنما يرحم اللهُ مِنْ عباده الرحماء))[5]. وفي حديث آخر عن سعد بن عباده لما سأل النبي محمّدﷺ فقال: ((إنها رحمة، وضعها الله في قلوب من يشاء، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء))[6]. هذه الرحمة خصّ الله بها البعض، وهم الرحماء لا جميع ولد آدم. ولما جاء بعض المعزين يواسونهُ فقال: ((إِن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إِلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونين))[7]. وعن وفاة بنيه من ماريه والسيدة خديجةعليها السلام في سن الطفولة تجلت فيها حكمة الله جل جلاله فلو أن أعمارهم طالت بلغوا سن النبوة وحينئذ

1- السيوطي، الخصائص الكبرى، 2/ 465.

2-ابن حنبل، مسند أحمد، 8/ 310.

3-الهيثمي، موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان، 2/ 467.

4- عبادة بن الصامت: هو الصحابي عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم ابن فهر بن ثعلبة بن قعفل (اسمه غنم) بن عوف بن عمرو بن عوف الخزرجي، يكنى أبا الوليد، بدري من النقباء، آخى الرسول ﷺ عبادة مع أبي مرثد، توفي في الرملة بفلسطين سنة (34ه/ 654م) . الزبيري، نسب قريش، 124؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 13/ 251.

5-ابن ماجه، سنن ابن ماجه، 2/ 523.

6-أبو داود، سنن أبي داود، 5/ 44.

7-البيهقي، شعب الإيمان، 12/ 429.

لا يخلوا إمّا أن يكونوا أنبياء أو لا يكونوا، وهذا الأمر لا يجوز؛ لأن النبي محمّد ﷺ خاتم الأنبياء[1]. لذا أراد الله أنّ يقطع الاحتمال على من يجيء بعد وفاة النبي ﷺ ويدعي النبوة، بل جعل امتدادها بالإمامة من بعده في نسب ذريته من السيدة فاطمة عليها السلام والإمام علي عليه السلام.

ونجد في سيرة النبي محمّد ﷺ أنّه تعلق بحب الكثيرين ومنهم أهل بيته أولهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كونه نفس النبي ﷺ، لما خرج لمباهلة نصارى نجران قال تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[2]. لقد تعلم النبي محمّد ﷺ الحب بإشارة من الله جلّ جلاله بواسطة جبريل عليه السلام، فعند خروجه ﷺ إلى خيبر جعل على مقدمة جيشه الإمام علي عليه السلام، فقال: من دخل النخل فهو أمن، ولما تكلم بها، نادى النبي ﷺ الإمام عليه السلام، نظر إلى جبرائيل عليه السلام شاهده يضحك، فقال: ما يضحكك؟ فقال: إنيّ أحبه، فأخبر النبي ﷺ الإمام علي عليه السلام ((إن جبرائيل يقول إني أحبك))[3].

كانت بعثة النبي محمّد ﷺ إلى الأمة رحمة إذ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[4]، وقد شملت هذه الرحمة الإنسان والحيوان والنبات وحتى الجماد كما في قوله ﷺ: ((وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون))[5]، وبخصوص عاطفة النبي محمّد ﷺ الأبوية التي شمل بها الناس جميعاً وخص بها المسلمين المؤمنين قال ﷺ: ((يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة))[6]، وفي حديث آخر قال: ((أفضل والديكم وأحقهم لشكركم محمّد وعلي))[7]، وفي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[8]، وكذلك الرحمة التي ملأت قلب النبي محمّد ﷺ شملت حتى المشركين فعندما طلب منه الصحابة أن يدعو الله جلّ جلاله على المشركين

1- ابن النفيس، الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، 185.

2-سورة آل عمران: آية 61.

3- الطبراني، المعجم الكبير، 8/ 301.

4- سورة الأنبياء: آية 107.

5- ابن حنبل، مسند أحمد، 15/ 195؛ أبو عوانة، مستخرج أبي عوانة، 1/ 129.

6-الصدوق، علل الشرائع، 1/ 127؛ الفيض الكاشاني، الوافي، 10/ 363.

7-الإمام العسكري، تفسير الإمام العسكري، 330؛ المجلسي، بحار الأنوار، 23/ 259.

8- سورة التوبة: آية 128. ينظر ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 6/ 1917 – 1918.

رفض وقال: ((إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة))[1]. وهذا يبين لنا أنّ رحمة الباري ﷻ تجسدت في خلق النبي قولاً وفعلاً.

لقد قبّل النبي محمّد ﷺ الإمام الحسن عليه السلام عندما كان طفلاً، وفي مجلسه الأقرع بن حابس[2] فاندهش من حنان النبي ﷺ وعطفه فقال الأقرع: ((إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً)) فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: ((مَنْ لا يَرحم لا يُرحم))[3]، وقال أيضاً: ((أو أملك لك أن نزع اللهُ مِنْ قلبك الرحمة؟!))[4].

لم تقتصر الرحمة والعطف عند الرسول محمّد ﷺ على البشر فحسب، بل شملت أصغر طائر وهو الحُمَّرة، عندما كان في سفر، وجد أصحابه حُمَّرةً معها فَرْخَها، فأخذوا الفرخ، فجاءت الحمرة تشكوا إلى نبي الرحمة محمّد ﷺ وترفرف بجناحيها، نظر النبي إلى أصحابه فقال: ((من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها))[5].

وفي السفر نفسه وجد أصحاب النبي قرية نملٍ أحرقوها بالنار، نظر النبي محمّد إلى أصحابه وقال: ((من حرق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلاَّ رَبُّ النار))[6].

هذه صفات النبي ﷺ التي اتسمت بالرحمة والعطف والشفقة على كلّ المخلوقات، وديدنه على تربية وتأديب أصحابه بهذه السنه الشريفة، لتكون حجة علينا باتباعها ونبذ العنف، بخلاف ما يتصورها وات أنها مبتدعةٌ من فقدان أولاده. وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[7].

1- مسلم، صحيح مسلم، 4/ 2006؛ أبو يعلى الموصلي، مسند أبو يعلى، 11/ 35.

2- الأقرع بن حابس: هو الصحابي فارس بن عقال بن محمّد بن سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي، وأشتهر بالأقرع بن حابس لقرع في رأسه، وكان ينزل أرض بني تميم ببادية البصرة، وفي الجاهلية عد من فرسان العرب وحكمائهم يحتكمون عنده في منافراتهم. جاء مع وفد تميم إلى النبي محمّد ﷺ معلنين إسلامهم، ونادى من وراء الحجرات: ((يا محمّد إن حمدي زين، وإن ذمي شين))، ولاه الرسول ﷺ على بعض صدقات بني حنظلة، وأعطاه من الغنائم مائة من الغبل، فهو من المؤلفة قلوبهم. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 116؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 12/ 57 – 60؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، 1/ 230.

3- أبو داود، سنن أبي داود، 7/ 506؛ البري، الجوهرة في نسب النبي، 2/ 202.

4-البخاري، صحيح البخاري، 8/ 7.

5-أبو داود، سنن أبي داود 4/ 309.

6-أبو داود، سنن أبي داود، 4/ 309.

7-سورة الأنبياء: آية 107.

6 المبحث السادس

موقف وات من القرآن الكريم

ترجع جذور اهتمام المستشرقين بالقرآن الكريم إلى زمن وصول المسلمين إلى الأندلس، وعلى أثرها قصد عددٌ من رهبان الغرب الأندلس، إبّان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها وترجموا القرآن الكريم والكتب العربية إلى لغاتهم[1] وفي هذا الوقت تزايد الاهتمام بدراسة القرآن الكريم واعتبر الدافع الحقيقي لحركة التبشير التي قادتها الكنيسة[2]، إذ ظهرت في تلك المرحلة أول ترجمةٍ لاتينيةٍ للقرآن الكريم في سنة (538هـ /1143م) في دير كلوني بجنوب فرنسا، بتوجيه وإشراف رئيس الدير الراهب بطرس المبجل، والذي قام بالترجمة هو الراهب الإنجليزي روبرت كيتون الراتيني وبالتعاون مع الراهب الألماني هرمان الدالماتي، ومعهما شخص مسلم مجهول الهوية يدعى محمد، اشترك مع هذه اللجنة بمساعدتها في فهم النص العربي[3]؛ خوفاً على جماهير النصرانية من أن تتأثر بالقرآن وتتحول إلى الإسلام بدلاً من أن تعاديه، أو على الأقل تتحير وتتشكك في دينها[4]. إن تمسك المسلمين بتعاليم الدين المستمدة من القرآن دفع المستشرقين لدراسة القرآن لأجل معرفة سرّ تفوق المسلمين، وملحاولة فهم نصوصه بدافع الاطلاع، والآخر بدافع الهدم، وبعضهم يحاول التشكيك ونقضة، وآخر يحاول نسفة[5]. ولا يستبعد من وجود هدفٍ علميٍّ وراء اهتمامهم بالقرآن الكريم لأجل الوقوف على المسائل العلمية والاستكشافاتً التي أشار لها الله ﷻ في القرآن.

وبدأ المتنصرون والمستشرقون يطلعون على القرآن الكريم ويتعلمون لغته، ويعالجون ترجمته بطريقةٍ تهدف إلى تشويهه وتقديمه، من ثم تقديمه إلى شعوبهم بلغة تنفّر قلوبهم

1-السباعي، مصطفى، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، 17 0

2- يوهان، فوك، تاريخ حركة الاستشراق، 16 17- 0

3-بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، 68 - 69.

4-أبو ليلة، محمّد محمد، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، 384.

5-فروخ، عمر، مجلة الاستشراق، 54 0

وعقولهم عنه، وتعزز حملاتهم الكلامية الصليبية ضده، وضد النبي محمّدﷺ الذي جاء به عن الله. فجاءت هذه الترجمات بكلام لا يعرفه أهل القرآن، وحتى هذا الوقت لم ينهض المسلمون لترجمة القرآن[1].

ومهما بذلوا من جهودٍ فقد تعذر على الناس الاتيان بمثل هذا القرآن كلّه أو بعضه أو حتى سورة منه، كذلك تعذر عليهم أيضاً ترجمته، وتحويل معانيه عن ألفاظه التي قدرت ـ أي أتت ـ لها وصيغت من أجلها.

وتعد مواضيع الوحي والقرآن الكريم ونبوة محمّدﷺ من المواضيع الأساسية والحيوية في تاريخ العقيدة الإسلاميّة والتاريخ الإسلامي، فهي الأسس المتينة التي ترتبط بالإيمان والمبادئ الروحانية، وهي من الطرف الآخر قد وجهت أقلام المستشرقين المُعادين للإسلام منهم والمؤيدين على حدٍّ سواء للاهتمام بالعقيدة الإسلاميّة والتاريخ الإسلامي[2]؛ وذلك لأنَّ القرآن الكريم فضلاً عن مصدره أنّه من الكتب السماوية، يعد كتاب نقدٍ للأمم السالفة ومعتقداتهم، وكشف كذب اليهود وعصيانهم للأنبياء، وكشف زيف النصارى باتباعهم الثالوث المقدس، وحملهم الصليب وغيرها من الأباطيل، فلذا كان موقفهم بنصب العداء للقرآن الكريم محاولة تشويهه لكي يمنعوا شعوبهم من اِتباعه حتى لا يطلعوا على حقائق وحي السماء.

وعلى الرغم مما أورده وات من شبهات إلاَّ أنّه أجاد في نقاشه للقرآن الكريم على أنه نصٌ لا يوجد نصٌ في الأدب العربي يشبهه تماماً، فقد صيغ باللغة العربية، وعبر عن المفاهيم السائدة لدى العرب، منها اِختيار الجمل دون غيره من مخلوقات الله للدلالة على عظمته[3].

ونزل القرآن الكريم باللغة العربية، كون العرب هم حملة هذه الرسالة الخالدة، وخصهم اللهﷻ بحملها؛ ولكي يفهموا ما في القرآن الكريم من واجبات وأحكامٍ شرعيّة وأن يعلموا معانيه[4] وجاء في قوله تعالى: [**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[5]. وعن اللغة التي نزل

1-أبو ليلة، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، 369.

2- ناجي، عبد الجبار، الاستشراق والسيرة النبوية، 22.

3- محمّد في مكة، 165.

4- البغوي، معالم التنزيل، 4/ 209.

5- سورة يوسف، آية 2.

بها جبرائيل عليه السلام بالقرآن الكريم على النبي محمّد صلى الله عليه وآله فهي لغة قريش وهوازن إذ كانا من أفصح العرب[1]، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿**بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾[2].

أما عن اختيار الجَمل وذكره في القرآن الكريم وضرب الله جلّ جلاله به المثل؛ فهو لأنّه من الأدلة الشاخصة أمام أعين الإنسان العربي الذي يسكن الصحراء، وكان ملائماً مع ظروف البيئة والمناخ الذي يعيشه الإنسان العربي، وهي آية على عظم خلق الله جلّ جلاله، ولكبر حجم الإبل وهي في غاية القوة والشدة، ومع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد بسهولة للقائد الضعيف، ويُنتفع من لبنها ووبرها[3]، فقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[4]، وسبب نزول الآية الكريمة عندما أشكل المشركون على النبي محمّد صلى الله عليه وآله لما نبأهم بحساب يوم الآخرة لما فيه من عذاب للمشركين ونعيم للمؤمنين فنزلت هذه الآية من الدلائل على أبصارهم[5]، لذا جعل الله النظر إلى كيفيّة خلق الإبل أسبق من التأمل في كيفية رفع السماء ونصب الجبال وتسطيح الأرض، فجعلها مدخلاً إلى الإيمان الخالص بقدرة الخالق وبديع صنعه[6]، ومن هذه الآيات نستدرك الإعجاز القرآني في خلق السماء والجبال والجمال والأرض وبيان الارتباط بينها ضربا من التناسق التصويري لمجموعة من المشاهد الكونية المعروضة لنظر الإنسان حيثما كان، وهي لوحةٌ متناسقة الأبعاد والاتجاهات؛ السماء المرفوعة والأرض المسطوحة، والجبال شامخة القمم والجمال بارزة السنام[7].

قسّم وات نزول القرآن في الطور المكي إلى مرحلتين وبينهما فترة انقطاع الوحي، المرحلة الأولى تم فيها إعداد محمّد صلى الله عليه وآله لتحمل مهام النبوة وسمي الوحي فيها ذي الطبيعة الخاصة وتمثل في توجيه محمّد صلى الله عليه وآله دون تكليفه بإبلاغه، وقد استمرت هذه المرحلة ثلاث سنوات، وتمثل هذه المرحلة مرحلة مجيء النبوة، وكان الوحي فيها على لسان إسرافيل عليه السلام، والمرحلة الثانية كان فيها الوحي بصورةٍ عموميّةٍ، أي توجيه

1- السمرقندي، بحر العلوم،2/ 567.

2- سورة الشعراء: آية 195.

3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 8/ 387.

4- سورة الغاشية: آية 17.

5- السمعاني، تفسير القرآن، 6/ 214.

6- مجموعة من العلماء، الموسوعة القرآنية المتخصصة، 1/ 712 – 713.

7- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، 153.

محمّدﷺ وتكليفه بإبلاغه إلى أهل مكة، وتمثل هذه المرحلة مرحلة مجيء الرسالة، وكان فيها الوحي على لسان جبرائيل عليه السلام[1].

اعتمد وات على رواية عامر الشعبي في تحديد لسان الوحي بإسرافيل الأول وجبرائيل الثاني ((إن إسرافيل قرن برسول الله قبل أن يوحى إليه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ثم كان بعد ذلك جبرائيل))[2]، وبحسب كتابات المستشرق الإيطالي ليون كايتاني (storia orientaie) studi di فإنه قام بتحديد المرحلة الأولى بأنّها مرحلة محمد النبي والمرحلة الثانية مرحلة محمد الرسول.

إن هذه الشبهة التي أتى بها وات لم يأتِ بها أيّ مفسر من علماء المسلمين، وقد فات المستشرق وات أن النبي محمّدﷺ لم يأخذ القرآن وتعاليم الإسلام إلا من الله جل جلاله عن طريق جبرائيل عليه السلام الذي أوكلت لهُ مهمة الوحي والتعليم، وتأدية الكلام من اللّه سبحانه إلى عباده، وله ارتباط مع القوة النطقية، وهو واسطة الفيض بين الخالق والمخلوق وهاهنا أسرار لا يحتملها المقام. أما في ما يخص الملك إسرافيل عليه السلام، فليس له مهمة التبليغ الإلهي، بل أوكل لهُ النفخ في الصُّور والأرواح، وفي قوالب المواد والأجساد، وإعطاء قوة الحس والحركة لانبعاث الشوق والطلب، وله ارتباطٌ مع المفكرة، ولو لم يكن هو لم ينبعث الشوق والحركة لتحصيل الكمال في أحد[3]. وبهذا يكون ما ذهب إليه وات من أنّ المرحلة الأولى من الوحي بواسطة إسرافيل عليه السلام غير صحيحة، بل كان الوحي منذ البداية في غار حراء بواسطة جبرائيل عليه السلام، وأما إسرافيل عليه السلام تأتي مهمته في نهاية الحياة وقيام يوم القيامة. إذ أورد المفسرون أن مهمته هو النفخ في الصُّور فقال تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾[4]، وقال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ**﴾[5]. بينما أوكل إلى جبرائيل عليه السلام حفظ الوحي وايصاله إلى الأنبياء ونصرتهم، وانزال عذاب الله جل جلاله بالكفار[6].

1-محمّد في مكة، 115 و117.

2- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 386.

3- الفيض الكاشاني، الوافي، 1/ 465.

4- سورة الحاقة: آية 13. ينظر: السمرقند، بحر العلوم، 3/ 489؛ البقاعي، نظم الدرر، 20/ 352؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 29/ 124.

5- سورة ق: آية 20.

6- السمعاني، تفسير القرآن، 5/ 87؛ القشيري، لطائف الإشارات، 3/ 360.

ولهذه الخصوصية التي يمتاز بها الملك جبرائيل عليه السلام نصّب اليهود العداء للنبي محمّد صلى الله عليه وآله وأنكروا نبوّته؛ مبررين ذلك بأن جبرائيل عليه السلام نزل على النبي محمّد صلى الله عليه وآله بالوحي وهو ملك العذاب، ولو نزل عليه الوحي بواسطة ميكائيل عليه السلام لآمنا به لأنه ملك الرحمة. وكذلك زعم اليهود بشبهتهم أن خاتمية النبوة كانت إلى بني إسرائيل لكن جبرائيل عليه السلام لعداوته لهم صرفها عنهم وأعطاها إلى العرب وخص بها النبي محمّد صلى الله عليه وآله[1] فنزل قوله تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾[2]. مثل هذه الشبهات طرحها اليهود قبل أربعة عشر قرن وأبطلها الله جلّ جلاله بالقرآن الكريم، فكيف لمفكر مثل وات أن يجدد طرحها ولا دليل له عليها.

لقد وقع وات بالخطأ الجسيم بنظريته حول النبوة ونزول القرآن حين تصور أن السنوات الثلاثة الأولى من الدعوة المحمدية هي مرحلة إعداد للنبي محمّد صلى الله عليه وآله كي يتحمل أعباء الرسالة الإلهية بالنبوة، فإنّ هذا التصوّر مخالفٌ للمنطق والعقل! فكيف يصح أن الله جلّ جلاله يقوم بإرسال نبي آخر الزمان من دون أن يُعدّه إعداداً إلهيّاً كاملاً! لكي يمضي بعمله ويتمه على أحسن وجه. بل ينبغي إعداده قبل الشروع بإرساله إلى أمة العرب التي عُرفت بالبلاغة والتعبير والإصرار على الشرك، وفيهم أصحاب الكتاب اليهود والنصارى الذين أظلوا جادة الصواب وانحرفوا عن مبادئ الله جلّ جلاله. ولقد ذكرنا في الأطروحة أنّ مرحلة الإعداد للنبي محمّد صلى الله عليه وآله في غار حراء سبقت نزول الوحي، ومن الثابت أيضاً في المصادر الإسلاميّة المعتمدة أنّ السنوات الثلاثة الأولى هي مرحلة الدعوة السرية.

ويبدو أن المواجهة الدينية بين الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وبين قومه في مكة قد سبقتها محاولة قام بها النبي محمّد صلى الله عليه وآله بإنذار قومه وتحذيرهم من مغبة عذاب يوم القيامة إذا لم يستجيبوا لنداء الدعوة الإسلامية. فقد ذُكر ذلك في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[3]، فجمع النبي محمّد صلى الله عليه وآله بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً إلى مأدبة غداء، فلما أكلوا وشربوا، بادرهم أبو لهب ليفرق الحضور باتهامه للنبي محمّد صلى الله عليه وآله بالسحر فقال: ((لقد سحركم صاحبكم سحراً عظيماً))[4]، فسكت النبي ولم يتكلم، ثم دعاهم في

1- السمرقندي، بحر العلوم، 1/ 76.

2- سورة البقرة: آية 98.

3- سورة الشعراء: آية 214.

4- أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، 425؛ المقريزي، إمتاع الأسماع، 5/ 175؛ الحلبي، السيرة الحلبية، 1/ 406.

الغد على مثل ذلك الطعام والشراب ثم أنذرهمﷺ فقال: ((يا بني عبد المطلب إنيّ أنا النذير إليكم من الله سبحانه والبشير لما يجيء به أحد منكم، جئتكم بالدنيا والآخرة فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ومن يؤآخيني ويؤازرني ويكون وليّي ووصيي بعدي، وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟ فسكت القوم، وأعاد ذلك ثلاثاً كلّ ذلك يسكت القوم، ويقول علي عليه السلام: أنا! فقال: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمّر عليك))[1].

وهنا يكون النبي محمّدﷺ منذراً لقومه ومعلناً صراحةً عن بدء الدعوة، وحدد دور الإمام علي عليه السلام بأنّه وصي وولي من بعده على هذه الأمة.

وهناك رواية آخرى أن الرسولﷺ صعد على الصفا يهتف فاجتمع الناس حوله فقال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف يا بني زهرة، حتى عدد الأفخاذ من قريش، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، قال: يقول أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟))[2]، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[3].

إنّ ما تجدر ملاحظته على هذه الرواية أنّ الرسولﷺ قد عدّ جميع بطون قريش بمثابة عشيرته الأقربين لا بني عبد المطلب فقط، لذا فقد توجه إليهم جميعاً بالإنذار، وربما كان سبب ذلك أنه كان لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة وأنه لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول اللهﷺ وبينهم قرابة[4].

وعلى الرغم من موقف الرسولﷺ هذا يُلاحظ أن الشخص الوحيد الذي تصدى لمعارضة الرسولﷺ وانتقاده هو عمه أبو لهب، على خلاف ما يقضي به العرف القبلي من تضامن أفراد العشيرة الواحدة في ما بينهم في شتى الظروف والأحوال، ولا سيما النبي محمّدﷺ الذي جاءهم بخير الدنيا والآخرة، بل إن موقف أبي لهب من رسولﷺ لَيدعو إلى الاستغراب أكثر في ضوء الروابط الأخرى التي كانت تربطهما إذ كانت ابنتا

1- الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 7/ 182؛ الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، 1/ 543.

2- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 1/ 200؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 2/ 319؛ الثعلبي، الكشف والبيان، 7/ 182 – 183.

3- سورة المسد، آية 1.

4- العلي، صالح، محاضرات في تاريخ العرب، 188.

الرسولﷺ رقية وأم كلثوم مخطوبتين لعتبة[1] وعتيبة[2] ابنا أبي لهب قبل أن يُفرّق بينهما. الإسلام[3].

وقد عزى وات موقف أبي لهب من الرسولﷺ إلى طموحه التجاري ورغبته في توثيق صِلاته مع أغنياء مكة، وبخاصة أن زوجته أم جميل كانت من أسرة بني أمية الغنية، وهي أخت لأبي سفيان[4]. وهذه محاولة منهُ لتبرير موقف أبي لهب إلاَّ أنها غير مقنعة لأن أبا لهب بُشّر بعذاب الآخرة وهو في الدنيا! فلو كان يؤمن بالله واليوم الآخر لرجع إلى طريق الإيمان والتصديق برسالة النبي محمّدﷺ.

ويجمع المسلمون كافة أن القرآن مصدرٌ مهمٌّ يُصوّر تاريخ الأمم السالفة، وفي آياته أصدق الصور عن حياة النبي محمّدﷺ التي اعتمدت في كتابة السيرة النبوية، منها بدايته ﷺ يتيماً، والعناية الربانية بحياته ورعايته، ثم بداية الدعوة المتمثلة بالوحي، إضافةً إلى المعجزات النبوية في حادثة الإسراء والمعراج، وكذلك أخلاقه وفضائلهﷺ.

ولما يمثله القرآن من أصل للتشريع يستقي منه المسلمون شريعتهم وعقيدتهم، لذا انبرى المستشرقون بأقلامهم في الدس والافتراء لمحاولة تشويه هذا الكتاب، ولأجل ذلك ذهبوا يتخبطون في افتراءاتهم[5]، ومنهم وات فقال: ((اسم القرآن المشتق من «قرأ» و «قرآن» هما من الكلمات الدينية التي أدخلتها المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية، فكلمة قرأ تعني تلا بوقار نصّاً مقدساً، أما كلمة قرآن فأصلها في السريانية «كريانا queryana» التي تعني القراءة أو درس من الكتاب المقدس))[6].

1- عتبة بن أبي لهب: عتبة بن أبي لهب (اسمه عبد العزى) بن عبد المطلب بن هاشم، أمه أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس، لديه عقب، بقي في مكة مشركاً وبعد فتح مكة دخل الإسلام وهو من المؤلفة قلوبهم، وخرج مع المسلمين في غزوة حنين، لم نجد سنة وفاته. الزبيري، نسب قريش، 89؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 44 – 45.

2- عتيبة بن أبي لهب: عتيبة بن أبي لهب (اسمه عبد العزى) أمه أم جميل بن حرب، من المشركي، ولما سمع النبي ﷺ يتلو القرآن كفر برب النجم، دعا عليه النبي ﷺ أن يسلط الله عليه كلباً، واستجيبت دعوته لما خرج عتيبة بتجارة للشام أكله أسد وليس له عقب. الزبيري، نسب قريش، 89، ابن سعد، الطبقات الكبرى، 4/ 44 – 45.

3- الزبيري، نسب قريش، 22؛ ابن قتيبة، المعارف، 82؛ البلاذري، أنساب الأشراف، 1/ 123.

4- وات، محمّد في مكة، 193 – 194.

5-عللوه، محمد، الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين، 165.

6-وات، محمّد في مكة، 113.

ويهدف وات من هذه الشبهة إلى التشكيك في أصالة القرآن واعتباره مقتبساً من الديانة المسيحية ساعياً بذلك لإظهار أن أصل الدين الإسلامي هو الديانة المسيحيّة.

في اللغة: لفظة القرآن في الأصل مصدر على وزن فعلان بالضم، كالغفران والشكران والثكلان: ((تقول: قرأته قرء وقراءة وقرأناً بمعنى واحد، أي تلوتهُ تلاوة))[1]. وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءانَهُ**﴾[2].

وهي مشتقة من الفعل»قرأ» يقال قرأه يقرأه، يقرأه: أي قرأ، وقراءة وقرآناً، وقيل بمعنى الجمع وسمي قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها[3].

أما اصطلاحاً: هو كلام الله المنزل على الرسول محمّدﷺ المكتوب في المصاحف والمنقول إلينا نقلاً متواتراً[4]، المبدوء بسورة الفاتحة برقم (1) والمختوم بسورة الناس برقم (114)[5].

وما ادعاه وات مردودٌ، حيث صرح القرآن الكريم بأنه نزل بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون**﴾[6] وكذلك قال **تعالى:**(﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾[7]، ثم جاء في قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[8] وأشار في ذلك عز وجل في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾[9].

ومن هذه الآيات القرآنية التي استشهدنا بها نتملك اليقين أن القرآن كلام الله الذي نزل على محمّدﷺ بلسان عربي مبين، وخصوصاً أنّ لغة قريش التي جُمع بها هي من بين

1-ينظر: دراز، محمّد عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، 12 - 13.

2-سورة القيامة: آية 17.

3-ابن منظور، لسان العرب، 1/ 128.

4-الشوكاني، محمّد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الاصول، 1/ 85.

5-العثيمين، محمّد بن صالح، أصول في التفسير، 6.

6-سورة يوسف: آية 2.

7-سورة الشعراء: آية 195.

8-سورة فصلت:آية 3.

9-سورة النحل، 103.

الأحرف السبعة التي تمثل لهجات القبائل الرئيسية أنذاك التي يتحدث بها سكان الجزيرة العربية[1].

أما أهل اللغة فكان قولهم الفيصل للرد على وات بأن اللغة العربية من ضمن مجموعة اللغات السامية، وهذا التشابه في الكلمات من باب المشترك بين اللغات السامية ولا يعني بالضرورة أن لغة أخذت من أخرى. أما عن تأثير المسيحية واليهودية في العرب قبل الإسلام فقد كان للديانتين وجودٌ، وكان بعض العرب على المسيحية واليهودية، وقد تعرض القرآن الكريم لهذه الأديان[2].

ولتحديد أول سورة نزلت في القرآن يعترف وات أنه لا توجد اعتراضات ذات قيمة لما اتفق عليه العلماء المسلمون من أن سورة العلق هي أول ما أوحي من القرآن[3]. ورأيٍ آخر أن أول ما نزل هي سورة المدثر[4]. ويخلص وات من الرأيين إلى رجاحة الرأي الثاني حسب رواية جابر بن عبد الله الأنصاري بأن الآيات الأولى من سورة المدثر كانت أول الوحي فيقول: ((يبدو ذلك مناسباً لأن في سورة المدثر كان أمر للقيام بمهمة الرسول، وكان يمكن أن تكون أول الوحي لو أن محمّداً ﷺ قد بدأ الدعوة العلنية فجأة وبدون فترة إعداد))[5].

ويبرر وات رأيه ويرى أن كلمة « نذير» وردت في القرآن أربعين مرة، أما كلمة «مذكر» وردت مرةً واحدةً في سورة الأعلى: آية 87، واستخدام كلمة أنذر في أوائل ما نزل من القرآن الكريم يعني فكرة الحساب في اليوم الآخر كانت موجودة في الدعوة الإسلاميّة منذ البداية، واستنتاجه أن سورة المدثر موجهة إلى النبي محمّد ﷺ وأتباعه، وفيها تحدد مهمة النبي محمّد ﷺ وهي إنذار قومه بأمر خطير ليتخذوا الحذر[6].

ويمهد بطرحه هذا إلى شبهة أكثر فاعلية بالتشكيك بالقرآن، إذ يعتبر المرحلة الأولى من

1-الخطاط، محمّد طاهر، تاريخ القرآن الكريم، 29 و 39؛ السندي، عبد القيوم عبد الغفور، صفحات من علوم القراءات، 122.

2-نقلاً عن المترجم عبد الرحمن السيخ حسين عيسى، لكتاب محمّد في مكة، 113.

3-الفراء، معاني القرآن، 3/ 383؛ الواحدي، أسباب نزول القرآن، 13؛ وات، محمّد في مكة، 114.

4-المقري، الناسخ والمنسوخ،189؛ الضريس، فضائل القرآن وما نزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة، 37.

5-محمّد في مكة، 114.

6-محمّد في مكة، 152.

الوحي نزل فيها سورة العلق وسورة الضحى وهي ذات طبيعةٍ خاصةٍ موجهةٍ إلى النبي محمّدﷺ الذي لم يعتبره جزءاً من القرآن[1].

وهذا مخالف تماماً لما ذكره المفسرون والمحدثون وأصحاب السير، أن أول ما نزل من القرآن هو سورة العلق، ثم لما نزل النبيﷺ من الغار قال لخديجة دثروني فنزلت سورة المدثر[2].

ومن الشبهات التي طرحها وات حول سلامة النص القرآني يقول: ((أن محمّداًﷺ قد فعل شيئاً في الوحي المنزل عليه كإعادة ترتيب الآيات الموحى بها، وربما قد حاول أن يصوب النص إذا أحس أن النص الموحى به يحتاج إلى إصلاح))[3].

وإن كان المقصود إصلاح أخطاء كتاب الوحي فلا يصح ذلك لأن كاتب الوحي الإمام علي عليه السلام معصوم من الخطأ والزلل بموجب عصمة الإمامة من قبل الله جل جلاله. لكون القرآن منزل من قبل الله بواسطة الأمين جبرائيل عليه السلام فلا يناله التصويب كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[4]، وهنا السؤال يَطرح نفسه هل يوجد نبيٌّ يصحّح ما أنزل الله عليه؟ وكان الرسولﷺ عندما يتلقى وحياً يُلقيه في الحال على كُتّاب الوحي لتدوينه، أما أفكاره الخاصة فلا يفعل معها ذلك.

ولعل الناسخ والمنسوخ[5] في بعض الآيات القرآنية يتصورها وات من فعل النبي محمد ﷺ، بل إن جميع الآيات في السور القرآنية كلام الله حصراً.

هذه الفرية التي عول عليها وات هي مزاعم المشركين الذين سبقوه لمّا طعنوا بالنسخ وقالوا

1- محمّد في مكة، 117.

2- ابن سلام، فضائل القرآن، 364؛ ابن الضرسي، فضائل القرآن، 33؛ الجصاص، أحكام القرآن، 5/ 369.

3-محمّد في مكة، 122.

4-سورة الحجر: آية 9.

5- إن الله ما ينسخ من آية تحمل حكماً شاقاً على المسلمين إلى حكم أخف كنسخ الثبوت لعشرة في قتال الكافرين إلى اثنين، أو حكماً خفيفاً إلى شاق زيادة في الأجر كنسخ يوم عاشوراء بصيام رمضان، أو حكماً خفيفاً إلى حكم خفيف مثله كنسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، أو حكماً إلى غير حكم آخر كنسخ صدقة من أراد أن يناجي رسول الله فإن الحكم رفع ولم يشرع حكم آخر بدلا عنه، أو نسخ الآية بإزالتها من التلاوة ويبقى حكمها كآية الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله فقد نسخ اللفظ من التلاوة وبقي الحكم، أو بنسخ الآية وحكمها وهذا معنى قوله: أو ننسها وهي قراءة نافع، فقد ثبت أن قرآنا نزل وقرأه رسول الله (صلى اللهُ عليه وآله وسلّم) وبعض أصحابه ثم نسخه الله تعالى لفظا ومعنى فمحاه من القلوب بالمرة فلم يقدر على قراءته أحد، وهذا مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، ينظر: الكعبي، محمّد بن رزق، التفسير والمفسرون، 2/ 801.

أن النبي محمّد ﷺ يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً[1]، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]، إذ لم يكن عمل النبي محمّد ﷺ ولا جميع البشر بدون مراقبة الله، بل صغائر الأعمال مثبتة كما في قوله تعالى: ﴿**هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[3].

يحاول وات في هذه الشبهة أن يضرب النص القرآن لكي يفقد أصالته، وأنه تم صياغته من قبل النبي محمّد ﷺ حسب مقتضيات مصلحته، ومن ثم يضرب بشبهته شخص النبي ﷺ بأنه مفترٍ على الله ﷻ بالكذب.

وعن أصالة النص القرآني والمحافظة عليه من قبل النبي محمّد ﷺ في حياته يشكك وات بذلك فيقول: ((لم يُحضّر محمّد ﷺ قبل موته أية تحضيرات للاستمرار في إدارة أمور الدولة الإسلاميّة))[4]، وفي كتاب آخر يضع وات شبهته حول مسألة جمع القرآن من قبل النبي محمّد ﷺ وقال فيه: ((كان هناك فارق ذلك أن القرآن كان يُسجل فور نزوله وقد جمع رسمياً سنة 650 م))[5]. وفي أحد أبحاث وات قال: ((ربما تم تدوين الوحي كله، أو كثير منه على الأقل، في أثناء حياة محمّد من لدن أمناء سره... ولتوجيهات الخليفة عثمان (23 – 35هـ/ 643 – 655م) وصار القرآن الذي بين أيدينا اليوم))[6].

بالحساب الزمني تكون سنة 650م توافق سنة ثلاثين للهجرة أي بعد وفاة النبي محمّد ﷺ بتسع عشرة سنة، بهذا يكون وات يؤيد النظرية القائلة بجمع القرآن بعد وفاة النبي محمّد ﷺ من قبل الصحابة.

وتدعم الرواية الإسلاميّة انعدام الفارق الزمني بين تاريخ نزول القرآن الكريم وعملية تدوينه، فحين نزول الذكر الحكيم كانت عملية التدوين متلازمة مع عملية الحفظ، ويتجلى

1- تاج القراء، غرائب التفسير وعجائب التأويل، 1/ 167؛ السيوطي، تفسير الجلالين، 23.

2-سورة البقرة: آية 106.

3-سورة الجاثية: آية 29.

4- محمّد النبي ورجل الدولة، 296.

5- الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، 128.

6-)(The Cambridge history of Islam. The Central Islamic lands from pre – Islamic times to the first world war. Muhammad. Cambridge University Press 1970،p.32.

ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[2]. هذا يبين حفظ الذكر الحكيم من قبل الله، وأنهُ كتابٌ محكمٌ لم يتخلله الخطأ.

وفي رواية تبين الاهتمام بالقرآن الكريم وترتيب سورهِ وآياته من قبل الله ﷻ، فكان يرسل جبرائيل عليه السلام إلى النبي محمّد ﷺ لكي يعيد عليه تلاوة القرآن الكريم مرة واحدة في السنة، وفي سنة وفاته حصلت مرتين، عن فاطمة عليها السلام قالت: أسرّ إلى النبي ﷺ وقال: ((أن جبرائيل يعارِضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلاَّ حضر أجلي))[3].

والراجح تم تدوين القرآن الكريم في وقت مبكر من الدعوة الإسلاميّة قبل الهجرة إلى الحبشة، وما يؤيد ذلك حادثة إسلام عمر بن الخطاب لما سمع بإسلام أخته جاء وفج رأسها لمّا وجدها تتلو سورة طه ووجد عندها صحيفة من القرآن الكريم فرق قلبه لما قرأها فهداه الله ﷻ باعتناق الإسلام[4].

لقد واضب رسول الله ﷺ على ضبط قراءة القرآن الكريم وحفظه في الصدور من قبل الصحابة، لكي لا يضيع منه شيء، ويسهل على الصحابة قراءته في الصلاة ومناسك العبادة. فقد ورد عن ابن مسعود أنه قال: ((قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ عليّ قلت: آقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: نعم فإِنيّ أحب أن أسمعه مِنْ غيري، ففتحت سورة النساء، فلما بلغت قوله تعالى: ﴿**فكَيفَ إذا جِئنّا من كُلِ أمةٍ بِشَهيدٍ وجِئنّا بِكَ عَلى هَؤلاءِ شَهيَدا**﴾[5]، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان))[6].

كان رسول الله محمّد ﷺ يقضاً للأخطاء التي وقع فيها اليهود عند تدوينهم الكتاب المقدس بعد وفاة النبي موسى عليه السلام، وما وقع فيه من حذف قسم وإضافة قسم آخر، وما

1- سورة الحجر: آية 9.

2- سورة هود: آية 1.

3- النسائي، السنن الكبرى، 7/ 393.

4- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/ 344؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 1/ 101؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 1/ 62.

5- سورة النساء: آية 41.

6- الطبراني، المعجم الكبير، 9/ 80؛ البيهقي، شعب الإيمان، 2/ 219.

وقع به النصارى من تدوين مجموعة أناجيل مختلفة، فقال: ((ما أضل الأمم مِنْ قبلكم إلا ما اكتتبوا مِنَ الكتب مع كتاب اللهِ))[1]، فلما خرج النبي محمّد ﷺ ورأى الصحابة يدونون ما يسمعون عنه نهاهم وقال: ((أكتاب مع كتاب اللهِ؟))[2]. فلهذا زاد حرص واهتمام النبي محمّد ﷺ على تدوين القرآن الكريم فقال: ((لا تكتبوا عني شيئاً إلاَّ القرآن، مَنْ كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه))[3]. وهذا يشير إلى خوف النبي من ضياع الآيات القرآنية أو اختلاطها مع الحديث النبوي الشريف، كي يمنع الكذب والتزوير في كتاب الله المنزل من السماء بواسطة جبريل عليه السلام.

كان القرآن الكريم ينزل به جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ في حياته وكان يكتب على الرقاع والأحجار والعظام وغير ذلك، ولم يجمع كمصحف بين دفتين لأنه لم يكتمل بعد ما دام رسول الله ﷺ على قيد الحياة. وقبل التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى في مرضه الذي توفي فيه سنة (11هـ/ 632م)، تيقن بانقطاع الوحي وإتمام مهمة النبوة، أوكل مهمة جمع القرآن إلى الإمام علي عليه السلام فقال: ((يا علي عليه السلام هذا كتاب الله خذه إليك، فجمعه علي عليه السلام في ثوب فمضى إلى منزله فلما قبض النبي ﷺ جلس علي عليه السلام فألفه كما أنزله الله جل جلاله وكان به عالماً))[4].

ولعظم حجم هذه المهمة التي أوكلت إلى الإمام علي عليه السلام، فبعد إتمام مراسيم دفن النبي محمّد ﷺ اِعتكف الإمام علي عليه السلام في داره ثلاثة أيام وجمع فيها القرآن الكريم بحسب ترتيب نزوله فقال: ((لما مات رسول اللّه ﷺ آليت أن لا آخذ عليّ ردائي إلاَّ لصلاة جمعة حتّى أجمع القرآن فجمعته))[5]، وفي رواية أخرى بنفس المضمون قال: ((أقسمت أو حلفت أن لا أضع ردائي على ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن))[6]، والذي أخّر الإمام علي عليه السلام عن بيعة أبي بكر ولما لقيه سأله أكرهت البيعة؟ أجابه الإمام علي عليه السلام فقال: ((لا ولكني

1- الخطيب البغدادي، تقييد العلم، 33.

2- الطبراني، المعجم الأوسط، 7/ 287.

3- ابن حنبل، مسند أحمد، 17/ 149؛ البزار، البحر الزخار، 15/ 27.

4- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، 1/ 319.

5- الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، 16/ 264؛ الأمين، أعيان الشيعة، 4/ 597.

6- الحلي، حسين، دليل العروة الوثقى، 1/ 3؛ الشاهرودي، علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، 8/ 452.

آليـتُ بيمـين أن لا أرتـدي بـردائي إلا إلى الصـلاة حتـى أجمـع القُـرآنَ! قال: فزعمـوا أنه كتبـه على تنزيلـه))[1].

يبين لنا النص أعلاه اهتمام الإمام علي عليه السلام الذي عرف بالقرآن الناطق لحفظه القرآن بمحكمه ومتشابهه وأسباب نزوله، بجمع القرآن الكريم حين وفاة النبي محمّد صلى الله عليه وآله، وتم ذلك بقرابة ثلاثة أيام، لا كما شاع في بعض المصادر التي اِعتمدها وات بجمع القرآن زمن خلافة عثمان سنة (30هـ/ 650م).

وفي رواية إسلامية أخرى تبين اهتمام أبي بكر بعد وفاة النبي محمّد صلى الله عليه وآله بجمع القرآن الكريم، فكلف الشاب الصحابي زيد بن ثابت بجمع القرآن من صدور الرجال وما كتب في العسب والرقاع والأضلاع، وتمكن من جمعه في مصحف واحد[2]. إلاّ أن الدور الحقيقي لأبي بكر كان يتمثل بجمع القرآن بين اللوحين وحرزه[3]. أي تجميع الصحف والرقاع وغيرها التي كتبت عليها سور القرآن الكريم وجعلها كتاباً واحداً وتجليده لسهولة حمله.

ثم جاء عهد عثمان بن عفان الذي وحد قراءة المصاحف بقراءة واحدةٍ، ونسخها في سبعة نسخ فبعث نسخة إلى مكة وأخرى إلى الشام وأخرى إلى اليمن وأخرى إلى البحرين وأخرى إلى البصرة وأخرى إلى الكوفة وأبقى نسخةً في المدينة؛ لكي لا يشيع اللحن بين القراءات المختلفة[4].

وبعد استعراض هذه الأدلة والشواهد التاريخية التي تُبين جمع القرآن الكريم من قبل الإمام علي عليه السلام في عهد النبي محمّد صلى الله عليه وآله، وبعد وفاته جمعه الإمام علي عليه السلام حسب ترتيب نزوله. والرواية الثانية تبين جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر (11هـ - 13هـ/ 632م - 634م). إلا أنّ وات يعتبر زمن جمع القرآن سنة (30هـ/ 650م) أي في عهد عثمان بن عفان، وقد أخذ رأيه هذا من الرواية الإسلاميّة التي صيغت بطريقة تُصوّر أن النبي محمّد صلى الله عليه وآله أهمل القرآن الكريم وتركه غير مجموع حتى وفاته، وأن عملية الجمع صارت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله

1- ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 257 - 258؛ أبو داود، المصاحف، 59؛ محب الدين الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، 1/ 242؛ السيوطي، الأتقان، 1/ 204.

2- أبو داود، المصاحف، 54؛ القيرواني، مكي بن أبي طالب، الإبانة عن معاني القراءات، 102.

3- النسائي، فضائل القرآن، 81؛ الباقلاني، الانتصار للقرآن، 1/ 64.

4- أبو داود، كتاب المصاحف، 133؛ الباقلاني، الأنصار للقرآن، 1/ 64

من قبل بعض الصحابة. هذه الرواية توحي أن النبي ﷺ أهمل القرآن أمّا الصحابة فلم يهملوه بل جمعوه من بعده، وما يُراد من هذه الرواية إلّا وضع دورٍ لبعض الصحابة لذلك لم تنصف النبي ﷺ وركزت على حفظة القرآن ودورهم في متابعةٍ مصير القرآن. كما تؤكد الرواية على فقدان بعض الآيات والعثور على آيات أخرى بعد الجمع، وهناك أكثر من نسخة. بالمجمل يرتب عليها وات أن القرآن حصل فيه ضياع، والواقع خلاف ذلك فإن الله ﷻ حفظ القرآن من جميع أنواع التحريف والزيادة والنقصان في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1].

(Footnotes)

1 - أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، 14.

2 -أبو طالب، ديوان أبو طالب، 60.

1-سورة الحجر: آية 9.

الخـاتمة

إن دراسة السيرة النبوية كانت وما تزال هي الأساس الذي قامت عليه الدراسات التاريخية، وأنه لمن دواعي الفخر والاعتزاز أن يساهم الباحث في دراسة سيرة النبي العظيم محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) ، ويزيح الغبار ويبطل أكاذيب الروايات التي شوهت وأساءت إلى تاريخ الرسالة ولا سيما تلك التي جاءت من قبل أولئك المستشرقين، وقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

1 - اتّضح جلياً أن كتابة وات للتاريخ والسيرة النبوية لم تخلُ من أخطاءٍ لغويةٍ وأحياناً علميّة وتاريخيّة، سواءً أكان بقصد أم بغير قصد على الرغم من تبوئه منصب كرسي تدريس اللغة العربية والعقيدة الإسلامية والتاريخ لردح من الزمن، بل غاب عنه روح الشرق وعبقرية اللغة بألفاظها وتعبيراتها.

2 - سار وات على خُطى المؤرخين المسلمين المتعصبين بالإساءة لعائلة النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بوصفهم بالفقر حتى يحطوا من مكانة الأسرة الكريمة بين العرب، ويتضح بطلانها بما كان عليه هاشم وعبد المطلب وأبو طالب من مكانةٍ سامقةٍ في منصب سيادة قريش والعرب، حيث لا يتقمّص هذا المنصب إلا من كان ذو مالٍ وفير ونسب رفيع وشرف أصيل.

3 - حاول وات إضعاف دور مشركي قريش بالمعارضة الفعليّة للدعوة الإسلامية وإيذائهم للمسلمين بل صورها بطابع المعارضة اللفظية البسيطة.

4 - اعتبر وات السنوات الثلاث الأولى من الدعوة السرية في العهد المكي ليست من عصر النبوة، بل وصفها بمرحلة الإعداد للنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) لتحمل مهام النبوة، وأنكر ما نزل من القرآن في تلك الحقبة، واعتبرها من نتاج النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، علماً أن مرحلة الإعداد سبقت نزول الوحي، ومرحلة النبوة زمنها ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنوات في المدينة.

5 - لم يصرح في كتاباته بكلمة النبي أو الرسول بحق النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وذلك إنكاراً منه بنبوة محمد ﷺ، بل اِعتبره مصلحاً اجتماعيّاً، ورجلاً سياسيّاً بعيد

النظر، ومفكّراً، وأدرجه تحت الكهانة تارة، وغير ذلك من الصفات ولم يعترف بنبوته، ويعود ذلك إلى أنّ وات نشأ نشأةً لاهوتيةً مسيحيةً جعلت منه شخصاً متطرفاً.

6 - اتضح لنا جلياً أن وات ليس حيادياً ولا موضوعياً، بل إنّه لم يسلم من التعصب والعمل لنزعات دينيّة فيطرح تساؤلاً مفاده لماذا لم يعتنق محمد المسيحية؟ واعتبر قناعة أهل المدينة المنورة بقبول النبي محمد ﷺ لا لكونه خاتم الأنبياء بل لكونه المسيح المنتظر. وفي مواقع عديدةٍ تنصل وات عن الحيادية بالبحث التاريخي، بل اِنحاز إلى يهود بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع نتيجةً لما أُنزِل بهم من العقاب، لسوء موقفهم من الإسلام وتنصيبهم العداء للنبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وجعل نفسه محامياً خاسراً يدافع عن قضيته. وعلى الرغم مما شاع لدى أوساط المثقفين والأكاديميين بأن وات من المنصفين في كتاباته، لكن كتاباته تحمل في طياتها النظريات الفاسدة عن الإسلام عموماً والنبي محمد خصوصاً، والتي تمثل هجوماً في صورة مسالمة، وتعصباً في صورة إنصاف.

7 - أنكر وات نبوة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وتبليغه رسالة السماء واِعتبرها شيئاً من اللاوعي متأثراً بمرحلة الطفولة وما اِقتبسه من تجارب اللقاء مع بحيرى الراهب وآخرين، مفسراً إياها بنظرية التأثير والتأثر.

8- اِعتبر ما جاء به النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من تعاليم شريعة الإسلام ما هي إلا أمور مألوفة سابقاً واِشتقها من الديانة اليهودية والمسيحية، متجاهلاً اِشتراك الأديان السماوية الكبرى الثلاثة بدعوة التوحيد والمصدر هو الله، وتارة أخرى من تقاليد العرب القديمة، وتارة أخرى وفقاً لتوجهاته المادية، فاعتبر انخراط القبائل العربية في الإسلام بدافعٍ ماديٍّ للحصول على الغنائم من الحرب وهذا لم يكن سمة عصر الرسالة المحمديّة، بل ظهر في سياسة العصر الأموي لقهر الشعوب تحت سلطانهم.

9- حاول وات في طرحه أن يصور نظام المؤاخاة التي كانت من نتاج عبقرية عقل النبي محمد ﷺ لحلّ مشكلات اقتصاديّةٍ واجتماعيّةٍ ونفسيّةٍ للمهاجرين بعد وصولهم إلى المدينة المنورة، لكنه عده من إرث نظام تحالفات الجاهلية.

10- في ما يتعلق بالناحية الخُلقية للنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) الذي كان يطيل الصمت أثناء تأملاته والتي تشير إلى امتلاكه ضبطاً عالياً، أي كان قادراً على إدارة

انفعالاته بدقة عالية، لكن وات تجاهل هذه التفسيرات النفسية الحديثة ووجه تهمة الكآبة للنبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم).

11 - اعتبر النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) رجلاً سياسيّاً بحت وسعى بتعدّد الزيجات لكسب أفراد القبائل إليه، متأثراً بنظرة رجال السياسة بالكسب لتوسيع القاعدة الجماهيرية، متجاهلاً دور النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في نشر مبادئ التوحيد ونبذ الشرك وإصلاح الانحراف عند الموحدين.

12- صادر وات جهود النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في نشر الدعوة الإسلاميّة خارج شبه الجزيرة العربية بتشكيكه في بعث رُسل النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) إلى ملوك الدول وعرض عليهم الإسلام، محاولةً منه في تضعيف مكانة الإسلام، كما شكّك في قدوم الوفود من مختلف القبائل معلنةً إسلامها، بل اِعتبرها حالات فردية لا تمثل قبائلهم.

13- حقق النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) شهرةً عالميةً نالت اِعجاب الجميع حتى من قبل الغرب، وبعد عشرات القرون اِنكبوا عليه بالدراسة والبحث ومنهم وات الذي أكثر من الكتابة عن النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم).

14- حاول إظهار العداء بين الإسلام والمسيحية وتغليب العقل المسيحي بتركيزه على توجيه النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) للسرايا والغزوات باتجاه شمال شبه الجزيرة العربية والتي تقطنها القبائل المسيحية، ونسي أنّ تحرك المسلمين كان إلى الجهات جميعها منها اليمن في الجنوب وعمان والبحرين بالشرق وتبوك ومؤتة بالشمال.

15- تطفل وات على عمل المفسرين كونه مؤرخاً ومترجماً، ففسر بشكلٍ خاطئ نزول الوحي بتكليم النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) من وراء حجاب، وفسر الحجاب على أنّه عباءةٌ كان النبي يستخدمها ليستتر بها خوفاً من جبرائيل عليه السلام ومرة ليجلب بها الوحي للنزول عليه، لعله يقصد بها خوف النبي صلى الله عليه وآله وأن نزول الوحي برغبته. ووقع وات في خلط بين مفردة الغزو عند العرب قبل الإسلام وبين مفردة الجهاد في صدر الإسلام معتبراً الأخيرة جاءت بدافع السلب والنهب ومصدراً للرزق، لا من باب فريضة الجهاد في محاربة المشركين.

16- حاول وات أن يعكس ما حلّ بالديانة اليهودية والمسيحية من تلاعبٍ بنص كتاب العهد القديم والعهد الجديد على النص القرآني، فاعتبر جمعه متأخراً إلى زمن الخليفة عثمان بن عفان، وأهمل دور النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) في جمع القرآن ومن بعده أبي بكر والإمام علي عليه السلام.

17- إن وات كان خاضعاً لردة الفعل الكبيرة التي عانتها المجتمعات الأوروبيّة الحديثة، التي فصلت بين السلطتين الزمنية والدينيّة، وراحت عابرة لتفسير الكنيسة وإلغاء الجوانب الغيبية في تفسير الحدث التأريخي. فأهمل في جوانب كثيرةٍ من حياة النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) منها إنهاء الحصار في شِعْب أبي طالب لما سلّط الله دودة الأرضة التي أكلت صحيفة مشركي قريش فأخبر الرسول عمه أبا طالب، لتكون آيةً تدل على نبوة محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وحتى يؤمنوا بنبوته، وكذلك الإسراء والمعراج والمعجزات كثيرة التي تحققت بحياة النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) وبعد وفاته.

18- ألمح وات بميوله للحزب الأموي إلى دورٍ بارزٍ أداه أبو سفيان في فتح مكة بدون قتال بالاتفاق مع النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم)، ليضعف هيبة المسلمين في فتح مكة بدون مقاومةٍ تذكر.

19- معظم هذه الشبهات التي وضعها وات، كان يحاول من ورائها الصدّ عن سبيل الله وخشية انتشار دين الإسلام في العالم، وذلك بعد أن أصبح الإسلام أكثر قبولاً في العالم؛ لأنه دين الحق وجاء لإصلاح الخلل في المنظومة الدينيّة ومعالجة قضايا الإنسان الجوهريّة الكبرى.

20 - لقد صرح وات بأن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام البنت الوحيدة لأبيها النبي محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم) بعد وفاة كلّ أطفاله في سنّ مبكرةٍ[1].

1- محمد في المدينة، 491.

قائمــة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

أولاً: المصادر الأولية

* ابن الأثير، علي بن أبي كرم محمد الجزري (ت 630هـ/ 1238م).

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر دار الكتب العلمية، (د.م، 1994م).

- الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، (بيروت، 1997م) .

- اللباب في تهذيب الأنساب، الناشر دار صادر، (بيروت، د. ت).

* ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري، (ت 606هـ/ 1209م).

- جامع الأصول في أحاديث الرسول، تح: عبد القادر الأرنؤوط وآخرون، الناشر مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، (د.م، 1972م).

- النهاية في غريب الحديث والأثر، الناشر المكتبة العلمية، تح: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، (بيروت، 1979م).

* الآجري، محمد بن الحسين البغدادي، (ت 360هـ/ 970م).

- الشريعة، تح: عبد الله بن عمر، الناشر دار الوطن، ط 2، (الرياض، 1999م).

* بن إدريس الحلي، محمد بن منصور بن أحمد، (ت 598هـ/ 1201م).

- إكمال النقصان من تفسير منتخب التبيان (موسوعة ابن إدريس الحلي)، تح: محمد مهدي الموسوي الخرسان، الناشر العتبة العلوية المقدسة، (د.م، 2008م).

- السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، تح: لجنة التحقيق، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط 2، (قم، 1989م).

* الأربلي، علي بن عيسى بن أبي الفتح ، (ت 693 هـ/ 1293م).

- كشف الغمة في معرفة الأئمة، الناشر دار الأضواء، ط 3، (بيروت، 1985م).

* الأزرقي، محمد بن عبد الله بن أحمد ، (ت 250هـ/ 864م).

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تح: علي عمر، الناشر مكتبة الثقافة الدينيّة، (د.م، د. ت).

* الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، (ت 370هـ/ 980م).

- تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 2001م).

- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، تح: محمد جبر الألفي، الناشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (الكويت، 1978م).

* أبو إسحاق المدني، إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري (ت 180هـ/ 796م).

- أحاديث إسماعيل بن جعفر، تح: عمر بن رفود بن رفيد السّفياني، الناشر مكتبة الرشد، (الرياض، 1998م).

* ابن اسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، (ت 151هـ/ 768م).

- السير والمغازي، تح: سهيل زكار، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1978م).

* الأشعري، محمد بن علان الصديقي، (ت 1057هـ/ 1647م).

- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، الناشر جمعية الأزهري، (بلام، بلا. ت)

* الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل ، (ت 535هـ/ 1140م).

- سير السلف الصالحين، تح: كرم بن حلمي بن فرحات ، الناشر دار الراية، (الرياض، د. ت).

* الأصبهاني، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري، (ت 369هـ/ 979م).

- أخلاق النبي وآدابه، تح: صالح بن محمد الونيان، الناشر دار المسلم، (د.م، 1998م).

* الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد، (ت 597هـ/ 1200م).

- البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تح: عمر عبد السلام تدمري، الناشر المكتبة العصرية، (بيروت، 2002م).

* الأصطخري، إبراهيم بن محمد، (ت 346ه/ 957م).

- المسالك والممالك، الناشر دار صادر، (بيروت، 2004م).

* ابن أعثم، أحمد الكوفي، (ت 314، 927م).

- الفتوح، تح: علي شيري، الناشر دار الأضواء، (د.م، 1990م).

* ابن الأعرابي، أحمد بنمحمد البصري، (ت 340هـ/ 951م).

- معجم ابن الأعرابي، تح: عبد المحسن بن إبراهيم، الناشر دار ابن الجوزي، (الرياض ، 1997م).

* ابن بابويه، علي بن الحسين ، (ت 329هـ/ 940م).

- الإمامة والتبصرة من الحيرة، تح: مدرسة الإمام المهدي «عج»، (قم، 1983م).

* الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد، (ت 403هـ، 1012م).

- الانتصار للقرآن، تح: محمد عصام القضاة، الناشر دار ابن حزم، (بيروت، 2001م).

* البحراني، هاشم بن سلمان بن إسماعيل الحسيني، (ت 1107هـ/ 1695م).

- البرهان في تفسير القرآن، تح: مؤسسة البعثة، (قم، د. ت).

* بَحْرَق، محمد بن عمر بن مبارك الحميري، (ت 930هـ/ 1523م).

- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تح: محمد غسان نصوح عزقول، الناشر دار المناهج، (جدة، 1998م).

* البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي، (ت 256هـ/ 869م).

- التاريخ الصغير تح: محمود ابراهيم زايد، الناشر دار المعرفة، (بيروت، د. ت).

- التاريخ الكبير، الطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد - الدكن، د.م).

- صحيح البخاري، تح: مصطفى ديب، الناشر دار ابن كثير، (بيروت، 1987م).

* البُرّي، محمد بن أبي بكر بن عبد الله التِّلمساني، (ت بعد 645هـ/ 1247م).

- الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، تح: محمد التونجي، الناشر دار الرفاعي، (الرياض، 1983م).

* القاضي البراج، عبد العزيز بن البراج، (ت 481ه/ 1088م).

- المهذب، تح جعفر السبحاني، الناشر جماعة المدرسين، (قم، 1985م)

* الحافظ البرسي، رجب بن محمد بن رجب الحلي، (ت 813هـ/ 1410م).

- مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام، تح: علي عاشور، الناشر مؤسسة الأعلمي، (بيروت، 1999م).

* البزار، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، (ت 292هـ/ 904م).

- البحر الزخار (مسند البزار)، تح: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، الناشر مكتبة العلوم والحكم، (المدينة المنورة، 2009م).

* البستي، حمد بن محمد (ت 388هـ/ 998م).

- شأن الدعاء، تح أحمد يوسف، الناشر دار الثقافة، ط 3، (د.م، 1992م).

* ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك الخزرجي الأندلسي، (ت 578هـ/ 1182م).

- غوامض الأسماء المبهمة الواقعة فيمتون الأحاديث المسندة، تح: عز الدين علي السيد، ومحمد كمال الدين عز الدين، الناشر عالم الكتب، (بيروت، 1986م).

* ابن بطة، عبيد الله بن محمد بن محمد العكبري، (ت 387هـ/ 997م).

- الإبانه الكبرى، تح: رضامعطي، وآخرون، الناشر دار الراية، (الرياض، د. ت).

* ابن بطوطة، محمد بن عبدالله الطنجي، (ت 779هـ/ 1377م).

- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، الناشر أكادمية المملكة المغربية، (الرباط، 1996م).

* البغوي، الحسين بنمسعود البغوي ، (ت 510هـ/ 1116م).

- شرح السنة، تح: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، الناشر المكتب الإسلامي دمشق، ط 3، (بيروت، 1983م).

- معالم التنزيل في تفسير القرآن، تح: عبد الرزاق المهدي، الناشر دار إحياء التراث العربي ، (بيروت،1999م).

* البقاعي، إبراهيم بن عمر، (ت 885هـ/ 1480م).

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح عبد الرزاق غالب مهدي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1995م).

* البكري، عبد الله بن عبد العزيز بنمحمد الأندلسي، (ت 487هـ/ 1094م).

-معجمما استعجممن أسماء البلاد والمواضع، الناشر عالم الكتب، ط 3، (بيروت، 1982م).

* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، (ت 279هـ/ 892م).

- أنساب الأشراف، تح: محمد حميد الله، الناشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، مطبعة دار المعارف، (القاهرة، 1959م).

- فتوح البلدان، الناشر دار ومكتبة الهلال، (بيروت، 1988).

* البلخي، عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، (ت 319هـ/ 931م).

- قبول الأخبار ومعرفة الرجال، تح: الحسيني بن عمر بن عبد الرحيم، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2000م).

* البهائي، بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد، (ت 1031هـ/ 1621م).

- مفتاح الفلاح، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت، د. ت).

* البوصيري، محمد بن سعيد بن حمّاد الجنوني الصنهاجي، (ت 696هـ/ 1296م).

- ديوان البوصيري، بلا ناشر، (د.م، د. ت) [المكتبة الشاملة].

* البيضاوي، عبد الله بن عمر بنمحمد، (ت 685هـ/ 1286م).

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد عبد الرحمن، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1997م).

* البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، (ت 458هـ/ 1065م).

- أحكام القرآن للشافعي - جمع البيهقي -، تح: محمد زاهد الكوثري، الناشر مكتبة الخانجي، ط 2، (القاهرة، 1994م).

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1984م).

- السنن الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (بيروت، 2003م).

- شعب الإيمان تح: محمد السعيد، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1989م).

- المدخل إلى السنن الكبرى، تح: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، (الكويت، د. ت).

-معرفة السنن والآثار، تح: سيد كسروي حسن، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

* تاج القراء، محمود بن حمزة بن نصر، (ت 505هـ/ 1111م).

- غرائب التفسير وعجائب التأويل، الناشر دار القبلة، (جدة، د. ت).

* الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة، (ت 279هـ/ 892م).

- سنن الترمذي، تح: أحمدمحمد شاكر، وآخرون، الناشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط 2، (القاهرة، 1975م).

- الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، تح: سيد بن عباس الجليمي، الناشر المكتبة التجارية، (مكة، 1993م).

* التستري، سهل بن عبد الله بن يونس، (ت 283هـ/ 896م).

- تفسير التستري، تح: محمد باسل، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2002م).

* بن ثابت، حسان بن ثابت الأنصاري، (ت 40هـ/ 660م).

- ديوان حسان بن ثابت، بلا ناشر، (د.م، د. ت) [المكتبة الشاملة].

* الثعلبي، أحمد بنمحمد بن إبراهيم، (ت 427هـ/ 1035م).

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: أبو محمد بن عاشور، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 2002م).

* الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، (ت 255هـ/ 868م).

- البيان والتبيين، الناشر دار ومكتبة الهلال، (بيروت، 2002م).

- الحيوان، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (بيروت، 2003م).

- المحاسن والأضداد، الناشر مكتبة الخانجي، ط 2، (القاهرة، 1994م).

* ابن جبر، زين الدين علي بن يوسف بن جبر، (ت ق 7هـ/ 13م).

- نهج الإيمان تح: السيد أحمد الحسيني، الناشر مجتمع إمام هادي عليه السلام – مشهد -، (قم، 1997م).

* الجرجاني، عبد الله بن عدي بن عبد الله، (ت 365هـ/ 975م).

- الكامل في ضعفاء الرجال، تح: عادل أحمد، وعلي محمد، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1997م).

* الجرجاني، الحسين بن الحسن بن محمد الحليمي، (ت 403هـ/ 1012م).

- المنهاج في شعب الإيمان، تح: حلمي محمد، الناشر دار الفكر، (د.م، 1979م).

* ابن الجزي، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي، (ت 741هـ/ 1340م).

- التسهيل لعلوم التنزيل، تح: عبد الله الخالدي، الناشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، (بيروت، 1995م).

* الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي، (ت 370هـ/ 980م).

- أحكام القرآن، تح: محمد صادق القمحاوي، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1984م).

* ابن الجعد، علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي، (ت 230هـ/ 844م).

- مسند ابن الجعد، تح: عبد المهدي بن عبد القادر، الناشر مكتبة الفلاح، (الكويت، 1985م).

* ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت 597هـ/ 1200م).

- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، (بيروت، 1997).

- زاد المسير في علم التفسير، الناشر المكتب الإسلامي، ط 3، (بيروت، 1983م).

- صفة الصفوة، تح: أحمد بن علي، الناشر دار الحديث، (القاهرة، 2000م).

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الناشر دار صادر، (بيروت، 1939م).

* ابن أبي جمهور، محمد بن علي بن إبراهيم الأحسائي، (ت 880هـ/ 1475م).

- عوالي اللألي، تح: شهاب الدين النجفي المرعشي، وآقا مجتبى العراقي، الناشر مطبعة سيد الشهداء، (قم، 1983م).

* الجوهري، أحمد بن عبد العزيز البصري، (ت 323هـ/ 934م).

- السقيفة وفدك، تح: محمد هادي الأميني، الناشر شركة الكتبي، ط 2، (بيروت، 1993م).

* الجوهري، إسماعيل بن حماد الفارابي، (ت 393هـ/ 1002م).

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر دار العلم للملايين، ط 4، (بيروت، 1987م).

* ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد، (ت 327هـ/ 938م).

- تفسير القرآن العظيم ، تح: أسعد محمد الطيب، الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 3، (الرياض، 1998م).

- الجرح والتعديل، تح: عبد الرحمن بن يحيى، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 1953م).

* الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، (ت ق 5هـ/ ق 12م).

- شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تح: محمد باقر المحمودي، الناشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، (طهران، 1990م).

* الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله بن محمد، (ت 405هـ/ 1014م).

- المستدرك على الصحيحين، تح: مقبل بن هادي ، الناشر دار الحرمين، (القاهرة، 1997م).

* ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد التيمي البستي، (ت 354هـ/ 965م).

- الثقات، تح: دائرة المعارف العثمانية، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1983م).

- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تح: الحافظ السيد عزيز بك، وآخرون، الناشر دار الكتب الثقافية، ط 2، (بيروت، 1996م).

- صحيح ابن حبان، تح: شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1988م).

* ابن حبيب، محمد بن حبيب بن أمية البغدادي، (ت 245هـ/ 859م).

- المحبر، تح: إيلزة ليختن شتينز، منشورات دار الآفاق الجديدة، (بيروت، 2009م).

- المنمق في أخبار قريش، تح خورشيد أحمد، الناشر عالم الكتاب، (بيروت، 1985م).

* ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، (ت 852هـ/ 1448م).

- الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد، وعلي محمد ، الناشر دار الكتب العلمية ، (بيروت، 1994م).

- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس (طبقات المدلسين)، تح: عاصم بن عبد الله القريوتي، الناشر مكتبة المنار، (عمان، 1983م).

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر دار المعرفة، (بيروت، 1995م).

* ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد بن هبة الله المدائني، (ت 656هـ/ 1258م).

- شرح نهج البلاغة ، تح: محمد أبو الفضل، الناشر دار إحياء التراث العربي، ط 2، (بيروت، 2012م) .

* الحر العاملي، محمد بن الحسن ، (ت 1104 هـ/ 1595م).

- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تح والناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة مهر، ط 2، (قم، 1993م).

* الحراني، الحسين بن محمد بن أبي معشر الجَزَري، (ت 318هـ/ 930م).

- المنتقمن كتاب الطبقات، تح: إبراهيم صالح، الناشر دار البشائر، (د.م، 1994م).

* ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن سعيد، (ت 456هـ/ 1063م)

- جمهرة أنساب العرب، تح: لجنة من العلماء، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1983).

- جوامع السيرة النبوية، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

* الحسيني، السيد شرف الدين علي الأستر آبادي، (ت 965هـ/ 1557م).

- تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، تح: مدرسة الإمام المهدي (عج)، الناشر: مدرسة الإمام المهدي (عج)، مطبعة أمير، (قم، 1986م).

* الحرضي، يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري، (ت 893هـ/ 1487م).

- بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، الناشر دار صادر، (بيروت، د. ت).

* الحضرمي، أبو محمد الطيب بن عبد الله، (947هـ/ 1540م).

- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تح: بو جمعة مكري، وخالد زواري، الناشر دار المنهاج، (جدة، 2008م).

* الحكيم الترمذي، محمد بن علي بن الحسن ، (ت 320هـ/ 932م) أو (285هـ/ 898م).

- نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تح: إسماعيل بن إبراهيم متولي، الناشر مكتبة الإمام البخاري، (د.م، 2008م).

* الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد، (ت 1044هـ/ 1634م).

- السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (بيروت، 2006م).

* الحلواني، الحسين بن محمد بن الحسن، (ت ق 5هـ/ 11م).

- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، تح: مؤسسة الإمام المهدي u، (قم، د. ت).

* الحلي، الحسن بن يوسف بن علي، (ت 726هـ/ 1325م).

- تذكرة الفقهاء، تح والناشر: مؤسسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة مهر، (قم، 1993م).

- الرسائل السعدية، تح: عبد الحسين محمد، الناشر محمد المرعشي، (قم، 1989م).

* الحميدي، عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي، (ت 219هـ/ 834م).

- مسند الحميدي، تح: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ، الناشر دار السقا، (دمشق، 1996م).

* الحميري، نشوان بن سعيد اليمني، (ت 573هـ/ 1177م).

- شمس العلوم ودواء كلام العربمن الكلوم، تح: حسين عبد الله العمري وآخرون، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1999م).

* ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، (ت 241هـ/ 855م).

- فضائل الصحابة، تح: وصي اللهمحمد عباس، الناشرمؤسسة الرسالة، (بيروت، 1983م).

- مسند أحمد بن حنبل، تح: أحمد محمد شاكر، الناشر دار الحديث، (القاهرة، 1995م).

* أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، (ت 745هـ/ 1344م).

- البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1999م).

* ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله، (ت 280هـ/ 893م).

- المسالك والممالك، الناشر دار صادر أفست ليدن، (بيروت، 1889م).

* الخركوشي، عبد الملك بن أبي عثمان محمد النيسابوري، (ت 406هـ/ 1016م).

- مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفى، الناشر دار البشائر الإسلامية، (مكة، 2003م).

* ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق النيسابوري، (ت 311هـ/ 923م).

- صحيح ابن خزيمة، تح: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر المكتب الإسلامي، ط 3، (د.م ، 2003م).

* الخصيبي، أبي عبد الله الحسين بن حمدان، (ت 334هـ/ 945م).

- الهداية الكبرى، الناشرمؤسسة البلاغ، ط 4، (بيروت، 1991م).

* الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، (المتوفى: 463هـ/ 1070م).

- تاريخ بغداد، تح: بشار عواد، الناشر دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 2002م).

- تقييد العلم، الناشر إحياء السنة النبوية، (بيروت، د. ت).

* الخفاجي، أحمد بنمحمد بن عمر، (ت 1069ه/ 1658م).

- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، الناشر دار صادر، (بيروت، د. ت).

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، الحضرمي، (ت 808هـ/ 1405م).

- تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تح: خليل شحادة، الناشر دار الفكر، ط 2، (بيروت، 1988م).

* أبن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، (ت 681هـ/ 1282م).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت، د. ت).

* الخوارزمي، الموفق بن أحمد البكري المكي، (ت 568هـ/ 1172م).

- المناقب، تح: مالك المحمودي، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، ط 2، (قم، 1990م).

* ابن خياط، خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري، (ت 240هـ/ 854م).

- تاريخ خليفة بن خياط ، تح: أكرم ضياء العمري، الناشر دار القلم، ط 2، (بيروت، 1976م).

- الطبقات، تح: سهيل زكار، الناشر دار الفكر، (د.م، 1993م).

* ابن أبي خيثمة، أحمد بن زهير بن حرب الحرشي، (ت 279هـ/ 892م).

- تاريخ ابن أبي خيثمة (التاريخ الكبير)، تح: صلاح بن فتحي هلال، الناشر دار الفاروق الحديثة، (القاهرة، 2006م).

* الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل السمرقندي، (ت 255هـ/ 868م).

- سنن الدارمي، تح: حسين سليم أسد، الناشر دار المغني، (الرياض، 2000م).

* أبو داود، سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، (ت 204هـ/ 819م).

- مسند أبي داود، تح: محمد بن عبد المحسن، الناشر دار هجر، (القاهرة، 1999م).

* أبو داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، (ت 316هـ/ 928م).

- المصاحف، تح: محمد بن عبده، الناشر الفاروق الحديثة، (القاهرة، 2002م).

* ابن دريد، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، (ت 321هـ/ 933م).

- الاشتقاق، تح: عبد السلام محمد هارون، الناشر دار الجيل، (بيروت، 1991م).

- جمهرة اللغة ، تح: رمزي منير بعلبكي، الناشر دار العلم للملايين، (بيروت، 1987م).

* الدمشقي، ابن ناصر الدين محمد بن عبد الله القيسي، (ت 842هـ/ 1438م).

- جامع الآثار في السير ومولد المختار، تح: نشأت كمال وحسين محمد، الناشر دار الفلاح، (د.م، 2010م).

* الدميري، محمد بن موسى بن عيسى، (ت 808هـ/ 1405م).

- حياة الحيوان الكبرى، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (بيروت، 2003م).

* الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، (ت 736هـ/ 1335م).

- كنز الدرر وجامع الغرر، تح: بيرند راتكه وآخرون، الناشر عيسى البابي، (د.م، د. ت).

* الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، (ت 966هـ/ 1558م).

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الناشر دار صادر، (بيروت د. ت).

* الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت 748هـ، 1348م).

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، الناشر دار الكتاب العربي، ط2، (بيروت، 1993م).

- سير أعلام النبلاء، الناشر دار الحديث، (القاهرة ، 2006م).

-ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح: علي محمد البجاوي، الناشر دار المعرفة، (بيروت، 1963م).

* الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، (ت 666هـ/ 1267م).

- مختار الصحاح ، الناشر مكتبة لبنان، (بيروت، 1995م).

* ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد، (ت 795هـ/ 1392م).

- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، تح: بشير محمد عيون، الناشر مكتبة المؤيد، ط 2، (دمشق، 1988م).

* ابن راشد، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي، (ت 153هـ/ 770م).

- جامع معمر بن راشد، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر المجلس العلمي بباكستان، ط 2، (ببيروت، 1982م).

* الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، (ت 502هـ/ 1108م).

- تفسير الراغب الأصفهاني، تح: هند بنت محمد بن زاهد وآخرون، الناشر دار الوطن، (الرياض، 2001م).

* الروياني، أبو بكر محمد بن هارون، (ت 307هـ/ 919م).

- مسند الروياني، تح: أيمن علي أبو يماني، الناشر مؤسسة قرطبة،(القاهرة، 1995م).

* الزبير بن بكار، الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب، (ت 256هـ/ 869م).

- الأخبار الموفقيات، تح: سامي مكي العاني، الناشر عالم الكتب، ط 2، (بيروت، 1996م).

- المنتخب ن كتاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، تح: سكينة الشهابي، الناشر مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1982م).

* الزبيري، مصعب بن عبد الله بن مصعب ، (ت 236هـ/ 850م).

- نسب قريش، تح: ليفي بروفنسال، الناشر دار المعارف، ط 2، (القاهرة، د. ت).

* الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف، (ت 1122هـ/ 1710م).

- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الناشر دار الكتب العلمية، (د.م، 1996م).

* الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، (ت 794هـ/ 1391م).

- اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة، الناشر دار الكتب العلمي، (د.م، د. ت).

* الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، (ت 538هـ/ 1143م).

- أساس البلاغة، دار النشر دار الفكر، (د.م، 1979م).

- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الناشر مؤسسة الأعلمي، (بيروت، 1991م).

- الفائق في غريب الحديث والأثر، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر دار المعرفة، ط 2، (بيروت، د. ت).

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الناشر دار الكتاب العربي، (بيروت، 1986م).

- المستقصى في أمثال العرب، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (بيروت، 1987م).

* ابن زنجويه، حميد بن مخلد بن قتيبة الخرساني، (ت 251هـ/ 865م).

- الأموال، تح: شاكر ذيب فياض، الناشر مركز الملك فيصل، (الرياض، 1986م).

* سبط بن الجوزي، يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله، (ت 654هـ/ 1256م).

- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد بركات وآخرون، الناشر دار الرسالة العالمية، (دمشق، 2013م).

* السخاوي، علي محمد بن عبد الصمد الهمداني، (ت 643هـ/ 1245م).

- جمال القراء وكمال الإقراء، تح: مروان العطيَّة، ومحسن خرابة، الناشر دار المأمون للتراث، (بيروت، 1997م).

* السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بنمحمد، (ت 902هـ/ 1496م).

- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الناشر الكتب العلمية، (بيروت، 1993م).

- سفر السعادة وسفير الإفادة، تح: محمد الدالي، الناشر دار صادر، ط 2، (د.م، 1995م).

* السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، (ت 483هـ/ 1090م).

- المبسوط، الناشر دار المعرفة، (بيروت، 1993م).

* ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع، (ت 230هـ/ 844م)

- الطبقات الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1990م).

* ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى بن سعيد المنسي، (685هـ/ 1286م).

- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تح: نصرت عبد الرحمن، الناشر مكتبة الأقصى، (عمان، د. ت).

* ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، (ت 244هـ/ 858م).

- كتاب الألفاظ، تح: فخر الدين قباوة، الناشر مكتبة لبنان، (بيروت، 1998م).

* ابن سلام، محمد بن سلاّم بن عبيد الله الجمحي، (ت 232هـ / 846م).

- طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، الناشر دار المدني، (جدة، د. ت).

* السمرقندي، محمد بن أحمد بن أبي أحمد، (ت 540هـ/ 1145م).

- تحفة الفقهاء، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (بيروت، 1994م).

* السمرقندي، نصر بن محمد بن إبراهيم، (ت 373هـ/ 983م).

- بحر العلوم، تح: محمود مطرجي، الناشر دار الفكر، (بيروت، د. ت).

* السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور، (ت 562هـ/ 1166م).

- الأنساب، تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الناشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد، 1962م).

* السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي، (ت 489هـ/ 1095م).

- تفسير القرآن، تح: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، الناشر دار الوطن، (الرياض، 1997م).

* السمين الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، (ت 756هـ/ 1355م).

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، الناشر دار القلم، (دمشق، د. ت).

* السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني، (ت 911هـ/ 1505م).

- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1998م).

* السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، (ت 581هـ/ 1185م).

- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تح: عمر عبد السلام السلامي، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 2000م).

* ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، (ت 734هـ/ 1333م).

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تح: إبراهيم محمد رمضان، الناشر دار القلم، (بيروت، 1993م).

* ابن سيده، علي بن إسماعيل المرسي، (ت 458هـ/ 1065م).

- المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2000م).

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت 911هـ/ 1505م).

- الإتقان في علوم القرآن، الناشر مجمع الملك فهد، (الرياض، د. ت).

- الخصائص الكبرى، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

- لب اللباب في تحرير الأنساب، الناشر دار صادر، (بيروت، د. ت).

- لباب النقول في أسباب النزول، تح: أحمد عبد الشافي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر مركز هجر للبحوث، (القاهرة، 2003م).

- شرح شواهد المغني، تح محمد محمود الشنقيطي، الناشر لجنة التراث العربي، (د.م، 1966م).

- المحاضرات والمحاورات، الناشر دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 2003م).

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت 911هـ/ 1505م)، والمحلي، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت 864هـ/ 1459م).

- تفسير الجلالين، الناشر دار الحديث، (القاهرة، د. ت).

* ابن شاذان، الفضل بن شاذان بن خليل الأزدي، (ت 260 ه/ 873م).

- الإيضاح، تح: جلال الدين الحسيني الأرموي، الناشر مؤسسة انتشارات وچاپ دانشگاه، (تهران، 1363 ش).

* الشارعي، موفق الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، (ت 615هـ/ 1218م).

- مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، الناشر الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، 1994م).

* الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس القرشي، (ت 204هـ/ 819م).

- مسند الشافعي، تح: يوسف علي الزواوي، وعزت العطار، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1951م).

* ابن شبة، زيد بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، (ت 262هـ/ 875م).

- تاريخ المدينة، تح: فهيم محمد شلتوت، الناشر دار الفكر، (جدة، 1978م).

* الشريف المرتضى، علي بن حسين بن موسى، (ت 436، 1070م).

- رسائل الشريف المرتضى، تح: السيد أحمد الحسيني، الناشر دار القرآن الكريم، (قم، 1984م).

* الشجري، هبة الله بن علي بن حمزة، (ت 542هـ/ 1147م).

- آمالي ابن الشجري، تح: محمود محمد الطناحي، الناشر مكتبة الخانجي، (القاهرة، 1991م).

* الشجري، يحيى بن الحسين بن إسماعيل الجرجاني، (ت 499هـ/ 1105م).

- ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، رتبها محمد بن أحمد القرشي، (ت 610هـ/ 1213م)، تح: محمد حسن محمد، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2001م).

* ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني، (ت 588هـ/ 1192م).

- متشابه القرآن ومختلفة، المطبعة: چاپخانه شركت سهامى، (د.م، 1910م).

- مناقب آل أبي طالب، تح: أساتذة النجف، المطبعة الحيدرية، (النجف، 1956م).

* الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر، (ت 548هـ/ 1153م).

- الملل والحلل، الناشر مؤسسة الحلبي، (د.م، د. ت).

* الشيباني، أحمد بن عمرو بن الضحاك، (ت 287هـ/ 900م).

- الآحاد والمثاني، تح: باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر دار الراية، (الرياض، 1991م).

* بن أبي شيبة، عبد الله بنمحمد بن إبراهيم العبسي، (ت 235هـ/ 849م).

- المصنف في الأحاديث والآثار، تح: كمال يوسف الحوت، الناشر مكتبة الرشد، (الرياض، 1988م).

* الشيرازي، محمد طاهر، (ت 1098هـ/ 1686م).

- الكتاب الأربعين في إمامة الإئمة الطاهرين، تح: مهدي الرجائي، مطبعة الأمير، (قم، 1997م).

* الصالحي، محمد بن يوسف الشامي، (ت 942هـ/ 1535م).

- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1993م).

* ابن الصباغ، علي بن محمد أحمد، (ت 855ه/ 1451م).

- الفصول المهمة في معرفة الأئمة، تح: سامي الغريري، الناشر دار الحديث، (د.م، 2001م).

* الصدوق، محمد بن علي، (ت 381هـ/ 991م).

- الأمالي، تح والناشر مؤسسة البعثة، (قم، 1996م).

- الخصال، تح: علي أكبر الغفاري، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، (قم، 1982م).

- كمال الدين وتمام النعمة، تح: علي أكبر الغفاري، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، (قم، 1984م).

- علل الشرائع، الناشر المكتبة الحيدرية، (النجف، 1966م).

- من لا يحضره الفقيه، تح: علي أكبر الغفاري، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، ط 2، (قم، د. ت).

* الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، (ت 764هـ/ 1362م).

- الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى، الناشر دار إحياء التراث، (بيروت، 2000م).

* الصنعاني، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (ت 211هـ/ 628م).

- المصنف، تح: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر دار التأصيل،(القاهرة، 2015م).

* ابن الضياء، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي، (ت 854هـ/ 1450م).

- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تح: علاء إبراهيم، وأيمن نصر، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (بيروت، 2004م).

* الضريس، محمد بن أيوب بن يحيى البجلي، (ت 294هـ/ 906م).

- فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، تح: غزوة بدير، الناشر دار الفكر، (دمشق، 1987م).

* أبو طالب، عبد مناف وقيل (عمران) بن عبد المطلب بن عبد مناف بن هاشم، (ت 5 للبعثة/ 619م).

- ديوان أبي طالب، تح: محمد علي قطب، الناشر المكتبة العصرية، (بيروت، 2011م).

* ابن طاووس، علي بن موسى الحلي، (ت 664هـ/ 1265م).

- الأمان من أخطار الأسفار والأزمان، تح والناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة مهر، (قم، 1988م).

- بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية، تح: علي العدناني الغريف، الناشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، (قم، 1991م).

- المجتنى من دعاء المجتبى، تح: صفاء الدين البصري، (د.م، د. ت).

* الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، (ت 360هـ/ 970م).

- المعجم الأوسط ، تح: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم، الناشر دار الحرمين ، (القاهرة، د. ت).

- المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر دار إحياء التراث العربي، ط 2، (د.م، 1983م).

* الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، (ت 548هـ/ 1153م).

- إعلام الورى بأعلام الهدى، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء الترا ث،(قم/ 1996م).

- مجمع البيان في تفسير القرآن، تح: هاشم الرسول، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 2008م).

- مكارم الأخلاق، الناشر منشورات الشريف الرضي، ط 6، (د.م، 1972م).

* الطبرسي، أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، (ت 548هـ/ 1153م).

- الاحتجاج، تح: محمد باقر الخرسان، الناشر دار النعمان، (النجف، 1996م).

* الطبري، محمد بن جرير، (ت 310هـ/ 922م).

- تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل، الناشر دار إحياء التراث العربي، (بيروت، 2008م).

- جامع البيان عن تأويل القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن وعبد السند حسن يمامة، الناشر دار هجر، (د.م، 2001م).

- المنتخبمن ذيل المذيل، الناشر مؤسسة الأعلمي، (بيروت، د. ت).

* الطبري الشيعي، محمد بن جرير بن رستم، (ت ق 4/ ق 10م).

- دلائل الإمامة، تح والناشر: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، (قم، 1992م).

* الطحاوي، أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي، (ت 321هـ/ 933م).

- شرح مشكل الآثار، تح: شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، (د.م، 1994م).

* ابن طلحة، محمد بن طلحة، (ت 652هـ/ 1254م).

- مطالب السؤول في مناقب آل الرسول ﷺ، تح:ماجد ابن أحمد العطية، (د.م، د. ت).

* الطوسي، محمد بن الحسن، (ت 460هـ/ 1067م).

- لأمالي، تح: مؤسسة البعثة، الناشر دار الثقافة، (قم، 1993م).

- الرسائل العشرة أو (رسائل الشيخ الطوسي)، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، (قم، د. ت).

- الغيبة، تح: عباد الله الطهراني، علي أحمد ناصح، الناشر مؤسسة المعارف الإسلامية، مطبعة بهمن، (قم،1990م).

- المبسوط في فقه الإمامية، تح: محمد تقي الكشفي، الناشر المكتبة المرتضوية لإحياء آثار الجعفرية، المطبعة الحيدرية، (طهران، 1967م).

- النهاية في مجرد الفقه والفتاوى، الناشر انتشارات قدس محمدي، (قم، د. ت).

* ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني، (ت 287هـ/ 900م).

- الآحاد والمثاني تح: باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر دار الراية، (الرياض، 1991).

- السنة، تح: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر المكتب الإسلامي، ط 3، (بيروت، 1993م).

* العامري، يحيى بن أبي بكر بن محمد الحرضي (ت 893هـ/ 1487م).

- بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، الناشر دار صادر، (بيروت، د. ت).

* العاملي، يوسف بن حاتم، (ت، 664هـ/ 1265م).

- الدر النظيم، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، (قم، د. ت).

* ابن عباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، (ت 68هـ/ 687م).

- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

* ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي، (ت 463هـ/ 1070م).

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: علي محمد البجاوي، الناشر دار الجيل، (بيروت، 1992م).

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تح: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، الناشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، (المغرب، 1967م).

- جامع بيان العلم وفضله، تح: مسعد عبد الحميد محمد، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2000م).

- الدرر في اختصار المغازي والسير، تح: شوقي ضيف، الناشر دار المعارف، ط 3، (القاهرة، 1982م).

* أبو عُبيد، القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، (ت 224هـ/ 838م).

- الأموال، تح: خليل محمد هراس، الناشر دار الفكر، (بيروت، د. ت).

- فضائل القرآن، تح: مروان العطية وآخرون، الناشر دار ابن كثير، (بيروت، 1995م).

* العجلي، أحمد بن عبد الله بن صالح الكوفي، (ت 261هـ/ 874م).

- تاريخ الثقات، الناشر دار الباز، (د.م، 1984م).

* ابن عساكر، علي بن الحسن، (ت 571هـ/ 1175م).

- تاريخ مدينة دمشق، تح: علي شيري، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1995).

* الإمام العسكري، الحسن بن علي، (ت 260هـ/ 873م).

- تفسير الإمام العسكري عليه السلام، تح: محمد باقر، الناشر مدرسة الإمام المهدي (عج)، مطبعة مهر، (قم، 1988م).

* العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي، (ت 1111هـ/ 1699م).

- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1998م).

* ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن الأندلسي، (ت 542هـ/ 1147م).

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2001م).

* الإمام علي عليه السلام، علي بن أبي طالب بن عبد مناف، (ت 40هـ/ 660م).

- ديوان الإمام علي عليه السلام، نسخة محفوظة في المكتبة الشاملة.

* ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد، (ت 1089هـ، 1678م).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، الناشر دار ابن كثير، (بيروت، 1986م).

* ابن عوانه، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري، (ت 316هـ/ 928م).

- مستخرج أبي عوانة، تح: أيمن بن عارف الدمشقي، الناشر دار المعرفة، (بيروت، 1998م).

* الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، (ت 505هـ/ 1111م).

- إحياء علوم الدين، الناشر دار المعرفة، (بيروت، د. ت).

* الفارابي، إسحاق بن إبراهيم بن الحسين، (ت 350هـ/ 961م).

- معجم ديوان الأدب، تح: أحمد مختار عمر، الناشر دار الشعب، (القاهرة، 2003م).

* ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، (ت 395هـ/ 1004م).

- معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1979م).

* الفاكهي، محمد بن إسحاق بن العباس، (ت 272هـ/ 885م).

- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تح: عبد الملك عبد الله دهيش، الناشر دار خضر، ط2، (بيروت، 1993م).

* أبو الفتح الرازي، حسين بن علي بن محمد الخزاعي، (ت ق 6هـ/ ق 12م).

- روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، تح: محمد جعفر ياحقي، ومحمد مهدي ناصح، (مشهد، 1945م).

* الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، (ت 606هـ/ 1209م).

- مفاتيح الغيب، الناشر دار إحياء التراث العربي، ط 2، (بيروت، 1999م).

* أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، (ت 732هـ/ 1331م).

- المختصر في أخبار البشر، الناشر المطبعة الحسينية المصرية، (د.م، د. ت).

* أبو الفداء، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي، (ت 1162هـ/ 1748م).

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تح: عبد الحميد أحمد، الناشر المكتبة العصرية، (د.م، 2000م).

* الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، (ت 207هـ / 822م).

- معاني القرآن، تح: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، الناشر دار المصرية، (القاهرة، د. ت).

* ابن الفراء، محمد بن الحسين بن محمد، (ت 458هـ/ 1065م).

- أمالي أبي يعلى الفراء، تح: محمد ناصر، الناشر، دار البشائر، (د.م، 2004م).

* الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو، (ت 170هـ/ 786م).

- العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، الناشر دار ومكتبة الهلال، (د.م، د. ت).

* أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، (ت 356هـ/ 966م).

- الأغاني، تح عبد علي مهنا، الناشر دار الفكر، (د.م، 1986م).

- مقاتل الطالبيين، الناشر المكتبة الحيدرية، ط 2، (النجف، 1965م).

* الفسوي، يعقوب بن سفيان، (ت 347هـ/ 958م).

- المعرفة والتاريخ ، تح: خليل المنصور، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

* ابن فهد الحلي، أحمد، (ت 841هـ/ 1437م).

- عدة الداعي ونجاح الساعي، تح: احمد الموحدي القمي، الناشر مكتبة وجداني، (قم، د. ت).

* الفيض الكاشاني، محمد بن محسن، (ت 1091هـ/ 1680م).

- الوافي، تح: ضياء الدين الحسيني، الناشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام العامة، (أصفهان، 1985م).

* الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، (ت 817هـ/ 1414م).

- القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر مؤسسة الرسالة، ط 8، (بيروت، 2005م).

* الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، (ت 770هـ/ 1368م).

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الناشر المكتبة العلمية، (بيروت، د. ت).

* القاري، علي سلطان محمد، الهروي، (ت 1014هـ/ 1605م).

- شرح الشفا، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2000م).

* القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، (ت 544هـ/ 1149م).

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تح: عبده علي كوشك، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1988م).

* القاضي النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، (ت 363ه/ 973م).

- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، تح: محمد الحسيني الجلالي، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي، (قم، 1993م).

- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، الناشر المكتبة العتيقة ودار التراث، (د.م، د. ت).

* ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت 276هـ/ 899م).

- المعارف، تح: ثروت عكاشة، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، القاهرة، 1992م).

* القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرجي (ت 671هـ/ 1272م).

- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تح: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر دار الكتب المصرية، ط 2، (القاهرة، 1964م).

* القرطبي، مكي بن أبي طالب حَمّوش القيرواني (ت 437هـ/ 1045م).

- الإبانة عن معاني القراءات، تح: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الناشر دار نهضة مصر، (القاهرة، د. ت).

- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه، وجمل من فنون علومه، تح: الشاهد البوشيخي، الناشر كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، (الشارقة، 2008م).

* القزويني، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، (ت 623هـ/ 1226م).

- التدوين في أخبار قزوين، تح: عزيز الله العطاردي، الناشر دار الكتب العلمية، (د.م/ 1987م).

* القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، (ت 465هـ/ 1072م).

- لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، تح: إبراهيم البسيوني، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، (القاهرة، د. ت).

* القلقشندي، العباس أحمد بن علي، (ت 821لاهـ/ 1418م)

- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الإبياري، الناشر دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط 2، (بيروت، 1982م).

- نهاية الآرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الإبياري، الناشر دار الكتّاب اللبنانيين، ط 2، (بيروت،1980م).

* القمي، علي بن إبراهيم، (ت 329هـ/ 940م).

- تفسير القمي، تح: السيد طيب الموسوي الجزائري، الناشر مؤسسة دار، ط 3، (قم، 1983م).

* القيرواني، إبراهيم بن علي الحصري، (ت 453هـ/ 1061م).

- زهر الآداب وثمر الألباب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر مكتبة المحتسب، مطبعة دار الجيل، ط 4، (عمان، 1972م).

* ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، (ت 751هـ/ 1350م).

- زاد المعاد في هدي خير العباد، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط 27، (الكويت، 1994م).

* الكاشاني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود، (ت 587هـ/ 1191م).

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الناشر المكتبة الحبيبية، (باكستان، 1989م).

* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (ت 774هـ/ 1372م).

- البداية والنهاية، تح: عبد الله عبد المحسن، الناشر دار هجر، (د.م، 1997م).

- تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، الناشر دار طيبة، ط 2، (د.م، 1999م).

- السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، الناشر دار المعرفة، (بيروت، 1976م).

- الفصول في السيرة، تح: محمد العيد الخطراوي، ومحيي الدين مستو، الناشر مؤسسة علوم القرآن، ط 3، (د.م، 1982م).

* الكحلاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح الصنعاني، (ت 1182هـ/ 1768م).

- التنوير شرح الجامع الصغير، تح: محمَّد إسحاق محمَّد، الناشر مكتبة دار السلام، (الرياض، 2011م).

- سبل السلام، الناشر دار الحديث، (د.م، د. ت).

* الكراجكي، محمد بن علي، (ت 449هـ/ 1105م).

- كنز الفوائد، الناشر: مكتبة المصطفوي، مطبعة غدير، ط 2، (قم، 1369 ش).

* الكلاباذي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق البخاري، (ت 384هـ/ 994م).

- بحر الفوائد (المشهور بمعاني الأخبار)، تح: محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1999م).

* ابن الكلبي، هاشم بن محمد بن أبي النضر ابن السائب، (ت 204هـ/ 819م).

- الأصنام، تح: أحمد زكي باشا، الناشر دار الكتب المصرية، ط 4، (القاهرة، 2000م).

- نسب معد واليمن الكبير، تح: ناجي حسن، الناشر عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، (بيروت، 1988م).

* الكلاعي، سليمان بن موسى بن سالم الحميري، (ت 634هـ/ 1236م).

- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والثلاثة الخلفاء، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1999م).

* الكليني، محمد بن يعقوب، (ت 329هـ/ 843م).

- الكافي، تح: علي أكبر الغفاري، الناشر دار الكتب الإسلامية، ط 5، (طهران، 1363 ش).

* الكناني، عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم، (ت 767هـ/ 1365م).

- المختصر الكبير في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، تح: سامي مكي العاني، الناشر دار البشير، (عمان، 1993م).

* الكوفي، إبراهيم بن محمد الثقفي ، (ت 283هـ/ 896م).

- الغارات، تح: جلال الدين الحسيني الأرموي، بلا دار نشر، (د.م، د. ت).

* الكوفي، محمد بن سليمان، (ت 300هـ/ 912م).

- مناقب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، تح: محمد باقر المحمودي، الناشر مجمع إحياء الثقاف الإسلامية، مطبعة النهضة، (قم،1991م).

* الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، (ت 333هـ/ 944م).

- تأويلات أهل السنة، (تفسير الماتريدي)، تح: مجدي باسلوم، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2005م).

* ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، (ت 273هـ/ 886م).

- سنن ابن ماجة، تح: محمود خليل، الناشر مكتبة أبي المعاطي، (د.م، د. ت).

* ابن ماكولا، علي بن هبة الله بن جعفر، (ت 475هـ/ 1082م).

- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1990م).

* الإمام مالك، مالك بن أنس الأصبحي، (ت 179هـ/ 795م).

- الموطأ، تح: محمد بن علوي، الناشر منشورات المجمع الثقافي، (أبو ظبي، 2004م).

* الماوردي، علي بن محمد بن البغدادي، (ت 450هـ/ 1058م).

- أعلام النبوة، الناشر دار ومكتبة الهلال، (بيروت، 1988م).

- النكت والعيون أو (تفسير الماوردي)، تح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

* المبرد، محمد بن يزيد، (ت 285هـ/ 898م).

- نسب عدنان وقحطان، تح: عبد العزيز الميمنيّ الراجكوتيّ، الناشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (الهند، 1936م).

* المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (ت 975هـ/ 1567م).

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تح: بكري حياني، وصفوة السفا، الناشر مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1989م).

*مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر القرشي المخزومي، (ت 104هـ/ 722م).

- تفسير مجاهد، تح: محمد عبد السلام ، الناشر دار الفكر الإسلامي الحديث، (القاهرة، 1989م).

* المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي، (ت 1111هـ/ 1699م).

- بحار الأنوار، تح: محمد الباقر البهبودي وآخرون، الناشر مؤسسة الوفاء، ط 3، (بيروت، 1983م).

- ملاذ الأخبار في فهم تهذيب الأخبار، تح: مهدي رجائي، الناشر مكتبة المرعشي، (قم، 1985م).

*مجهول، (من أهل ق 2هـ/ ق 7م).

- نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب، الناشر مجمع الآثار والمفاخر الثقافية، (طهران، 1996م).

* أبو المحاسن، محمد بن علي بن الحسن الحسيني الدمشقي، (ت 765هـ/ 1363م).

- الإكمال في ذكر من له رواية في مسند الإمام أحمد من الرجال سوى من ذكر في تهذيب الكمال، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر جامعة الدراسات الإسلاميّة باكستان، (كراتشي، د. ت).

*محب الدين الطبري، أحمد بن عبد الله بن محمد، (ت 694/ 1294م).

- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، الناشر مكتبة القدسي، (القاهرة، 1937 م).

- الرياض النضرة في مناقب العشرة، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (د.م، د. ت).

* المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، (ت 742هـ/ 1341م).

- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد، الناشر مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1980م).

* المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين بن علي، (ت 346هـ/ 957م).

- التنبيه والإشراف، تح: عبد الله إسماعيل، الناشر دار الصاوي، (القاهرة، د. ت).

- مروج الذهب ومعادن الجواهر، تح: يوسف البقاعي، الناشر دار إحياء التراث العربي، ط 2، (بيروت، 2011م).

*مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت 261هـ/ 874م).

- صحيح مسلم، تح: مجموعة من المحققين، الناشر دار الجيل، (بيروت، 1915م).

- الكنى والأسماء، تح: عبد الرحيم محمد، الناشر الجامعة الإسلامية، (المدينة المنورة، 1984م).

*مسكويه، أحمد بن محمد بن يعقوب، (ت 421هـ/ 1030م).

- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: أبو القاسم إمامي، الناشر سروش، ط 2، (طهران، 2000م).

* ابن المغازلي، علي بن محمد بن محمد، (ت 483هـ/ 1090م).

- مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تح: تركي بن عبد الله الوادعي، الناشر دار الآثار، (صنعاء، 2003م).

* المفيد، محمد بن نعمان، (ت 423هـ/ 1022م).

- إيمان أبي طالب، تح: مؤسسة البعثة، الناشر دار المفيد، ط 2، (بيروت، 1993م).

- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تح: مؤسسة آل البيتعليهم السلام لتحقيق التراث، الناشر دار المفيد، ط 2، (بيروت، 1993م).

- الإعلام بما اتفقت عليه الإمامية من الأحكام، تح: محمد الحسون، الناشر دار المفيد، ط 2، (بيروت، 1993م).

- تصحيح اعتقادات الإمامية، تح: حسين درگاهي، الناشر دار المفيد، ط 3، (بيروت، 1993م).

- تفسير القرآن المجيد، تح: السيد محمد علي أيازي، الناشر مؤسسة بوستان، (قم، 2003م).

- الفصول المختارة، تح: السيد نور الدين جعفريان الأصبهاني وآخرون، الناشر دار المفيد، ط 2، (بيروت، 1993).

- الفصول العشرة، تح: فارس الحسون، الناشر دار المفيد، ط 2، (بيروت، 1993م).

- المسائل السرورية ، الناشر دار المفيد، ط 2، (بيروت، 1993).

* المقدسي، مجير الدين بن محمد العليمي، (ت 927هـ/ 1520م).

- فتح الرحمن في تفسير القرآن، تح: نور الدين طالب، الناشر دار النوادر، (د.م، 2009م).

* المقدسي، محمد بن طاهر، (ت 507هـ/ 1113م).

- الحجة على تارك المحجة، تح: عبد العزيز بن محمد، الناشر دار عالم الكتب، (د.م، 2008م).

* المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد، (ت 643هـ/ 1245م).

- الأحاديث المختارة، أو (المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحي هما)، تح: عبد الملك بن عبد الله، الناشر دار خضر، ط 3، (بيروت،2000م).

* المقدسي، المطهر بن طاهر، (ت 355هـ/ 965م).

- البدء والتاريخ، الناشر مكتبة الثقافة الدينيّة، (بور سعيد، د. ت).

* المقدمي، محمد بن أحمد بن محمد، (ت 301هـ/ 913م).

- التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم، تح: محمد بن إبراهيم ، الناشر دار الكتاب والسنة، (د.م ، 1994م).

* ابن المقرئ، محمد بن إبراهيم بن علي، (ت 381هـ / 991م).

- معجم ابن المقرئ، تح: أبي عبد الرحمن عادل بن سعد، الناشر مكتبة الرشد، (الرياض، 1998م).

* المقري، هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي، (ت 410هـ/ 1019م).

- الناسخ والمنسوخ، تح: زهير الشاويش، ومحمد كنعان، الناشر المكتب الإسلامي، (بيروت، 1983م).

* المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت 845هـ/ 1441م).

- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تح: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1999م).

* ابن الملقن، عمر بن علي بن أحمد المصري، (ت 804هـ/ 1401م).

- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تح: مصطفى أبو الغيط، وآخرون، الناشر دار الهجرة، (الرياض، 2004م).

* المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، (ت 1031هـ/ 1621م).

- التوقيف على مهمات التعاريف، الناشر عالم الكتب، (القاهرة،1990م).

- التيسير بشرح الجامع الصغير، الناشر مكتبة الإمام الشافعي، ط 3، (الرياض، 1988م).

- فيض القدير، الناشر المكتبة التجارية الكبرى، (القاهرة، 1937م).

* ابن مندة، عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق الأصبهاني، (ت 470هـ/ 1077م).

- المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة، تح: عامر حسن صبري، الناشر وزارة العدل والشؤون الإسلامية البحرين، (د.م، د. ت).

* ابن منّدَه، محمد بن إسحاق بن محمد العبدي، (ت 395هـ/ 1004م).

- معرفة الصحابة، تح: عامر حسن صبري، الناشر جامعة الإمارات العربية المتحدة، (د.م، 2005م).

* ابن المنذر، محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، (ت 319هـ/ 931م).

- كتاب تفسير القرآن، تح: سعد بن محمد السعد، الناشر دار المآثر، (المدينة النبوية، 2002م).

* ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت 711هـ/ 1258م).

- لسان العرب، الناشر دار صادر، (بيروت، 1984م).

* الميداني، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، (ت 518هـ/ 1124م).

- مجمع الأمثال، تح: محمد محيى الدين، الناشر دار المعرفة، (بيروت، د. ت).

* النجار، محمد بن محمود بن الحسن، (ت 643هـ/ 1245م).

- الدرة الثمينة في أخبار المدينة، تح: حسين محمد علي شكري، الناشر دار الأرقم بن أبي الأرقم ، (د.م، د. ت).

* النحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل (ت 338هـ/ 949م).

- إعراب القرآن، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت/ 2000م).

- الناسخ والمنسوخ، تح: محمد عبد السلام، الناشر مكتبة الفلاح، (الكويت، 1987م).

* النسائي، أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، (ت 303هـ/ 915م).

- السنن الكبرى، تح: حسن عبد المنعم، الناشر مؤسسة الرسالة، (بيروت، 2001م).

- المجتبمن السنن، (السنن الصغرى للنسائي)، تح: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية، ط 2، (حلب، 1986م).

- فضائل القرآن، تح: فاروق حماده، الناشر دار أحياء العلم، ط 2،(بيروت،1992م).

* النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، (ت 710هـ/ 1310م).

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تح: يوسف علي بديو، الناشر دار الكلم الطيب، (بيروت، 1998م).

* النعماني، سراج الدين عمر بن علي بن عادل، (ت 775هـ/ 1373م).

- اللباب في علوم الكتاب، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1998م).

* أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد، (ت 430هـ/ 1038م).

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر دار السعادة، (القاهرة، 1974م).

- دلائل النبوة، تح: محمد رواس وعبد البر عباس، الناشر دار النفائس، ط 2، (بيروت، 1986م).

- معرفة الصحابة، تح: عادل بن يوسف العزازي، الناشر دار الوطن للنشر، (الرياض، 1998م).

* ابن النفيس، علي بن أبي الحزم القرشي، (ت 687 ه/ 1288م).

- الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، تح عبد المنعم محمد عمر، الناشر وزارة الأوقاف المصرية، (القاهرة، 1987م).

* النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، (ت 676هـ/ 1277م).

- تهذيب الأسماء واللغات، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

- المجموع شرح المهذب، الناشر دار الفكر، (د.م، د. ت).

* النيسابوري، محمود بن أبي الحسن بن الحسين، (ت 550هـ/ 1155م).

- إيجاز البيان عن معاني القرآن، تح: حنيف بن حسن القاسمي، الناشر دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1994م).

* ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، (ت 213هـ/ 828م).

- السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وآخرون، الناشر مصطفى البابي الحلبي، ط 2، (القاهرة، 1955م).

* أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، (ت 395هـ/ 1004م).

- جمهرة الأمثال، الناشر دار الفكر، (بيروت، د. ت).

- ديوان المعاني، الناشر دار الجيل، (بيروت ، د. ت).

* الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي، (ت 974هـ/ 1566م).

- أشرف الوسائل إلى فهم الشّمائل (ومعه: جواهر الدّرر فيمناقب ابن حجر)، تح: أحمد بن فريد المزيدي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1998م).

* الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، (ت 807هـ/ 1404م).

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1991م).

- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، تح: محمد عبد الرزاق حمزة، الناشر دار الكتب العلمية، (د.م، د. ت).

* الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب ابن الحائك، (ت 334هـ/ 945م).

- صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، (ليدن، 1884م).

* الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار، (ت 415هـ/ 1024م).

- تثبيت دلائل النبوة، الناشر دار المصطفى، (القاهرة، د. ت).

* الهندي، محمد طاهر بن علي، (ت 986ه/ 1578م).

- مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، الناشر دائرة المعارف العثمانية، ط3، (د.م، 1967م).

* الواحدي، علي بن أحمد بن محمد النيسابوري، (ت 468هـ/ 1075م).

- أسباب نزول القرآن، تح: كمال بسيوني زغلول، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1990م).

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: صفوان عدنان داوودي، الناشر دار القلم، (بيروت، 1994م).

* الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي، (ت 207هـ/ 822م).

- المغازي، تح: مارسدن جونس، الناشر دار الأعلمي، ط 3، (بيروت، 1989).

* ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر، (ت 749هـ/ 1348م).

- تاريخ ابن الوردي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1996م).

* الوزير، عبد الله بن علي بن أحمد، (ت 1147هـ/ 1734م).

- تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي، أو المسمى (تاريخ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى) تح: محمد عبد الرحيم جازم، الناشر دار المسيرة، (بيروت، د. ت).

* وكيع، أبو بكر محمد بن خلف، (ت 306هـ/ 918م).

- أخبار القضاة، تح: عبد العزيز مصطفى مراغي، بلا ناشر، (بيروت، 1947م).

* اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي، (ت 768هـ/ 1366م).

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، الناشر دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة، 1993م).

* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت 626هـ/ 1228م).

- معجم البلدان، الناشر دار صادر، ط 2، (بيروت، 1995م).

* اليعقوبي، أحمد بن اسحاق، (ت 292هـ/ 904م).

- البلدان، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2001م).

- التاريخ، تح: خليل المنصور، الناشر دار الزهراء، (قم، 2008م).

* أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثُنى، الموصلي (ت 307هـ/ 980م).

- مسند أبي يعلى، تح: حسين سليم أسد، الناشر دار المأمون للتراث، (دمشق، 1984).

* ابن أبي يعلى، محمد بن محمد، (ت 526هـ/ 1131م).

- طبقات الحنابلة، تح: محمد حامد الفقي، الناشر دار المعرفة، (بيروت، د. ت).

* ابن يونس، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي، (ت 347هـ/ 958م).

- تاريخ ابن يونس المصري، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت/ 2000م).

ثانياً: المراجع العربية

* الأعرجي، ستار جبر حمود.

- الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والكتب الإسلامية، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2001م)

* أحمد، محمد إبراهيم.

- سوء الخلق، الناشر دار بن خزيمة، ط 2، (بلا.م، بلا. ت).

* أحمد، مهدي رزق الله.

- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الناشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (الرياض، 1992م).

* إبراهيم، عبد الستار.

- العلاج النفسي الحديث، الناشر المجلس الوطني للتعاون، (الكويت، 1990م).

- الإنسان وعلم النفس، الناشر المجلس الوطني للثقافة والفنون، (الكويت، 1978م).

* الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، (ت 1270هـ/ 1853م).

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطية، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1994م).

* الآلوسي، محمود شكري عبد الله الحسيني، (ت 1342هـ/ 1923م).

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تح: محمد بهجت الأثري، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2009م).

* الاسكندري، أحمد أمين علي الجارم.

- المفصل في تاريخ الأدب العربي القديم والوسيط والحديث، الناشر دار إحياء العلوم، (بيروت، د. ت).

* الألمعي، زاهر عوض.

- مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش، بلا ناشر، ط 4، (د.م، 1983م).

* الأمين، محسن العاملي، (ت 1399هـ/ 1978م).

- أعيان الشيعة، ـتح: محسن الأمين، الناشر دار المعارف، (دمشق، 1978م).

* الأميني، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، (ت 1392هـ/ 1972م).

- الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الناشر دار الكتاب العربي، ط 4، (بيروت، 1977م).

* بدوي، عبد الرحمن.

- موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط 3، (بيروت، 1993).

* البروجردي، آقا حسين الطباطبائي، (ت 1383هـ/ 1963م).

- جامع أحاديث الشيعة، الناشر المطبعة العلمية، (قم، 1978م).

* بليهش، وليد.

- السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، الناشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (المدينة المنورة، د. ت).

* البهي، محمد.

- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الناشر مكتبة وهبة، (القاهرة، 1991م).

* البنداق، محمد صالح.

- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، الناشر دار الآفاق الجديدة، (بيروت، 1980).

* البوطي، محمّد سَعيد رَمضان.

- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، الناشر دار الفكر، ط 25، (دمشق، 2005م).

* بيضون، إبراهيم.

- الحجاز والدولة الإسلامية، الناشر المؤسسة الجامعية للدراسات، (بيروت، 1983م).

* بيهم، محمد جميل.

- فلسفة تاريخ محمد، تح حسان حلاق، الناشر الدار الجامعية، (بيروت، د. ت).

* التراباني، جهاد.

- مائة من عظماء الإسلام غيروا مجرى التاريخ، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، (القاهرة، 2010م).

* التميمي، محمد بن خليفة بن علي.

- حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة، الناشر أضواء السلف، (الرياض، 1997م).

* الجبري، عبد المتعالي محمد.

- السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون، الناشر دار الدعوة، (الإسكندرية، 1994م).

- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، الناشر مكتبة وهبة، (القاهرة، د. ت).

* جحا، ميشيل.

- الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، الناشر دار العلم للملايين، (بيروت، 2005).

* الجزائري، مبارك بن محمد الميلي، (ت 1364هـ/ 1944م).

- رسالة الشرك ومظاهره، تح: أبي عبد الرحمن محمود، الناشر دار الراية، (د.م، 2001م).

* جعيط، هشام.

- في السيرة النبوية، الناشر دار الطليعة، (بيروت، 2007م).

* الجميل، محمد فارس.

- النبي (صلى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلّم) ويهود المدينة، الناشر مركز الملك فيصل للبحوث، (الرياض، 2002).

* الحاج، ساسي سالم.

- نقد الخطاب الاستشراقي (الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية)، الناشر دار الكتب الوطنية، (بنغازي، 2000م).

* حجازي، محمود فهمي.

- علم اللغة العربية، الناشر دار غريب، (د.م، د. ت).

* الحربي، عاتق بن غيث بن زوير، (ت 1431هـ/ 2010م).

- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، الناشر دار مكة، (مكة، 1982م).

* الحسيني، سليمان الندوي، (ت 1373هـ/ 1953م).

- الرسالة المحمدية، الناشر دار ابن كثير، (دمشق، 2002م).

* الحصين، أحمد.

- لماذا الهجوم على تعدد الزوجات، الناشر دار الضياء، (الرياض، 1990م).

* الحكيم، حسن عيسى.

- الدراسات الاستشراقية رؤية وإيضاح في المنهج، الناشر دار المعارف، (بيروت،2012م).

* الحكيم، محمد باقر محسن (ت 1425هـ/ 2004م).

- علوم القرآن، الناشر مجمع الفكر الإسلامي، المطبعة مؤسسة الهادي، ط 2، (قم، 1996م).

* الحلاق، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، (ت 1332هـ/ 1913م).

- محاسن التأويل، تح: محمد باسل عيون السود، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 1997م).

* الحلي، حسين.

- دليل العروة الوثقى، الناشرمطبعة النجف، (النجف، 1959م).

* حمدان، نذير.

- الرسول في كتابات المستشرقين، الناشر دار المنار، ط 2، (جدة، 1986م).

* الحميدي، عبد العزيز عبد الله.

- التاريخ الإسلامي مواقف وعبر السيرة النبوية، الناشر دار الدعوة، (الإسكندرية،1997م).

* حوراني، البرت.

- الإسلام في الفكر الأوروبي، الأهلية للنشر والتوزيع، (بيروت، 1994م).

* خالد، حسن، (ت 1409هـ/ 1988م).

- مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، الناشر دار النهضة العربية، (بيروت، 1986م).

* الخزاعي، ماجد حيال.

- خديجة أم المؤمنين، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2010م).

* الخضري، محمد بن عفيفي الباجوري، (ت 1345هـ/ 1926م).

- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الناشر دار الفيحاء، ط 2، (دمشق، 2004م).

* خطاب، محمود شيت، (ت 1419هـ/ 1998م).

- الرسول القائد، الناشر دار الفكر، ط 6، (بيروت، 2001م).

* الخطاط، محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، (ت 1400هـ/ 1979م).

- تاريخ القرآن الكريم، الناشر مصطفى محمد يغمور، مطبعة الفتح، (جدة، 1946م).

* الخلوتي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، (ت 1127هـ/ 1715م).

- روح البيان، الناشر دار الفكر، (بيروت، د. ت).

* خلف الله، سلمان.

- الحوار وبناء شخصية الطفل، الناشر مكتبة العبيكان، (د.م، 1998م).

* أبو خليل، شوقي.

- الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، الناشر دار الفكر، (دمشق، 1998م).

* خليل، عماد الدين.

- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المستشرقون والسيرة النبوية، الناشر المنظمة العربية للتربية والثقافة، (تونس، 1985م).

* الإمام الخميني، روح الله الموسوي، (ت 1410هـ/ 1989م).

- تحرير الوسيلة، الناشر دار الكتب العلمية، ط 2، (النجف، 1970م).

* الخوئي، حبيب الله الهاشمي، (ت 1324هـ/ 1906).

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تح: سيد إبراهيم الميانجي، الناشر بنياد فرهنگ امام المهدي (عج)، ط 4، (طهران، د.م).

* دراز، محمد بن عبد الله، (ت 1377هـ/ 1957م).

- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، تح: أحمد مصطفى فضلية، الناشر دار القلم، ط 2، (الكويت، 2005م).

* دروزة، محمد عزة.

- سيرة الرسول ﷺ صورة مقتبسة من القرآن، الناشر المكتبة المصرية، (بيروت، د. ت).

- عصر النبي وبيئة قبل البعثة، الناشر دار اليقظة العربية، (بيروت، 1964).

* الدوسري، عبد الرحمن بن محمد، (ت 1399هـ/ 1978م).

- الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، الناشر مكتبة دار الأرقم، (الكويت، 1982م).

* الديب، عبد العظيم.

- المنهج عند المستشرقين، (د.م، د. ت).

* الرحيم، أحمد حسن.

- محاضرات في علم النفس، مطبعة الآداب، (النجف، 1964م).

* الرصافي، معروف عبد الغني.

- الشخصية المحمدية أو (اللغز المقدس)،منشورات الجمل، (ألمانيا، 2002م).

* الريشهري،محمد.

-موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، تح: محمد كاظم الطباطبائي، ومحمود الطباطبائي، الناشر دار الحديث، ط 2، (د.م، 2004م).

* الزّبيدي، ماجد ناصر.

- 500 سؤال حول النبي ﷺ، الناشر دار المحجة البيضاء، ط 2، (بيروت، 2013م).

* الزّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، (ت 1205هـ/ 1790م).

- تاج العروس تاج العروس من جواهر القاموس، الناشر دار الفكر، (بيروت، 1993م).

* الزحلي، محمد مصطفي.

- الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، الناشر دار الخير، ط 2، (دمشق، 2006م).

* الزحلي، وهبة بنمصطفى.

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الناشر دار الفكر المعاصر، ط 2، (دمشق، 1997م) .

* الزرقاني، محمد عبد العظيم، (ت 1367هـ/ 1947م).

- مناهل العرفان في علوم القرآن، الناشر مطبعة عيسى البابي، ط 3 (د.م، د. ت).

* زقزوق، محمود حمدي.

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الناشر دار المعارف، (القاهرة، د. ت).

* الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد، (ت 1396هـ/ 1976م)

- الأعلام، الناشر دار العلم للملايين، ط 15، (بيروت، 2002م).

* زكريا، هاشم زكريا.

- المستشرقون والإسلام، الناشر محمد توفيق عويضة، (د.م، 1965م).

* زناتي، أنور محمود.

- زيارة جديدة للاستشراق مع دراسة للرؤية الاستشراقية المنصفة للرسول محمد ﷺ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 2006م).

* الزنجاني، أبو عبد الله.

- تاريخ القرآن، الناشر منظمة الإعلام الإسلامي، مطبعة سهر، (طهران، 1983م).

* أبو زهرة، محمد بن أحمد، (ت 1394هـ/ 1974م).

- خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، الناشر دار الفكر العربي، (القاهرة، 2004م).

* زواوي، أحمد عبد الفتاح.

- شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الناشر دار القمة، (الإسكندرية، د. ت).

* الزيات، أحمد حسني.

- تاريخ الأدب العربي، الناشر دار النهضة العربية، ط 5، (القاهرة، د. ت).

* الزيادي، محمد فتح الله.

- الاستشراق أهدافه ووسائله دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، الناشر دار قتيبة، (د.م، 1998م).

- ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، الناشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، (طرابلس، 1983م).

* أبو زيد، أحمد.

- السيرة النبوية دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار البديل في لايدن، الناشر دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، (بيروت، 2004م).

* زيدان، عبد الكريم.

- أصول الدعوة، الناشر مؤسسة الرسالة، ط 9، (د.م ، 2001م).

* السامرائي، خليل، وعبد الواحد ذنون طه، وناطق صالح مصلوب.

- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الناشر دار الكتاب الجديد المتحدة، (بيروت، 2000م).

* السامرائي، قاسم.

- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الناشر دار الرفاعي، (د.م، 1983م).

* الساموك، سعدون حمود.

- مناهج المستشرقين، الناشر جامعة بغداد، (بغداد، 1980م).

* السايح، أحمد عبد الرحيم.

- الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الناشر الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، 1996م).

* السباعي، مصطفى حسني، (ت 1385هـ/ 1965م).

- الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، الناشر دار الوراق، (د.م، د. ت).

* السقا، محمد الغزالي، (ت 1416هـ/ 1995م).

- فقه السيرة، الناشر دار القلم، (دمشق، 2006م).

* سعيد، ادورد.

- تعقيبات على الاستشراق، ترجمة: صبحي حديدي، الناشر المؤسسة العربية، (بيروت، 1996م).

* السلمي، محمد صامل، وآخرون.

- صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر (صلى الله عليه وسلم)، الناشر مكتبة روائع الفكر، (جدة، 2010م).

* السندي، عبد القيوم عبد الغفور.

- صفحات في علوم القراءات، الناشر المكتبة الإمدادية، (د.م، 1994م).

* الشابندر، غالب حسن.

- ليس من سيرة الرسول الكريم ﷺ، الناشر دار العلوم، (بيروت، 2006م).

* شامة،محمد.

- الإسلام في الفكر الأوروبي، الناشر دار التراث العربي، (القاهرة، د. ت).

* بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن.

- نساء النبي، الناشر دار الكتاب العربي، (بيروت، 1979م).

* شامة، محمد.

- الإسلام في الفكر الأوروبي، الناشر دار التراث العربي، (د.م، د. ت).

* الشاهد، السيدمحمد.

- التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام، الناشر المؤسسة الجامعية، (بيروت، 1994م).

* الشاهرودي، علي النمازي، (ت 1405هـ/ 1984م).

- مستدرك سفينة البحار، تح: حسن بن علي النمازي، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، (قم، 1997م).

* شاهين، عبد الصبور.

- تاريخ القرآن، الناشر دار القلم، (د.م، 1966).

* الشبلنجي، مؤمن بن حسن مؤمن، (ت 1307هـ/ 1890م).

- نور الأبصار فيمناقب آل بيت النبي المختار ﷺ، الناشر مركز تحقيقات علوم إسلامي، (د.م، د. ت).

* شراب،محمد بنمحمد حسن.

- المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، الناشر دار القلم، (دمشق، 1990م).

* الشرهاني، حسين علي.

- أضواء على السيرة النبوية (حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع السيدة خديجة عليها السلام)، الناشر دار تموز، (دمشق، 2013م).

- حياة السيدة خديجة بنت خويلد من المهد للحد، الناشر دار هلال، (بيروت، 2005م).

* الشريف، أحمد إبراهيم.

- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم، الناشر دار الفكر العربي، (د.م، د. ت).

* شلبي، أحمد.

- مقارنة الأديان، الناشر مكتبة النهضة المصرية، ط 12، (القاهرة، 1997م).

* أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم، (ت 1403هـ/ 1982م).

- السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، الناشر دار القلم، ط 8، (دمشق، 2006م).

* الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ت 1255هـ/ 1839م).

- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقمن علم الأصول، الناشر مطبع مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة، 1937م).

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الناشر دار الفكر، (بيروت، د. ت).

* الشيباني، محمد شريف.

- الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، بلا ناشر، (د.م، د. ت).

* شيخون، محمود السيد.

- العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، الناشر الجامعة الإسلامية، ط 10، (د.م ، 1977م).

* الشيرازي، ناصر مكارم.

- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، بلا ناشر، (د.م، د. ت).

* الصالح، صبحي.

- مباحث في علوم القرآن، الناشر دار العلم للملايين، ط 24، (د.م، 2000م).

* الصالح، محمد أحمد.

- الطفل في الشريعة الإسلامية، الناشر مطابع الفرزدق، (د.م، د، ت).

* صلال، عبد الرزاق رحيم.

- العبادات في الأديان السماوية، الناشر الأوائل، (دمشق، 2001م).

* الصوياني،محمد بن حمد.

- السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، الناشر مكتبة العبيكان، (د.م، 2004م).

* الطائي، نجاح.

- أزواج النبي وبناته، الناشر دار الهداية، (بيروت، 2002م).

* الطباطبائي، محمد حسين، (ت 1402 ه/ 1981م).

- الميزان في تفسير القرآن، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي ، (قم، د. ت).

* الطهطاوي، رفاعة رافع بن بدوي، (ت 1290هـ/ 1873م).

- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجار، الناشر دار الذخائر، (القاهرة، 1998م).

* الطناحي، محمدمحمود.

- مدخل الى تاريخ نشر التراث العربي، الناشر مكتبة الخانجي، (بيروت، 1982م).

* الظالمي، رشيد باني.

- موسى وبني إسرائيل، الناشر مؤسسة المعارف، (بيروت، 2006م).

* ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي، (ت 1393هـ/ 1973م).

- التحرير والتنوير، (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الناشر الدار التونسية، (تونس، 1984م).

* العاملي، جعفر مرتضى.

- بنات النبي ﷺ أم ربائبه، الناشر المركز الإسلامي للدراسات، ط 2، (بيروت، 2002م).

- الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام، الناشر ولاء المنتظر (عج)، (د.م، 1968م).

- الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، الناشر دار الحديث، (د.م، 2005م).

* العاني، عبد القادر بن ملاّ حويش السيد محمود، (ت 1398هـ/ 1977م).

- بيان المعاني، الناشر مطبعة الترقي، (دمشق، 1965م)

* عبد الباقي، فؤاد.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الناشر دار الكتاب المصرية، (القاهرة، 1944م).

* عبد الحميد، أحمد مختار وآخرون، (ت 1424هـ/ 2003م).

- معجم اللغة العربية المعاصرة، الناشر عالم الكتب، (د.م ، 2008م).

* عبد الحميد، محسن.

- أزمة المثقفين تجاه الإسلام، الناشر دار الصحوة، (د.م، 1984م).

* عبد العزيز، أمير.

- افتراءات على الإسلام والمسلمين، الناشر دار السلام، (القاهرة، 2002م).

* عبد الغني، عبد الرحمن.

- زوجات محمد وحكمة تعددهن، بلا ناشر، (عمان، 1981م).

* عبد الفتاح، فاطمة.

- إضاءات على الاستشراق الروسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (بيروت، 2000م).

* عبدالكريم، خليل.

- فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، الناشر دار مصر المحروسة، (القاهرة،2004م).

* عبد المحسن، عبد الراضي محمد.

- المعتقدات الدينية لدى الغرب، الناشر مركز الملك فيصل، (الرياض، 2000م).

* عبد الواحد، صالح طه.

- سبل السلام من صحيح سيرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، الناشر مكتبة الغرباء الدار الأثرية، ط 2، (د.م، 2007م).

* عبـد الوهـاب، أحمد.

- الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام، الناشر مكتبة وهبة، (القاهرة،1979م).

* عبيد، محمد رشدي.

- النبوة في ضوء العلم والعقل، الناشر مكتبة تموز، (بغداد، 1986م).

* عتر، حسن ضياء الدين.

- وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين، الناشر دار المكتبي، (دمشق، 1999م).

* عزت، أحمد عزت راجح.

- أصول علم النفس، الناشر دار الكتب العربية، ط 7، (القاهرة، 1968م).

* عريبي، محمد ياسين.

- الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، المجلس القومي للثقافة العربية، (الرياض، 1991م).

* عصفور، محمد.

- صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر، الناشر مكتبة عالم الفكر، (بيروت، 1987م).

* العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، (ت 1421هـ/ 2000م).

- أصول في التفسير، الناشر المكتبة الإسلامية، (د.م، 2001م).

* العفاني، أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله.

- وا محمداه إن شانئك هو الأبتر، الناشر دار العفاني، (القاهرة، 2006م).

* العقيقي، نجيب.

- المستشرقون، الناشر دار المعارف، ط3، (القاهرة، 1964م).

* العلي، إبراهيم بن محمد بن حسين، (ت 1425هـ/ 2004م).

- صحيح السيرة النبوية، تح: عمر سليمان الأشقر، الناشر دار النفائس، (عمان، 1995م).

* علي، جواد، (1408هـ/ 1987م).

- المفصل في تاريخ العرب، الناشر دار الساقي، ط 4، (د.م، 2001م).

* العلي، صالح أحمد.

- محاضرات في تاريخ العرب، الناشر دار الكتب، (الموصل، 1981م).

* عللوه، محمد.

- الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين، الناشر دار الأقصى، (دمشق، 2002م).

* عليان، محمد عبد الفتاح.

- أضواء على الاستشراق، الناشر دار البحوث العلمية، (الكويت، 1980م).

* العليمي، أحمد محمد.

- مرويات غزوة بدر، الناشر مكتبة طيبة، (د.م، 1980م).

* العمري، ضياء أكرم.

- السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، الناشر مكتبة العلوم والحكم، ط 6، (المدينة المنورة، 1994م).

* عنان، محمد عبد الله، (ت 1406هـ/ 1958م).

- دولة الإسلام في الأندلس، الناشر مكتبة الخانجي، ط 4، (القاهرة، 1997م).

* الغروي، محمد هادي.

- عصر النبي، الناشر دار الولاء، (بيروت، 2011م).

* غريب، أحمد.

- رؤية إسلامية للاستشراق، الناشر المنتدى الإسلامي، (لندن، د. ت).

* الغزالي، محمد، (ت 1416هـ/ 1995م).

- فقه السيرة، الناشر دار القلم، (دمشق، 2006م).

* غلوش، أحمد.

- السيرة النبوية والدعوة بالعهد المدني، الناشر مؤسسة الرسالة، (د.م، 2004م).

* غنيم، أحمد.

- فلسفة الصيام بالديانة اليهودية والنصرانية والإسلامية، مطبعة حسان الطاهر، (د.م، 1985م).

* فروخ، عمر ومصطفي خالدي.

- التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الناشر المكتبة العصرية، ط 5، (بيروت، 1973م).

* الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله.

- شرح مسائل الجاهلية، الناشر دار العاصمة، (الرياض، 2005م).

* فوزي، فاروق عمر.

- الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الناشر الأهلية، (عمان، 1998م).

* فريد بك، محمد بن أحمد (ت 1338هـ/ 1919م).

- تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، الناشر دار النفائس، (بيروت، 1980م).

* الفيومي، محمد إبراهيم، (ت 1427هـ/ 2006م).

- تاريخ الفكر الديني الجاهلي، الناشر دار الفكر العربي، ط 4، (د.م، 1994م).

* القاسم، خالد.

- مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية، الناشر دار المصميحي، (بيروت، 2010م).

* قاشا، سهل.

- الاستشراق الانكليز، الناشر سلسلة كتب الثقافة المقارنة، (بغداد، 1987م).

* القحطاني، سعيد بن على بن وهف.

- مناسك الحج والعمرة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة، الناشر مركز الدعوة والإرشاد، ط 2، (د.م، 2010م).

* قطب، محمد.

- المستشرقون والإسلام، الناشر مكتبة وهبة، (القاهرة، 1999م).

* قلعجي، محمد رواس، وحامد صادق قنيبي.

- معجم لغة الفقهاء، الناشر دار النفائس، ط 2، (د.م، 1988م).

* القمي، عباس، (ت 1359هـ/ 1940م).

- الكنى والألقاب، الناشر مكتبة الصدر، (طهران، د. ت).

* الكاملي، ناصر الدين.

- الصوم في القديم والحديث، مطبعة الكونكورد، (د.م، د. ت).

* كرمي، أحمد عجاج.

- الإدارة في عصر الرسولﷺ، الناشر دار السلام، (القاهرة، 2006م).

* الكعبي، محمد بن رزق بن عبد الناصر.

- التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، الناشر دار ابن الجوزي، (الرياض، 2005م).

* الكوراني، علي العاملي.

- آيات الغدير، الناشر دار السيرة، مطبعة ستاره، ط 2، (قم، 2001م).

- السيرة النبوية برواية أهل البيت، الناشر دار المرتضى، (بيروت، د. ت).

* اللبان، إبراهيم عبد المجيد.

- المستشرقون والإسلام، مطبعة الأزهري، (القاهرة، 1970م).

* الجليند، محمد السيد.

- الاستشراق والتبشير، الناشر دار الوراق، (د.م، د. ت).

* أبو ليلى، فرج محمود.

- الزواج وبناء الأسرة، الناشر دار القطري بن الفجاءة، (الدوحة، 1995م).

* أبو ليلة، محمد محمد.

- القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي دراسة نقدية تحليلية، الناشر دار النشر للجامعات، (القاهرة، 2002م).

*ماضي، محمد.

- الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، الناشر دار الدعوة، (الاسكندرية، 1996م).

* المالكي، محمد بن علوي.

- البشرى في مناقب خديجة الكبرى، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2009م).

* المباركفوري، صفي الرحمن، (ت 1427هـ/ 2006م).

- الرحيق المختوم، الناشر دار الهلال، (بيروت، د. ت).

* المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، (ت 1353هـ/ 1934م).

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت).

* مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين.

- الموسوعة القرآنية المتخصصة، الناشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر، (القاهرة، 2002م).

* مجموعة من علماء اللاهوت.

- قاموس الكتاب المقدس أنا الألف والياء، الناشر دار المشرق، (بيروت، 1989م).

* محفوظ، محمد، (ت 1408هـ/ 1987م).

- تراجم المؤلفين التونسيين، الناشر دار الغرب الإسلامي، ط 2، (بيروت، 1994م).

*محمد، أحمد محمد.

- الجانب السياسي في حياة الرسول، الناشر دار القلم، (الكويت، 1981م).

*محمد، محمود جمعة.

- النظام الاجتماعي والسياسي عند قدماء العرب والأمم السامية، بلا ناشر، (القاهرة، 1949م).

* المدخلي، إبراهيم بنمحمد.

- مرويات غزوة الخندق، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (الرياض، 2003م).

* مراد، يحيى.

- افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2004م).

* مرتضى العاملي، جعفر.

- الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ، الناشر دار الحديث، (د.م، 2005م).

*مرتضى، ملك علام.

- تعدد زوجات الرسول ﷺ، الناشر مجلة الجامعة الإسلامية، (المدينة المنورة، د. ت).

* المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد.

- افتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد، الناشر مكتبة وهبة، (القاهرة، 1992م).

* الملاح، هاشم يحيى.

- الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، الناشر دار الكتب العلمية، (بيروت، 2008م).

- الوسيط في السيرة والخلافة الراشدة، الناشر دار الكتب العلمية، ط 3، (بيروت،2013م).

*مصطفى، إبراهيم، وأخرون.

- المعجم الوسيط، الناشر دار الدعوة، (القاهرة، د. ت).

*معدى، حسين حسيني.

- الرسولﷺ في عيون غربية منصفة، الناشر دار الكتاب العربى، (دمشق، 1998م).

* المنجد، صلاح الدين.

- المستشرقون الألمان، الناشر دار الكتاب الجديد، (بيروت، 1987م).

* المنصور فوري، محمد سليمان، (ت 1348هـ/ 1929م).

- رحمة للعالمين، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، الناشر دار السلام، (الرياض، د. ت).

* الموسوي، عبد الحسين شرف الدين، (ت 1377هـ/ 1957م).

- أبو هريرة، الناشرمؤسسة أنصاريان، مطبعة بهمن، (قم، د. ت).

* الموسوي، فاخر.

- التجلي الأعظم في الصلاة على آل النبي الأكرم، الناشر فاخر الموسوي، (قم،2000م).

* الموسوي، هاشم.

- القرآن في مدرسة أهل البيت، الناشر مركز الغدير، (د.م، 2000م).

* الميداني، عبد الرحمن حسن.

- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، الناشر دار القلم، ط 8، (دمشق، 2000م).

* ناجي، عبد الجبار ناجي الياسري.

- الاستشراق في التاريخ، الناشر المركز الأكاديمي للأبحاث، (بيروت، 2013م).

- تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، الناشر دار الجاحظ، (بغداد، 1981م).

- نقد الرواية التاريخية عصر الرسالة أنموذجاً، منشورات الجمل، (بيروت، 2011م).

* النبهان، محمد فاروق.

- المدخل إلى علوم القرآن الكريم، الناشر دار عالم القرآن، (حلب، 2005م).

* النبهاني، يوسف بن إسماعيل بن يوسف، (ت 1350هـ/ 1931م).

- وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ، الناشر دار المنهاج، ط 2، (جدة، 2004م).

* النجدي، عبد الله بنمحمد بن عبد الوهاب التميمي، (ت 1206هـ/ 1791م).

- مختصر سيرة الرسول ﷺ، لناشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، (الرياض، 1997م).

* الندوي، علي أبو الحسن بن عبد الحي، (ت 1420هـ/ 1999م).

- الصراع بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، الناشر دار الندوة، ط2، (بيروت، د. ت).

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الناشر مكتبة الإيمان، (المنصورة، د. ت).

* الندوي، مسعود.

- محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه، الناشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (الرياض، 1984م).

* النقدي، جعفر، (ت 1370هـ/ 1950م).

- الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية (في أحوال أمير المؤمنين وفضائله ومناقبه وغزواته عليه السلام)، الناشرمكتبة الحيدرية، ط 2، (نجف، 1962م).

* هيكل، محمد حسين هيكل، (ت 1376هـ/ 1956م).

- حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الناشر مطبعة مصر، (القاهرة، د. ت).

* وجدي، محمد فريد.

- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، الناشر دار المصرية اللبنانية، (القاهرة، 1993م).

ثالثاً: المراجع الأجنبية المترجمة

* أكسفورد.

- قاموس أكسفورد الحديث، ترجمة نجاح الشمعة ومحمد محمود، مكتبة السيدة المعصومة، (قم، 2005م).

* س. رابورت.

- مبادئ الفلسفة، ترجمة أحمد أمين، الناشر مكتبة النهضة، ط7، (بيروت، 1965م).

* أ.ج، آربري.

- المستشرقون البريطانيون، ترجمة محمد الدسوقي، (لندن، 1936م).

* ألن، بامب.

- نظريات الشخصية الإرتقاء النمو التنوع، ترجمة: علاء الدين كفافي وآخرون، الناشر دار الفكر، (عمان، 2010م) .

* بروكلمان، كارل.

- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين، ومنير بعلبكي، الناشر دار العلم للملايين، (بيروت، 1968م).

* بودلي، رونالد فكتور.

- الرسول: حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرح، وعبد الحميد جودة السحار، الناشر مكتبة مصر، (د.م، د. ت).

* جاك س. رسلر.

- الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة أحمد فؤاد، منشورات عويدان، (بيروت، 1993م).

* حتي، فيليب.

- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، الناشر دار الثقافة، (بيروت، 1983).

- دائرة المعارف الإسلامية الأولى، ترجمة محمد ثابت أفندي وآخرون، الناشر الأبشهي، (د.م، 1933م).

* دينيه، الفونسو اتيين (لقب ناصر الدين بعد إسلامه) .

- محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود، الناشر دار المعارف، ط 3، (القاهرة، 1986م).

* دوزي، رينهارت بيتر آن.

- تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سالم النعيمي، الناشر وزارة الثقافة العراقية، (بغداد، 2000م).

* ديورانت، ول. ويريل.

- قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، مراجعة عبي أدهم، الناشر دار الجيل، (بيروت، د. ت).

* سوذرن، ريتشارد.

- صور الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة رضوان السيد، الناشر دار المدار، (بيروت،2006م).

* سيديو، لويس أيميلي.

- تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، الناشر دار عيسى الحلبي، (بيروت، 1969م).

* فروم، إريك.

- الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، الناشر مكتبة غريب، (بيروت، 2003م).

* فرويد، سيغ موند.

- الموجز في التحليل النفسي، ترجمة سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، الناشر الهيئة المصرية، (القاهرة، 1936م).

* فوك، يوهان.

- تاريخ حركة الاستشراق، ترجمة عمر لطفي العالم، الناشر دار المدار الإسلامي، ط 2، (بيروت، 2000م).

* كارليل، توماس

- الأبطال، ترجمة محمد السباعي، الناشر المطبعة المصرية، ط 2، (القاهرة، 1930م). *كاستري، هنري دي.

- الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة أحمد فتحي زغلول، الناشر مكتبة النافذة، (الجيزة، 2008م).

* كبريلي، فرانشيسكو.

- محمد والفتوحات الإسلامية، ترجمة عبد الجبار ناجي الياسري، الناشر دار المحبة البيضاء، (د.م، 2011م).

* لويس، برنارد.

- تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية، ط 2، (بيروت. د. ت).

* ليو، تولستوي.

- الحرب والسلم، الناشر مكتبة الهلال، (د.م، 2016م).

* مكسيم، رودنسون.

- العالم الإسلامي في أوروبا، الناشر مطبعة الطليعة، (القاهرة، 1970م).

- صورة الغرب والدراسات الغربية الإسلامية في التراث الاسلامي، ترجمة محمد زهير السمهري، الناشر سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، 1987م).

* ولز،هـ. ج،

- معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 4، (د.م، 1994م).

* وات، وليم مونتجمري.

- الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1998م).

- محمد فيمكة، ترجمة عبد الرحمن حسين عيسى، مراجعة أحمد شلبي، الناشر الهيئة العامة المصرية للكتاب، (القاهرة، 2002م).

- محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات، الناشر المكتبة العصرية، (بيروت، د. ت).

- محمد النبي ورجل الدولة، ترجمة حمود حمود، الناشر دار التكوين، (بيروت،2014م).

* يونغ، كارل غوستاف.

- دور اللاشعور ومعنى علم النفس، ترجمة نهار خياطة، الناشر مؤسسة الجامعات للدراسات، (بيروت، 1992م).

رابعاً: المصادر الأجنبيّة

Godfrey، Higgins.An apology for the life and character of the celebrated prophet of*
.Arabia، called Mohamed،London،1829

.Davenport،John،An Apology For Mohammed And The Koran،London،1869*

the heriald the scotmeny october 2006 The timez27

The Cambridge history of Islam. The Central Islamic lands from pre – Islamic times*
. to the first world war. Muhammad. Cambridge University Press،1970

tome 2، articl le dictinnaire d Antoine fureliere paris 1987

Irving،Pierre M *

.(The life and letters of washington Irving،vol،1،(New york،putnan،1862-

رابعاً: الرسائل والأطاريح

* الجبوري، إبراهيم محمد.

- التحالفات بين القبائل العربية في شمال ووسط الجزيرة العربية قبل الإسلام وعصر الرسالة، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، 1990م.

* الحمداني، جمعة ثجيل.

- السيرة النبوية في مرويات الأمام الصادق عليه السلام، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2015.

* خليل، عادل إسماعيل.

- التنشئة الاجتماعية في الإسلام، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2009م.

* الدبيسي، محمد مصطفي.

- السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، (القاهرة، 2010م).

* الدهيش، نزار ناجي محمد.

- زواج النبي ﷺ دراسة تاريخيّة، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2014م.

* الزهو، سامي أحمد.

- الاستشراق الأميركي والسيرة النبويّة، ارفنج، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة تكريت، كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2004م.

* السوداني، صلاح عباس حسن.

- الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد، 2002م.

* الطراونة، يوسف سليمان.

- الزواج والطلاق في صدر الإسلام، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، 2004م.

* العبلان، زيد أحمد.

- الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

* العواد، انتصار عدنان عبد الواحد.

- السيدة فاطمة الزهراء u، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2007م.

* الغزالي، مشتاق بشير حمود.

- دراسات المستشرقين عن القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد، 2004م.

* المحمداوي، علي صالح رسن.

- أبو طالب بن عبد المطلب دراسة في سيرته الشخصية وموقفه من الدعوة الإسلامية، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 2004م.

*مرعي، هدى عبد الكريم.

- الأدلة على صدق النبوة المحمدية، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، .

* النعيم، عبد الله محمد.

- الاستشراق في السيرة النبوية، رسالة ماجستير، الناشر المعهد العالي للفكر الإسلامي، جامعة فيرجينيا، (الولايات المتحدة الأمريكية، 1997) ، جامعة الخرطوم، كلية الآداب.

خامساً:الدوريات

* ب.م هولت.

- مجلة الاستشراق الدراسات العربية في انكلترا، ترجمة: يؤيل يوسف عزيز، العدد 2، 1987م.

* زكار، سهيل.

- الإمام الزهري المستشار التاريخي للبلاط الأموي، مجلة المنهاج، العدد السابع، السنة الثانية، (1418هـ/ 1997م).

* الشاهد، محمد.

- الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، مجلة الاجتهاد، عدد 22، 1994م.

* فروخ، عمر.

- مجلة الاستشراق، العدد 1، بغداد، 1997م.

* قميحة، محمد.

- آثار التبشير والاستعمار على الشباب المسلم، مجلة دعوة الحق رابطة العالم الإسلامي، العدد 116، السنة العاشرة، (مكة المكرمة، 1991م).

* مطبقاني، مازن بن صلاح.

- الاستشراق، بحث منشور كلية الدعوة المدينة المنورة جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

* ناجي، عبد الجبار الياسري.

- الاستشراق والسيرة النبوية، مجلة دراسات إسلامية، عدد1، بغداد، 2000م.

* النصر الله، جواد كاظم، وشهيد كريم الكعبي.

- نشأة النبي في ديار بني سعد،

- وثيقة المدينة في رؤى الاستشراق – مونتغومري وات نموذجاً – بحث منشور في جامعة الكوفة، (بيروت، 2014م).

* الهاشمي، سلمى عبد الحميد.

- وفادة أبناء البصرة إلى بلاط الخلافة في القرن الأول والثاني للهجرة، مجلة ديالى - كلية التربية – العدد 12، 2002م.

سادساً: شبكة الأنترنت

.http://ar. wikpedia. org/ wikl

هذا الكتاب

الروعة والجمال أن نخوض الخوض في معترك الدراسات الاستشراقية، لا سيما تلك التي تناولت سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله بالدراسة والنقد والتحليل، لما فيها من فوائد جمّة، فهي توقف القارئ اللبيب على أساليب المستشرقين في تناول القضايا الإسلامية الحساسة وبالذات سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله في كل محطاتها، وترسم لنا كيفيّة اعتمادهم على مناهجَ علميّةٍ منقوصةٍ، وهي بذلك تكشف عن أساليب ووسائل علميّةٍ مقصودةٍ كان الغرضُ منها تزييف مسار الحقيقة العلمية التاريخية وتزويرها وحجبها عن شعوب المنطقة وشعوبهم. ذلك المنهج الذي انبنى بشكلٍ أساسيٍّ على دراسة الشرق في طريقة ونمط تفكيره ومعيشته ودياناته المختلفة خاصة الديانة الإسلاميّة. وجسدت الدراسة تطرف كثيرٍ من الغربيين في اعتماد المنهج المادي والبيئي في تفسير حوادث التاريخ بعيداً عن تأثير السماء، والذي يكون ربما ردّة فعلٍ لهيمنة وسطوة الكنيسة على المجتمع الأوروبي واحتكارها تفسير النص الديني والتاريخي.

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

http://www.iicss.iq
info@iicss.iq
islamic.css.lb@gmail.com

تطبيق المركز